الألف كتاب (الثانى)

التوافق النفسى

تحليل المعاملات الإنسانية

تأليف : د. توماس ا. هاريس

ترجمة : إبراهيم سلامة إبراهيم

الألف كتاب الثانى

١٠٥

التوافق النفسى

تحليل المعاملات الإنسانية

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعي المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

محمود عبده

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

مراد نسيم

التوافق النفسى

تحليل المعاملات الإنسانية

تأليف : د. توماس ا. هاريس
ترجمة : إبراهيم سلامة إبراهيم

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٢

كلمة المترجم

طالما انشغلت وانشغل غيرى ، بالنظـر فى غـرابة مصطلحات علم النفس دون غيره من العلوم الحديثة ، وتباعده عن احتلال موقعه الطبيعى كعنصر ضرورى من عناصر الثقافة العامة للناس ، رغم الحاجة اليه ـ ليس فقط لعلاج المشاكل النفسية للفرد ، تلك التى تؤثر فى علاقته بالمجموع ، بل أيضا كمرشد يحول دون تفاقم هذه المشاكل الى الدرجة التى تستدعى العلاج المتخصص الذى قد يطول سنوات .

وعنـــدما صادفت هذا الكتاب اكتشفت فيـــه ضالتى التى كنت أنشدها .. انه يقدم للناس فكرة مبسطة عن علم النفس فى أهم مجالاته ألا وهو مجال التحليل النفسى ، مع الاقلال من المصطلحات الصعبة أو على الأقل محاولة تبسيطها .. وتدور الفكرة العامة للكتاب حول أصول وفوائد استخدام ابتكار جديد فى مجال التحليل النفسى ألا وهو تحليل المعاملات كأسلوب لعلاج العديد من المواقف المنحرفة فى السلوك البشرى ، ولذلك فهو يعرض فى استفاضة لموضوع تحليل المعاملات بصورة تجعله جديرا بالانضمام الى فروع الثقافة العامة .

وفى رأيى الشخصى أن هذا الكتاب استكمال لكتابين آخرين وضعهما أستاذ تحليل المعاملات الدكتور اريك برن Eric Berne وهما :

١ ـ تحليل المعاملات فى العلاج بالتحليل النفسى .
1. Transactional Analysis in Psychotherapy

٢ ـ العاب يلعبها الناس .
2. Games People play.

وقد صدر الكتابان فى نيويورك ـ أولهما سنة ١٩٦١ ويدور حول هذا الفرع الجديد للتحليل النفسى من خلال العلاج الجماعى لمجموعة من المرضى أو الدارسين وملاحظة سلوكهم وردود أفعالهم حيال المواقف المختلفة التى ابتكرها المؤلف وجعل منها برنامجا للعلاج •

وصدر الكتاب الثانى سنة ١٩٦٤ ويدور حول استخدام تصنيفات من الألعاب التى صممت بعناية لكى تلعبها مجموعات المرضى أو الدارسين كممارسة عملية للسلوك البشرى المتحرر والتلقائى ازاء المواقف المختلفة تحت اشراف طبيب نفسى متمرس يقوم بالملاحظة والتصحيح •

وقد اعتمد الدكتور توماس هاريس فى وضع مؤلفه الذى بين أيدينا على هذين الكتابين بصفة أساسية وانتقل منهما الى التوسع فى عرض وتطبيق مبادىء تحليل المعاملات بالنسبة للجوانب المختلفة من حياة الفرد اعتمادا على العناصر الأساسية التالية :

١ ـ اتباع أسلوب توضيحى يعتمد على بناء النماذج لتسهيل ادراك المفاهيم التى يصعب ادراكها بالتجريد المطلق ، مع اعتماد هذه النماذج على رموز معينة لفظية أو رياضية لتوضيح ما يدور داخل عملية السلوك التى اصطلح على تسميتها : معاملة Transaction

٢ ـ اعتمد على النموذج الذى قدمه الدكتور اريك برن وأسماه : نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) ومنه نعرف أن الشخصية تنقسم الى ثلاثة عناصر تسيطر على السلوك الفردى الذى ينطلق من العنصر الأقوى سواء كان هو الوالد أو الراشد أو الطفل • وتوصل الى ضرورة الفصل بين العناصر الثلاثة •

٣ ـ تخيل أن فى كل فرد حاسبا آليا ، تصنف فيه المعلومات الواردة تحت ثلاثة ملفات هى : « الوالد » ، و « الراشد » ، و « الطفل » وفى الوقت المناسب تخرج المخرجات حسب الشريط المسجل عليه المعلومات فى المخ ، منطلقة للتعبير عن العنصر الأقوى من العناصر الثلاثة الداخلة فى بناء الشخصية ـ وانتهى الى أنه كلما كان « الراشد » هو الأقوى والمسيطر ، كلما كانت المعاملات طبيعية وبناءة •

٤ ـ جعل للحياة أربعة مواقف تسيطر على الشخصية بالتدريج منذ الولادة النفسية للانسان لتنتهى به الى التوافق النفسى من خلال موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) وهو الموقف الطبيعى للشخص الطبيعى • على أنه اذا ظل الشخص يعيش تحت تأثير أى من المواقف

الثلاثة الأخرى فانه يحتاج الى العلاج النفسى لتصحيح ما يكون قد ألم به من انحراف ٠

٥ ـ استخدام تحليل المعاملات كأسلوب حديث للعلاج النفسى مع الاعتماد على الألعاب ، والعلاج الجماعى من خلال تحليل المعاملات ، وتدريس نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) لمجموعات المرضى أو الدارسين كبدايه لفهم الانحرافات ، ووصولا الى السلوك الطبيعى للانسان الطبيعى ٠

والكتاب بوجه عام يساعد القارىء على أن يتعلم كيف يتحكم فى نفسه ، وفى علاقاته ، وفي مستقبله ـ بصرف النظر عما يكون قد ترسب فى عقله الباطن من مفاهيم خاطئة أو أساليب سلوكية غير سوية أو قصور في التربية وهى كلها رغم اندراجها فى قائمة أحداث الماضى ، الا أن الماضى رغم تشكيله للعديد من أساليب سلوك الناس ، الا أنه لايرقى الى أهمية الحاضر ، الذى ينبنى عليه المستقبل ٠٠ كل المستقبل ٠

وقد أضفنا من عندنا تعليقات وتفسيرات ميزناها بعلامة (★) فى بدايتها ، أو كلمة (المترجم) فى نهايتها وذلك للتفرقة بينها وبين العبارات الاصلية للمؤلف ٠

ونرجو أن يساعد هذا الكتاب كل قارىء على أن يعيش الحاضر كانطلاقة نحو المستقبل ، متحررا من قيود الماضى بعد أن يتفهم دوافعه ، وبذلك يبدأ حياة جديدة متحررة من الخوف والقلق والمجهول ، وأن يبتسم للحياة ، وينظر اليها نظرة التفاؤل والقبول ٠

المترجم

ابراهيم سلامة ابراهيم

(دبلوم الدراسات العليا فى الاعلام)

تعـــريف

المـؤلف :

الدكتور توماس أ · هاريس Thomas A. Harris طبيب نفسى متمرس بمدينة ساكرامنتو بولاية كاليفورنيا الأمريكية · ولد فى تكساس وحصل على درجة البكالوريوس فى العلوم سنة ١٩٣٨ من كليـة الطب بجامعة اركانساس ، ثم حصل على اجازة الطب سنة ١٩٤٠ من كلية الطب بجامعة تمبل · وفى سنة ١٩٤٢ بدأ التدريب على الطب النفسى بمستشفى سانت اليزابيث بواشنطون · ثم خدم بعدها فى البحرية كطبيب نفسى · وفى سنة ١٩٤٧ عين رئيسا لفرع الطب النفسى بمكتب الطب والجراحة بادارة البحرية · وبعد اعتزاله الخدمة فى البحرية برتبة « كوماندور » ، قام بالتدريس فى كلية الطب بجامعة أركانساس · ثم أصبح مديرا لادارة المعاهد بولاية واشنطون · وفى سنة ١٩٦٥ دخل ميدان العمل الخاص فى ساكرامنتو · وهو مؤسس ورئيس معهد « تحليل المعاملات » هنـاك ، ومدير اتحاد تحليل المعاملات الدولى ·

المترجم : ابراهيم سلامة ابراهيم :

ولد فى روض الفرج بمحافظة القاهرة فى ٢٥ نوفمبر سـنة ١٩٣٨ تخرج من كلية الآداب بجامعة القاهرة فى مايو ١٩٦١ ثم حصل على دبلوم الدراسات العليا فى الصحافة والنشر من كلية الاعلام بجامعة القاهرة فى يونية ١٩٨٣ ·

ويعمل حاليا مدير ادارة بالادارة العامة لمعلومات الطيران بالهيئـة العامة للطيران المدنى بميناء القاهرة الدولى · له مؤلفات فى مجال بحوث الطـيران المدنى ، كمـا سـاهم بقلمه فى العديد من المقالات والدراسات التى نشرت له بمجلة روزاليوسف وجريدة الجمهورية وجريدة الأخبـار ومن أعماله : المسيحية بين الاعلام والدعاية ــ والطيران المدنى والسـلام العـالمى ·

قام بترجمة كتب عـديدة منهـا كتاب : محـاكمة يسـوع المسـيح لفرانك باول وكتاب الحياة بعد الموت للدكتور ر · أ · مودى ·

تنـــويه

تجدر بنا الاشارة الى أنه يجب قراءة هذا الكتاب من البـــداية الى النهاية ٠ أما اذا قرئت الفصول الأخيرة قبل الفصـــول الأولى ، تلك التى تحدد أسلوب ومفردات تحليل المعاملات ، فان القارىء لن يفتقـــد المعنى الكامل للفصول الأخيرة فقط ، بل أنه سيتوصل أيضــــا الى استنتاجات مضـــللة ٠

ان الفصلين الثانى والثالث ضروريان لفهـــم كل ما يرد بعدهما ٠ أما بالنسبة للقراء الذين تتملكهم رغبة لاتقاوم فى القراءة من النهاية الى البداية ، فاننى أود أن أشير الى خمس كلمات لها معان محددة تختلف عن معانيها المعتادة ، وهى كلمات : والد ، راشد ، طفل ، على مايرام (*) ، ألعـــــاب ٠٠

المؤلف

توماس ا ٠ هاريس

(★) يلاحظ أننا فى سياق الكتاب سنقتصر على استخدام والد وراشد وطفل باعتبارها مسميات لأجزاء من شخصية الانسان ، لا باعتبارها مسميات تعبر عن علاقات اسرية أو مراحل عمرية لأن هذه سوف نعبر عنها باستخدام الأب أو الأم أو الأبوين أو الآباء أو الكبار والصغار الخ ٠٠ حسبما يقتضى السياق (المترجم) ٠

مقدمة

لوحظ في السنوات الأخيرة أن الناس بدأوا يضجون بالطب النفسي ، نظرا لطول أمد العلاج ، وتكلفته المرتفعة ، ونتائجه التي تقبل الأخذ والرد ، ومصطلحاته المبهمة التي لا يفهمها غير المتخصصين ، ان الطب النفسي يظهر للعديد من الناس مثل رجل ضرير يبحث في غرفة مظلمة عن قطة سوداء ليس لها وجود . وتقول المجلات واتحادات الصحة العقلية ، ان العلاج النفسي شيء طيب ، ولكن لم تتضح بعد ماهيته أو ما يحققه .

وبالرغم من أن عامة الناس يستهلكون مئات الآلاف من الكلمات عن الطب النفسي كل عام ، فلا يوجد سوى القليل من المعلومات المقنعة ، التي تساعد الشخص المحتاج للعلاج في التغلب على الصورة الهزلية للأطباء النفسيين وآرائهم الغامضة .

وقد جرى التعبير عن هذا الموقف المتبرم في صورة القلق المتزايد ليس فقط من جانب المرضى وعامة الناس بل أيضا من جانب الأطباء النفسيين أنفسهم . وأنا واحد من هؤلاء الأطباء النفسيين . ويعتبر هذا الكتاب نتاجا للبحث عن اجابات تقدم للناس الذين يبحثون عن الحقائق المجردة ، ردا على استفساراتهم عن الكيفية التي يعمل بها العقل ، لماذا نعمل ما نعمله ؟ وكيف نستطيع التوقف عن عمل ما نعمل اذا رغبنا في ذلك ؟ ان الاجابة تكمن فيما أشعر بأنه واحد من أكثر الاكتشافات الواعدة في الطب النفسي لعدة سنوات .

ذلك هو ما نطلق عليه اسم : تحليل المعاملات
Transactional Analysis

لقد أعطى هذا الاكتشاف راحة للناس الذين ثبطت عزائمهم بسبب الغموض الذى يكتنف العديد من الأنماط التقليدية للعلاج النفسى. كما أعطى اجابة جديدة للنـاس الذين يريدون أن يتغيروا ، أكثر من أن يتأقلموا ، وللناس الذين يريدون الاصلاح أكثر من التعود . وفى الواقع فان ذلك يواجه المريض بحقيقة أنه مسئول عما سيحدث فى المستقبل بصرف النظر عما حدث فى الماضى . والأكثر من ذلك أنه يتيح للأفراد امكانية التغيير ، واقامة تحكم ذاتى ، وتوجيه ذاتى ، واكتشاف حقيقة حرية الاختيــار . اننا ندين بالفضل الرفيع للدكتور اريك برن Dr. Eric Berne ، من أجل تطوير هذا الاسلوب لأنه وهو بصدد تطوير مفهوم تحليل المعاملات ، ابتكر نظاما موحدا للطب النفسى الفردى والجماعى تميز بالشمول على المستوى النظرى ، والفاعلية على المستوى التطبيقى .

وقد حظيت بامتياز الدراسة مع برن خلال السنوات العشر الماضية ، والمشاركة فى الحلقة الدراسية المتقدمة التى يديرها فى سان فرانسيسكو.

لقد تعرفت لأول مرة على طريقة برن الجديدة للعلاج ، من خــلال ورقة قدمها الى الاجتماع الاقليمى الغربى للمجموعة الأمريكية لاتحاد العلاج النفسى الذى عقد فى لوس أنجلس خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٥٧ ، وكان عنوانها : « تحليل المعاملات : أسلوب جديد وفعال للعلاج الجماعى » . واقتنعت بأنها لم تكن « مجرد ورقة أخرى » ولكنها كانت فى حقيقة الأمر رسما تفصيليا للعقل ، لم يقم به أحد من قبل ، مع مجموعة من المفردات الدقيقة التى يستطيع أى فرد أن يفهمها لتحديد أجزاء التصميم التفصيلى. لقد أتاحت هذه المجموعة من المفردات امكانية الحديث بين شخصين ، عن السلوك ومعرفة ما يعنيه .

وتتجلى احدى الصعوبات التى ترتبط بالعديد من ألفاظ التحليل النفسى فى أنها لاتحمل نفس المعنى بالنسبة لكل شخص . ان كلمة الأنا EGO تعنى للوهلة الأولى أشـياء عديدة بالنســبة لأناس كثيرين ، وفرويد – على وجه التقريب – مثله مثل كل محلل نفسى جاء بعده – لديه تعريف مفصل ، ولكن هذه البناءات اللغوية الطويلة المعقدة التركيب ، لا تساعد على وجه الخصوص – مريضــا يحاول أن يفهم لماذا لايستطيع الاستمرار فى أى عمل ، خاصة اذا تمثلت احدى مشاكله فى عدم استطاعته القراءة بكفاءة تساعده على أتباع تعليمات العمل ، ولا يوجد حتى مجـرد اتفاق بين الباحثين النظريين حول معنى كلمة « الأنا » . ان المعانى الغامضة والأفكار المعقدة قد أعاقت عمليــة العلاج أكثر مما ساعدتها . لقد لاحظ هيرمان ميلفيل أن العالم الحق لايستعمل سوى القليــــل من الالفـــاظ

الصعبة ، وذلك عندما لاتستطيع الألفاظ الأخرى أن توفى بالغرض ، بينما يظن صاحب المعرفة السطحية ، أنه يفهم الأشياء الصعبة ، بترديد الألفاظ الصعبة · ان مفردات تحليل المعاملات هى الأداة الدقيقة للعلاج لأن أى لغة يستطيع الفرد أن يفهمها ، تحدد الأشياء كما هى فى الحقيقة ، حقيقة التجارب التى حدثت بالفعل فى حياة الناس الذين عاشوها بالفعل ·

وكذلك فان الطريقة التى كانت مناسبة لعلاج الناس فى مجموعات ، تشير الى امكانية سد الفجوة المتسعة بين الحاجة الى العلاج وبين الأشخاص المدربين الموجودين لأداء العمل · وخلال السنوات الخمس والعشرين الماضية أوجدت شعبية الطب النفسى التى أخذت تظهر بكثافة ملحوظة فى السنوات التى تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة ـ توقعات أوسع مما تستطيع امكانيتنا أن توفى بمطالبها · وقد زاد من هذه التوقعات سنويا ، ذلك الفيض المتلاحق من الأدب النفسى ، سواء كان مطبوعا فى مجلات الطب النفسى أو مجلة المختار (Reader's Digest) ، ولكن يبدو أن الهوة بين ذلك ، وبين العلاج ، آخذة فى الاتساع · وكان السؤال يدور دائما حول كيفية اخراج فرويد من الأريكة للالتقاء بالجماهير ·

لقد عبر مايك جورمان Mike Gorman المدير التنفيذى للمجلس القومى لمقاومة المرض العقلى ـ عن التحدى الذى يواجه الطب النفسى للوفاء بهذه الحاجة ، وذلك فى كلمته الى الاجتماع السنوى لاتحاد الطب النفسى الأمريكى بنيويورك خلال شهر مايو سنة ١٩٦٥ حيث قال :

« ما دمتم قد انطلقتم من صومعة صغيرة كانت تضم ثلاثة آلاف طبيب نفسى سنة ١٩٤٥ الى منظمة متخصصة أكبر ، ضمت أربعة عشر ألف عضو سنة ١٩٦٥ ، فأنتم مضطرون الى المشاركة فى القضايا الكبرى لعصرنا الحاضر مشاركة متزايدة · انكم لن تستطيعوا فيما بعد أن تختبئوا خلف متاعب مكتبكم المخصوص المجهز بأريكة جيدة الحشو ، وصورة فرويد عند زيارته لمدينة روشستر بولاية ماساشوستس سنة ١٩٠٩ · انني أطالب بأن يطور الطب النفسى لغة عامة ، مصفاة من الغرابة الفنية ، ومناسبة لمناقشة المشاكل العامة فى مجتمعنا · انني أعرف أن هذا عمل شديد الصعوبة ، لأنه يعنى استبعاد مصطلحات المهنة المريحة والآمنة والحصينة ، والتأقلم على حوار المجالس القضائية الأشد حرارة · وبالرغم من صعوبة هذا العمل ، الا أنه من الضرورى اتمامه اذا أردنا للطب النفسى أن يكون مسموع الصوت فى قاعات الحقوق المدنية فى أمتنا » ·

لقد أثلجت صدرى الكتابات الأخيرة لعدد من أطباء النفس الشبان ، تلك التى تكشف عن نفور صحى من مسألة قضاء الحياة المهنية بكاملها فى علاج عشرة الى عشرين مريضا كل عام .

أما الطبيب النفسى الدكتور ملفين سابشين Melvin Sabshin فقد كان له تعليق مثالى حيث قال :

« هناك سؤال بسيط يتعلق بما اذا كان فى قدرة الطب النفسى انجاز هذه المهام أو الأدوار الجديدة بتوظيف مهاراته التقليدية ومناهجه البحثية النموذجية ، وممارساته الحالية — أم لا ؟ ان جوابى الشخصى على هذا السؤال هو : النفى — لأننى أعتقد أن هذه العناصر لاتقدم أساسا كافيا لأداء المهام والتشكيلات الجديدة » .

انه من الضرورى للطب النفسى أن يواجه حقيقة أنه لايستطيع أن يبدأ فى الوفاء بمطالب المساعدة النفسية والاجتماعية للفقراء والمتخلفين بمدارسنا ، والمصابين بالاحباط بين العاملين ذوى الياقات الزرقاء ، والسكان المصابين بالخوف من الأماكن المغلقة فى مدننا المزدحمة ، وهكذا دواليك — بلا نهاية .

ان العديد من قادة الفكر يعطون اهتماما متزايدا للدور الجديد الذى يتحتم أن يلعبه الطب النفسى خلال عشرات السنين القادمة ، ليس فقط فى توسيع قاعدة تدريب العاملين فى حقله ، ولكن فى الارتباط بالنظم السلوكية الأخرى على قدم المساواة فى انشاء برامج التدريب للآلاف المؤلفة من العاملين فى حقل الصحة العقلية الذين سنحتاج اليهم اذا ما قررنا تحقيق الأهداف التى طالب بها الرئيس كيندى فى رسالته التاريخية عن الصحة العقلية سنة ١٩٦٣ (١) .

ان برامج التدريب للآلاف من العاملين فى حقل الصحة العقلية باللغة العادية ، المجردة من الغرابة الفنية ، والمناسبة لمناقشة المشاكل العامة فى مجتمعنا ، أصبحت ممكنة اليوم عن طريق تحليل المعاملات . لقد تم تدريب أكثر من ألف أخصائى بهذا الأسلوب فى ولاية كاليفورنيا ، وهذا التدريب آخذ فى الانتشار السريع الى أجزاء أخرى من الولايات المتحدة والى البلدان الأجنبية ، علما بأن نسبة تقترب من نصف هؤلاء

---

(١) M. Gorman, "Psychiatry and Public Policy". The American Journal of Psychiatry, vol. 122 No 1 (July 1965).

الاخصائيين من الأطباء النفسيين ، بينما يشمل النصف الآخر أطباء من تخصصات أخرى (توليد ـ أطفال ـ باطني ـ ممارس عام) ، وعلماء النفس والعاملين في الحقل الاجتماعي ، ورجال البوليس الذين يلاحظون المجرمين تحت المراقبة ، والممرضات ، والمدرسين ، ومديرى الأفراد ، ورجال الدين ، والقضاة ·

ان تحليل المعاملات يستخدم الآن للعلاج الجماعي فى العديد من المستشفيات والسجون ومؤسسات رعاية الشباب فى ولاية كاليفورنيا · انه يستخدم على يد الأعداد المتزايدة من الأطباء فى استشارات الزواج ، وعلاج المراهقين ، والاستشارات الكنسية ، ورعاية الأسر أثناء وجود الأم فى حالة وضع ، وفى واحدة على الأقل من مؤسسات رعاية المتخلفين عقليا ، وهى مؤسسة لوريل هيلز Laurel Hills فى ساكرامنتو ·

وهناك سبب أساسى يجيب عن السؤال القائل : لماذا يقدم تحليل المعاملات مثل هذا الوعد بسد الفجوة بين الحاجة الى العلاج والوفاء به ، وهو أن تحليل المعاملات يقدم أقصى ما فى وسعه للجماعات · انه أداة تدريس وأداة تحصيل أكثر من أن يكون اعترافا ، واستكشافا أثريا للسراديب الطبيعية · ونتيجة لممارستى الخصوصية للطب النفسى أقول أن ذلك قد أتاح العلاج لعدد من المرضى يصل الى أربعة أضعاف ما كان يحدث من قبل · ومن خلال عملى كطبيب نفسى ـ لعلاج المرضى وادارة برامج المؤسسات الضخمة ـ على مدى السنوات الخمس والعشرين الماضية ، فاننى لم أتأثر بشىء يعادل مقدار ما يحدث اليوم من خلال ممارستى · ومن أبرز معانى مساهمة تحليل المعاملات أنه أتاح للمرضى أداة يستطيعون استخدامها · والغرض من هذا الكتاب هو التعريف بهذه الأداة ، التى يستطيع أى فرد استخدامها وليس من الضرورى أن يكون الناس مرضى حتى يستفيدوا منها ·

انها لتجربة عميقة المغزى أن ترى الناس وقد بدأوا يتغيرون ابتداء من الساعة الأولى للعلاج ، فيشعرون بالتحسن ، والنمو ، والتخلص من طغيان الماضى · اننا نؤسس أملنا الأكبر على التأكيد بأن ما حدث يمكن أن يحدث ثانية ، واذا كان من الممكن أن تكون العلاقة بين شخصين بناءة ومجزية ، فستكون الخطوة التالية هى امكانية أن يؤدى ذلك الى علاقتين أو ثلاثة أو مائة ، أو أننا نقتنع بأن العلاقات سوف تؤثر فى كل الجماعات الاجتماعية حتى الأمم · ان مشكلات العالم ـ وهى مشكلات فردية مسجلة يوميا كعناوين للعنف واليأس ـ ليست بالضرورة مشكلات فردية · واذا

استطاع الأفراد أن يتغيروا ، فان مسار العالم يمكن أن يتغير — وهذا أمل يستحق التأييد ·

وأود أن أشكر عددا من الناس لمساندتهم ومساهمتهم فى الجهد المبذول فى كتابة هذا الكتاب (١) · وأخيرا فاننى أعبر عن تقديرى لمرضاى الذين أتاح لى تفكيرهم الخلاق والمتحرر — التوصل الى الكثير من مضمون هذا الكتاب · لقد كتبته بناء على طلبهم ·

ت · ا · هـ ·
معهد تحليل المعاملات
ساكرامنتو — كاليفورنيا
يونيو ١٩٦٨

---

(١) أورد المؤلف هنا قائمة بأسماء أطباء وعلماء واشخاص مع وظائفهم ونوعية الخدمات التى قدموها له ، وقد رأينا أن نحذفها لعدم جدواها بالنسبة للقارىء العادى وأيضا لما هو واضح فيها من طابع الخصوصية التى لا تهم سوى المؤلف ، وحتى لا يتضخم حجم هذه المقدمة بدون داع — (المترجم) ·

الفصـل الأول

فرويد وبنفيلد وبرن

(انني أتناقض مع نفسي ، فأنا كبير ، وأنطوى على الكثير)
والت هويتمان

كان هناك انطبـاع واحد ثابت عن الطبيعة الانسانيـــة على مدى التاريخ وهو أنها تشتمل على عناصر عديدة ، وجرى التعبير عنها غالبـا كطبيعة مزدوجة ، وهو ما يلمسه المرء في الأساطير ، والفلسفة ، والدين وكلها عبرت عنه في شكل صراع بين الخير والشر ، الطبيعة الأدنى والطبيعة الأرقى ، الانسان الداخلي والانسان الخارجي •

قال سومرست موم : « **هناك أوقات •• أستعرض فيها العناصر المختلفة لشخصيتي في حيرة ، فأتبين انني قد سويت من أشخاص عديدين ، وأن شخصي الحالي الذي له اليد العليا سيتخلى حتما لشخص آخر ، ولكن أي الأشخاص هو الحقيقي ؟ جميعهم أو لا أحد منهم ؟** » •

يستطيع الانسان أن يطمح الى الخير ويحصله ، وهذا أمر واضح على مدى التاريخ كله ، مهما كان فهمه لذلك الخير ، لقـد رأى موسى النبي الخير في أعلى درجـاته ممثلا في العدالة ، أما أفلاطون فقد تمثـل له في الحكمة ، أما السيد المسيح فقد ركزه في المحبة • ولكنهم اتفقوا جميعا على أن الفضيلة ، مهما كان مفهومها ، ظلت مزعزعة الكيان بسبب شيء في

الطبيعة الانسانية كان فى حرب مع شيء آخــر ، ولكن ــ ما همــا هذان الشيئان ؟

عندما ظهر سيجموند فرويد على المسرح فى أوائل القرن العشرين ، أخضع هذا اللغز لفحص جديد ، هو نظام البحث العلمى • وتمثلت مساهمة فرويد الأساسية فى نظريتــه القائلة بأن الفئات المتحاربة موجــودة فى اللاشعور• وأعطيت مسميات تجريبية للمتحاربين ، واعتبرت الأنا EGO هو القوة المقيدة والمسيطرة على الهو ED (الدوافع الغريزية) • وأن الأنا هو الحكم الذى يراقب « مراعاة المصلحة الشخصية من منطلق المنفعة العامة ، بطريقة مستنيرة » •

اننا ندين لفرويد كثيرا بسبب جهوده المضنية الرائدة لاقامة الأساس النظرى الذى نبنى اليوم فوقه • وعلى مدى السنين فان الدارسين والممارسين قد أفاضوا ، ونظموا ، وأضافوا الى أفكاره ، الا أن « الأشخاص الذين فى الداخل » ظلوا مراوغين • ويبدو أن مئات المجلدات المكدســـة مـــع تعليقات مفكرى التحليل النفسى ، لم تقدم بعد أجوبة شــافية للأشخاص الذين كتبت عنهم •

وقفت فى صالة العرض بعد عرض فيلم «من يخاف فرجينيا وولف ؟» وأصغيت الى عدد من التعليقات التى ألقاها الأشخاص الذين شاهدوا الفيلم مثل : « اننى مرهق ! » أو « لقد حضرت الى السينما للخلاص من البيت » أو « لماذا يعرضــون مثل هذا الشيء ؟ » أو « لم أفهم الفيلم ، اننى أخمن أنك طبيب نفسى » • وأحسست بأن العديد من هؤلاء النــاس قد تركوا السينما وهم يتعجبون لما كان يحدث ، وأنا متأكد أنه كانت هناك رسالة ، ولكننى لا أستطيع أن أجد شيئا يخصهم أو ينفث عنهم فيما يتعلق بالأسلوب الذى ينهون به « اللهو والألعاب » فى حياتهم •

اننا متأثرون فى أداء أعمالنا ببعض التعبيرات مثل تعريف فرويد للتحليل النفسى بأنه « مفهوم ديناميكى يحصر الحياة العقليــة فى حدود تفاعل قوى الدوافع والضوابط المتبادلة » • ومثل هذا التعريف وتفسيراته العديدة قد يكون مفيدا للمتخصصين ، ولكن كيف تكون مثل هذه التعبيرات مفيدة للناس المصابين ؟ لقد استخدم جورج ومرثا فى مسرحية ادوارد ألبى ــ ألفاظا محددة هى : أحمر ، قانى ، شجاع ــ وهى كلمات تتكون كل منها من أربعة حروف فقط ، تتسم بالايجاز ومؤدية للغرض • والسؤال هو :

هل نستطيع كأطباء أن نتحدث مع جورج ومرثا بنفس الايجاز والوضوح عن « لماذا يمثلان وكيف يتوجعان ـ بالطريقة التى أديا بها دوريهما ؟ » •

هل يمكن لما نقوله أن يكون ليس فقط صادقا بل أيضا معاونا ، لأننا واضحون ؟

« اتكلم عربى لأن أنا موش فاهم بتقول ايه ؟ » (*)

هذه العبارة لا تعبر عن موقف من الأشخاص الذين يدعون أنهم أخصائيون فى مجالات علم النفس • ان ترديد أفكار التحليل النفسى الغامضة باستخدام مصطلحات أكثر غموضا ــ لن يصل الى الناس حيث يعيشون • والنتيجة هى أن انطباعات عامة الناس يجرى التعبير عنها باستخدام الحشو المثير للشفقة ، والأحاديث السطحية مع تعليقات موجزة مثل : « حسنا ، أليست هذه هى الطريقة دائما ؟ » بدون معرفة كيف يمكن أن تكون الطريقة مختلفة •

وبمعنى آخر ، ان تخلف أساليب الكتابة المتخصصة عن طرق توصيل المعلومات ، الذى يزيد فى توسيع الهوة بين المتخصصين وغير المتخصصين ، انما يعتبر واحدا من العوامل التى تسبب التباعد بينهما فى عصرنا الحالى• ان الفضاء يفهمه رواده ، وفهم السلوك الانسانى يدخل فى اختصاص علماء النفس والأطباء النفسيين ، وكذلك فان التشريع يدخل فى اختصاص أعضاء المجلس النيابى • وهذه أمور فرضتها طبيعة التقدم العلمى ، ولكن مشاكل عدم الفهم وقصور الاتصال كثيرة جدا مما يحتم ابتكار الوسائل الكفيلة بأن تجعل اللغة لاتتخلف عن مواكبة تطور البحث العلمى •

وقد أمكن التوصل الى حل لهذه المعضلة فى مجال الرياضيات عند تطويرها الى « الرياضة الحديثة » التى تدرس الآن فى المدارس بطول البلاد وعرضها • وليست الرياضة الحديثة شكلا جديدا للحساب ، بقدر ما هى توصيل للأفكار الرياضية • وهى لا تجيب عن أسئلة « ماذا ؟ » فحسب ، ولكن أيضا «لماذا ؟» وعلى ذلك فان الاثارة فى الرحلة الى القمر أو استخدام الحاسب الآلى لن يظل أى منهما محصورا فى نطاق العلماء وانما سيصل الى الطالب بطريقة مفهومة •

ان علم الرياضيات ليس جديدا ، ولكن الجديد هو الطريقة التى نتحدث بها عنه • وسنجد أننا متخلفون لو ظللنا نستخدم أنظمة الحساب

(*) فى النص الأصلى : « تحدث بالانجليزية لأننى لا أفهم ما تقول » ــ المترجم •

التي استخدمها البابليون أو شعب المايا أو المصريون القدماء أو الرومان • ان الرغبة في استخدام الرياضيات بأسلوب خلاق أوجدت أساليب جديدة لتنظيم مفاهيم الاحصاء • ولا شك أن الرياضة الحديثة اليوم قد أتمت هذا النمو الخلاق بحيث أصبحنا نعرف ونقدر التفكير الخلاق الذى قدمته الأنظمة الأقدم ولكننا لانزحم عمل اليوم بتلك الأساليب التى أصبحت الآن محدودة الفعالية •

وهذا هو موقفى فيما يختص بتحليل المعاملات • اننى أقدر الجهد المخلص الذى بذله علماء التحليل النفسى النظريون فى الماضى • أما ما أود أن أقدمه فى هذا الكتاب فهو أسلوب جديد لعرض الأفكار القديمة ، وأسلوب واضح لعرض الأفكار الجديدة ، ليس بالهجوم العدائى أو المعارض لانجاز الماضى ، ولكن مجرد تأكيد للدليل الساطع الذى يشير الى أن الأساليب القديمة لا تؤدى الغرض المطلوب منها بكفاءة •

حدث مرة أن كان فلاح عجوز يقود آلة صدئة لتسوية الأرض المحروثة على طريق زراعى ، فاقترب منه شاب جاد من أعضاء جماعة الخدمة العامة بالجامعة ، كان يتنقل بين المزارع لبيع دليل جديد عن وقاية التربة وأساليب الزراعة الجديدة • وبعد حديث مهذب سريع ، سأل الشاب الفلاح عما اذا كان يريد شراء هذا الكتاب الجديد ، فأجابه الفلاح العجوز قائلا :

« يابنى ، اننى لا أزرع زرعا جيدا يتناسب مع ما أعرفه حاليا عن الزراعة » •

ان الغرض من كتابى هذا ليس فقط عرض معطيات جديدة بل أيضا الاجابة عن سؤال : لماذا لايطبق الناس ما لديهم من معارف نافعة على حياتهم ؟ ربما يعرفون أن الأخصائيين لديهم الكثير مما يقال عن السلوك البشرى ، ولكن هذه المعرفة لايبدو أن لها أقل تأثير على تقاليدهم البالية ، وزواجهم الهش ، أو صغارهم الغريبى الأطوار • قد يتجهون الى أبواب رسائل القراء لطلب المساعدة ، أو يجدون أنفسهم فى شخصية أحد أبطال الرسوم الهزلية (*) ولكن هل يوجد شىء يتصف بالعمق والبساطة وينتسب الى ديناميكية السلوك الذى سيساعدهم فى العثور على اجابات

(*) Peanuts ـ سلسلة رسوم هزلية تصور طفلا مريضا بعقدة نفسية ، وتعرض لحياته مع أصدقائه ، وهى تصدر فى أمريكا واوربا بصفة يومية ، وتعتبر مثالا على اقبال الناس هنا على البحث عن الذات فى شخصيات هذه الرسوم الهزلية ـ المترجم •

جدية لمشاكل قديمة ؟ هل توجد أية معلومات متاحة ، حقيقية وقادرة على تقديم العون فى آن واحد ؟

ان بحثنا عن الاجابات كان حتى سنوات قليلة ــ محدودا نظرا لضآلة ما كنا نعرفه عن كيف يختزن « المخ البشرى » الذكريات ، وكيف أن استثارة هذه الذكريات المختزنة ستؤدى الى استبداد الماضى بحاضرنا .

جراح المخ والمسبار :

يعتمد أى فرض على برهان ملموس لتحقيقه . حتى وقت قريب كان هناك برهان ضئيل على وظيفة المخ فى عملية الادراك ــ وباختصار : كيف وأى من الاثنى عشر مليون خلية التى فى المخ ــ تختزن الذكريات ؟ وكم من الذكريات يمكن اختزانه ؟ وهل يمكن اختفاء الذكريات ؟ وهل الذكريات عمومية أم خصوصية ؟ ولماذا يسهل استرجاع بعض الذكريات دون غيرها ؟

ان الدكتور وايلدر بنفيلد Dr. Wilder Penfield ــ أحد المستكشفين المشهورين فى هذا المجال ، وهو أحد جراحى الأعصاب من جامعة ماكجيل فى مونتريال ، بدأ سنة ١٩٥١ فى التوصل الى برهان مثير لاثبات وتعديل المفاهيم النظرية التى تكونت كاجابات على هذه الأسئلة (١) (*) . ومن خلال جراحة المخ . أثناء علاج المرضى الذين يعانون من داء الصرع المركزى، أشرف بنفيلد على سلسلة من التجارب مس خلالها قشرة مخ المريض بتيار كهربائى ضعيف مرسل من خلال مسبار مجلفن . وتراكمت ملاحظاته حول الاستجابات لهذه الاثارات على مدى عدة سنوات . وفى كل حالة كان المريض كامل الوعى تحت تأثير التخدير الموضعى أثناء استكشاف قشرة المخ ، وكان قادرا على الحديث مع بنفيلد . وقد استمع خلال هذه التجارب الى بعض الأشياء المدهشة .

---

(١) W. Penfield, "Memory Mechanisms". A.M.A. Archieves of Neurology

(*) كافة التعليقات والمقتطفات التى سترد فيما بعد خلال هذا الفصل مأخوذة عن هذا المصدر ــ المترجم .

(لما كان الهدف من هذا الكتاب أن يكون مرشدا عمليـــا لتحليل المعاملات وليس بحثا علميا فنيا ، فانني أود أن أوضح أن المادة التالية من بحث بنفيلد ـ وهي المادة الوحيدة في هذا الكتاب ذات الصبغة الفنية ـ قد أدرجتها في الفصل الأول لأنني أعتقد أنها ضرورية لاقامة الأســـاس العلمي لكل ما يلي · ويبدو من البراهين الماثلة أن كل شيء في شـعورنا الواعي مسجل بالتفصيل ومختزن في المخ ، ويمكن أن نسترجعه في الوقت الحاضر · ان المادة التالية تتطلب أكثر من قراءة واحدة حتى يمكن تقدير اكتشافات بنفيلد حق قدرها) ·

لقد وجد بنفيلد أن القطب الكهربائي المستخدم للاثارة يستطيع أن يستدعي ذكريات من الواضح أنها مستمدة من ذاكرة المريض · وقـــرر بنفيلد أن « الخبرة البدنية التي نتجت عن ذلك ، تتوقف عندما يستبعد القطب الكهربائي ، ومن المحتمل أن تكرر نفسها عند استخدام القطب مرة أخرى · » وأعطى الأمثلة الآتية :

أولا : حـــالة المريض س·ب· الذي اســـتثير عنــد النقطـــة ١٩ مـن التجعيـد الأول مـن فص المـخ الأيمن ، مما جعله يقــول : « كان هنـــاك بيانو وشـــخص يعزف عليـــه · كنت أســتطيع أن أسمع الأغنية ، كمـا تعلم » · وعنـــدما استثيرت النقطة مرة أخـــرى بدون انذار ، قال : « هذا انسان يتحدث الى انسان آخر · » وذكر اسما لم أستطع أن أفهمه ··· كان يبـــدو مثـل حلم · وأثيرت النقطة للمرة الثالثة ، وبدون انذار كذلك ، وحينذاك لاحظ شـــيئا عفويا فقـال : ـ « آه ياربي ـ هناك شخص ما يغنيها » · وعندما أثيرت النقطة للمرة الرابعة سمع نفس الأغنية ، وأوضح أنها كانت اللحن الرئيسي المتكرر في برنامج اذاعي معين · وعندما أثيرت النقطة ١٦ بينما كان القطب مثبتا في مكانه ، قال : « هناك شيء يعيد احدى الذكريات ، أستطيع أن أرى شركة سفن آب لتعبئة الزجاجات ·· ومخبز هاريسون » وحينذاك نبهنـاه الى انه قد استثير ، ولكن القطب لم يكن مثبتا في مكانه ، فأجاب : « لا شيء » ·

وفي حالة أخرى أثيرت نقطة على السطح الأعلى لفص المخ الأيمن في اخدود سلفيوس (*) للمريضة د · ف · وسمعت المريضة أغنية شعبية

(★) نسبة الى الدكتور فرانز دى لابوسلفيوس Dr. Franz de la Boe Selvius الذي عاش في الفترة من ١٦١٤ ـ ١٦٧٢ في مدينة ليدن ، وهو الذي ينسب اليه أيضا ملح السليسلات الذي يساعد على الهضم فيقال Digestive salt of Selvius اى ملح سلفيوس الذي يساعد على الهضم ـ المترجم ·

معينة تؤدى كما لو كانت تعزفها أوركسترا . وتكررت نفس الموسيقى مع تكرار الاستثارات . وعندما كان يوضع القطب فى مكانه ، وكانت تدندن باللحن والقرار والأبيات التى كانت تصاحب الموسيقى التى كانت تسمعها على هذا النحو .

أما المريض ل . ج . فقد مر بتجربة شيء قال عنه أنه حدث له من قبل . وقد أدت اثارته فى نقطة أخرى من المخ الى أن يرى رجلا وكلبا يسيران بطول طريق قريب من منزله فى الريف .

وسمعت امرأة أخرى صوتا لم تفهمه عندما استثير التجعيد الأول للمخ بصفة مبدئية . وعندما أعيد تثبيت القطب على نفس النقطة تقريبا سمعت صوتا ينادى بوضوح : « جيمى ، جيمى » وكان جيمى هذا هو اسم الدلع للزوج الشاب الذى اقترن بها مؤخرا .

ومن النتائج الأخرى الهامة التى توصـــل اليها بنفيلد ، أن القطب الكهربائى استثار ذكرى واحدة وليس خليطا من الذكريات . وهنــــاك نتيجة أخرى بين ما توصل اليه بنفيلد وهى أن الاستجابة للقطب كانت تلقائيـــة :

تحت التأثير القهرى للمسبار ، ظهرت خبرة معتادة فى وعى المريض سواء أراد أن يركز انتباهه عليها أم لا ، فتسللت أغنية خلال عقله ، ربما كان قد استمع اليها فى مناسبة معينة : وجد نفسه جزءا من موقف معين ، تطور وتقدم مع تطور وتقدم الحدث الأصلى الذى كان له بمثابة فصل من مسرحية وهو الممثل والمتفرج فى آن واحد .

وربما كان أكثر الاكتشافات أهمية هو أن المخ لم يسجل بالتفصيل الأحداث الماضية فقط ، بل أيضا الأحاسيس التى ارتبطت بتلك الأحداث ، فالحدث والشعور الناتج عنه مرتبطان ارتباطا بحيث لايمكن لأحدهما أن يستثار بدون الآخر . وقد قرر بنفيلد ما يلى :

يشعر المريض مرة أخـــرى بالانفعـــال الذى نتج عن الموقف ، مع ادراكه لنفس التفسيرات ، سواء كانت صائبة أم خاطئة ، تلك التى أعطاها هو نفسه للتجـربة فى المحـــل الأول . وعلى ذلك فليست الذكرى التى استثيرت هى صورة فوتوغرافية أو صوتية مطابقـــة للأحداث أو المناظر الماضية . انها صورة لما رآه المريض واستمع اليه واحس به وفهمه .

ان الذكريات تستثار بالمثيرات المتعلقـــة بالتجارب اليومية بنفس الطريقة التى استثيرت بها صناعيا باستخدام مسبار بنفيلد الكهربائى .

ويمكننا أن نصف الذكريات المستثارة في كل حالة ، وصفا أدق باعتبارها معايشة جديدة للتجربة أكثر منها استدعاء لها ، فالشخص ينتقل مؤقتا الى الماضي استجابة للمثير « أنا هناك ! » وقد تستغرق هذه التجربة جزءا من الثانية فقط ، وربما تستغرق عدة أيام ، وقد يفطن المريض بعد التجربه الى أنه كان هناك • واليك ترتيب الأحداث أثنـاء اسـتعادة الذكريات عفويا : ١ ـ المعايشة (شعور لا ارادى وتلقائى) ٢ ـ التذكـر (تفكير واع تلقائى عن الحدث الماضى الذى جرت معايشته) • ونحن لانستطيع أن نتذكر الكثير مما يجرى احياؤه •

ويصور التقريران التاليـان عن اثنين من المرضى الطريقـة التى تستثير بها المثيرات الحاضرة أحاسيس الماضى : ذكرت مريضـة فى سن الأربعين أنها كانت تسير فى الشارع صباح أحد الأيـام ، ومرت بمحل للأدوات الموسيقية فسمعت أصواتا موسيقية أشاعت جوا من الاكتئاب • أحست بنفسها واقعة فى قبضة حزن لم تستطع أن تفهمه ، وكانت شدته تكاد أن تكون « غير محتملة » وأحست بأنه لايمكن لأى شىء فى وعيها أن يفسر ذلك • وبعد أن وصفت لى هذا الاحساس سألتها اذا ما كان هناك شىء فى حياتها المبكرة ذكرتها به تلك الأغنية • فقالت : أنها لاتستطيع أن تقيم أى صلة بين الأغنية والحزن الذى أحست به • وفيما بعد اتصلت تليفونيا خلال نفس الأسبوع لكى تخبرنى بأنها وهى تدندن بالأغنية مرارا ونكرارا فاجأها خاطر ذكرى « رأت خلالها أمها جالسة الى البيانو وسمعتها تؤدى هذه الأغنية » • وكانت الأم قد توفيت عندما كانت المريضـة فى سن الخامسة ، وقد أصابها موت الأم فى ذلك الوقت باحباط شديد استمر لمدة طويلة من الزمن ، رغم ما بذلته العائلة لمساعدتها فى تحويل عواطفها نحو احدى خالاتها التى تكفلت برعايتها ولم يحدث أن تذكرت أنها سمعت هذه الأغنية من قبل أو أن أمها كانت تعزفها ، حتى اليوم الذى سارت فيه بجوار محل الأدوات الموسيقية • وقد سألتها عما اذا كانت استعادة هذه الذكرى المبكرة قد عافتها من الاحباط • فقالت أنها قد غيرت طبيعة أحاسيسها فقد كان هناك احساس بالاكتئاب يعاودها كلمـا استرجعت ذكرى موت أمها ، ولكنه لم يصل الى درجة اليأس الغامر الذى شعرت به فى البداية •

ويبدو أنها الآن تتذكر بكامل وعيها احساسا هو احيـاء لاحساس آخر بصفة مبدئيـة • ففى اللحظة التاليـة ، تذكرت كيف تحس بهذه الطريقة ، أما فى اللحظة الأولى فقد كان الاحسـاس هو بالتمام نفس الاحساس الذى انطبع عنـدما ماتت أمهـا ، وكان عمـرها حينذاك خمس سنوات •

ان الأحاسيس الطيبه تستمر بنفس هذه الطريقة ولاشك أننا نعي جميعاً كيف أن رائحة ، أو صوتا ، أو لمحة عابرة ، تستطيع أن تولد فرحا لا يوصف ، ولكنها قد تمر في بعض الأحيان دون أن يلحظها أحد ٠٠ واذا لم نركز عقولنا عليها ، فلن نستطيع أن نتذكر أين صادفنا من قبل تلك الرائحة أو الصوت أو المنظر ، ولكن الاحســـاس حقيقي ٠ وسرد علينا مريض آخر هذه الواقعة : كان يسير في شارع « ال » ستريت بجوار حديقة ساكرامينتوز كابيتول بارك ، وعندما شم رائحة الجير والكبريت التي يحسبها الناس سمادا يستعمل لتسميد الأشجار ، أحس بطمأنينة عظيمة وانشراح ، وكان من السهل عليه كشف الموقف الأصلي لأن الاحساس كان سارا ٠ لقد كان هذا هو نوع السماد الذي استخدم في الربيع المبكر في بستان التفاح الخاص بأبيه ، أما بالنسبة للمريض أثناء طفولته ، فقد كانت تتزامن هذه الرائحة مع مقدم الربيع ، واخضرار الأشجار ، وكافة المسرات التي يستمتع بها ولد صغير ، ينطلق الى الخلاء بعـد الشـــتاء الطويل ٠ وكما في حالة المريضة الأولى ، فان التذكر الواعي بالأحاسيس كان مختلفا قليلا عن انبثاق الاحساس الأصلي الذي عايشه ٠ انه لايستطيع أن يستعيد ذلك الانتقال الى الماضي كما فعل في هذه اللحظة العابرة ٠ انه يبدو الآن كما لو كان يعايش احساسا يدور حول احساســه أكثر من الاحســـاس نفســـه ٠

ويصور ما يلي أحد استنتاجات بنفيلد الأخرى : تظل تســـجيلات الذكريات سليمة حتى بعد أن يعجز صاحبها عن استعادتها :

تحتجز الذكرى المستثارة في قشرة المخ ، تفاصيل التجربة الأصلية ٠ وعلى ذلك فانه عندما يتم التعرف عليها في وعي المريض ، تبـدو التجربة كما لو كانت في الحاضر ، وربما لأنهـا تدفع نفســها الى الانتباه بطريقة لا تقاوم ولا يستطيع المريض أن يتعرف اليها كذكرى حيـــة من الماضي الا عند انتهائها ٠

وهناك استنتاج آخر نستطيع التوصل اليه بناء على هذه المكتشفات الا وهو أن المخ يعمل كمسجل عالي الدقة ، يسجل على شرائطه صـــورة طبق الأصل من كل تجربة ابتداء من وقت الولادة ، وربما أيضـــا قبل الولادة (ان عملية اختزان المعلومات في المخ هي عملية كيميائيـة تتعلق باختزال وتسجيل المعلومات التي لا تكون مفهومة تماما ، وربما كان هذا التشبيه مفرطا في بساطته ورغم هذا فقد أثبتت مضاهاة الذاكرة بجهاز التسجيل فائدتها في عملية التذكـر ٠ والنقطة المهمة هي أنه مهما كان أداء التسجيل فان استعادته عالية الدقة) ٠

ويقول بنفيلد أنه عندما يوجه الشخص العادى انتبـــاها واعيـــا لشيء ما ، فانه فى نفس الوقت يسجله فى كلا شطرى قشرة المخ •
وهذه التسجيلات متتابعة ومتواصلة •

عندما يلامس القطب الكهربائى قشرة الذاكرة ، ربما يولد صورة — ولكن الصورة لاتكون ثابتة فى العادة • انها تتغير ، كما كانت تتغير عند رؤيتها فى الأصل ، وربما غير الشخص موضع التجربة اتجاه نظرته • ان الصورة تتبع الأحداث كما شاهدها الشخص فى الأصل خلال الثوانى أو الدقائق المتتالية • ان الأغنية الناتجة عن اسـتثارة القشرة تتكشف ببطء ، من فقرة الى أخرى ، ومن النص الى القرار •

واستنتج بنفيلد أيضـا أن الزمن يبـــدو أنه الخيط الذى يربط استمرار الذكريات المستثارة • أما النموذج الأصلى فهو محفوظ فى المخ بالترتيب •

ويبدو أن خيط التتابع الزمنى فى المخ يربط عنـــاصر الذكريات المستثارة معا • ويبدو أيضا أن تلك العناصر الحسية التى لم يكن الفرد ينتبـه الا اليها هى فقط التى يتم تسجيلهـا ، وليست جميع المؤثـرات الحسية التى تنهمر بلا انقطاع على الجهاز العصبى المركزى •

ان استثارة تتابع الذكريات المعقدة يجعلها تبدو مقنعة لدرجة أن كل ذكرى من الذكريات التى نستطيع اســـتدعاءها لهـا مسـار عصبى منفصـــل •

واذا عرفنا أن قشرة المخ تقوم بتفسير الخبرة الحالية ، سهل علينا أن نفهم كيف أن الماضى يؤثر فى الحاضر ، أما الأوهام •• فقد تنتج عن استثارة قشرة المخ ••• أما الاحســـاس الناتج بالاضطراب فهو أحـــد الأحكام على الخبرة الحالية — انه حكم بأن الخبرة عادية ، أو غريبـــة ، أو غير معقولة ، أو أن المســـافات والأحجـــام متغيرة ، أو حتى أن الموقف الحالى مخيف •

هذه هى خدع الادراك ، والاهتمام بهـا يقود الفرد الى الاعتقاد بأن **تجربة جديدة قد تحفظ مباشرة بطريقة او باخرى مع تسجيلات التجارب المشابهة السابقة ، وعلى ذلك يمكن الحكم بوجود الاختلافات أو التشابهات،** ولنضرب مثلا : بعد مرور فترة من الوقت قد يصبح من الصعب على الفرد أن يستعيد ذكرى مفصلة ودقيقـة لما كان عليه صـديق قديم فى سـالف

الزمان ، غير أنه اذا قابل الصـديق على غير ميعاد ، فمن الممكن أن يلاحظ حالا ــ التغيير الذى أحدثه الزمن •

وهو يعـرف كل ذلك جيـدا ــ التجعيدات الجديدة فى وجهه ، التغيير فى الشعر ، تهدل الكتف •

ويتوصل بنفيلد الى :

ان اكتشاف الأنماط القشرية التى تحفظ تفاصيل الخبرة الحالية ، كما لو كانت فى مكتبة متعددة المجلدات ، هو احدى الخطوات الأولى نحو فسيولوجيا العقل • ان طبيعة النمط ، وآلية تكوينه ، وآليـة استدامته المتوالى ، والعمليات الاندماجية التى تشكل أساس الشعور ــ هذه كلها ستترجم الى معادلات فسيولوجية يوما ما •

وعند نهاية العرض قال الدكتور لورنس س • كوبى Dr. Laurence S. Kubie من بلتيمور ، وهو أحد المحللين النفسيين البارزين فى الولايات المتحدة ، وكان بين الذين يناقشون ورقة بنفيلد ــ ما يلى :

اننى أشعر بجزيل الامتنان لهذه الفرصة التى أتيحت لمناقشة ورقة بنفيلد ••• لأن هذه الورقة ذاتها قد استثارت مخيلتى ، والحقيقة أنهـا جعلتنى فى حالة انفعال خلال الأسـبوعين الأخيرين ، أراقب قطع اللغز الممزق أثناء محاولة وضع كل قطعة فى مكانها على اللوحة حتى تظهر صورة تلقى بعض الضوء على بعض من العمـل الذى كنت أقوم به فى السنوات الماضية • أستطيع أن أحس بشبح هارفى كاشنج وشبح سيجموند فرويد وهما يتصافحان من فوق رأس هذا الاجتماع الذى طال الى ساعة متأخرة ــ بين التحليل النفسى وجراحة الأعصاب الحديثة من خلال العمل التجريبى الذى عرضه الدكتور بنفيلد •

ويمكن أن نختتم بايجاز فنقول :

١ ــ يعمل المخ مثل جهاز تسجيل عالى الدقة •

٢ ــ يتم أيضا تسجيل الأحاسيس التى ارتبطت بالخبرات الماضية ، وترتبط بهذه الخبرات ارتباطا لا ينفصم •

٣ ــ يستطيع الأفراد أن يعيشوا فى حالتين فى وقت واحد • ان المريض الذى يعرف أنه كان يتحدث مع بنفيلد على الطاولة ، يعرف أيضا بنفس القدر أنه كان يرى « شركة سفن أب لتعبئة الزجاجات •• ومخبز

هاريسون » كان **مزدوج الوجود** ــ فهو في وقت واحد ، داخل التجربة **وخارجها** يراقبها .

٤ ــ ان هذه الخبرات المسجلة والأحاسيس المرتبطة بها يمكن استعادتها اليوم بشكل شديد الشبه بما كان عند حدوثهـــا ، مع تقديم الكثير من المعلومات التي تحدد طبيعة المعاملات اليـــوم . ولا يمكن فقط استعادة هذه الخبرات بل أيضـا احياؤها . **انني لا أتذكر فقط كيف احسست ، بل أنني أيضا احس نفس الاحساس الآن** .

وتكشف تجارب بنفيلد أن عمل الذاكرة ، الذى كنا نتناوله من قبل بمفهوم الاصطلاحات النفسية ، له سمة بيولوجية أيضا ، اننا لانستطيع أن نجيب عن السؤال القديم المتعلق بكيفيـة اتصـــال العقل بالجســـم ويتصل بذلك أن نعود الى التقدم السريع الذى أحرز فى مجـــال أبحاث الوراثة عن كيفيـــة ترتيب توارث الصـــفات داخـــل جزىء حامض الرايبونوكليك (٢) ، وقد علق الدكتور هولجارهايدن Dr. Holgar Hyden السويدى قائلا :

« ان القدرة على استدعاء الماضى الى الشعور يمكن توقع وجودها فى أحد آليات الوجود البيولوجى العام الأولية ، ولما كان الارتبـــاط الوثيق بآلية الوراثة مهما ، فاننـــا نجـــد فى هذا الخصوص أن جزىء حامض الرايبونوكليك مع امكانياته العديدة ، يمكن أن يوفى بالكثير من متطلبات هذه القدرة (٣) » .

أما الدليل الملحوظ الناتج عن هذه الدراســات البيولوجيـة فانه يساعد على تفسير الدليل الملحوظ فى السلوك الانسانى . كيف نطبق الاسلوب العلمى على السلوك بطريقة تتيح لاستنتاجاتنا أن تشكل كيانا سليما ومفيدا من المعارف ــ حسب استنتاجات بنفيلد ؟

---

(٢) مادة كيميائية معقدة توجد فى كافة الخلايا الحية ، ويظن أنها النمط الذى تتفق وفقه البروتينات والانزيمـات فى الخلية ويطلق عليهـا الاختصـار RNA ويعنى Ribonucleic Acid ــ المترجم .

(٣) H. Hyden, "The Biochemical Aspects of Brain Activity, in S.M. Farber and R. Wilson, eds., Control of the mind (New York : Grove Press, 1964), p. 29.

اتخاذ المعاملة كوحدة أساسية للبحث :

يتمثل أحد أسباب وصم علوم العلاج النفسى بمجافاتها لروح العلم والكثير من الخلاف الظاهر فى هذا المجال ، فى افتقار هذه العلوم الى وحدة أساسية يمكن دراستها واخضاعها للملاحظة • انها نفس الصعوبة التى واجهت علماء الطبيعيات قبل فكرة الجزىء ، والأطباء قبل أكتشاف البكتريا •

ان اريك برن منشىء تحليل المعاملات ، قد فصل وعرف هذه الوحدة العلمية الأساسية :

ان وحدة العلاقات الاجتماعية تسمى « معاملة » • اذا التقى شخصان أو أكثر •• فان أحدهما سيتكلم ان عاجلا أو آجلا ، أو يبدى امارة على تسليمه أو اعترافه بوجود الآخرين • وهذه تسمى « حافز المعاملة » "Transactional Stimulus"

وحينئذ سيقول الشخص الآخر أو يفعل شيئا يرتبط بالحافز بطريقة ما ، وهذا هو ما يسمى : « جواب المعاملة • "Transactional response » (٤) •

ان تحليل المعاملات هو أسلوب فحص هذه المعاملة حيث « أقوم بعمل شىء لك وأنت ترد بشىء مقابل » • وتحديد أى جزء من الشخص ذى الطبيعة المتعددة قد جرى تنشيطه • وفى الفصل التالى وعنوانه : « الوالد ، والراشد ، والطفل » سيجرى تحديد ووصف العناصر الثلاثة لهذه الطبيعة المختلطة •

ان تحليل المعاملات هو أيضا أسلوب لتنظيم المعلومات المستمدة من تحليل هذه المعاملات فى كلمات لها نفس المعنى بالتحديد عند كل من يستخدمها •

ويعتبر استخدام هذه اللغة واحدا من التطورات العظيمة الأهمية • ان الاتفاق حول معانى الكلمات بالاضافة الى الاتفاق حول ما يجرى اختباره ، هما المفتاحان اللذان فتحا الباب الى « الأسرار المتعلقة بالسؤال : لماذا يفعل الناس ما يفعلون ؟ » وهذا الانجاز ليس بالقليل •

---

(٤) E. Berne, Games people play (New York : Grove Press, 1964), p. 29.

وفى فبراير سنة ١٩٦٠ حظيت بفرصة الاستماع الى أمر خلاب . انه حديث يوم كامل ألقاه الدكتور تيموثى ليرى Dr. Timothy Leary الذى كان قد انضم لتوه الى شعبة العلاقات الاجتماعية بجامعة هارفارد . لقد تحدث الى هيئة التدريس بمستشفى دى ويت الحكومى فى أوبورن بكاليفورنيا ، حيث كنت أعمل مديرا للتعليم المهنى . وبالرغم من الاستجابات المثيرة للجدل التى يثيرها الآن حول اصراره على استخدام العقاقير سعيا وراء التجربة المنبهة Psychedelic ، الا أننى أود أن أستخدم هنا بعض تعليقاته ، لقدرتها على التعبير عن المشكلة بطريقة مثيرة . وربما نستطيع تفسير ما أطلق عليه اسم « المسار المتعرج لانقشاع الوهم الناتج » . لقد ذكر أن أحد احباطاته العظيمة كمعالج نفسى ، هو عجز العلماء عن اكتشاف طريقة لوضع نموذج قياسى للغة والملاحظات المتعلقة بالسلوك الانسانى (٥) (*) .

أود أن أتقاسم معكم بعضا من الخلفية التاريخية لما عاقنى كعالم نفسى : عندما أنظر الى الماضى أستطيع أن أتبين ثلاثة مراحل من الجهل والافتقار للمعرفة ، مررت بها . أولاها وهى أكثرها بهجة ، يمكن أن تسميها : مرحلة الجهل البرىء ـ عندما كنت تحت سيطرة المفهوم القائل بأن هناك بعض الأسرار الخاصة بالطبيعة الانسانية وأن ثمة قوانين وقواعد وبعض علاقات العلة والمعلول ، وأننى يوما ما قد أتقاسم هذه الأسرار لأكون قادرا على تطبيق ما لدى من معرفة على قواعد السلوك البشرى هذه لمساعدة الآخرين ، من خلال دراستى ، وخبراتى ، وقراءاتى .

أما فى المرحلة الثانية التى يمكن أن تسمى : مرحلة « الوهم بالعلم » فقد اكتشفت اكتشافا مقلقا وهو أننى من جهة أجهل حقيقة السر ورغم ذلك فقد تبينت أن الناس من جهة أخرى كانوا ينظرون الى كما لو كانوا يظنون أنى أعرف السر أو أننى أكثرهم اقترابا منه ... ولم يتمخض أى من الأبحاث التى قمت بها أو أى من نشاطاتى عن أسرار تكتشف ، ولكننى مرة أخرى كنت قادرا على أن أقول : « حسنا ، ليست لدينا حالات بما فيه الكفاية . » ، أو « علينا أن نطور من مناهج البحث » . وكانت توجد دائما أحكام أظن أنكم معتادون عليها . يستطيع الانسان أن يرجىء لحظة الاكتشاف المؤلم ، ولكن فى النهاية تظهر الحقيقة غير السعيدة وهى أنه بالرغم من أن أشخاصا عديدين قد ينظرون وينصتون اليك ، ومنهم مرضاك

---

(٥) T. Leary, De Witt State Ho pital, Auburn, California, Feb. 23rd, 1960.

وتلاميذك ، الا أنه بينما أنت ذاهب الى لقاءات التدريب العملي تجد أن الجميع ينظرون اليك بحثا عن السر ــ وربما تبـــدأ التفكير ، وربمـــا لاتعـــرف عما تتحدث •

وبعد هذا الاعتراف النادر والظاهر للشكوك ، الذى لايجرؤ الا القليل من المعالجين النفسيين على ذكره ، استمر ليرى فى وصف الأنواع المختلفة من الأبحاث الخاصة بالاختبارات والتبويبـــات والمناهج التى شغلته هو والعاملين معه • ولكنه خلال هذا المسعى واجه مشاكل عدم وجود لغـــة مشتركة ووحدة عامة للملاحظة :

أى الأحداث الطبيعية سنصادفهـا بشـكل دائـم بحيث نستطيع احصاءها ؟ لقد فضلت أن أقوم بتجربة حول امكانية تطوير لغات قياسية لتحليل أية معاملات طبيعية عن دراسة السلوك الطبيعى الحر • ووجدت أن من بين كافة المفاهيم الشاعرية ، والجمل الموسيقية ، والأوتار العاطفية، التى نستخدمها تعد كلمات مثل : « النمو » و « المساعدة » و « التطوير » أكثرها اغراقا فى الخيال وبعدا عن الواقع •

اننا نعمل فى نطاق القليل من المعلومات المتوفـرة عن أنفسنا وعن الآخرين ، وليست لدى أية فكرة عن المتغيرات الجديدة فى علم النفس ، أو عن الكلمات أو اللغة الجديدة لعلم النفس • اننى ببساطة أحاول أن اطور أساليب جديدة تجعل البشر يفهمون ماذا يفعلون ، والضوضاء التى يحدثونها • ان أكثر الأمور اثارة لى فى العالم حتى الآن ، هو التوصل الى التناقضات بين الناس الداخلين فى المعاملة الواحـدة • لأنك بمجـرد أن تتوصل الى ذلك ستواجه سؤالا هو : « كيف تنشأ ؟ »

لقد استهجن غياب لغة قياسية فى السلوك الاجتماعى على شـاكلة لغة السماسرة ، أو بائعى السيارات ، أو لاعبى البيسبول :

وحتى بائعو السيارات لهم كتبهم الزرقاء الصغيرة ، وقد وصـــلوا الى مستويات فى علم السلوك افضل منا نحن الذين ندعى بالاخصائيين • وفى الرياضة ، كل لاعب بيسبول ، سـلوكه الطبيعى مسجل فى شكل قوائم قياسية مثل الجرى العشوائى ، أو متوسط سرعته فى الجرى • وذلك للفهم وعمل التنبؤات عن البيسبول • واذا قررت بوصفك ناديا أن تبيع لاعب البيسبول الأول لكى تحصل على رام يستخدم اليد اليمنى ، فستجد كمـا من القوائم والفهـارس السلوكية • انهم لا يستخدمون لغة شاعرية مثل ، « انه يجرى خلف الكرة الطائرة كالغزال » أو « انه عداء لا يشق له غبار » • انهم يميلون الى استخدام السلوك •

كنت أجرى وراء أسطورة في محاولة لاكتشاف السر . أردت أن أنمو وأصبح طبيبا ماهرا وقادرا على تشخيص الأمراض . ولكن كافة آمالى هذه بنيت على افتراض وجود قوانين وترتيبات وأسرار وأساليب يمكن تطبيقها ، وأن الدراسة والبحث يمكن أن يكشفا لنا عن هذه الأسرار .

ونقول أن تحليل المعاملات قد عثر على بعض من هذه القواعد والنظم، لقد وجدنا لغة جديدة لعلم النفس ، تلك التى أحس « ليرى » بالحاجة اليها ، وبذلك أصبحنا أقرب من سر السلوك الانسانى بقدر كبير . لقد قدمت في هذا الفصل بعض المعلومات الأساسية التى تثبت فائدتها لعدد كبير من الناس الذين عولجوا ، بين مجموعاتى ، باستخدام تحليل المعاملات كأداة فكرية لفهم أساس السلوك والأحاسيس . أداة تعمل غالبا بصورة أحسن ، ولها معنى أوسع اذا كانت لدينا فكرة عن كيفية تطورها ، وكيفية اختلافها . هل اشتقت من معطيات أصيلة أم هى فكرة أخرى طارئة ؟ هل كان كتاب برن : ألعاب يلعبها الناس Games People play أحسن الكتب مبيعا بسبب بدعة ، أم أنه يقدم للناس بعض الأفكار السهلة الفهم والأصيلة عن أنفسهم ، وهم يكشفون عن ماضيهم فى الألعاب التى يلعبونها حاليا ؟

سنبدأ فى الفصل التالى وصف هذه الأداة ، باستخدام مصطلحات : الوالد ، والراشد ، والطفل . لأن هذه الكلمات الثلاثة لها معان خاصة وشاملة تختلف عن معانيها العادية حيث أننا نستعملها فى هذا الكتاب كاصطلاحات ولذلك سينجد كلمات : الوالد والراشد والطفل ــ ستبرز خلال الكتاب . وكما سنكتشف فى الفصل التالى فان كلمة « الوالد » لاتعنى الأب أو الأم ، كما أن كلمة « الراشد » تعنى شيئا مختلفا تماما عن معنى الشخص الكامل النمو ، وأن كلمة « الطفل » ليست بمعنى الحدث الصغير السن .

الفصـــل الثـــانى

الوالد ـ الراشد ـ الطفل

(ان الولع بالحقيقة ، تخمده الأجوبة التى لها وزن السلطة المسلم بها ـ بول تيليتش)

لاحظ برن مبكرا فى أثناء تقدم عمله فى كتابه عن تحليل المعاملات ، أنه بينما أنت تنظر وتصغى الى الناس ، تستطيع أن تراهم وهم يتغيرون أمام عينيك · انه نوع كامل من التغيير · وفى نفس الوقت تحدث تغييرات فى تعبيرات الوجه ، والمفردات اللغوية ، والايماءات ، ووضـــع الجســـم ، ووظائفه البدنية التى قد تجعل الوجه يميل الى الاحمرار ، والقلب يدق ، أو يتلاحق التنفس سريعا ·

ونستطيع أن نلاحظ هذه التغييرات المفاجئة لدى كل شخص : الولد الصغير الذى يندفع فى البكاء عندما لا يستطيع أن يجعل اللعبة تعمل ، الفتاة المراهقة التى يفيض وجهها المكتئب بالسعادة الغـــامرة عندمـــا يدق التليفون أخيرا ، والرجل الذى يمتقع وجهه ويرتعش عندما يتلقى أنبـــاء الفشل فى صفقة تجارية ، والأب الذى يتحجر وجهه عندما يختلف معـــه ابنه · ان الفرد الذى يتغير بهذه الأساليب هو نفس الفرد من ناحية تركيب الهيكل العظمى والجلد والملابس · اذن فما الذى يتغير فى داخله ؟ انه يتغير من ماذا الى ماذا ؟

كان هذا هو السؤال الذى خلب لب برن فى الخطوات الأولى لتحليل المعاملات ٠ اعترف له محام فى الثانية والثلاثين من عمره كان يعالجه فقال : « اننى لست محاميا فى حقيقة الأمر ، انمـا أنـا مجـرد ولـد صغير ٠ » والحقيقة أنه كان خارج غرفة الطبيب النفسى محاميا ناجحا ، ولكنه أثناء العلاج شعر وتصرف كولد صغير ٠ وكان يسأل أحيانا : « هل تخـاطب المحامى أم الولد الصغير ؟ » واحتار برن ومريضه لوجود هذين الشخصين الحقيقيين ، أو هاتين الحالتين للوجـود ٠ وبدأ يتحـدث عنهما بصفتهما « الراشد » و « الطفل » ٠ انها حالة « الوالد » وتحددت بالسلوك الذى جاء نتيجة لما رآه المريض واستمع الى أبويه يعملانه عندما كان ولدا صغيرا ان التغييرات من حالة الى أخرى تظهر فى الأسلوب والشـكل والكلمـات والايماءات : جاءتنى امرأة فى الرابعة والثلاثين من عمرها للمساعدة فى حل مشكلة الأرق ، والقلق المستمر حول تصرفاتها مع صغارها وانفعالها المتزايد ، وخلال الساعة الأولى للعلاج بدأت تبكى فجأة ثم قالت : « انـك تجعلنى أحس كما لو كان عمرى ثلاث سـنوات ٠ » وكانت فى صوتهـا وأدائها شبيهة بصغير ٠ فسألتها : « ماذا حدث حتى أنك تشعرين باحساس الطفل ؟ » فقالت : « لا أدرى » ثم أضافت : « لقد شعرت فجأة بما يشبه الفشل ٠ » فقلت : « حسنا ٠ دعينا نتحدث عن الصغار وعن الأسرة ، ربما نستطيع اكتشاف شىء داخلك تنتج عنه هذه الأحاسيس المتعلقة بالفشل واليأس ٠ » وعند نقطة أخرى تغير صوتها وأسلوبها فجأة للمرة الثانية ، أصبحت انتقادية ومتعسفة « بعد كل شىء فان للأبوين أيضا حقوقا ، وعلى الأبناء أن يلزموا الأدب معهما ٠ » وهكذا نـرى أنه فى خلال ساعة واحدة تغيرت هذه الأم الى ثلاث شخصيات مختلفة ومميزة : شخصية طفل صغير مفعم بالأحاسيس ، وشخصية الوالد البار فى عينى نفسه ، وشخصية امرأة كاملة النضج تلجأ للاستدلال وتستخدم المنطق وأم لثلاثة صغار ٠

وأيدت الملاحظة المستمرة وجود هذه الحالات الثلاث فى جميع الناس، وهذا الرأى يزعم أن فى كل فرد نفس الشخص الصغير الذى كان عليه فى سن الثالثة ، وكذلك أبواه ، وما هؤلاء الا تسجيلات فى المخ للخبرات الطبيعية للأحداث الداخلية والخارجية ، وقد حدث أكثرها أهمية خـلال السنوات الخمس الأولى من العمر ٠ وهناك حالة ثالثة تختلف عن هاتين الحالتين ٠ ان الحالتين الأولى والثانية تسميان بحالتى « الوالد » و «الطفل» أما الثالثة فهى حالة « الراشد » (أنظر شكل ١) ٠

وحالات الوجود هذه ليست أدوارا ولكنها حقائق نفسية ٠ يقول برن أن « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » ليست مفاهيم مثل الأنا الأعـلى

والأنا والهو ٠٠٠ ولكنها حقائق تعبر عن ظواهر (١) ٠ وهذه الحالة تنتج عن الأحداث الماضية المتعلقة بأشخاص حقيقيين ، وأزمنة حقيقية ، وأماكن حقيقية ، وقرارات حقيقية ، ومشاعر حقيقية ٠



شكل ١ : الشخصية

الوالد :

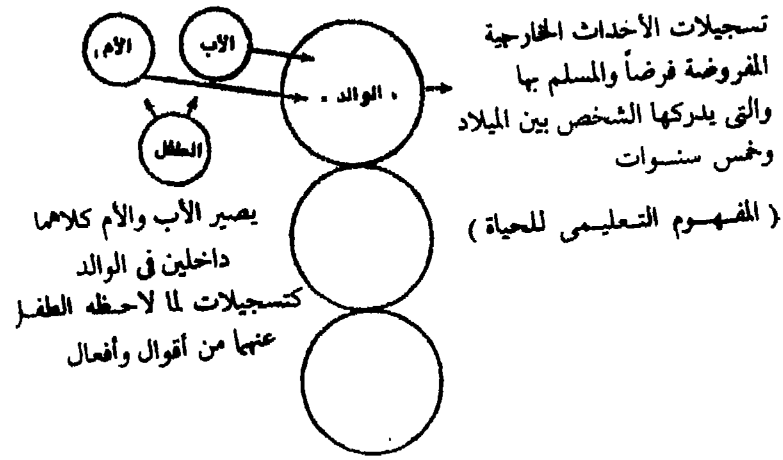
« الوالد » هو مجموعة كبيرة من التسجيلات التى فى المخ للأحداث الخارجية التى تناقش ، أو فرضت فرضا ، وقد وعاها الشخص فى سنواته المبكرة ، وهى مرحلة حددناها بالسنوات الخمس الأولى من العمر ٠ وهذه هى الفترة السابقة على الولادة الاجتماعية للفرد ، قبل أن يترك البيت تلبية لطلبات المجتمع فيدخل المدرسة (أنظر شكل ٢) ٠

والاسم « والد » أكثر دلالة على هذه المعلومات ، حيث أن أكثر التسجيلات أهمية هى تلك الواردة فى المثال ، وأوامر والديه الحقيقيين أو البديلين ٠

ان كل ما رأى الصغير أبويه يعملانه ، وكل ما سمعهما يقولانه ، يسجل فى « الوالد » ٠ وكل فرد لديه « الوالد » بمعنى أن كل فرد قد اختبر الحافز الخارجى فى السنوات الخمس الأولى من العمر ٠ « الوالد » يخص كل شخص ، لأنه عبارة عن تسجيلات هذه المجموعة المبكرة من التجارب المرتبطة به ٠

---

(١) E. Berne, Transactional Analysis in Psychotherapy (New York : Grove Press, 1961), p. 24.



شكل رقم ٢ : الوالد

أما المعلومات الموجودة فى « الوالد » فقد سجلت (مباشرة) بدون تصنيف · ان توقف الصغير ، وتبعيته ، وعدم قدرته على بنـــاء المعانى باستخدام الكلمات ، جعلت من الصعب عليه أن يعدل أو يصحح أو يفسر · ولذلك لو كان الوالدان عدوانيين ويتشاجران باستمرار فان المعركة تسجل مع الفزع الذى ينتج لدى رؤية الشخصين اللذين يعتمد عليهما الصغير فى حياته ، وقد أوشكا أن يدمر أحدهما الآخر · ولا توجد طريقة لتضمين هذا التسجيل حقيقة أن الأب كان ثملا لأنه فقد عمله ، أو أن الأم كانت متوترة الأعصاب لأنها اكتشفت لتوها أنها حامل مرة أخرى ·

وتحفظ فى « الوالد » كافة تسجيلات التأنيب والقواعد والقوانين التى استمع اليها الصغير من والديه أو رآها فى حياتهما · وترتب هذه التسجيلات على مدى الطريق ابتداء من الاتصالات الأبوية المبكرة مفسرة بلا كلمـــات ولكن من خلال نبرات الصوت وتعبيرات الوجه والاحتضان أو الابعاد ، حتى أوسع القواعد والتعليمات اللفظية المنطوقة التى أصدرهـا الوالدان عندما أصبح الشخص الصغير قادرا على فهم الكلمات · وفى هذه المجموعة من التسجيلات يوجد الآلاف من كلمة « لا » الموجهة الى الطفل الذى يحبو ، وكلمة « لا تفعل » التى تتساقط عليه كالقنابل ، ونظرات الألم والفزع فى وجه الأم عندما أحرجتها تصرفاته الطائشة التى اتخذت مجالا لها الفازة الأثرية المكسورة للعمة اثيل ·

وكذلك تسجل انعطافات فرحة الأم السعيدة ونظرات البهجة للأب المحظوظ · وعندما نعرف أن التسجيل يعمل طول الوقت ، فاننا نبدأ فى فهم ضخامة كمية المعلومات المحفوظة فى « الوالد » · وفيما بعد يأتى أشد النصائح والتعاليم تعقيدا : « تذكر يا ابنى حيثما ذهبت فى العالم أنك ستجد دائما أن أحسن الناس هم أتباع الكنيسة الميثودستية ، لا تكذب ؛ ادفع فواتيرك ؛ وأن المرء مرآة صديقه ، وستكون ولدا طيبا حينما تغسل الطبق الذى أكلت فيه ، والضياع هو الخطيئة الأصلية ، ولا تستطيع أن تثق دائما فى رجل أو فى امرأة ، ستكون ملعونا لو فعلت وملعونا لو لم تفعل ، ولا تستطيع أن تثق دائما فى شرطى ، واليدان العاملتان يدان سعيدتان ، لا تسر تحت السلالم ، افعل للآخرين ما تود أن يفعلوه لك ، ولا تدفع الآخرين الى ما لا تتوقع منهم أن يدفعوك اليه · والنقطة المهمة هى أنه بصرف النظر عن سلامة هذه القواعد أو فسادها فى ضوء الأخلاقيات المنطقية ، فانها مسجلة كحقائق عن مصدر ثقة ممثل فى هؤلاء الذين كان طول الواحد منهم يفوق طول الصغير ثلاث مرات ، حينما كان هذا الصغير يهتم بارضائهم وطاعتهم · انه تسجيل دائم ولا يستطيع الانسان أن يمحوه ، وهو صالح للاستماع اليه خلال الحياة بطولها ·

واعادة استماع هذه التسجيلات لها تأثير قوى خلال الحياة كلها ، وهذه النماذج — وان كانت تملى على الانسان مواقفه وتغريه بها الا أنها فى أكثر الأحوال تضع له حدودا وتقيد سلوكه — وهى تعمل فى الداخل كنظام ضخم من المعلومات الضرورية لحياة الفرد وسط الجماعة ، ابتداء من الأسرة ، وامتدادا مع مسار الحياة ، فى سلسلة من الجماعات الضرورية للحياة · وبدون والد طبيعى فان الصغير قد يموت · ويحفظ « الوالد » الداخلى أيضا حياته ويحميها ضد عدد من الأخطار التى أدرك بالتجربة أنها من الممكن أن تسبب الموت · ويوجد فى « الوالد » أيضا تسجيل « لا تلمس هذه السكين ! » انه أمر عدو وانذار للشخص الصغير الذى يخال أن أمه ستضربه أو ستنتهره ، أما التهديد الأعظم فهو امكانية جرح نفسه والنزف حتى الموت · انه لا يفهم ذلك لأنه ليس لديه المعلومات الكافية · اذن فان تسجيل « الوالد » بأمر وهو معين ضرورى لاستمرار حياته طبيعيا واجتماعيا ·

وهناك خاصية أخرى « للوالد » هى دقة التسجيلات الغير منسجمة ، فيقول الأبوان شيئا بينما يعملان شيئا آخر يقول الوالدان : لا تكذب — ولكنهما يكذبان · يقولان للصغار أن التدخين يضر بصحتهم ولكنهما يدخنان · انهما يدعوان الى مراعاة تطبيق مبدأ دينى ولكنهما لا يطبقانه فى

حياتهما • انه من غير الممكن للصغير أن يسأل عن عدم الانسجام هذا ولذلك فهو مرتبك لان هذه المعلومات تسبب الارتباك والخوف • انه يحمى نفسه بوقف الاستماع للتسجيل • ونحن نعنى « بالوالد » أساسا فى تسجيلات المعاملات بين الصغير وأبويه ، وقد يكون من بين العوامل المساعدة اعتبار تسجيلات « الوالد » شبيهة الى حد ما بتسجيلات الصوت المجسم ، حيث يوجد مساران للتسجيل ، اذا حدث بينهما الانسجام فانهما ينتجان لحنا جميلا اذا جرى عزفهما معا • واذا ضاع الانسجام فان اللحن يكون نشازا فيستبعد التسجيل ولا يتكرر سماعه الا نادرا • وهذا هو ما يحدث عندما يتضمن « الوالد » مادة مسجلة متنافرة ، فان الوالد « يوقف » أو يحظر الاستماع اليه • وقد تكون الأم « طيبة » بينما الأب « سيىء » أو العكس • وهنا يتوفر قدر كبير من المعلومات المفيدة التى تختزن نتيجة لارسال المادة الطيبة من أحد الوالدين ولكن طالما كان « الوالد » يتضمن مادة من « الوالد » الآخر (الأب أو الأم) متعارضة ومؤدية للقلق ، فان « الوالد » ككل يأخذ فى الضعف أو الانكسار • ان معلومات « الوالد » غير المنسجمة لايتاح لها أحداث أى تأثير ايجابى فى حياة الفرد •

وهناك طريقة أخرى لوصف هذه الظاهرة وهى مقارنتها بالمعادلة الجبرية : ضرب الناقص بالزائد يعطى نتيجة بالناقص ــ بصرف النظر عن العدد المضروب ناقصا كان أم زائدا فالنتيجة دائما بالناقص ••• ينتج « والد » ضعيف أو « والد » غير متكامل • وقد يصبح التأثير فى الحياة المستقبلة متناقضا وغير منسجم ويقود الى اليأس ــ بالنسبة للشخص الذى هو غير حرفى فحص « الوالد » •

ويظهر الكثير من معلومات « الوالد » فى الحياة الحاضرة تحت بند « كيف ــ أن » : كيف تدق مسمارا ، وكيف تجهز سريرا ، وكيف تتناول الشوربة ، وكيف تمخض أنفك ، وكيف تشكر المضيفة ، وكيف تسلم بالأيدى ، وكيف تتظاهر بعدم وجود أحد فى البيت ، وكيف تنشر فوط الحمام ، أو كيف تزين شجرة عيد الميلاد • ان بند « كيف ــ أن » يشكل كمية ضخمة من المعلومات التى تكتسب بملاحظة الوالدين ــ وهى معلومات واسعة الفائدة تجعل من الميسور بالنسبة للشخص الصغير أن يتعلم كيف ينمو بنفسه • وفيما بعد عندما يصبح « الراشد » أكثر مهارة وقادرا على فحص معلومات « الوالد » قد تصير هذه الأساليب المبكرة لعمل الأشياء غير سارية المفعول وتحل محلها أساليب أفضل تكون أكثر مناسبة للحقيقة التى تغيرت • ان الشخص الذى كانت تعليماته الأولى مصحوبة بالشدة

قد يجد من الصعب فحص الأساليب الأولى وقد يتعلق بها فترة تتجاوز صلاحيتها لأنه مرغم على أداء « هذه الطريقة وليس غيرها » .

أعادت أم احدى المراهقات قرار « الوالد » الذى حكم اجراءات رعايتها للبيت الى ما قالته لها أمها « لا تضعى قبعة على منضدة أو بالطو على سرير » وعلى ذلك فقد سارت فى حياتها على مبدأ عدم وضع قبعة على منضدة ولا بالطو على سرير . واذا نسيت أحيانا أو حاول أحد صغارها كسر هذه القاعدة القديمة ، كان هناك رد فعل غير مناسب لموقف كسر أبسط قواعد النظافة ، وأخيرا وبعد العديد من عشرات السنين التى عاشتها مع هذه القاعدة غير المفحوصة ، فان الأم سألت الجدة (وكانت حينذاك فى الثمانين من عمرها) « لماذا يا أمى لم تضعى قبعة على منضدة ولا بالطو على سرير ؟ » وأجابت الجدة أنها عندما كانت صغيرة كان هناك بعض صغار الجيران الذين كانوا « يملأون البيت » وقد حذرتها أمها من عدم وضع قبعات أولاد الجيران على المنضدة أو بلاطيهم على السرير . انه كلام معقول جدا . وعرفت الظرف الطارىء الذى دعا الى هذا التحذير . وباستعمال الاصطلاحات التى تتعلق باكتشافات بنفيلد ، عرفنا أيضا لماذا انسجم التسجيل مع الطارىء الأصلى . ان القواعد التى نراعيها فى حياتنا تكاد تشبه هذه القاعدة .

وهناك بعض التأثيرات الأكثر دقة . وجدت احدى ربات البيوت الحديثة أنها ببساطة لم يكن لديها اهتمام بشراء وحدة التخلص من القمامة بالرغم من كافة وسائل الراحة الحديثة فى منزلها . وقد شجعها زوجها للحصول على واحدة ، مشيرا الى كافة الأسباب التى تبين أنها سوف تسهل أعمال المطبخ . وكانت تعرف ذلك ولكنها كانت تلتمس العذر تلو الآخر لتأجيل الذهاب الى محل البيع لاختيار واحدة . وأخيرا صارحها زوجها باعتقاده أنها كانت تقصد عدم شراء الوحدة ، وأصر على أن تذكر له السبب. كان هناك انطباع جعلها تحس انفعالا مبكرا نحو القمامة فقد كانت سنوات عمرها الأولى هى سنوات الكساد الاقتصادى فى الثلاثينيات . وكانت تحفظ القمامة فى منزلها بعناية لكى تقدم غذاء للخنازير التى كانت تذبح فى عيد الميلاد وتقدم كمصدر مهم للغذاء . حتى الأطباق كانت تغسل بدون صابون حتى يمكن استخدام ماء الغسيل بما فيه من الدسم القليل فى غسالة المطبخ . وأدركت كصغيرة أن القمامة مهمة . وعندما أصبحت سيدة كاملة النضج وجدت أنه من الصعب الاندفاع لشراء آلة للتخلص منها .

(واشترت وحدة التخلص من القمامة وعاشت بعد ذلك فى سعادة) .

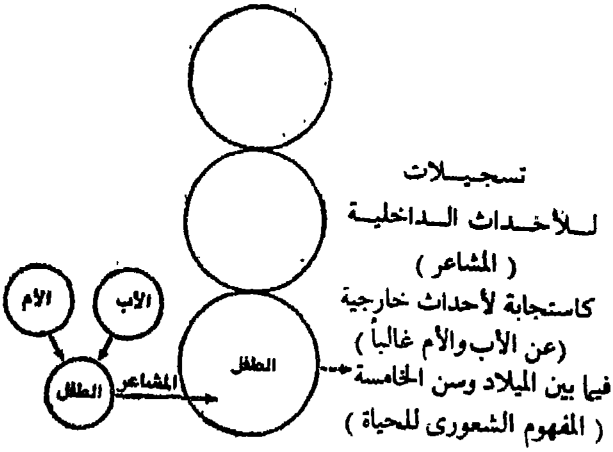
عندما نعرف أن الآلاف من هذه القواعد البسيطة للحياة مسجلة فى مخ كل شخص ، نبدأ فى تقدير كم هو مخزون المعلومات الشاملة التى يتضمنها « الوالد » ٠ وتستند الكثير من القرارات الى مثل هذه الأوامر الاضافية مثل « أبدا » ، و « دائما » و « لا تنس ذلك » وبذلك يصبح لدينا مسارات عصبية أولية مؤكدة ، تمدنا بالمعلومات الجاهزة لمعاملات اليوم ٠ وهذه المبادىء هى أصول الاكراه والمراوغة والشذوذ التى تبدو فى السلوك فيما بعد ٠ وسواء كانت معلومات « الوالد » نقمة أو نعمة ، فانها تعتمد على مدى ملاءمتها للحاضر ٠ وعلى ما اذا كان قد تم تجاوزها فى « الراشد » الذى سنناقش وظيفته فى هذا الفصل ٠

وهناك مصادر لمعلومات « الوالد » بخلاف الأبوين الطبيعيين ٠ ان الصغير ذا الثلاثة أعوام من العمر والذى يجلس أمام التليفزيون لعدة ساعات يوميا انما يسجل ما يراه ٠ وتشكل البرامج التى يراها مبدأ تعليميا للحياة ، فاذا كان يشاهد برامج عنف فانه على ما أعتقد يسجل العنف فى « الوالد » ٠ انها الحياة كما يراها ٠ وهذه نتيجة مؤكدة اذا لم يعبر الأبوان عن المعارضة باغلاق القناة التليفزيونية ٠ واذا استمتع الأبوان ببرامج العنف فان صغارهم يتحصلون على موافقة مزدوجة على هذا السلوك من جهة الأبوين ، فينال الصغير تصريحا بممارسة العنف اذا تطلب الأمر ٠ ان الصغير يجمع أسبابه لتفجير المكان تماما مثلما يشاهد أحداث العنف فى الأفلام التى يمكن تقليدها بسهولة فى حياة الصغير ٠ ان الكثير مما يمكن ممارسته بين أيدى الأقارب الكبار أو أصحاب السلطة يتم تسجيله فى « الوالد » وكذلك أى موقف خارجى يحس فيه الشخص الصغير بعدم استقلاله ، الى حد أن عدم حريته فى السؤال أو الاستكشاف يختزن فى « الوالد » ٠

(يوجد نوع آخر من الخبرة الخارجية للصغير لا يسجل فى «الوالد» وهو الذى سنتحدث عنه عندما نصف « الراشد ») ٠

الطفـــل :

بينما يتم تسجيل الأحداث الخارجية فى شكل مجموعة المعلومات التى تسمى « الوالد » فان هناك تسجيل آخر يتم فى نفس الوقت ٠ انه تسجيل الأحداث الداخلية ٠ انها استجابات الشخص الصغير لما يرى ويسمع (شكل رقم ٣) ٠



شكل رقم ٣ : الطفل

ومن المهم فى هذا السياق استعادة ملاحظة بنفيلد : —

يشعر الشخص بالانفعال الذى أنتجه الموقف أصلا · ويعى نفس التفسيرات سواء كانت صادقة أم زائفة ، تلك التى أعطاها للتجربة فى المحل الأول · وعلى ذلك فان الذكرى المستثارة ليست هى نفس الصورة المرئية أو المسموعة للمناظر والأحداث الماضية · انها نتاج ما رآه المريض واستمع اليه وأحس به وفهمه (٢) ·

ان مجموعة معلومات « الرؤية والتسمع والشعور والفهم » هى ما نحدده باسم « الطفل » · ولما كان الصغير يفتقر الى المفردات اللغوية خلال أشد تجاربه المبكرة حرجا ، فان معظم ردود أفعاله تكون مجرد مشاعر · وعلينا أن نضع فى أذهاننا موقفه فى هذه السنوات المبكرة · انه ضئيل الحجم ، ويعتمد على الغير ، وأخرق ، وعديم الكياسة ، وليست لديه حصيلة الكلمات الضرورية لبناء المعانى · قال ايمرسون : « علينا أن نعرف كيف نقيم النظرة الغاضبة » · ان الصغير لا يعرف كيف يفعل ذلك · ان تحويل نظرة غاضبة تجاهه لن يؤدى الا الى مشاعر تضاف الى مخزون المعلومات السلبية عند الصغير ·

وخلال لحظات الضعف هذه يوجد عدد غير محدود من المطالب

---

(٢) W. Penfield, "Memory Mechanism", A.M.A. Archieves of Neurology and Psychiatry 67 (1962) : 178-198.

(★) مع مناقشات بعلم كوبى

التي لا تقبل مساومة ، تتراكم على الطفل ٠٠٠ ان لديه الدوافع (التسجيلات الوراثية) التي تدعوه الى التبرز في أى وقت ، والى الاستطلاع، والى المعرفة ، والى القمع والضرب ، والى التعبير عن مشاعره ، وتجربة كافة المشاعر السارة المرتبطة بالحركة والاكتشاف - هذا من جهة ٠ ومن جهة أخرى فان هناك الطلب المستمر من البيئة المحيطة ، خاصة الأبوين ، بأن يتخلى عن هذه الرغبات الأولية طلبا لرضا الأبوين ٠ وهذا الرضا الذى يمكن أن يختفى بمثل سرعة ظهوره انما هو سر خفى المعنى بالنسبة للطفل الذى لم يوجد عنده بعد أى ربط مؤكد بين العلة والمعلول ٠

ان الأثر الجانبى المهم لعملية التمدين يتمثل فى المشاعر السلبية ٠ وعلى أساس هذه المشاعر يستنتج الشخص الصغير مبكرا أنه ليس على ما يرام ٠ ونحن نسمى هذا التقييم الذاتى الشامل « عدم الرضا أو الطفل غير الراضى » ٠ ان هذه النتيجة والممارسة المستمرة للمشاعر المقبضة التى أدت اليها وأكدتها ، مسجلة بصفة دائمة فى المخ ولا يمكن محوها ٠ وهذا التسجيل المستمر هو بقية مرحلة الطفولة لأى طفل حتى طفل الأبوين العطوفين والمحبين والمتفهمين ٠ انه موقف مرحلة الطفولة ٠ وليس قصد الأبوين هو الذى ينتج المشكلة (سنناقش ذلك بالتفصيل فى الفصل التالى عن : مواقف الحياة) ٠ وهناك مثال على مشكلة مرحلة الطفولة تعبر عنه عبارة ذكرتها كريمتى هايدى ، ذات الأعوام السبعة ، فقد قالت يوما أثناء الافطار : « بابا ٠٠ اذا كان عندى أب على ما يرام وأم على ما يرام ، فكيف اذن أصبحت أنا على غير ما يرام ؟ » ٠

واذا كان أطفال الوالدين الطيبين يعانون من هذا الموقف ، فما بالك بأطفال الوالدين المدانين بالاهمال الشنيع والسب والقسوة !

وكما فى حالة « الوالد » فان « الطفل » حالة قد يتحول اليها الشخص فى أى وقت أثناء معاملاته الحاضرة ٠ وهناك أشياء عديدة يمكن أن تحدث لنا اليوم ، وتنشىء موقف الطفولة ، وتولد نفس المشاعر التى أحسسنا بها آنذاك ، وسنجد أنفسنا غالبا فى مواقف نواجه فيها خيارات غير ممكنة ، حيث نجد أنفسنا محاصرين فى الركن ، اما طبيعيا أو بالطريقة التى نراها ٠ وبالنسبة للطفل فان هذا فخ ينتج عنه استعادة المشاعر الأصلية المتعلقة بالاحباط والرفض أو التجاهل فنعيش من جديد تجربة مماثلة لهذا الاحباط المبكر للصغير ، ولذلك عدما يكون الشخص رهين مشاعره ، نقول أن « طفله » قد بدأ يعمل ٠ وعندما يطغى غضبه على منطقه ، نقول : ان « طفله » يتولى الزمام ٠

وهناك أيضا جانب مشرق فى « الطفل » حيث يوجد مخزون ضخم من المعلومات الايجابية · ففي « الطفل » يكمن الابداع وحب الاستطلاع والرغبة في الاستكشاف والمعرفة، وحوافز اللمس والاحساس والتجريب ، وتسجيلات المشاعر الأصيلة العظيمة للاكتشافات الأولى · وتسجل فى « الطفل » أعظم التجارب العجيبة التى لا تحصى ، وأحداث الحياة التى تحدث للمرة الأولى فى حياة الشخص الصغير مثل الشرب لأول مرة من خرطوم الحديقة ، وأول تربيت على ظهر القطة الناعم وأول مرة يظهر فيها النور استجابة لضغطه على مفتاح التوصيل ، وأول ملاحقة للفقاعات الصابون · وتكرار استعادة هذه الأشياء العظيمة مرات ومرات · ان أحاسيس هذه المباهج مسجلة أيضا مع تسجيلات عدم الرضا · وهناك لحن مصاحب هو ايقاع الرضا لهدهدة الأم ، والنعومة الحساسة للبطانية المفضلة · انها استجابة طيبة مستمرة للأحداث الخارجية المفضلة (اذا كان هذا بالفعل طفلا مفضلا) وذلك عند استعادتها خلال معاملات اليوم · وهذا هو الجانب الرقيق أى « الطفل » السعيد ، المطمئن النفس ، الولد الصغير الذى يلاحق الفراشات ، الصغيرة التى تلتهم الشيكولاتة وهذا هو ما يظهر أيضا فى معاملات اليوم · وعلى أية حال فان ملاحظاتنا للصغار ثم لأنفسنا كبالغين تقنعنا بأن مشاعر عدم الرضا تتجاوز مشاعر الرضا بمراحل · وهذا هو السبب فى اعتقادنا بأن التقييم العادل يدعونا الى القول بأن فى كل فرد « طفل » عديم الرضا ·

وقد سئلت مرات عديدة : متى تتوقف تسجيلات « الوالد » و « الطفل » ؟ وهل « الوالد » و « الطفل » يتضمنان فقط التجارب التى حدثت خلال السنوات الخمس الأولى من العمر ؟ انني أعتقد أنه فى الوقت الذى يترك فيه الصغير البيت الى أول تجاربه الاجتماعية الاستقلالية وهى المدرسة ــ يكون قد تعرض تقريبا لكل موقف وعظ ممكن من أبويه ، ومنذئذ تصبح كافة الاتصالات الأبوية بالضرورة تأكيدا لما تم تسجيله ، كما تسير خاصية تأكيد حقيقة أنه يبدأ الآن ممارسة « الوالد » على الآخرين ــ فى خط متواز مع فكرة أرسطو حول أن ما جرى التعبير عنه يجرى التأكيد عليه · وبالنسبة للتسجيلات التالية فى « الطفل » فمن الصعب أن نتخيل وجود أى احساس لم يحسه المرء فى صورته المكثفة عندما كان عمره خمس سنوات ، ويتمشى هذا مع فكرة التحليل النفسى ويصدق معها · واذا ما خرجنا من الطفولة بمجموعة من التجارب المسجلة فى « الوالد » و « الطفل » وهى تجارب لا تنمحى ــ فما هو اذن أملنا فى التغيير ؟ كيف نخرج من فخ الماضى ؟

الراشـــد : —

في الشهر العاشر من العمر يبدأ شيء ملحوظ يحدث للصغير · كانت حياته حتى ذلك الوقت تتكون أساسا من إستجابات عاجزة أو بدون تفكير في مطالب وحوافز هؤلاء المحيطين به · كان له « والد » و « طفل » · أما ما لم يكن متوفرا لديه فهو القدرة على اختيار استجاباته أو التحكم فيما يحيط به · لم يكن لديه توجه ذاتي ، أو قدرة على الخروج لمواجهة الحياة · كان بكل بساطة يقبل ما يظهر في طريقه ·

وعلى كل حال فانه عند سن العشرة شهور ، يبدأ في ممارسة قوة الحركة ، ويستطيع التحكم في الأشياء ، ويبدأ في الخروج محررا نفسه من سجن السكون ، والصغير في سن مبكر ، مثل ثمانية شهور ، قد يبكي ويطلب المساعدة للخروج من موقف مربك لا يستطيع الخروج منـه في الكثير من الأحوال ، أما عند سن عشرة شهور فيولي اهتمامه الى تفحص اللعب واستغلالها حسب الدراسـات التي قام بها « جيسيل والج » عن الصغير في سن العاشرة ·

. · · · ويستمتع باللعب بالكوب متظاهرا بالشرب ، ويقرب الأشياء من فمه يلوكهـا ، ويستمتع بحركة اللعب الكبيرة ذات الموتور ، ويحب الجلوس واللعب بعد مساعدته على الوقوف ، والانحناء للأمام ثم الاعتدال بنفسه · انه يفك اللعبة ، ويركل ، ويمضي من الجلوس الى الزحف ، ويشد نفسه الى أعلى ، وقـد يخفض نفسه ، ويبدأ في التقـدم للأمـام · أما الأنشطة الاجتماعية التي يستمتع بها فهي ألعاب اخفاء الوجه ثم كشفه فجأة ، وألعاب الشفتين ، ثم اللبير مع الإمساك بكلتا يديه ، أو وضعـه منبطحا على الأرض ، أو وضعه في لعبة هزازة ·

وتظهر البنات أولى علامات الشقاوة بتحويل الوجه الى أحد الجانبين عندما يتبسمن (٣) ·

وتأتي القدرة على الحركة التلقائية التي يتولد عنها « الراشد » لتتأكد في الحياة المستقبلة عندما يكون الشخص في خطر · انه يذهب يتمشى

وخلال هذه السنوات المبكرة يكون (الراشد » هشا وعرضة للتجربة فمن السهل « اخضاعه » بأوامر « الوالد » وخوف « الطفل » · الأم تقول.

---

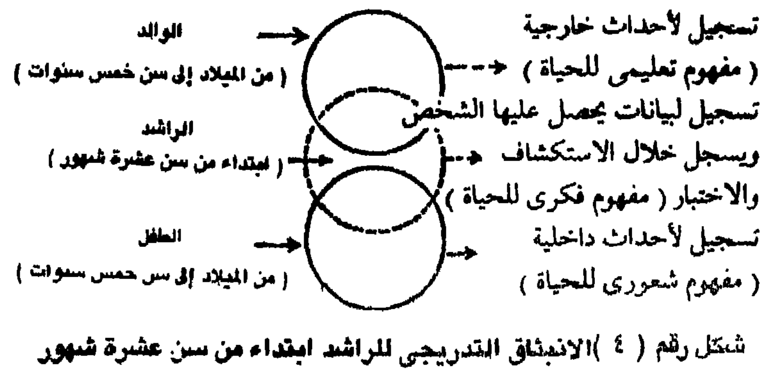
(٣) Arnold Gessel and Frances L. Elg. "Infant and child in the Culture of today (New York : Harper, 1943), p. 116-122.

لقد اكتشف الصغير ذو العشرة شهور أنه قادر على عمل شيء يعود الى ادراكه هو وفكره الأصيل • وهذا الاحساس بالذات هو بداية « الراشد » (شكل رقم ٤) •

وتتراكم معلومات « الراشد » نتيجة لقدرة الصغير على أن يكتسف لنفسه ما الذى يختلف من أمور الحياة — عن « مفهوم التعلم للحياة » فى « الوالد » و « مفهوم الشعور بالحياة » فى « الطفل » • ان « الراشد » يطور « مفهوم التفكير فى الحياة » اعتمادا على جمع المعلومات وتصنيفها •

وتأتى القدرة على الحركة التلقائية التى يتولد عنها « الراشد » لتتأكد فى الحياة المستقلة فى خطر انه يذهب يتمشى لكى « يجلو عقله » • ان السير بخطوة وئيدة يبدو كمهدىء للانفعال فهناك تسجيل يفيد بأن الحركة مفيدة وان لها خاصية الفصل وأنها نساعده على أن يرى ماهية المشكلة بوضوح •

وخلال هذه السنوات المبكرة يكون « الراشد » هشا وعرضة للتجربة ، فمن السهل « اخضاعه » بأوامر « الوالد » وخوف « الطفل » الأم تقول عن الكأس الكريستال « لا ، لا ! لا تلمسها » • وهنا قد يتراجع الصغير ويصرخ ، ولكنه عندما تسنح له أول فرصة سيلمسها بأى طريقة ليعرف ماهيتها • ونجد فى معظم الأشخاص أن « الراشد » يعيش ويستمر فى عمله بكفاءة أكثر وأكثر مع استمرار عملية النضج بالرغم من كافة العقبات التى تعترض طريقه •



شكل رقم (٤) الانبثاق التدريجى للراشد ابتداء من سن عشرة شهور

ان الراشد يهتم أساسا بتحويل الدوافع الى معلومات ، ثم تصنيف وترتيب هذه المعلومات على أساس الخبرة السابقة (٤) • انه يختلف عن

---

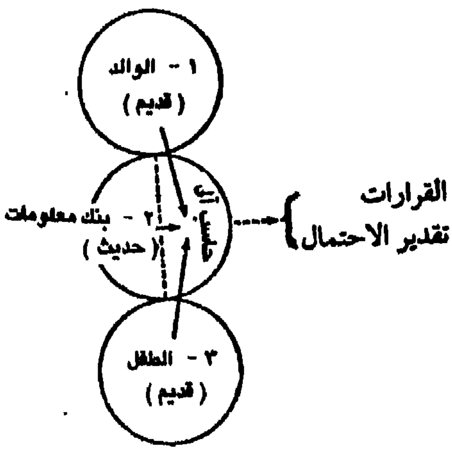
(٤) Berne," Transactional Analysis in Psychotherapy".

« الوالد » الذى هو (أحكام تغرض بطريقة المحاكاة وتسعى لتقوية مجموعات النماذج المستعارة من « الطفل » التى تنحو نحو رد الفعل بطريقة أكثر فجائية على أساس التفكير المنطقى والادراك المختلف أو المشوه) ٠

ويستطيع الشخص الصغير من خلال « الراشد » أن يبدأ فى ذكر الاختلاف بين الحياة كما علمت وفسرت له من خلال « الوالد » والحياة كما أحسها أو أرادها أو تخيلها « الطفل » ، والحياة كما يصورها بنفسه « الراشد » ٠ ان « الراشد » حاسب آلى يخرج القرارات بعد أن يتغذى بالمعلومات من ثلاثة مصادر :

« الوالد » و « الطفل » والمعلومات التى جمعها « الراشد » ولا يزال يجمعها (شكل رقم ٥) ٠ وأهم وظائف « الراشد » هى فحص معلومات « الوالد » ليرى ما اذا كانت حقيقية وصالحة للتطبيق اليوم من عدمه ومن ثم يقبلها أو يرفضها ٠ ثم يختبر « الطفل » ليرى ما اذا كانت الأحاسيس مناسبة للحاضر أو أصبحت بالية ، مع الرد على معلومات « الوالد » البالية ٠ وليس الغرض هو تجاهل « الوالد » و « الطفل » ولكنه فحص هذه المجموعات من المعلومات فى حرية ٠ وحسب تعبير ايمرسون فان « الراشد » (يجب ألا يتعطل تحت مسمى « الخير » وانما يجب أن يفحصه لمعرفة ما اذا كان خيرا أم شرا بالنسبة لهذا الأمر ، مثل القرار المبكر القائل : « أنا لست على ما يرام » ٠

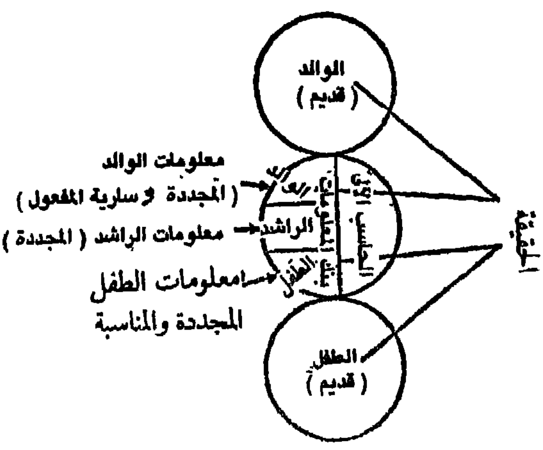
وقد يبدأ فحص « الراشد » لمعلومات « الوالد » فى عمر مبكر ٠ ان النشء السليم هو الذى يجد أن معظم معلومات « الوالد » سليمة : (لقد ذكرا لى الحقيقة !) ٠



شكل رقم ٥ : « الراشد » يحصل على المعلومات من ثلاثة مصادر

ان الولد الصغير الذى رأى سيارة تصدم كلبه المدلل فى الشارع يستنتج أن « السيارات » التى فى الشارع خطيرة حقا » ويظن الولد الصغير الذى تسلم هدية من صديقه : « حقيقة أن الأشياء تصير أفضل عندما أتقاسم لعبى مع صديقى » • وتستنتج البنت الصغيرة التى تعلمت أن تذهب الى الحمام وحدها : « بالفعل أشعر بالراحة عندما لا تكون سراويلى مبللة » • ويستطيع الطفل من خلال « الراشد » أن يعرف الأمانة ، والاحساس بالذات ، ويصمد كل ما يفحصه بالاختيار ، وتبدأ المعلومات التى يجمعها من خلال التجارب والفحوص أن تشكل بعض « الثوابت » التى يستطيع أن يثق بها • وتستند قراراته فى المحل الأول الى ما تعلمه •

ومس المهم التأكيد على أن تحقيق معلومات « الوالد » لا يمحو تسجيلات عدم الرضا فى « الطفل » تلك التى نتجت بالغرس المبكر لهذه المعلومات • ان الأم تعتقد أن الطريقة الوحيدة لابعاد جونى ذى الثلاثة أعوام عن الشارع هى ضربه علقة • انه لا يفهم الخطر والاستجابة عنده هى الخوف والغضب والاحباط مع عدم تقدير حقيقة أن أمه تحبه وهى تحمى حياته • أما الخوف والغضب والاحباط فهذه كلها لا تمحى عندما يعرف أخيرا أنها كانت على حق فيما عملته • ولكن فهم كيفية أن الموقف الأصلى للطفولة قد أنتج العديد من تسجيلات عدم الرضا التى من هذا النوع ، يمكن أن يحررنا من استمرار الاستماع الى هذه التسجيلات فى الحاضر • اننا لا نستطيع أن نمحو التسجيلات ، ولكننا قد نختار وقت الاستماع اليها • وبنفس الطريقة التى يجرى بها « الراشد » عملية التحديث لمعلومات « الوالد » لتحديد أيها يصح وأيها لا يصح ، يجرى عملية التحديث أيضا



شكل رقم ٦ : عمليه تحديث الراشد من خلال اختبار الحقيقه

لمعلومات « الطفل » لتحديد المشاعر التى يمكن أن يعبر عنها بأمان : نعتبر فى مجتمعنا أنه من المناسب للمرأة أن تبكي يوم الزفاف ولكنه ليس من المناسب لنفس هذه المرأة أن تصرخ في وجه زوجها عند استقباله فيما بعد ، علما بأن كلا من البكاء والصراخ يدخل ضمن عواطف « الطفل » • ان « الراشد » يجعل التعبير عن العواطف سليما • وسنجد أن وظيفة « الراشد » فى اجراء عملية التحديث « للوالد » و « الطفل » مبينة بالرسم فى شكل رقم ٦ حيث يشير « الراشد » داخل « الراشد » فى هذا الشكل الى البيانات الواقعية التى تم تحديثها ، (حدثنى العقل مرة أن رحلة الفضاء خيالية ، أما الآن فاننى أعرف أنها حقيقة) •

والوظيفة الأخرى للراشد هى : تقييم الاحتمالات : وهذه الوظيفة بطيئة النمو فى الصغير ، ويبدو أن نمو هذه الوظيفة يجد صعوبة فى ملاحقة الفرد أثناء نموه فى الحياة ، فالشخص الصغير محاط دائما بالاختيارات غير السارة (اما أن تأكل السبانخ أو تحرم من الأيس كريم) فهو يجد دوافع قليلة لفحص الاحتمالات • وتقف الاحتمالات التى لم تختبر خلف العديد من نوعيات فشلنا فى المعاملات ، كما أن علامات الخطر غير المتوقعة تستطيع أن تسبب فساد « الراشد » أو تأخيره عما هو متوقع • فالأمر هنا أشبه ببرقيات جهاز التيكرز التى قد تصل متأخرة بسبب ضغط العمل وكثافته ، ولا حل لنا أمام تباطؤ الحاسب الآلى هنا سوى التذرع بالصبر •

ويمكن زيادة القدرة على تقييم الاحتمالات بجهود الوعى ومثل العضلة فى الجسم فالراشد ينمو ويزداد فى الكفاءة من خلال التدريب والاستعمال • واذا تنبه « الراشد » الى امكانية حدوث المتاعب من خلال تقييم الاحتمالات فانه يستطيع أن يبتكر الحلول لمواجهة المتاعب اذا حدثت وفى نفس وقت حدوثها •

وعلى أية حال فان « الراشد » يتأثر بفعل الضغط الى الدرجة التى عندها تباشر العواطف عملها بصورة غير صحيحة ، حيث تذوب الحدود بين « الوالد » و « الطفل » ، أو تصير غير واضحة المعالم ، وتتعرض للهجوم من تلك الاشارات الواردة التى تنحو نحو اعادة خلق المواقف التى مارسناها خلال أيام الطفولة التى كنا فيها معتمدين على غيرنا وعديمى الحيلة • وتنهمر على « الراشد » أحيانا اشارات « الأنباء السيئة » فتجتاح كيانه بحيث ينكمش « الراشد » ليصبح مجرد مراقب للمعاملات ، ولابد للفرد الذى يواجه مثل هذا الموقف أن يقول : « أعرف أن ما كنت أفعله خطأ ، ولكننى لم أستطع أن أمنع نفسى » •

ويمكن رؤية الاستجابات غير الراشدة وغير المنطقية وغير الحقيقية في الموقف الذى نسميه : صدمة عصبية traumatic neurosis. ان اشارة الخطر أو « النبأ السيء » تصدم « الوالد » و « الطفل » في نفس الوقت الذى تصدم فيه « الراشد » . أما « الطفل » فيستجيب بالطريقة التى استجاب بها في الأصل أى بأحاسيس سيئة ، وهذا يمكن أن ينتج كافة أنواع الظواهر المنعكسة . ومرة ثانية قد يشعر الفرد بنفسه صغيرا ضئيلا معتمدا على غيره وعديم الحيلة . وأكثر هذه الظواهر بدائية هو توقف التفكير thought blocking وهو موقف واضح نراه في مستشفيات العلاج النفسى التى تطبق سياسة الباب المغلق ، وعندما يغلق الباب على مريض جديد يكون الارتداد سريعا وواضحا . وهذا يبين : لماذا أعارض علاج المرضى بنظام يرتكز على العناية الأبوية فتدليل « الطفل » العاجز الكامن في المريض يؤدى الى تأخير عملية بناء استعادة « الراشد » لوظيفته التقليدية .

ان المستشفى المثالى قد يكون بنسيونا مريحا به « منطقة لعب » للطفل تحيط بمبنى العلاج المخصص للأنشطة التى صممت لتحقيق الاستقلال الذاتى للراشد . ولن ترتدى الممرضات زيهن الرسمى أو يخدمن المرضى مثل الأبوين ، وبدلا من ذلك فان الممرضات وهن بملابس الخروج قد يطبقن مهاراتهن وتدريبهن في مساعدة كل واحد على تعلم شخصية « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » .

ونحن نستخدم مع مجموعات العلاج لدينا عبارات عامية مثيرة مثل : « لماذا لا تبقى في « راشدك » ؟ » وذلك عندما يجد الفرد أن مشاعره قد استبدت به ، وعبارة أخرى مثل « ماذا كانت المعاملة الأصلية ؟ » ويوجه هذا السؤال كوسيلة لاطلاق « الراشد » لتحليل التشابه بين الاشارة القادمة حاليا والتى تنتج الضغط الحالى والمعاملة الأصلية ، التى عانى منها الصغير .

ويتمثل عمل « الراشد » في فحص المعلومات القديمة والموافقة على سريانها أو وقف العمل بها والاحتفاظ بها للاستخدام في المستقبل . فاذا سار هذا العمل بسهولة وكان هناك غياب نسبى للتعارض بين ما جرى تعلمه وما هو حقيقى ، يصبح الحاسب حرا لأداء العمل الجديد المهم وهو الابتكار . ويتولد الابتكار عن حب الاستطلاع في « الطفل » كما هو في « الراشد » . ان « الطفل » يقدم الرغبة و « الراشد » يقدم « الكيفية » . أما الضرورة الملحة للابتكار فهى وقت الحاسب ، فاذا كان الحاسب مشغولا بالتعامل مع المعلومات القديمة فسيكون وقته المتوفر للعمل الجديد محدودا. ويصير الكثير من أوامر « الوالد » آليا بمجرد الفحص وبذلك يتفرغ الحاسب للابتكار .

ان العديد من قراراتنا فى المعاملات اليومية يجرى آليا ، فعلى سبيل المثال : عندما نرى سهما يحدد شارعا ذا اتجاه واحد ، نمتنع آليا عن السير فى الاتجاه المضاد ، ولا نشغل الحاسب فى عمليات مطولة لتصنيف المعلومات حول هندسة الطرق العلوية وضريبة المرور أو كيفية رسم علامات المرور • هل نبدأ بالتنقيب فى كل قرار أم نعمل كلية بدون المعلومات التى يقدمها « الوالد » ؟ اذا حدث ذلك فان الحاسب نادرا ما يتوفر لديه الوقت لعملية الابتكار •

ويجادل بعض الناس أن الطفل الذى لا يتبع أبواه نظاما صارما فى تربيته ، والذى لا تعوقه حدود هو أكثر ابتكارا من الطفل الذى يضع « والده » الحدود • ولا أعتقد أنا نفسى فى صحة هذه المقولة ، لأن الصغير لديه دائما وقت كاف للابتكار والاستكشاف والاختراع والمشاركة والتجميع — اذا لم يضيع الوقت فى اتخاذ القرارات التى ليس لديه معلومات كافية عنها • وهناك وقت كاف لدى الصغير لبناء رجل الثلج اذا لم يضيع وقته فى جدال طويل مع أمه حول ما اذا كان سيرتدى أحذية الثلج أم لا • واذا تغاضى الأبوان عن صغيرهما «الفنان» الذى يستخدم ورنيش الأحذية للرسم على الجدران ، فلن يتغاضى الجيران عن ذلك فى بيتهما ، ولن يكون الصغير مستعدا لتقبل العواقب المؤلمة للعبته هناك • ان النتائج المؤلمة لا تنتج مشاعر حميدة • وهناك نتائج أخرى تستغرق وقتا مثل العلاج فى المستشفى بعد حادثة سيارة • ان هناك وقت كاف للحاسب ، ولكن الصراعات تستغرق قدرا كبيرا منه • وهناك تظهر مشكلة عويصة تستهلك الوقت ، عندما يكون الصواب فى رأى « الوالد » لا يبدو صوابا بالنسبة « للراشد » أما أكثر الأفراد ابتكارا فهو الشخص الذى يكتشف أن جزءا كبيرا من مضمون « الوالد » يتفق مع الحقيقة . فهو يستطيع حينذاك أن يحتفظ بهذه المعلومات سارية المفعول فى « الوالد » ويثق بها وينسى التفكير فيها ويمضى الى أشياء أخرى مثل : كيف يجعل الطائرة الورقية تطير ، أو كيف يبنى قلعة من الرمال ، أو كيف يحسب التفاضل والتكامل •

وعلى أية حال فان معظم الأحداث مشحونون معظم الوقت بالتعارض ما بين معلومات « الوالد » وما يرونه حقيقة • وتنحصر مشكلتهم المثيرة للقلق فى أنهم لا يفهمون لماذا يكبلهم « الوالد » بهذا القيد • وعندما تأتى الحقيقة لتدق على باب « الوالد » يقول « الوالد » : لا تعال .. لنتناقش معا » والصغير الذى يكون أبوه فى السجن وتضطر أمه للسرقة لكى تربيه ، قد يستمع الى تسجيل مرتفع فى « الوالد » يقول : « لا تثق فى شرطى » • ولذلك فانه عندما يلتقى بشرطى يكن له مشاعر الصداقة

فان « الراشد » يحسب كل المعلومات المتعلقة بهذا الشخص اللطيف ، وكيف يزاول لعب الكرة فى الفناء ، وكيف يعزم أصدقاءه على الفشار ، وكيف يكون مفعما بالصداقة ، وكيف يتحدث بصـوت خفيض · هنـاك اذن مشكلة بالنسبة لهذا الحدث : ان ما يراه حقيقة يختلف عمّا تعلمه « الوالد » يقول له شيئا بينما « الراشد » يقول له شيئا آخر ·

انه يتقبل رأى « الوالد » فى رجال الشرطة خـلال فترة اعتمـاده الطبيعى على أبويه من أجل الأمان ، بصرف النظر عن مدى ضآلة هذا الأمان · وهذه هى الطريقة التى يتكون بها الرأى المسبق لأنه بالنسبة للولد الصغير قد يكون تصديق الكذبة أكثر أمانا من تصديق عينيه وأذنيه · وعلى ذلك فان « الوالد » يهدد « الطفل » (فى حوار ثنائى داخلى متواصل) ممـا يجعل « الراشد » يتخلى ويتوقف عن الدخول فى مناطق التعارض فتظهر عبارة « رجال الشرطة أشرار » فى شكل قابل للتصديق · وهذا هـو ما يطلق عليه اسم : افساد الراشد Contamination ، وسنفحصه فى الفصل السادس ·

الفصل الثالث

مواقف الحياة الأربعة

(ان الأسى يخالج المرء حينما يتدبر بروح انسانية منزهة عن الغرض أو الهوى ، الفكاهات المهذبة ، فيرى أن الوضع المحرج الذى تسخر منه هو المصير الذى سيؤول اليه أحد الصغار ـ سورين كيركجارد)

ان كل طفل يتوصـــل فى وقت مبكر جـدا من الحيـاة الى موقف « أنا لست على مايرام » بينما يرى أن والديه بالنسبة له هما فى موقف « أنت على مايرام » • وهذا هو أول ما يتصوره فى محاولته التى تستغرق كل العمر ـ للاحساس بذاته وبالعالم الذى يعيش فيـه • وهذا الموقف « أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام » هو أكثر القرارات المصيرية فى حياته • انه مسجل دائما وسيؤثر فى كل شىء يعمله ، لأنه قرار يمـكن تغييره بقرار جديد ولكن ليس قبل أن يفهمه •

ولتأييد هذه الآراء أود أن أكرس الجزء الأول من هذا الفصل لفحص مواقف الوليد والرضيع والصغير ، خلال سنوات ما قبل النطق وما بعده • يصر الكثيرون من الناس على أنهم عاشوا « طفولة سعيدة » ولم يستنتجوا موقفا مثـل « أنا لست على مايـرام ؛ وأنت على مايرام » وأنا أعتقد أن كل صغير قد استنتج ذلك الموقف ، فعلى الرغم من هذه « الطفولة السعيدة » فانني ، أولا : أود أن أفحص موقف دخوله الى الحياة ، وأن أشـــير الى الدليل على أن أحداث ميلاده وطفولته مسجلة ، حتى مع عجزه عن تذكرها•

ونسجل ثانية فى هذا السياق ـ استنتاجات بنفيلد حول قيام المخ بثلاثة وظائف : ١ ـ التسجيل ٢ ـ استعادة التسجيل ٣ ـ المعايشة ٠

وبالرغم من أن الاستعادة منذ البداية المبكرة للحياة مستحيلة ، الا أن لدينا دليلا على أننا نستطيع أن نعايش من جديد الخبرات المبكرة فى شكل العودة الى حالة الشعور لدى الوليد ٠ ونظرا لأن الوليد لا يستطيع استخدام الكلمات ، لذلك فان ردود أفعاله تقتصر على الأحاسيس والمشاعر وربما التخيلات القديمة غير الواضحة ٠ انه يعبر عن مشاعره بالصراخ أو بحركات مختلفة للجسم تبين اما عن الخطر أو الراحة ٠ وبالرغم من أن أحاسيسه وتخيلاته لاتوصف لعدم قدرته على الكلام وقت تسجيلها ، الا أنها تستعاد بين الحين والآخر فى الأحلام خلال حياته المستقبلة ٠

واليك نموذج يسهل تصوير الموقف : ذكرت لى مريضة حلما تكرر خلال حياتها ٠ وفى كل مرة شاهدت هذا الحلم ، كانت تستيقظ فى حالة من الفزع الشديد ، مع تلاحق دقات القلب ، وضيق التنفس ٠ وناضلت بشدة لكى تصف الحلم ولكنها لم تجد الكلمات التى تعبر عنه ٠ وفى احدى محاولات وصفه ، قالت أنها أحست كما لو كانت « مجرد ذرة دقيقة وصغيرة ، وقد التفت حولى أجرام سماوية ضخمة ومستديرة مثل المجرات الحلزونية الآخذة فى النمو أكبر وأكبر ، وكانت تهدد بابتلاعى فظهرت كما لو كنت أختفى داخل هذا الشىء الواسع الضخم » ٠ وبالرغم من أن تقريرها كان مصحوبا بملاحظتها عن فقدان شخصيتها ، الا أن طبيعة الفزع الشديد تبين أنه ربما كان هناك خوف من فقدان حياتها كرد فعل بيولوجى أولى تجاه التهديد بالموت ٠ وبعد ذلك بوقت قليل ذكرت الحلم مرة ثانية ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى شاهدته منذ عام ٠ كانت مسافرة وقد تناولت هى وزوجها الغداء فى مطعم على الطريق ديكوره أفضل من طعامه ، ولم تشعر بالراحة عندما عادا الى الفندق ٠ ورقدت لحظة قصيرة واستغرقت فى النوم ، ولم يمض وقت طويل حتى استيقظت فزعة لرؤية نفس الحلم ، فوجدت نفسها تعانى من تقلصات شديدة فى المعدة « ضاعفت من ألمى » ولم أصادف من قبل حدثا جعلنى فى مثل هذا الهياج ٠ وبدا الحلم المزعج وكأن له علاقة مباشرة بهذا الألم المعوى ٠ وكان الحلم لايزال مستعصيا على الوصف ٠ وعلى أية حال فانها ذكرت لى احساسا آخر ، هو الاحساس بأنها كانت تختنق ٠

وقد ساعدتنا معلومات معينة عن أم المريضة على تصور الأصل الممكن لهذا الحلم ٠ كانت الأم سيدة ضخمة ممتلئة الجسم قد أرضعت صغارها

من منطلق الفكرة القائلة بأنه لا توجد هناك مشكلة طالما كان الطعام هو العلاج . كانت فكرتها عن العناية بالصغار تتركز فى اطعامهم جيدا . وكانت فى نفس الوقت امرأة مستبدة وعدوانية . وقد استنتجنا (وهذا هو أقصى ما نستطيع التوصل اليه) أن الحلم كان له أصله الذى يعود الى الوقت الذى لم تكن فيه المريضة قد تعلمت الكلام ، حيث أنها لاتستطيع أن تصف المضمون . أما علاقة الحلم بالمغص الباطنى فهى تعبر عن بعض الصلة بتجربة غذائية مبكرة ، والاحتمال الوارد هو أنه اذا كانت المريضة فى صغرها قد نالت عناية فائقة واحساسا بالرعاية التامة ، فان الأم كانت تصر على أنها فى حاجة الى المزيد (كان ذلك فى الماضى حينما كانت الأمهات يسرفن فى اطعام الصغير حتى لا يشعر بالجوع قبل مضى وقت طويل) . أما أحاسيس « حالة الحلم » والنوم والاختناق وتقلصات المعدة ، فربما كانت موجودة بالفعل . أما المضمون (الشىء الصغير الذى ابتلعه شىء كبير ، والأجرام السماوية) فمن الممكن أن تكون استعادة لادراك الصغير حول هذه الحالة — تماما مثل الذرة الدقيقة التى ابتلعتها الأشياء المستديرة ، وصدر الأم أو الوجود الضخم للأم نفسها بالنسبة للصغيرة .

وهذا النوع من مادة الأحلام يساند الافتراض بأنه **بالرغم من أن تجاربنا المبكرة لايمكن وصفها ، الا أنها تسجل ويستعاد مضمونها فى الحاضر** . وهناك امارة أخرى على أن التجارب تسجل منذ وقت الولادة ، وهى الاستمساك بالمكاسب الماضية . وبالرغم من أن استجابة **الصغير** للدوافع الخارجية تكون غريزية فى البداية ، الا أنها سرعان ما تعكس تجربة مشروطة أو معروفة (أو مسجلة) . فعلى سبيل المثال يتعلم **الصغير** أن يتجه بناظريه نحو مسار خطوات الأم ، فاذا كانت جميع التجارب والأحاسيس مسجلة استطعنا أن نفهم الألم الشديد على أنه معايشة تجربة ماضية قد أحسسنا بها **كصغار** . ونستطيع أن نفكر فى ذلك من حيث انه استعادة لسماع الشريط الأصلى . ولكى نفهم المغزى فمن المهم أن نختبر موقف **الصغير** . بالعودة الى الشكل رقم ٧ نرى خطا يبين مسافة تبدأ من لحظة الادراك حتى سن خمس سنوات . والخط الزمنى الأول يمثل التسعة شهور المنحصرة ما بين الميلاد والادراك العضوى . وخلال هذه الشهور التسعة حدثت بداية الحياة فى أفضل بيئة كاملة يمكن للكائن الانسانى أن يعيش فيها ويشار الى هذه الطريقة للحياة بوصفها حالة من الألفة والتكافل .

وعلى ذلك فانه عند الولادة العضوية يندفع الشخص الصغير من الحيز الضيق خلال ساعات قليلة ، الى حالة من التناقض الخطير الذى يتعرض فيه



شكل رقم ٧ : ولادات الشخص من البداية الى سن خمس سنوات

لمواقف شاذة مخيفة ومؤكدة وغريبة مثل : البرد ، والشقاء ، والضغط ، والضجيج ، وعدم المساندة ، والاشراف ، والانفصال ، والتجاهل ٠

وسرعان ما يصبح الصغير بعد وقت قصير وحيدا ومنفصلا ولا ينتمى لأحد ٠

ومن الأفكار العديدة عن الصدمة النفسية للميلاد ، افتراض أن الأحاسيس الناتجة عن هذا الحادث مسجلة ومحفوظة بشكل ما فى المخ ٠ وهذا الافتراض يسانده العدد الضخم من الأحلام المتكررة عن « أنبوب الصرف » ٠ انها مجموعة متنوعة لدرجة أن الكثيرين من الأفراد واجهوا تجربة الدخول فى مواقف تالية من الضغط الشديد ٠ ويصف أحد المرضى حلما اندفع أثناءه من خلال بحيرة مياه هادئة الى بئر أو أنبوب للصرف ٠ إنه يعيش احساس الكثافة المتزايدة والضغط الشديد ، وهذا الاحساس نفسه يشعر به المريض بمرض الخوف من الأماكن المغلقة ٠ الصغير يغرق فى فيض من الدوافع غير السارة والغامرة ، وتكون الأحاسيس الناتجة فى **الوليد** ــ على حد قول فرويد ــ مثالا لكل ما يلى من قلق (٥) ٠ وفى لحظات **يجد الوليد منقذا** ، انه كائن انسانى آخر يلتقطه ، ويلفه فى أقماط دافئة ، ويحمله ، وتبدأ العملية المريحة المعروفة باسم « الهدهدة والتربيت » وهذه هى نقطة الميلاد النفسى ٠ (شكل رقم ٧) ٠ وهذه هى أولى المعلومات الواردة وفحواها أن « الحياة فى الخارج » ليست

---

(٥)
Sigmund Freud, The Problem of Anxiety (New York : Norton, 1963).

كلها سيئة ، انها مصالحة وعودة لاحساس الحماية ، انهـا تفتح شهيته للحياة • ان المداعبة أو تكرار الاحساس بالتلامس البدني شيء ضروري لبقائه ، وبدون ذلك فانه سيموت ، اذا لم يكن موتا بدنيا فسيكون موتا نفسيا • وكان الموت النفسى فيما مضى يحدث كثيرا **للصغار** بسبب الحالة المعروفة باسم Marasmus أى الهزال التدريجى الذى كان يحدث **للصغار** فى البيوت المخصصة **للصغار** اللقطاء ويؤدى الى الموت بسبب انعدام هذه المداعبة المبكرة ، ولم يكن هناك سبب عضوى يوضح حالات الموت هذه سوى غياب الحافز الضرورى للبقاء •

وتذبذب جرعات الحنـــان يجعـل **الصغير** فى حالة دائمة من عدم الاتزان • ذلك أنه خـــلال العامين الأولين من العمر لايكون لديه أدوات تفكير ادراكية وهى الكلمات — لتفسير وضعه المتقلقل فى عالمه • وعلى أية حال فانه يسجل دائما المشاعر التى تنبت من العلاقة بينه وبين الآخرين ، وفى المحل الأول الأم • وهذه المشاعر ترتبط مباشرة بالمداعبة أو عدمها • ان من يربت عليه هو انسان على مايرام ، أما تقديره لنفسه فهو غير مؤكد لأن شعوره بأنه على مايرام هو شعور عابر ، ويحل محله دائما شعور بأنه ليس على مايرام • وفى النهاية فان عدم التأكد يقنعه بأنه على غير مايرام • ولكن عند أى نقطـة يتخذ **الصغير** قراره النهـائى فى الموقف « أنـا لست على مايرام ، وأنت على مايرام » ؟

يعتقد بياجيه (٦) استنادا الى مبدأ الملاحظـة الدقيقة **للصغار** ، أن تطوير مبدأ السببية (ماذا يأتى بعد ماذا) يبدأ فى الشهور الأولى من الحياة ويكتسب عند نهاية العام الثانى • وبعبارة أخرى فان المعلومات التى فى شكل خليط من الانطباعات ، تبدأ فى التراكم فى أشكال متتابعة معينة حتى الوصول الى نقطة يمكن للصغير عندها أن يتخذ وضعا أو أن يصل الى استنتاج من الأوضاع والاستنتاجات السابقة على مرحلة الكلام •

ويقول بياجيه : « يبدو خـلال مسار العامين الأولين من الطفولة ، أن نمو الذكاء الحسى والحركى ، وأيضا التوسع فى الربط بين الظواهر المحيطة ، يقود الى **حالة من التوازن** ترتكز على **الفكر المنطقى** • وأعتقد أن حالة التوازن هذه التى تتضح عند نهـاية العـام الثانى ، أو خلال العام الثالث هى ناتج استنتاج **الصغير** عن نفسه وعن الآخرين أى **موقفه فى**

---

(٦) Jean Piaget, "The construction of reatily in the child (New York Basic Books, 1954).

الحياة .. وما دام موقفه قد استقر ، فقد أصبح لديه شيء صلب يعمل به ، نوع من القواعد التى يستند عليها فى توقع المستقبل . ويستمر بتاجيه قائلا أن هذه العمليات العقلية المبكرة غير قادرة على معرفة أو بسط الحقائق ، ولكنها مقصورة على تحقيق النجاح المرغوب أو التوفيق العملى « اذا لم أكن على ما يرام ، وأنت على ما يرام — فماذا أفعل لكى أجعلك تسدى لى معروفا رغم أنك على مايرام وأنا لست على مايرام ؟ ويبدو الموقف غير ملائم ولكنه انطباع حقيقى بالنسبة للصغير ، وهو أفضل من لاشيء . وهذه هى حالة التوازن . لقد مارس « الراشد » فى الصغير أولى خطوات السيادة بتفهمه لمعنى الحياة عندما وضع حلا لما أسماه أدلر « المشكلة المركزية للحياة » — الموقف نحو الآخرين — وما أسماه سوليفان « المواقف الذاتية التى يتخذها الشخص الى مالا نهاية » . واليك واحدة من أوضح المقولات حول تطور الموقف أنقلها عن كوبى :

لنا أن نخرج باستنتاج واحد مؤكد وهو نشأة موقف وجدانى مركزى Central emotional position **فى الكثير من الحالات ، أحيانا فى الشهور الأولى للميلاد وأحيانا أخرى بعد ذلك .. وسرعان ما يصير الموقف المؤثر الذى سيعود اليه الفرد تلقائيا بقية أيام حياته » ، وبالتالى فان ذلك قد يشكل اما الواقى الرئيسى ، او نقطة الضعف الرئيسية فى حياته . والواقع اننا قد نتبين أن نشأة هذا الموقف ربما تكون من أولى المواقف العامة التى تندرج فى تطور عملية الاصابة بالمرض العصبى ، مادامت ستبدأ حتى فى أيام الطفولة السابقة لمرحلة الكلام والتى تسبق فهم الرموز .. وعندما يكون الموقف الوجدانى المركزى مؤلما ، فقد يقضى الفرد حياته كلها فى حماية نفسه منه ، مستعملا مرة ثانية أدوات الشعور ، وما قبل الشعور ، واللا شعور ، تلك التى يهدف منها الى تجنب الموقف المفعم بالألم (٧) .**

ثم يتساءل حول ما اذا كانت هذه المواقف تتبدل خلال الحياة فيما بعد أم لا . وأنا أعتقد أنها تتبدل بالرغم من أنه لايمكن محو الخبرات المبكرة التى وصلت الى ذروتها فى هذا الموقف . وأعتقد أن المواقف المبكرة يمكن تبديلها . **ما تقرر يوما ما ، من الممكن الا يتقرر .**

ويقدم تحليل المعاملات التصنيف التالى للمواقف الأربعة الممكنة للحياة ، تلك التى تتخذ بالنسبة للفرد وللآخرين :

---

(٧) L.S. Kubie, The Neurotic Pocess of the Focus of Psychological and Psychoanalytic Research," The Journal of Mental science, vol. 104, No. 435 (1958).

١ ـ أنا لست على مايرام ، وأنت على ما يرام •

٢ ـ أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام •

٣ ـ أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام •

٤ ـ أنا على مايرام ، وأنت على مايرام •

وقبل أن أسهب في شرح كل موقف أود أن أذكر ملاحظات قليلة حول المواقف • انني أعتقد أنه عند نهاية العام الثانى من العمر ، أو أحيانا خلال العام الثالث ، يكون الطفل قد استقر على قبول أحد المواقف الثلاثة الأولى ــ موقف (أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام) هو أول قرار على سبيل التجربة يتخذ بنــاء على خبرات العــام الأول من العمر • وعند نهاية العام الثانى ، اما أن يتأكد ويستقر أو يتخلى عن موقعه للموقف الثانى أو الثالث (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) أو (أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام) • ومع اتخاذ القرار النهائى يبقى الصغير فى موقفه المختار ومن ثم يحكم الموقف كل ما يفعله ويظل معه بقية حياته ، اذا لم يغيره شعوريا الى الموقف الرابع ، والناس لايغيرون مواقفهم للخلف أو الأمام • ويرتكز القرار كلية بالنسبة للمواقف الثلاثة الأولى على المداعبــة من عدمها • ان المواقف الثلاثة الأولى عبــارة عن قرارات غير منطوقة لأنها استنتاجات وليست تفسيرات • ولكنها لاتزال أكثــر من اجابات مشروطة ، انها ما يسميه بياجيه : تدبرات ذهنية فى بناء السببية• وبمعنى آخر أنها نتاج معلومات « الراشــد » التى خزنت لدى الشخص الصغير •

أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام :

هذا هو الموقف الكلى للطفولة المبكرة ، بصفته الاســـتنتاج المنطقى الطفولى من موقف الولادة والطفولة • والشعور بأنك على مايــرام هنــا ناشىء عن المداعبة ، لأن كل صغير يتلقى المداعبة خلال العام الأول من الحياة فالواجب يحتم أن يحمل ويعتنى به • ولن يعيش الصغير بدون الحد الأدنى الضرورى من الحمل على اليدين • وهناك كذلك شعور مضــاد بأنه على غير مايرام ، وهذا الاستنتاج يتعلق به شخصيا • وأعتقد أن الدلائل تشير الى أن طغيان الشعور فى الصغير بأنه على غير مايرام سيجعله يستنتج أنه ليس على ما يرام (على أساس الدليل الذى تكون لديه) وســـيكون استنتاجه هذا منطقيا • وعند تحليل المعاملات للمرضى وغير المرضى وجدت بصفة عامة اجابة : « هو هذا » عند تفسير نشأة الصغير الذى يشعر بأنه

ليس على مايرام ، وأعتقد أن الاعتراف بأن هذا « الطفل » فى داخل كل منا هو الأسلوب التعاطفى بل العلاجى الذى يمكننا أن نحلل به الألعـاب ، وبالتالى فاننا بالنظر الى عموميـة الألعاب تصير عمومية الشعور بأنه على غير مايرام – استنتاجا معقولا ·· وكان خلاف أدلر مع فرويد يدور حول هذه النقطة : **لم يكن الجنس أساس صراع الانسان من أجل البقاء بل هو مشاعر القصور ، أى شعوره بأنه على غير مايرام** · ورغم أن الصغير بسبب ضآلة حجمه وعجزه ، يعتبر نفسه حتما فى مرتبة أدنى بالنسبة للأشخاص الراشدين المحيطين به · وقد تأثر هارى ستاك سوليفان بآراء أدلر ، وتأثرت أنا كثيرا بآراء سوليفان الذى دارت مساهمته الأســاسية فى علم التحليل النفسى حول فكرة « العلاقات المتبـادلة بين الأشـخاص أى المعاملات » – أى أن الصغير يبنى كل تقديره لذاته على تقـدير الآخرين فيما أسماه « التقدير المنعكس » فقال :

يفتقد الصغير المعدات والخبرة الضرورية لتكوين صورة صحيحة عن نفسه ، ولذلك فان مرشده الوحيد هو ردود أفعـال الآخـرين نحـوه ، وليس لديه سبب قوى للشك فى هذا التقدير · وعلى أية حال فانه بسبب ضعفه أبعد عن أن يتحدى الآخرين أو يثور ضدهم ولذلك فانه يقبل – بصورة سلبية – الأحكام التى تصدر أولا خـلال هذه الفترة فى شكل تأكيدى ، بواسطة الكلمات والايماءات والأفعال ··· وعلى ذلك فان المواقف الذاتية التى يتعلمها الفرد فى باكورة حياته تستمر معه فى حياته المستقبلة مع مراعاة تأثير الظروف البيئية غير العادية ، والتعديلات التى تحدث خلال الخبرات التالية (٨) ·

ويشعر الشخص فى المحـل الأول بحنـان الآخـرين فى شكل المديح (٩) انه يشعر بحاجة شديدة للمديح أو التقدير الذى هو الصورة النفسية للمداعبة البدنية المبكرة · وفى هذا الموقف يوجـد الأمل بسبب المداعبـة فيظهر موقف : أنت على مايـرام · حتى اذا لم تكن المداعبـة مستمرة · ان الراشد لديه شىء يعمله : ما الذي أعمله لأفوز بمديحهـم أو موافقتهم ؟ هنـاك طريقتـان قد يحاول بهما الناس أن يعيشـوا هذا الموقف :

---

(٨) From G. S. Blum, "Psychoanaletic Theories of Personality" (New York : Mc Graw Hill, 1953), p. 73-74.

(٩) استخدمنـا هنا كلمة (مداعبه أو تربيت) للطفل فى العامين الأولين وكلمة (مديح) بالنسبة للكبار – ترجمة لكلمة واحدة هى Stroking – المترجم ·

الأولى : أن يعيشوا حوارا حيا (١٠) يؤكد موقف الشعور بأنهم على غير مايرام ـ الذى كبته الصغير بلا وعى • وقد يدعو الحوار الى حياة الانسحاب ، مادام من المؤلم أن يتعامل مع أناس على مايـرام • وعلى ذلك فان الشخص سيبحث عن المديح أو الحنان من خلال الاعتقاد والاندماج فى رغبة جياشة للحياة بمعنى (اذا كنت أنا ـ متى أكون) •

وقد يدعوه حوار شخص آخر الى سلوك يثير ثائرة الآخرين الى درجة أن يتحولوا ضـــده (تربيت سلبى) وهذا يبرهن مرة أخرى على فكرة (أنا لست على مايرام) وهذه هى قضـــية (الولد الصغير الردىء) • **أنت تقول أنني ردىء ، اذن فسأكون رديئا** • ولذلك فانه قد يركل ويبصق ويخدش فى خلال طريقة لممارسة الحياة • وبذلك يحقق تكاملا زائفا مع واحد على الأقل من الثوابت التى يستطيع حصرها : أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام • وفى ذلك يجد نوعا من الاحساس البائس ، لأن تكامل الموقف قد حصل ولكنه يقود لليأس ، والقرار النهائى فى هذا الموقف هو الاستسلام (يتحول الى سلوك راسخ) ، أو الانتحار •

أما الطريقة الثانية فهى الطريقة العادية للحياة فى هذا الموقف عن طريق : **الحوار المعارض** • (اللاوعى أيضا) مع استعارة بعض الخطوط من « الوالد » (تستطيع أن تكون على مايـرام اذا •••) ومثــل هذا الشخص يبحث عن أصدقاء ، فيلتصق بهؤلاء الذين لديهم « والد » كبير لأنه يحتــاج الى مداعبات كبيرة ، وكلمـــا كان « **الوالد كبيرا** » ، كانت المداعبات أفضل ، (المداعبات التى تبعث الشعور على أن المرء على مايرام يمكن أن تأتي فقط عن طريق أشخاص على مايرام) و « الوالد » على مايرام كما كان فى البداية • ان هذا الشخص تواق وراغب وموافق لطلبـــات الآخرين • ان « بعض أفضل أصدقائنا » قد نالوا صداقتنا بسبب هذه الجهود المبذولة لكسب القبول • وعلى أية حال فانهم ربطوا حياتهم بتسلق الجبال ، وعندما يصلون الى قمة أحد الجبال ، فانهم ينتظرون جبلا آخر • ان احساسهم بأنهم ليسوا على مايرام يكتب الحوار • انه (أنت على مايرام)، و (أريد أن أصير مثلك) ذلك الذى يكتب الحوار المعارض ، وليست أعمال تحقيق السعادة أو احساس القيمة المستديمة ، لأن الموقف هنا لم يتغير

---

(١٠) ان تحليل الحوار هو أسلوب كشف القرارات المبكرة التى اتخذت بدون شعور ، مثل كيف نعيش الحياة ـ وأقصد هنا عمومية الحوار ، والحوار المعارض • وللعلم فقد أجريت دراسات محددة حول أصول وتحليل الحوار بمعرفة عدد من محللى المعـــاملات الانسانية منهم برن Berne ، وارنست Ernest ، وجرودر Groder ، وكاربمان Carpman ، وشتاينر Steiner

« بصرف النظر عما أفعله ، فانني لازلت على غير مايــرام » • وحيث ان الموقف لم يسدل عليه الستار أو يتغير فان الانجازات والمهارات التى نتجت عن الحوار المعارض ، تستطيع أن تخدم الشخص جيـــدا عندما يبنى خطة حياة جديدة وواعية مع « الراشد » •

أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام :

اذا توصـــــل جميع الأطفـــال الذين يعيشون الطفولة الى موقف : (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) مبدئيـــا ، فماذا يحدث لكى يتوصلوا الى الموقف الثانى : (أنا لست على مايرام ، وأنت كذلك) ، فماذا جرى لموقف : (أنت على مايرام) ؟ ماذا حدث لمصدر المداعبات ؟ لقد حدث شىء ذو معنى للرضيع عند نهاية العام الأول • انه يمشى • انه غير محتاج لمن يحمله فيما بعد • واذا صارت أمه باردة ولم تعد تداعبه ، واذا تعاونت معه فقط خلال العام الأول لأن ذلك كان مفروضا عليها ، فان تعلمه المشى يعنى أن أيام « طفولته » قد ولت ، وتتوقف المداعبة نهائيا ، وبالاضافة الى ذلك تصير العقوبات أقسى وأكثر عددا لأنه قادر على النزول من سريره ليعبث بما حوله ، ويرفض البقاء ساكنا هادئا • حتى الاصابات التى يسببها لنفسه ، أصبحت أكثر حدوثا لأن حركتـــه تجعله يمـــر على معوقات ، وتجعله يسقط من على السلالم •

ان الحياة التى كان لها بعض المباهج خلال العام الأول ، ليس بها شىء الآن • واذا استمر هذا الحال من الاهمال والصعوبة بدون ترفيـــه خلال العام الثانى من العمر ، فان الصغير يستنتج : (أنا لست على مايرام، وأنت لست على مايرام) ، وفى هذا الموقف يتوقف « الراشد » عن النمو حيث أن احدى وظائفه الأولية وهى تلقى المداعبات ، قد أحبطت لعدم وجود مصدر للمداعبة • ويستسلم الشخص فى هذا الموقف لعدم وجود أمل • انه يمضى خلال الحياة ببساطة • وقد ينتهى فى مصحة عقلية ، فى حالة انسحاب شديد ، مع سلوك متخلف يعكس رغبة قديمة باهتة فى العودة الى الحياة كما كانت في العام الأول الذي تلقى فيه المداعبات الوحيدة التى عرفها – كرضيع كان يحمل ويطعم بمعرفة الآخرين •

ومن الصعب أن نتخيل شـــخصا يمضى فى طريق الحيـــاة بدون مداعبات • وحتى مع وجود أم لا تداعبه ، فلابد بالتأكيد من ظهور أشخاص مؤهلين لرعاية الشخص الذى يمر بهذه الحالة وهم الذين يمنحونه الحنان فى الحقيقة • وعلى أية حال فما دام قد استقر على موقف معين ، فان كل

الخبره تتحول لمساندة هذا الموقف اختيـــاريا · واذا استنتج شخص : « أنت لست على مايرام » ، فان ذلك ينطبق على جميع النـــاس ، ويرفض مداعباتهم مهما كانت مخلصة · لقد وجد مقياسا آخر للتكامل أو الاحساس فى استنتاجه المبكر · ولذلك فان التجارب الجديدة لاتمزقه سريعـــا · وهذه هى الطبيعة المصيرية للمواقف · وأيضا فان الشخص فى هذا الموقف يتوقف عن استخدام « راشده » بالنسبة لعلاقاته مع الآخـــرين ولذلك فانه حتى أثناء العلاج يكون من الصعب الوصول الى « راشده » خاصة مع العلم بأن المعالج أيضا فى موقف « أنت لست على مايرام » وهناك حالة واحدة قديصير فيها موقف (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على ما يرام) هو الموقف الأول وليس موقفا ثانويا بالنسبة للموقف الأساسى : انهـا حالة « الصغير » الهارب من الواقع ، الذى يظل غير مولود نفسيا · ويبدو أن هذا الهروب هو رد فعل كامن يفتقر للنضج العاطفى فى مواجهـــة الضغوط المفجعة الآتية من المحيط الخارجى الخالى من المداعبـة · وهذا النوع من الصغار هو من لم يشعر بأن هناك من ينقذه خـــلال الأسابيع الأولى الحرجة من حياته · ان الامر يبدو كما لو كان لم يجـد أحـدا فى الخارج هناك بعد نفيه المفجع الى معترك الحياة ·

ويستنتج سكوبلر (١١) أن هناك عاملا نفسيا يرتبط بعـدم كفاية المداعبة بحيث ينتج « الصغير » الهروبى ، ويظن أن هذا العامل هو حاجز مرتفع أمام المثيرات بحيث يغفل المداعبة التى بذلت للصغير · ربما لايكون قد حرم تماما من المداعبة ، ولكنـــه حرم من احســـاسه بها أو تراكم احساسه بها · وحينذاك فان الصغير يراه الأبوان كمـــا لو كان صغيرا لايستجيب · (انه لايحب أن يمسكه أحد ، وانما يرقد هناك ، انه مختلف عن غيره) ، وحينذاك سيتوقف أبواه عن مداعبته لأنه « لا يحب أن يمسكه أحد » · ومـن الجائز أن التدليـــل الكثير (أكثر مما يبذل عادة) قد كسر الحاجز ·

وقد لاحظت مرة ولدا هروبيا وأبكم فى ســن الحادية عشرة يعطى دليلا على الادراك الواضـــح لموقف (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) بما يقدم عليـــه من الضرب العنيف المتكرر بقبضته ، أولا للمشرف ، ثم لرأسه هو ، فظهر كما لو كان يعبر عن وجهـــة نظره فى الحياة : (أنت لست على مايرام ، وأنا لست على مايـرام) فدعنا نحطم كلانا الآخر ·

---

(١١) E. Schopler, "Early Infant Autism and Receptor Processes", Archieves of General Psychiatry, Vol. 13 (October 1965).

أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام :

ان الصغير الذى عومل بقســوة لفترة طويلة من أبويه اللذين كان يشعر فى البداية بأنهما على مايرام ، سينتقل الى الموقف الثالث أى موقف بأن المرء على مايرام ، ولكن من أين يأتى هذا الاحساس ؟ أين مصــــدر الاجرام : (أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام) • هنا يوجد احساس المداعبة اذا كنت أنت (لست على مايرام) ؟ أما اعتبار أن الموقف يتقرر فى العام الثانى أو الثالث من عمر الصغير فهو يشكل سؤالا صعبا ، لأنه اذا استنتج الصغير ذو العامين أنه على ما يرام ، فهل هذا يعنى أن موقفه نتــاج « مداعبــة ذاتيــــة » ؟ فاذا كان الأمــر كذلك ، فكيف يداعب الصغير نفسه ؟

اننى أعتقد أن هذه المداعبة تحدث حقيقة خلال الوقت الذى يتداوى فيه الشخص الصغير من اصابات مؤلمة وكبيرة مثل تلك التى يبتلى بهـا الحدث الذى يعرف باســم « الطفل المحطم » Batard child • وهو الطفل الذى ضرب بشدة حتى تكسرت عظامه وتمزق جلده • وأى شخص كسرت له عظمة أو أصابته رضوض شديدة يعرف هذه النوعية من الألم • والاصابات المؤلمة عادية فى الصغار المحطمين مثل الضلوع المكسورة ، والكلى الممزقة والجماجم المشدوخة • فما هو شعور من لم يتعلم المشى عندما يعانى من صعوبة التنفس بسبب الأضلاع المكسورة ، أو الصداع المبرح بسبب نزيف الدم من العمود الفقرى ؟

اننا نجد فى كل ساعة أن خمسة صــــغار فى هذا البلد (الولايات المتحدة) يصابون اصابات من هذا النوع بأيدى والديهــم • وأعتقد أنه بينما يكون هذا الفرد الصغير تحت العلاج بمعنى أنه « راقد هناك يلعق جراحه » فانه يعيش احساس الوحدة بمفرده وبنفسه ، واذا لم يكن لسبب آخر ، فان تحسنه يتناقض مع الألم الشديد الذى عاناه • ويبدو كما لو كان يشعر بالموقف قائلا : « سأكون بصحة جيدة ، اذا تركتمونى وحدى ــ أنا على ما يرام وحدى » • وعندما يظهر الأبوان المتوحشان ثانية ، فانه قد يرتعش فى فزع متوقعا تكرار ما حدث •

« أنت تؤذينى ! ــ أنت لست على مايرام • أنا على مايرام وأنت لست على مايرام » • ان التاريخ المبكر للعديد من المجرمين ، الذين يعيشون فى هذا الموقف ، يكشف عن هذا النوع من الانحراف النفسى الكبير •

ومثل هذا الشخص الصغير قد عانى من القسوة ، بالرغم من بقائه حيا • لسان حاله يقول : « ماحدث يمكن أن يحدث ثانية • اننى أحيا ،

وسأظل أحيا » . انه يرفض الاستسلام . وعندما يتقدم به العمر يبدأ في رد الضربة بمثلها . لقد رأى القسوة ويعرف كيف يكون قاسيا . ولديه أيضا تصريح (في الوالد) بأن يكون قاسيا وعنيفا . وتسانده الكراهية بالرغم من أنه قد يتعلم اخفاءها وراء قناع الأدب المحسوب . قال كاريل تشيسمان Caryl chessman : « ليس هناك شيء يساندك مثل الكراهية ، ومن الأفضل أن تتصف بأى شيء ما عدا الخوف » .

وبالنسبة لمثل هذا الصغير ، فان موقف « أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام » يعتبر قرارا مصيريا . أما المأساة بالنسبة له وللمجتمع فانها تتمثل في أنه يمضى فى الحياة رافضا أن ينظر الى الداخل . انه غير قادر على أن يكون موضوعيا فيما يتعلق بالمشاركة فيما يحدث له . انها دائما « غلطتهم » « كلهم » . ويقف المجرمون العتاة فى هذا الموقف . انهم أشخاص « بلا وعى » مقتنعون بأنهم على مايرام بصرف النظر عما يفعلون ، وأن الخطأ الكلى فى كل الحالات هو خطأ الآخرين .

وهذا الموقف الذى كان يعرف فى وقت ما باسم « البلاهة الأخلاقية » هو فى الحقيقة حالة طرد فيها الشخص جميع المعلومات الواردة اليه عن صلاح الآخرين . ولهذا السبب فان علاجه صعب ، حيث أن المعالج لايتفق مع أى شخص آخر . وينحصر التعبير النهائى عن هذا الموقف فى « قتل الغير » كاحساس يحتاج من القاتل الى تبرير (بنفس الطريقة التى دبر بها تبرير اتخاذه الموقف فى المحل الأول) . ان الشخص فى موقف (أنا على ما يرام ، وأنت لست على مايرام) يعانى من الحرمان الشديد من الحنان ، وأى قدر من الحنان يجب أن يتساوى مع شدة من يعطيه ، ولكن لايوجد أشخاص طيبون ، ولذلك فليس هناك حنان حقيقى . ومثل هذا الشخص قد يشكل عصابة من الرجال الموافقين أى الذين يمتدحونه ويداهنونه بشدة . ولكنه يعرف أنه مديح كاذب لأنه هو نفسه الذى أجبرهم عليه . وبنفس الطريقة فان عليه فى المقام الأول أن يفرز شعوره بالحنان . وكلما ازدادوا فى مدحه ازدراهم أكثر حتى يرفضهم فى النهاية من أجل تشكيل عصابة أخرى . ان هناك تسجيلا قديما فى ذهنه يقول : « اقترب منى حتى أنال منك » ، وهذه هى الطريقة التى بدأ بها حياته .

أنا على مايرام ، وأنت على مايرام :

وهناك موقف رابع ــ هو الذى ينطوى عليه أملنا ــ انه موقف (أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام) . كما أن هناك اختلافا متوازنا بين المواقف الثلاثة الأولى والموقف الرابع ، فالثلاثة مواقف الأولى غير واعية ــ

تم تدوينها في أوائل الحياة • وجاء موقف (أنا لست على ما يرام ، وأنت على مايرام) في البداية واستمر لدى معظم الناس على مدى الحياة ، وقد تغير هذا الموقف لدى **الصغار** غير المحظوظين ، الى الموقفين الثانى والثالث • ويتثبت أحد هذه المواقف في كل شخص عند العام الثالث من العمر • وربما كان الاستقرار على أحد المواقف هو أحد الوظائف الأولية لدى « راشد » **الصغير** في محاولته للاحساس بالحياة ، وبذلك يجرى تطبيق مقياس للتنبؤ بالمستقبل بالنسبة لمشكلة الدوافع والمشاعر • ويتم التوصل لهذه المواقف على أساس المعلومات الواردة من « الوالد » ، و « الطفل » • انها تنبنى على المشاعر والأحاسيس دون الاستفادة بالمعلومات الخارجية المعدلة •

ونظرا لأن الموقف الرابع (أنا على مايرام ، وأنت على ما يرام) قرار ادراكي ولفظي ، فانه من الممكن أن يتضمن ليس فقط قدرا أكبر من المعلومات اللا نهائية عن الفرد والآخرين ، بل أيضا احتواء الامكانيات التى لم تختبر بعد ، والتى تمتد فى الأفكار الفلسفية والدينية المجردة • **ان المواقف الثلاثة الأولى ترتكز على المشاعر ، أما الرابع فيرتكز على الفكر والمعتقد ووزن الفعل** • ان المواقف الثلاثة الأولى تتعامل مع **لماذا ؟** أما الرابع فيتعامل مع **لماذا لا ؟** وأن فهمنا للمواقف لايرتبط بتجاربنا الشخصية ، لأننا نستطيع أن نتجاوزها الى الغرض الأسمى المجرد من أجل جميع الناس •

ونحن فى ذلك لانرجف الى قرار جديد ، ولكن الى قرار نتخذه عن تدبر وتفكير • وهو فى هذا الصدد يشبه تجربة تحويلية • اننا لانستطيع أن نقرر الموقف الرابع بدون قدر أكبر من المعلومات بما يزيد عن معلومات معظم الناس الآخرين المتاحة لهم عن الظروف المحيطة بالمواقف الأصلية التى تقررت فى بداية حياتهم • ويالهم من محظوظين ! هؤلاء **الصغار** الذين نالوا مساعدة مبكرة فى الحياة ليكتشفوا أنهم على ما يرام بالتعرض المستمر للمواقف التى يستطيعون فيها أن يدللوا لأنفسهم على قيمتهم الذاتية وقيمة الآخرين • ولسوء الحظ فان معظم المواقف العادية تتمثل فى ذلك الموقف الذى يتقاسمه الأشخاص « الناجحون » و « غير الناجحين » على حد سواء ، ألا وهو موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) ويتركز أكثر الأساليب استخداما للتعامل مع هذا الموقف ـ فى ممارسة **الألعاب** •

ويعرف برن اللعبة بأنها :

سلسلة مستمرة من المعاملات المتتالية تتقدم الى ناتج مستقبل واضح التحديد ، يمكن التنبؤ به ، ويوصف بأنه مجموعة متكررة من

المعاملات ، تتكرر غالبا في شـــكل يمـــكن تصديقه ظاهريا ، مع حافز مستتر ، أو بأكثر عمومية • انها سلسلة من التحركات التي تنطوي على فخ أو حيل (١٢) •

وأنا أعتقد أن جميع الألعاب لها أصل في الطفولة الساذجة • ويمكن ملاحظة اللعبة بسهولة في أي فريق أفراده في ســن الثالثة • « ما لدى أفضل مما لديك » • وهذه اللعبة هدفها التخفيف من عبء الشعور بأن المرء ليس على مايـرام ، وهي ضرورية لتثبيت معاني (أنــا لســت على مايرام ، وأنت على مايرام) في ذهن الصغير في عامه الثالث • (ان موقف أنا لست على مايرام) يعني : ان طولي قدمين ، وأنــا ضعيف ، وعاجز عن الدفاع عن نفسي ، ومتسخ الجسم ، ولا أعمل شيئا سليما ، وأنــا عديم الكياسة ، وليست عندي كلمات أحاول بها أن أجعلك تفهم الاحساس بكل هذه الأمور • أما (أنت على مايرام) فتعني : ان طولك ستة أقدام ، وأنت قوي ، وعلى صواب دائما ، ولديك كل الاجابات ، وأنت أنيق ، وتستطيع أن تتحــكم في شــخصي أنــا بالموت أو الحيــاة ، وتستطيع أن تضربني وتؤذيني ، وتظل الحياة متوافقة •

ويرحب الطفل بأي تخفيف من وطأة هذه الظروف غير العـــادلة • ان طبقا كبيرا من الأيس كريم ، أو الاندفاع للوقوف في أول الصف ، أو الضحك من أخطاء الأخت ، أو ضرب الأخ الأصغر ، أو ركل القطة ، أو الحصول على لعب أكثر ـــ كل ذلك يعطي راحة وقتية حتى لو صادفته نكبة مرعبة أخرى في الطريق ، كأن يضربه الأخ الأصغر ، أو تخمشــه القطة ، أو أن يجد صغيرا آخر لديه لعب أكثر •

للكبار أنماط أرقى من لعبة « ما لدى أفضل مما لديك » ••• بعض الناس يجد راحة مؤقتة في تكديس الممتلكات ، أو بالمعيشة في منزل أكبر وأحسن عما تمتلكه عائلة جونس ، أو حتى التباهي بتواضعهم : أنا أكثر تواضعا منك • ان هذه الألعاب التي ترتكز على ما أسماه أدلر : « القصص المرشدة » قد تعطي راحة مقبولة حتى لو حدثت عقبة في الطريق في شكل وثيقة رهن تعسفي ، أو فواتير استهلاكية ، تلك التي تدفع الشخص الى حياة المشقة الدائمة • وفي الفصل السابع سنتحدث عن الألعاب بالتفصيل على أنها « حل » منتج للشقاء ، يمزج الشقاء الأصلي ويؤكد موقف عدم الموافقـــة •

---

(١٢) E. PERNE, "Games People Play" (New York : Grove Pres', 1964), p. 48.

ان الهدف من هذا الكتاب هو اثبات أن الطريقة الوحيدة التى يتحسن بها الناس أو ليشعروا بأنهم على ما يرام ، هى الكشف عن مأزق الطفولة الذى يبرز المواقف الثلاثة الأولى ويبرهن على أن السلوك الحالى يخلد المواقف ٠

وأخير فمن الضرورى معرفة أن موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) هو **موقف وليس احساسا** ٠

ان الاحساس بأن المرء ليس على مايرام فى « الطفل » لاتنمحى تسجيلاته بقرار فى الحاضر ٠ والطريقة المناسبة هى أن تبدأ مجموعة من التسجيلات التى تتيح للمرء الاحساس بأنه على مايرام فى معاملاته ، والنجاح حسب مفهوم تقدير الاحتمالات الصحيح ، والنجاح حسب مفهوم الأعمال المتكاملة التى لها معنى ، والتى يتم تخطيطها بمعرفة « الراشد » وليس بمعرفة « الوالد » أو « الطفل » والنجاح الذى يرتكز على الأخلاقيات التى يمكن مساندتها منطقيا ٠ ان الرجل الذى عاش سنوات عديدة حسب قرارات « الراشد » المتحرر لديه مجموعة كبيرة من تلك الخبرات الماضية ويستطيع أن يقول بالتأكد « أنا أعرف هذه الأعمال » ٠

ان منطق عمل (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) يتركز فى أن الاحساس بالفرح أو السكينة عاجلا ، أمر غير متوقع ٠ فى أحد الأيام اشتكى أحد المطلقين ، فى احدى مجموعاتي ـ بغضب قائلا : « اذهب أنت وفكرك الملعون الى الجحيم ، لقد ذهبت الى حفل فى الليلة الماضية وقررت أن أكون لطيفا بقدر الاستطاعة ، وقررت أن أعتبر كل فرد من الموجودين هناك على مايرام ، ولاهبت الى تلك المرأة التى أعرفها وقلت : « لماذا لا تأتين وتتناولين القهوة معى فى وقت ما ؟ » واذا بها تسخر منى كما لو كنت صغيرا بقولها : « حسنا ٠ اننى أود ذلك ، ولكنك تعرف أن الوقت غير متوفر لدى كل فرد للجلوس والثرثرة طول اليوم كما تفعل أنت ٠ ان هذا عمل الطيور ٠٠ التى لا تعمل ! » ٠

ان العواصف الشخصية أو الاجتماعية لاتخمد بمجرد أن نتخذ موقفا جديدا ٠ ان « الطفل » يريد نتائج عاجلة ـ مثل القهوة السريعة ، أو الراحة العاجلة من عسر الهضم ٠ ولكن « الراشد » يستطيع أن يدرك أن الصبر والايمان ضروريان ٠ اننا لا نستطيع أن نضمن مشاعر الموافقة باتخاذ موقف (أنا على ما يرام ، وأنت على مايرام) ٠ اننا حساسون لوجود التسجيلات القديمة ٠ ولكننا نستطيع اختيار ايقاف الاستماع اليها عندما تعاد بطريقة تضعف الايمان الذى نعتقده فى ضرورة انتهاج أسلوب جديد

للحياة ، ذلك الذى سوف يؤدى الى نتائج جديدة وسعادة جديدة فى حياتنا **عندما يحين الوقت المناسب** • ويستطيع « الراشد » أيضـــا أن يعــرف استجابات « الطفل » لدى الآخرين ، ويمكنه أن يختــار عدم رد الكيل بالكيل • أما التغيير الذى سيجلبه هذا ، وكيف أن هذا التغيير ممكن ، فهو موضوع الفصل التالى •

الفصل الرابع

نستطيع أن نتغير

(يتباهى كل الناس برقى مجتمعاتهم ، ولكنهم هم أنفسهم لايتطورون الى الأفضل ـ رالف والدو امرسون)

لن ينفعنا أن نكتفي بالإعتراف بأن لدينا مشكلات ، والأولى أن نعترف بأن معظم طاقتنا تستنفد يوما بعد يوم في صنع القرار · يقول المريض في الغالب : « لا أستطيع أن أتخذ قرارا ، قل لى : ماذا أفعل ، أخشى أن أتخذ القرار الخاطيء » ، أو يقال في مواجهة العجز عن البت في الأمور : « انى دائما على حافة التمزق · اننى أكره نفسي ولا أبدو قادرا على عمل شيء بالمرة · ان حياتى سلسلة من الأعمال الفاشلة » ·

ورغم أن هذه الأقوال يمكن أن تقال للتعبير عن المشاكل ، الا أنها جميعا تعود فى أصلها الى الصعوبة التي تحيط بصنع القرار · ان الطبيعة غير المستقرة للعجز عن الحسم يجرى التعبير عنها أحيانا بالعذر الجزافى : « اعمل شيئا · أى شيء ـ فقط اعمل شيئا · » ونرى أثناء علاج المرضى صعوبتين ملحتين تتعلقان باتخاذ القرار : ١ ـ « اننى دائما أتخذ القرار الخاطيء » · ويصدر هذا القول عن الشخص الذى تأتى قراراته والأنشطة التي تليها بنتيجة سيئة بالنسبة له · ، ٢ ـ « اننى أفتش وأفتش عن نفس الشيء » · ويصدر هذا القول عن الشخص الذى ازدحم برنامج حاسبه الآلى الوهمى بسبب العمل الذى لاينتهى أو القرارات المعلقة ·

أما الخطوة الأولى فى حل أى من هاتين الصعوبتين ، فتنحصر فى معرفة أنه يوجد فى كل قرار ثلاث مجموعات من المعلومات التى يجب التعامل معها : المجموعة الأولى من المعلومات توجد فى « الوالد » والثانية فى « الطفل » والثالثة فى « الراشد » . ان معلومات « الوالد » و « الطفل » محددة التاريخ ، أما معلومات « الراشد » فتمثل حقيقة خارجية كما أنها توجد فى الحاضر ، مصحوبة بقدر ضخم من المعلومات المتراكمة فى الماضى، مستقلة عن « الوالد » و « الطفل » ، وتصب المعلومات الواردة من المصادر الثلاثة كلها فى الحاسب استجابة لحافز المعاملات ـ اذن أى من هذه المعلومات ستتضمنه الاستجابة ـ « الوالد » أم « الراشد » أم « الطفل » ؟ ربما كانت أفضل طريقة لشرح هذه العملية هى أن نضرب مثلا :

سنقول أن رجل أعمال متوسط العمر ، له سمعة طيبة كأب ناجح ، وزوج ناجح ، ومواطن مسئول ، عليه أن يتخذ قرارا حول ما اذا كان ينبغى أن يوقع التماسا سيظهر فى الجريدة المحلية من عدمه ، وهذا الالتماس يؤيد مشروعا للمساكن المناسبة بحيث يستطيع الأفراد من كافة الأجناس أن يعيشوا حسب امكانيات الدخل . ان الطلب يأتى عن طريق التليفون وبمجرد أن يعيد السماعة الى مكانها يكتنفه ضيق عظيم ومغص فى معدته مع الاحساس بأن يوما سعيدا قد فسد .

عليه أن يتخذ قرارا ، ومن الواضح أن هناك قدرا كبيرا من الصراع يدور فى داخله ـ فمن أين تأتى المعلومات المتضاربة ؟ « الوالد » هو أحد المصادر . ومن بين التسجيلات التى تدور ما يلى : « لا تجلبه العار على الأسرة » و « لاتقحم نفسك) و « لماذا أنت بالذات ؟ » و « يجب أن تأتى أسرتك وأولادك فى المقام الأول ! » وهناك نغمات أخرى يدور حولها التسجيل الذى لايقاوم ، والذى انقطع خلال سنواته الأولى فى بيته فى احدى مدن الجنوب ، « عليك أن تضعهم فى مكانهم » . والحقيقة أنه يوجد تصنيف كامل من معلومات « الوالد » تحت « لفظ زنجى » الذى يطل برأسه ولم يكن متاحا للحوار من قبل . وقد أغلق الباب على هذه المعلومات خلال سنوات الطفولة المبكرة بواسطة التوجيهات الشديدة الحاسمة : « لا تسأل أسئلة » . « انه زنجى وهذا هو السبب » . « لا تجعلنى أسمعك تتحدث عن هذا الموضوع ثانية » . (وحتى بعض الأغانى المتداولة تدور حول نفس تلك الفكرة) .

وتقوى هذه التسجيلات المبكرة مع مرور الزمن باستمرار أوامر « الوالد » ومع دليل تال هو أن وجود الزنوج يمكن أن يكون سببا للمتاعب

(على سبيل المثال ، يوجد فى بعض المدن الأمريكية مثل ليتل روك وواتس وديترويت ، قوة ضغط تنادى بمساندة القرار الذى سيتخذه هذا الرجل) ٠

وتكمن قوة هذه المعلومات الواردة فى قدرتهـــا على توليد الخوف فى « الطفل » ٠ ومرة ثانية يعمل « الوالد » **الضخم** ، فى « **الطفل** » **الضئيل** لكى يجعله يمتثل ، وعلى ذلك فان المجموعة الثانية من المعلومات تأتى عن طريق « الطفل » ، وهى معلومات تعبر عن نفسها فى شـــكل مشاعر : خرف ، ماذا سيقولون ؟ ماذا سيحدث لو تزوجت ابنتى زنجيـــا ؟ ماذا ستكون قيمة ممتلكاتى ؟ توجد هنا متاعب حقيقة ولكن شـــدة المشاعر لاترتبط كثيرا بالمصاعب الحقيقية مثلما ترتبط بالصعوبة الأصلية المتمثلة فى خيال **الصغير** ذى الأعوام الثلاثة المعتمد على أبويه طلبا للأمان ، وهذا يولد المغص فى المعدة والعرق فى اليدين ٠ ويمكن أن تكون المشكلة أكثر ايلاما عندما يتوجه الرجل الى الشراب ، أو يؤدى بعض الأنشطة البديلة للهروب من ضغط « الوالد » ٠

وستكون هذه معركة حياة قصيرة اذا لم تكن من أجل مجموعة أخرى من المعلومات التى تغذى الحاسب أيضا ٠ انها المعلومات الواردة من الحقيقة وتوجد فى المجال الخاص بها فى « الراشـــد » ٠ ان الرجـــل البسيط أو « غير المفكر » لا يقلق كثيرا للحقيقة ٠ انه يسلم « للوالد » ببساطة ٠ ان شعاره هو « السلام للطفل » بأى ثمن ٠ والطرق القديمة هى أفضل الطرق ٠ انها الطبيعة الانسانية والتاريخ يعيد نفسه ٠ مثـــل المقولة الأمريكية الشائعة « اترك الأمر لجورج » ٠

انه فقط الرجل ذو « الراشد » النشيط ، ذلك الذى يضع فى اعتباره التهديد الجاد لاستحكام الأزمة العنصرية حتى بالنسبة لرفاهيته الذاتية ٠ ويستطيع « الراشد » فقط أن يطلب معلومات أكثر ٠ كما أنه يستطيع أن يقيم مدى خطورة الاسترقاق أو معاملة الأشخاص كالأشياء ٠ وهذا هو ما أوجد احساس التحقير واليأس الذى دمر العديد من الزنوج ، والذى جـرى التعبير عنـــه فى ليتل روك أو ســيلما أو واتس أو ديترويت ٠ و « الراشد » فقط مثل لينكولن ، هو الذى يستطيع أن ينظر بموضوعية الى كل المعلومات ويتقدم طالبا معلومات أكثر ٠

فى عملية « التعريف الفصـــل » هذه تعمـــل المجموعات الثلاث من المعلومات التى نبدأ تنظيمها خارج فوضى المشاعر والتردد ـ على اتخاذ القرار ٠ وطالما حدث الفصل ، فان مجمـــوعات المعلومات الثلاث يمكن فحصها بواسطة « الراشد » لمعرفة أيها سارى المفعول ٠

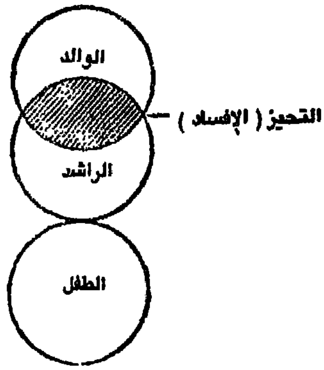
أما الأسئلة التى سيوجهها رجــل الأعمال المتضـايق عند فحص معلومات « الوالد » فهى : « لماذا يعتقد أبواه فى هذه الأشياء ؟ ، ماذا كان نوع « الوالد » لديهمـا ؟ لماذا كان الطفل لديهما مهـــددا ؟ ماذا كانت قدرتهما أو عجزهما بالنسبة لفحص مبدأ (الوالد — الراشد — الطفل) عندهما ، وهل كان ما يعتقدانه صائبا ؟ هل الأشخاص البيض متفوقون على السود ؟ لماذا ؟ ولماذا لا ؟ وهل من الخطأ ألا يغامر الانسان ؟ وهل يجلب الموقف المعارض للتفرقة العنصرية الخزى للعائلة ؟ وهل من الممكن أن يجلب الشرف ؟ وهل يتحتم عليه أن يضع عائلته وأولاده فى المقام الأول اذا لم يشترك فى وضع حل منطقى للمشاكل العنصرية فى مجتمعه ؟ » ولابد أنه من المفيد أن يسأل عما يعتقده أبواه اليوم من آراء تخالف ما كانا يعتقدانه عند تسجيل معلومات « الوالد » لديه ٠

وعلى « الراشـــد » لديه أن يفحص أيضـــا المعلومات الواردة من « الطفـــل » : لماذا يشعر بأنه مهـــدد الى هذا الحد ؟ لماذا تتلوى معدته بالمغص ؟ هل هناك خطر فعلى ؟ وهل خوفه اليوم حقيقى أم أنه كان حقيقيا فقط عندما كان عمره ثلاثة أعوام ؟ ربما كانت لديه مخاوف حقيقية عن الفوضى والعنف ٠ ربما كان قد قتل ، ولكن عليه أن يفـرق بين الخوف الناتج عن الأحداث الواقعة والخوف الذى أحس به فى الثالثة من عمره ٠ ان خوف العام الثالث من العمر أكبر ، لأنه حينذاك لم يكن يقدر على تغيير الحقيقة ، ولكنه يستطيع ذلك الآن وعمره ثلاثة وأربعون عاما ، انه يستطيع اتخـــاذ خطوات لتغيير الحقيقة ، وتغيير الظـروف التى أوجـدت الخطر الفعلى كليـــــة ٠

ومن الضرورى فهم مخاوف سن الثالثة ، لتحرير « الراشد » وتصنيف معلومات جديدة ٠ انه الخوف — الخوف القديم من « الوالد » الذى يملك كل القوة — الذى يجعل الأفراد يحكمون فى الأمر قبل النظر فيه ، أو الذى يجعلهم متعصبين ٠ والشخص المتعصب يشبه الولد الصغير الذى تحدثنا عنه فى الفصل الثانى ، ذلك الذى يقبل فكرة أن (رجال الشرطة أردياء) على أنها حقيقة فعلية ٠ وهو يخاف أن يفعل ما يخالفها ٠

وهذا هو ما يتمخض عن محاباة « الراشد » (شكل رقم ٨) ٠

وهذا التحيز يسمح بالتعصب أو بأن تصير معلومات « الوالد » التى لم تختبر حقيقة خارجية ٠



شكل رقم ٨ : التحيز او المحاباة

ونستطيع أن ننسج على منوال كلمات سقراط القائل : « ان الحياة التى لا تختبر لا تستحق أن تعاش » • فنقول أن « الوالد » الذى لايختبر لايستحق أن تعتمد عليه حياة الفرد ، فقد يكون خاطئا •

الراشد المطلق السراح :

الغرض من تحليل المعاملات هو اتاحة حرية الاختيار للفرد • حرية التغيير حسب الارادة ، تغيير الاســـتجابات حســـب الدوافع المتكررة والجديدة • ان معظم هذه الحرية تضيع فى الطفولة المبكرة ، علامة على بدء ما يسميه كوبى « العملية العصبية » وهذه العملية تدخل باستمرار فى حل المشاكل القديمة للوصـــول الى النتيجة التى تتعامل بكفـــاءة مع حقيقة اليـــوم •

قد تنطوى جذور العمليـــة العصـــبية فى ••• ظاهـرة الطفـولة و / أو الطفولة المبكرة ــ وتكوين أشـــكال السلوك النمطية او التعلق ببعض الأشياء أو الأفراد تعلقا مرضيا • هذه كلها قد تتضمن عروضـــا مؤثرة ــ مثـل البكاء والصراخ والكوابيس والأداء الغريزى من عدمه ، مثل : تناول الطعام والتأمل والقيء والاسترجاع ورفض الطعام واختيـــار الطعام اضطراريا وأنماط الاخراج أو الامساك وأنمـــاط نشاط الجهاز التنفسى مثل الشهيق والزفير •• وهكذا ، أو انماط الأفعال العامة مثل تشنج الوجه لا اراديا ، وخبط الرأس ، والاهتزاز والرضاعة وهكذا •

ولايمكن اعتبار أى من هذه الأفعال عرضا داخليا شاذا فى حد ذاته أو بسببه ، ما دام من الممكن تغييرها فى حرية ، استجابة لتغيير الاشارات

الخارجية أو الداخلية فتظل عادية . ان فقـدان حـرية التغيير هو الذى يبين بداية العملية العصبية (١) .

ان استعادة حرية التغيير هى الهدف من العلاج . وتنمو هذه الحريه من معرفة الحقيقة حول ما هو موجود فى « الوالد » وما هو موجـود فى « الطفل » وكيف تدخل هذه المعلومات فى معاملات اليوم الحاضر . وهى أيضا تحتاج الى الحقيقة أو الدليل عن العالم الذى يعيش فيه . ومثل هذه الحرية تحتاج الى معرفة أن كل شخص يتعامل معه الفـرد له « والد » و « راشد » و « طفل » انها تحتـاج استكشافا ليس فقط فى المناطق « المعروفة » بل أيضا فى المناطق التى لايمكن تحديد مداها . التى يمكن معرفتها جيدا باستخدام مصطلحات وظيفة أخـرى « للراشـد » وهى امكانية التقييم .

ومن حقائق الأزمات الانسانية أن علينا أن نتخذ القرارات غالبا قبل مثول كافة الحقائق . وهذا حقيقى فى كل ناحية . انه حقيقى فى حـالة الزواج ، وهو حقيقى فى حالة الادلاء بالأصوات ، وهو حقيقى فى حالة توقيع التماس ، وهو حقيقى فى ترتيب الأولويات . انه حقيقى بالنسبة لتلك القيم التى نحتضنها باستقلال ـ وهو موجود فى « الراشـد » . ان « الطفل » فينا يطلب اليقين فهو يريد أن يعرف أن الشمس ستشرق كل صباح ، وأن الأم ستكون هناك ، وأن الشرير سينال عقابه فى النهاية . ولكن « الراشد » يستطيع قبول حقيقة أنه ليس هناك يقين دائما .

يقول الفيلسوف التون تروبلاد :

ان حقيقة انه ليس لدينا يقين كامل بالنسبة لاى استنتاجات بشرية ، لا تعنى أن عمل البحث غير مثمر . ومن المسلم به ان علينا أن نتقدم دائما على اساس الاحتمال . ولكن وجود الاحتمال يعنى وجود شىء . اما ما نبحث عنه فى اى مجال من الفكر الانسانى فانه ليس يقينا مطلقا ، لانه ليس فى وسع البشر ، ولكنه مسار هؤلاء الذين يميزون درجات الاحتمال (٢) .

ويقع هذا فى مجال استكشاف الفلسفة والدين ، وهو ما سـننظر فيه فيما بعد فى الفصل الثانى عشر وعنوانه : « مبدأ (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) والقيم الاخلاقية » .

---

(١) Lawrence Kubie, "Role of Polarity in Neurotic Process.", Frontiers of Clinical Psychiatry. Vol. 3. No. 7 (April 1st., 1966).

(٢) Elton Trueblood. "General Philo-ophy", (New York : Harper, 1963).

ان « الراشد » فى رجل الأعمـــال الذى واجـه مشـكلة التماس الاسكان ، يستطيع الاعتذار بأن الدخل الناتج عن التوقيع غير مضمون . فاذا وقع بامضائه فانه قد يتعرض للاستهزاء ، واذا تضمن موقفه (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) جميع الأشخاص ، بصرف النظر عن الجنس أو العقيدة ، فقد يهاجمه الأشخاص المتعصبون الذين هم فى موقف يمكنهم من الاضرار بدخله ، وعضويته فى نادى الجولف ، أو علاقته بزوجته . ولكنه يستطيع أن يزن أيضا امكانيـة أن مساهمته فى حـــل الاضطراب العنصرى فى مجمتعه قد يقود الى تخفيفواضح لحدة المشكلة ، وعلى المدى الطويل قد يأتى ذلك بمداعبة « الطفل » فيه ، فى شكل سمعته كرجل مبدأ وشجاعة .

وعندما يسود « الوالد » أو « الطفل » يمكن التنبؤ بالنتيجة . وهذا هو أحد المعالم الضرورية للألعاب . وهناك أمان معين فى الألعاب . انهــا دائما قد تنقلب مسببة للألم ، ولكنه ألم نعلم اللاعب أن يتعــامل معه . وعندما يسيطر « الراشد » على المعاملات ، لايمكن دائما التنبؤ بالنتيجة . هناك احتمال الفشل ، كما أن هناك احتمال النجاح ، والأهم من ذلك أن هناك احتمال التغيير .

ما الذى يدفع الناس لطلب التغيير ؟

هناك ثلاثة اشياء تجعل النـــاس تريد التغيير . أحدها هو أنهم قد نالوا الكفاية من الأذى . لقد دقوا رؤوسهم فى نفس الحائط مدة طويلة حتى قرروا الاستكفاء . لقد وضعوا نقودهم فى نفس الصندوق دون عائد لمدة طويلة حتى أنهـــم صـــاروا فى النهاية راغبين اما فى وقف اللعب أو الانتقال الى صناديق أخرى . لقد تصدعت رؤوسهم وتقرحت معدتهم . انهم سكارى . لقد اصطدموا بالقاع ، وهم يطلبون الراحة . انهم يريدون التغيير .

والشيء الثانى الذى يدفع الناس الى طلب التغيير هو نوع بطيء من اليأس يسمى الملل أو الضجر . وهذا هو ما يحس به الشخص الذى يمضى فى الحياة قائلا : « ثم ماذا ؟ » حتى يســأل فى النهاية ســؤالا حتميا « ثم ماذا ؟ » انه قابل للتغيير . والشيء الثالث الذى يجعل الناس تطلب التغيير هو الاكتشاف المفاجيء لقدرتهم . وقد كان ذلك أحد الآثار الملحوظة لتحليل المعاملات من خلال المحاضرات ، أو بالسماع عنه من شخص آخر .

وأتاحت هذه المعرفة الاندهاش فيما يتعلق بالامكانيات الجديدة ، تلك التى قادت فيما بعد الى استفسارهم ورغبتهم الشديدة فى التغيير • وهنـاك أيضا ذلك الطراز من المرضى وهو المريض الذى بالرغم من معاناته للأعراض المضنية ، الا أنه لايزال لايريد التغيير فعلا ، ان بطـاقة علاجـه تقول : « اننى أعد بأن أدعك تسـاعدنى اذا لم تتحسن حالتى » • وهذا الموقف السلبى يتغير عندما يبدأ المريض يرى أنه توجد طريقة أخرى للحياة • ان المعرفة العاملة لمبدأ (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) تجعل من الميسـور للراشد اكتشاف أبعاد جديدة ومثيرة للحياة ، وهى رغبة كانت موجودة طوال الوقت ، ولكنها كانت مدفونة تحت حمل عدم الرضـا أو العجز عن التوافق •

هل الانسان عنده ارادة حرة ؟

هل يستطيع الانسان أن يتغير حقيقة ـ اذا أراد ؟ واذا اسـتطاع ذلك ، فهـل يعتبر تغييره نتـاجا لعملية اشتراط conditioning سالفة ؟ هل للانسان ارادة ؟ ان احدى المشكلات الأشد صعوبة للموقف الذى وصفه فرويد تتمثل فى **الحتمية مقابل الحرية أو الجبر والاختيار** • لقد قرر فرويد ومعظم السلوكيين أن ظاهرة العلة والمعلول ـ التى تظهر فى كل شىء ، تصدق تماما بالنسبة للكائنـات البشرية ، وفحواها أنه مهما يحدث اليوم فمن المستطاع فهمه نظريا تحت ضـوء ما حـدث فى الماضى • فاذا قتل رجل اليوم رجلا آخر ، فاننا قد تعودنا حسب توجيه فرويد أن ننظر فى ماضيه لنكتشف السبب ، والافتراض هنا يدور حول حتمية وجود سبب أو أسباب ، وأن هذا السبب أو الأسباب يكمن فى مكان ما فى الماضى •

أما الذين يعتنقون مذهب الجبر البحت فيقولون : ان سلوك الانسان ليس حرا ، وهو فقط نتاج لماضيه ، والنتيجة الحتمية تتركز فى أن هذا الرجل ليس مسئولا عما يفعله ، ويعنى هذا فى الحقيقة أن ارادته ليست حرة ، وتظهر المعضلة الفلسفية بصورة دراميـة فى المحاكم حيث يعتبر الموقف القضائى أن الرجل مسئول • أما مذهب الجبر الذى يقف خلف شـهادة الطب النفسى فانه يتركز فى أن الرجـل غير مسئول بالنظر الى أحداث ماضيه •

ونحن لانستطيع أن ننكر حقيقة العلة والمعلول ، اذا ضربنـا كرة بلياردو فاصطدمت بعدد آخر من الكرات ، التى ستضرب بدورها كرات

اخرى تحركها ، ومن ثم علينا أن نقبل البرهان على فكرة الترتيب المتسلسل للعلة والمعلول ، أما مذهب الوحدة فيزعم أن هناك قوانين من نفس النوع تؤثر على سائر مظاهر الطبيعة . أما التاريخ فيبرهن على أنه بينما لم تتطور كرات البلياردو عما هى عليه وهى تتصام فى دراما العلة والمعلول الا أن البشرية تطورت الى أكبر مما كانت عليه . ان برهان التطور والخبرة الشخصية ، يقنعنا بأن الانسان قد صار أكبر من أسلافه . وقد علق ول ديورانت على الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون الذى عاش فى القرن التاسع عشر الذى جرف قضية الجبر الى اللا معقول ، فقال :

واخيرا هل بات مذهب الجبر أكثر وضوحا من مذهب الارادة الحرة ؟ اذا لم تتضمن اللحظة الحاضرة اختيارا حيا وخلاقا ، وصارت كلية وتلقائية نتاجا لموضوع البحث وحركة اللحظة السابقة ، اذن فقد كانت تلك اللحظة هى التأثير التلقائى للخطة التى سبقتها ، وهذه أيضا نتاج لما سبقتها .. وهكذا ، حتى نصل الى السديم الأزلى الموغل فى القدم ، كسبب كلى لكل حدث تال ، لكل سطر من مسرحيات شكسبير ، وكل معاناة نفسية عاش فيها ، حتى بلاغة كل من هاملت وعطيل وماكبث ولير ، فى كل جملة وكل فقرة .. كلها قد كتبت فى السموات البعيدة والأزمنة السحيقة . مع تكوينات ومحتويات تلك السحابة الأسطورية . يالها من مسودة للسذاجة .. لقد كانت هناك مادة كافية للثورة هنا ، واذا قفز برجسون الى الشهرة بأقصى سرعة فذلك لأنه كان لديه الشجاعة لأن يشك فيما آمن به كل الشكاكين (٣) .

وتكمن الاجابة ليس فى تفنيد طبيعة العلة والمعلول ، وأثرها على الانسان من جهة السلوك ، بل فى البحث عن السبب فى كل مكان وزمان ، وليس فقط فى الماضى . ان الانسان يفعل ما يفعله لأسباب مؤكدة ، ولا تعود جميع هذه الأسباب الى الماضى . وقد سئلت فى مقابلة تليفزيونية عن السبب الذى جعل تشارلس هويتمان يتسلق برجا فى جامعة تكساس ويطلق الرصاص على أهداف من الناس الذين على الأرض أسفله . وبعد استعراض عدد من الأسباب الممكنة سئلت : « ولكن لماذا يفعل بعض الناس أشياء من هذا القبيل بينما الآخرون لايفعلون ؟ ولايزال السؤال ماثلا . اذا كان موقفنا هو اننا ببساطة لانعرف الكفاية عن التاريخ الماضى بالنسبة

---

(٣) Will Durant, "The story of Philosophy", (New York : Simon & Schuster, 1933, pp. 337-338).

للفرد ، اذن فاننا لانزال فى نفس الموقف القائل بأن الاجابة تكمن فى الماضى، فى مكان ما ٠

وعلى أية حال فان هناك فارق ضرورى بين الانسان وكرة البلياردو ، فالانسان قادر من خلال التفكير على النظر الى المستقبل ، انه يتأثر بطراز آخر من نظام السببية ذلك الذى يطلق عليه تشارلس هارتشورن اسم : « السببية الردفعلية reactive causation » (٤) ٠

ويشرح التون تروبلاد هذه النقطة بافتراض أن أسـباب السلوك الانسانى تكمن ليس فقط فى الماضى بل فى قدرة الانسان على تأمل المستقبل، أو تقدير الاحتمالات :

ان العقل الانسـانى يعمل الى حد كبير وهو ينظر الى الاسـباب النهائية ، وهذا أمر شديد الوضوح لدرجة أنه قد يبدو من غير المستطاع استخدام القياس التمثيلى للسببية بكرة البليـاردو ، وبالطبع فان كرة البلياردو تتحرك مبدئيا حسب السببية المؤثرة ، ولكن الانسـان يعمل بطريقة مختلفة تماما ٠ ان الانسان مخلوق ينشغل حاضره دائما بالعودة الى اللا موجود ، ولكنه على الرغم من ذلك قوى وينظر الى المستقبل ٠ ان غير الموجود يؤثر فى الموجود ٠ اننى أواجه مشكلة صعبة ولكن المخرجات ليست بالضرورة ، نتيجة لمجموعة من القوى الميكانيكيـة ، التى تصدق بالنسبة للجسم الطبيعى ، وبدلا من ذلك أظن ، ومعظم تفكيرى ينصب على ما يمكن أن ينتج بشرط امكانية اتخاذ بعض الخطوات (٥) ٠

ويعرف أورتيجا الانسان بأنه « كائن لايتكون من الكثير مما هو عليه، مثلما يتكون مما سيكونه فيما بعد » (٦) ٠

ويقول تروبلاد :

٠٠ لا يكفى أن نقول أن المخرجات محددة حتى بشخصية الانسان فى الماضى ، لأن الحقيقة فيما سنتقاسمه هى أن البدعة الأصيلة يمكن أن تنبثق من فعل التفكير ٠ ان التفكير كما نمارسه يوميا ، ليس بالضرورة

---

(٤) See, "Causal Necessities, an Alternative to Hume, The Philosophical Review, 63 (1954), pp. 479-499.

(٥) Trueblood, General Philosophy.

(٦) J. Ortega Y. Gasset, "What is Philosophy."

مجرد الادراك الفعل ، مثلما يلح مذهب الظواهراتية epiphenomenalism ولكنه سبب حقيقى وخلاق · ان شيئا يحدث عندما يفكر الانسان ، وهو شيء لايمكن أن يحدث ان لم يفكر فيه الانسان وهذا هو ما نعنيه باعتبار السببية الذاتية self-causation احتمالا ثالثا أصيلا ضمن احتمالات المشكلة التى تحيرنا دائما (٧) ·

وعلى ذلك فاننا نرى أن « الراشد » هو المكان الذى يستقر فيه الفعل ، وفيه يسكن الأمل ، وفيه أيضا يمكن أن يحدث التغيير ·

---

(٧) Trueblood, "General Philosophy".

الفصل الخامس

تحليل المعاملات

(لأنى لست أعرف ما أنا افعله ــ القديس بولس فى رسالته الى أهل رومية ــ ٧ : ١٥)

الآن وقد وضعنا أساسا لحديثنا ، نأتى الى الجانب الفنى الذى يتمركز حوله ، وهو استخدام لغة الحديث **لتحليل المعاملة** : تتركب المعاملة من حافز أو مثير من شخص ، واستجابة من شخص آخر ، والاستجابة تصبح بدورها حافزا جديدا للشخص الأول لكى يستجيب لها · والغرض من التحليل هو : اكتشاف أى عناصر الانسان ــ « الوالد » أو « الراشد » أو « الطفل » هو منشأ كل مثير واستجابة ·

وهناك اشارات عديدة تساعدنا على تحديد المثير والاستجابة مثل « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » · وهذه بدورها لاتتضمن الكلمات المستعملة فقط ، بل أيضا نبرة الصوت وايماءات الجسم وتعبيرات الوجه · وكلما صرنا أكثر مهارة فى التقاط هذه الاشارات ، كلما اكتسبنا معلومات أكثر فى تحليل المعاملات · وليس علينا أن نغوص فى أحداث الماضى لاكتشاف ما هو مسجل فى « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » لأننا نكتشف هذه العوامل فى أنفسنا يوميا · ونقدم فيما يلى قائمة بالاشارات البدنية واللفظية لكل حالة :

اشارات الوالد : البدنية : تقطيب الجبين ـ زم الشفتين ـ التلويح باصبع السبابة ـ هز الرأس ـ النظرة المرعبة ـ النقر بالقدم ـ وضع اليد في الخصر ـ شبك الذراعين على الصدر ـ التربيت على الرأس ـ فرقعة اللسان ـ التأوه ـ عصر اليدين ٠ وتلك هى ايماءات « الوالد » التى تخص « والد » الشخص ٠ وعلى سبيل المثال ، اذا كان لدى أبيك عادة تسليك حلقه والنظر الى السماء فى كل مرة كان يدلى فيها بتعليق حول سلوكك الردىء ، فان هذا السلوك سيظهر بلا شك كلازمة خاصة بك عند كل تعليق « والدى » ، حتى اذا لم يكن ذلك مرئيا ـ « كوالد » ، فى معظم الناس ٠ وأيضا هناك اختلافات ثقافية ٠ وعلى سبيل المثال ، فان الناس فى الولايات المتحدة يزفرون عندما يتثاءبون ، بينما الناس فى السويد يشهقون عندما يتثاءبون ٠

اشارات الوالد : اللفظية : سأضع حدا نهائيا لهذا ، ان هذا فوق طاقتى ، والآن تذكر دائما ٠٠ (دائما ، وأبدا ، وغالبا : هذه كلها كلمات « الوالد » التى تكشف محدودية النظام القديم الذى أغلق أمام المعلومات الجديدة) ٠ كم مرة قلت لك ؟ لو كنت مكانك ٠٠٠ وقد تفصح الكثير من كلمات التقييم سواء كانت انتقادية أو مؤيدة ، عن هوية « الوالد » اذا كانت تقدم حكما على آخر ، مؤسسا على الاستجابات التلقائية القديمة لا على تقييم الراشد ٠ والأمثلة على هذه الأنواع من الكلمات هى : غبى ، شقى ، مثير للاستهزاء ، مقزز ، مثير للاستفزاز ، أحمق ، كسول ، تافه ؛ سخيف ، عديم القيمة ، مثير للشفقة ، لا ! لا ! يا ابنى العزيز (بلهجة بائعة متشددة) ، كيف تجرؤ ، شاطر ، « هات من الآخر » ، مرة أخرى ، من المهم أن تحفظ فى ذهنك أن هذه الكلمات ليست الا مفاتيح اشارة » وليست استنتاجات حاسمة ٠ وقد يقرر « الراشد » بعد تفكير عميق ، على أساس نظام « الراشد » الأخلاقى ، أن أشياء معينة غبية ومثيرة للاستهزاء ومقززة ومثيرة للاستفزاز ٠ وهناك كلمتان هما : يجب ، ويتحتم ، غالبا ما يفضح استخدام أى منهما حالة « الوالد » ، ولكن وكما سيرد فى الفصل الثانى عشر ، فان كلمتى : يجب ، ويتحتم ـ يمكن أيضا أن تكونا بين كلمات « الراشد » ٠ انه الاستخدام التلقائى القديم وبلا تفكير ـ لهذه الكلمات التى توضح عمل « الوالد » ٠ ان استخدام هذه الكلمات مع ايماءات الجسد ، وسياق المعاملات ، يساعدنا على تعريف « الوالد » ٠

اشارات الطفل : البدنية : حيث أن استجابات **الطفل** المبكرة للعالم الخارجى كانت غير لفظية ، فان أوضح اشارات « **الطفل** » تظهر فى

التعبيرات البدنية · وأى من الاشارات التالية يشير الى انغماس « **الطفل** » فى المعاملة : الدموع ، ارتعاش الشفة ، التبويز والنبرة العالية ، والتموج الحركى ارتفاعا وانخفاضا ، والصوت الممتزج بالأنين ، والعينان الزائغتان ، والكتفان المهتزتان بلا مبالاة ، والعينان المنكسرتان ، والمزاح ، والفرح ، والضحك ، ورفع اليدين للاستئذان فى الكلام ، وقضم الأظافر ، والتلوى ، والقهقهة ·

اشارات الطفل : اللفظية : كلمات عديدة ، بالاضافة الى الكلمات الطفولية ويمكن أن نتعرف عليها ومنها : أرغب ، أريد ، لا أعرف ، سأفعل، لا أهتم ، أخمن ، عندما أكبر ، أكبر ، الأكبر ، أحسن ؛ الأحسن ؛ (تتولد صيغ تفضيل عديدة فى **الطفل** مثل « قطع اللعب » فى لعبة « لعبتى أفضل » ؟ · وبنفس الروح نجد كلمات مثل « انظرى ياماما اختفت يداى » التى يقولها لكى يبهر « الوالد » وللتغلب على حالة « لست على مايرام » ·

وهناك مجموعات أخرى من الكلمات التى تقال باستمرار عن طريق الصغار ولكنها ليست اشارات « للطفل » بل تشير أكثر « للراشد » الذى يعمل فى الشخص الصغير ، وهذه الكلمات هى : لماذا ؟ وماذا ؟ وأين ؟ ومتى ؟ ومن ؟ وكيف ؟

اشارات الراشد : البدنية : ماذا يشبه « الراشد » ؟ اذا حولنا جهاز الفيديو عن شريط « الوالد » و « الطفل » فماذا سيظهر لنا على الشاشة ؟ هل سيظهر وجه فارغ ــ أم عطوف ؟ أم بليد ؟ أم تافه ؟ يقول ارنست (١): « ان الوجه الخالى من التعبير لايعنى وجه « الراشد » ، وهو يلاحظ أن الانصات الى « الراشد » يتحدد بالحركة المستمرة ــ للوجه والعينين والجسم ، مع رمشة العين كل ثلاثة الى خمسة ثوان · أما عدم الحركة فيعنى الانصات » · ويقول ارنست : « ان وجه « الراشد » معتدل ، واذا مالت الرأس ، يكون الشخص منصتا بزاوية فى العقل ، ويسمح « الراشد » أيضا « **للطفل** » المتعجب المستغرب بأن يطل بوجهه ·

اشارات الراشد : اللفظية : وكما ذكرنا من قبل ، فان الكلمات الأساسية لدى « الراشد » تتكون من : لماذا ؟ وماذا ؟ وأين ؟ ومتى ؟ ومن ؟ وكيف ؟ والكلمات الأخرى هى : بكم ؟ وبأى طريقة ؟ ونسبيا ، وحقيقى ،

---

(١) محاضرة القاها F. Ernest عن « الاستماع » بمعهد تحليل المعاملات ، ساكرامنتو بكاليفورنيا يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٩٦٧ ·

وزائف ، ومحتمل ، وممكن ، وغير معروف ، وموضوعى ، وأظن ، وأرى : وأنه رأيى ٠٠٠ الخ ٠ وكل هذه الكلمات تشـــير الى تشغيل بيـــانات « الراشد » ٠ وفى عبارة « انه رأيى » قد يكون الرأى مشتقا من « الوالد » ولكن المتحدث هو « الراشد » اذ أنه يعرف أن ذلك رأى وليس حقيقة ٠ « من رأيى أنه يجب منح طلبة المدرسة العليا حق التصويت » ٠ وهذه العبارة ليست هى نفس العبارة القائلة : « يجب أن يمنح حق التصويت لطلبة المدرسة العليا » ٠

وبهذه الاشارات التى تساعدنا ، نستطيع أن نبـدأ فى تعـريف « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » فى المعاملات التى نندمج فيها نحن والآخرون (*) ٠

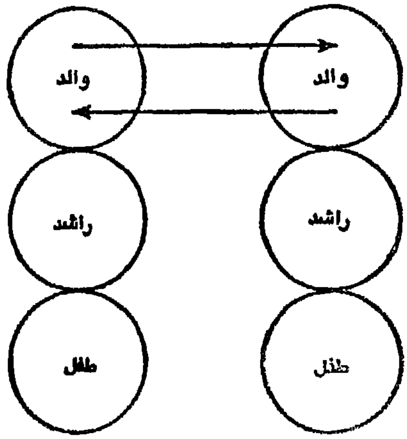
وأى موقف اجتماعى يحفل بالأمثـلة لكل نـوع من المعاملات التى يمكن تصورها ٠ ومنذ عدة سنوات مضت ، أنفقت يوما كاملا فى أتوبيس، أثناء سفرى الى بيركلى ، ولاحظت عددا من المعاملات ٠ كانت الأولى متبادلة بين « والد » و « والد » (شكل رقم ٩) جرت بين ســـيدتين عابستين ، جالستين احداهما بجوار الأخرى فى مواجهتى ٠ وكانتا تتحدثان فى فلسفة عميقة حول النقطة الخاصة بما اذا كان هذا الأتوبيس سيصل الى بيركلى فى موعده أم لا ٠ وقد أدارتا بمعرفة عظيمة وايماءات مشجعة بالرأس ، حوارا طويلا بدأ بالمعاملات التالية :

السيدة الأولى : (تنظر الى ساعتها وتملؤها وتهمهم ، وتنظر الى السيدة التى بجانبها ، ثم تتنهد فى ارهاق) ٠

السيدة الثانية : (تـرد التنهد ، وتتزحزح فى غير راحـة ، وتنظـر الى ساعتها) ٠

السيدة الأولى : يبدو أننا سنتأخر مرة أخرى ٠

(*) لا شك ان الاشارات التى أوردها المؤلف فى هذا الفصل تمثل نموذجا على سبيل المثال وليس الحصر لتلك المستعملة فى الانجليزية وليست بالضرورة هى نفسها المستعملة فى العربية خاصة اللهجات المحلية أو العامية ، ليس هذا فقط بل ان الاشارات بشكل عام تختلف من قطر الى قطر ومن شعب الى شعب من حيث المعانى والدلالات والنوعيات ـ ورغم ذلك أوردنا الاشارات الواردة فى المتن لارتباطها بمعانى ايحائية معينة فى الألعاب وتحليل المعاملات ٠ ونوصى القارىء بأن يعود فى هذا الخصوص الى الفصل الخاص بالاشـارات الاجتماعية ـ فى كتاب : علم النفس الاجتماعى ـ للدكتور عبد الحليم محمود ـ الاستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة ـ المترجم ٠



شكل رقم ٩ ـ معاملة بين (والد ـ والد)

السيدة الثانية : انك لا تخطئين أبدا ٠

السيدة الأولى : هل رأيت فى حياتك كلها أتوبيسا يصل فى موعده ؟

السيدة الثانية : أبـدا ٠

السيدة الأولى : هذا هو نفس ماكنت أقوله لهربـرت هذا الصـــباح ـ انك لن تحصل مرة أخرى على خدمة مثل أيام زمان ٠

السيدة الثانية : انك على حق تماما ٠ انها سمة من سمات العصر ٠

السيدة الأولى : ولكنها مضيعة للعمر ، وأى ضياع ٠

هذه المعاملات متبادلة ما بين « والد » و « والد » وعلى ذلك فهى تمضى بدون استفادة من البيانات ، وهى تشبه ذلك النوع من الأحاديث الذى سمعتاه حينما كانتا طفلتين من والدتيهما وعماتهما وهما تتحدثان عن ركوب الأتوبيس فى الزمن الماضى ٠ وقد استمتعت السيدتان باستعادة الذكريات ، أكثر من الاستمتاع المنتظر فيما لو كانتا قد ذكرتا الحقائق ، وهذا بسبب الاحساس الطيب الذى يأتى من اللوم والبحث عن الأخطاء ٠ عندما نلوم ونبحث عن الأخطاء ، نستعيد اللوم المبكر وعمليـــات تصيد الأخطاء ، المسجلة فى « الوالد » وهذا يجعلنا نحس بأننا على مايرام ، لأن « الوالد » على ما يرام ، ونحن نتفق مع « الوالد » ، أما الاهتداء الى شخص يوافقك ويلعب معك اللعبة ، فانه ينتج احســـاسا بالقــدرة على كل شىء ٠

بدأت السيدة الأولى الحركة الأولى ، وكان يمكن للسيدة الثانية أن توقف اللعبة لو أنها أجابت عن أى نقطة بعبارة من « الراشد » على أى من عبارات السيدة الأولى :

السيدة الأولى : (تنظر الى ساعتها وتملؤها وتهمهم ، وتنظر الى السيدة التى بجانبها ، وتتنهد فى ارهاق) ٠

احتمالات اجابة « الراشد » :

١ ــ تجاهل التنهد بالنظر بعيدا ٠

٢ ــ ابتســـامة بسيطة ٠

٣ ــ (اذا كانت السيدة الأولى متضايقة بما فيه الكفاية) : هل أنت على ما يرام ؟

السيدة الأولى : يبدو أننا سنتأخر مرة أخرى ٠

احتمالات اجابة « الراشد » :

١ ــ كم الساعة الآن ؟

٢ ــ هذا الأتوبيس يصل عادة فى موعده ٠

٣ ــ هل تأخرت قبل ذلك ؟

٤ ــ سأسأل عن ذلك ٠

السيدة الأولى : هل رأيت فى حياتك كلها أتوبيسا يصل فى موعده ؟

احتمالات اجابة « الراشد » :

١ ــ نعـــم ٠

٢ ــ أنا لا أركب الأتوبيس عادة ٠

٣ ــ لم أفكر فى ذلك مطلقا ٠

السيدة الأولى : هذا هو نفس ماكنت أقوله لهربرت فى هذا الصباح ٠ انك لن تحصل مرة أخرى على خدمة مثل أيام زمان ٠

احتمالات اجابة « الراشد » :

١ ــ أنا لا أوافق على ذلك ٠

٢ ــ أى خدمة تقصدين ؟

٣ ــ ان مستوى المعيشة مرتفع أكثر من أى وقت آخر ، حسب ما أراه ٠

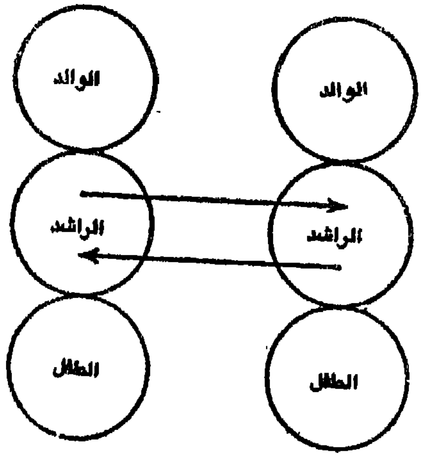
٤ ــ ليس عندى مبرر للشكوى ٠

هذه الاجابات البديلة تنتمى الى « الراشد » ولكنها ليست تكميلية ٠ ولا يرحب من يستمتع بلعبة « أليس ذلك مخيفا ؟ » بندخل الحقائق ٠ واذا كانت مجموعة من الزوجات يستمتعن كل صباح بالحديث حول « الأزواج الأغبياء » فانهن لن يرحبن بالجارة الجديدة التى تعلن فى سعادة أن زوجها جوهرة ٠

ويأتى بنا ذلك الى القاعدة الأولى من قواعد الاتصال فى تحليل المعاملات ، عندما يتوازى الدافع والاستجابة فى نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) للمعاملات ، يصبح التعامل تكميليا ، ويستطيع أن يمضى الى أجل غير مسمى ٠ ولا يعنينا السبيل الذى يمضى فيه الموجهون (والد ــ والد ، أو : راشد ــ راشد ، أو : طفل ــ طفل ، أو : طفل ــ راشد) اذا كانوا متوازين ٠

ان السيدتين الأولى والثانية لم يكن كلامهما معقولا من جهة الحقائق، ولكن حوارهما كان تكميليا واستمر حوالى عشر دقائق ٠ ان « الأسى الممتع » للسيدتين انتهى عندما سأل الرجل الذى أمامهما السائق عما اذا كانوا سيصلون الى بيركلى فى الموعد المحدد من عدمه ٠ فقال السائق : (« نعم » فى الحادية عشرة والربع) ٠ وكانت هذه أيضا معاملة تكميلية بين الرجل والسائق « راشد ــ راشد » (شكل رقم ١٠) كانت اجابة مباشرة على سؤال مباشر لطلب المعلومات ٠ ولم يكن هناك عنصر « الوالد » (هل يمكن أن نصل الى بيركلى فى الميعاد ، ولو مرة واحدة ؟) وبدون عنصر « الطفل » (لا أعرف لماذا يحدث دائما أننى أستقل أبطأ الأتوبيسات) ، انه تغيير غير انفعالى ٠ وهذا النوع من المعاملات يحصل على الحقائق ٠

وكان هناك خلف السيدتين ، شخصان آخران يرسم نشاطهما نوعا آخر من التعامل هو « طفل ــ طفل » ٠ كان لأحدهما وجه مجعد الشعر ،



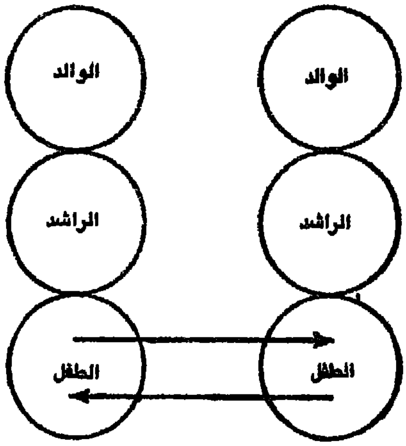
شكل رقم ١٠ ـ معاملة بين (راشد ـ راشد)

وكان بالتأكيد يبدو كطفل بشعر أشعث ومرتديا بنطلونا أسود ومغطى بالتراب ، وفوقه جاكيت أسود من الجلد ٠ أما المراهق الآخر فقد كان يرتدى ملابس مشابهة مع نظرة خلاعة مغتصبة ٠ وكانا كلاهما منهمكين فى قراءة نفس الكتاب ذى الغلاف الرقيق ، وعنـــوانه : **أسرار طقوس** التعذيب ٠ ولو كان هناك اثنان من القساوسة منكبين على نفس الكتاب ـ لتطوع الانسان بالقول أنهما يبحثان عن معلومات « الراشد » حول هذا الموضوع الغريب ، ولكن بمراقبة هذين المراهقين يأخذ الانسان على عاتقه القول بأن هذا كان تعامل « طفل ـ طفل » ٠ انهما بذلك ينغمسان الى حد ما فى نفس القسوة التى يجدها **صغيران** فى سن الخامســة ، عندما يكتشفان كيفية خلع أجنحة الذباب ٠ لنفترض أن المراهقين قد تصرفا حسب معلوماتهما الجديدة ووجدا ســبيلا لتعذيب شــخص ما كما هو مبين فى الكتاب ٠ لن يكون هناك تغذية « الراشد » بالمعلومات (عدم فهم النتائج) أو تغذية « الوالد « بالمعلومات (من المفزع عمل شيء كهذا) ٠

وحتى اذا تحول التعامل الى أسوأ بالنسبة لهما (وصول البوليس ـ أو الأم فى حالة طفلى الخامســة اللذين يخلعــان أجنحة الذباب) فان الشخصين المندمجين فى المعاملة نفسها ، سيكونان على توافق ، ولذلك فالمعاملة هنا تكميلية « طفل ـ طفل » (شكل رقم ١١) ٠

صور اضافية للمعاملات التكميلية :

معاملة « والد ـ والد » : (أنظر شكل رقم ٩) :



شكل رقم ١١ - معاملة بين (طفل - طفل)

الحافز : ان واجبها هو البقاء فى المنزل مع الصغار .

الاستجابة : من الواضح أنه ليس لديها احساس بالواجب .

الحافز : من المثير للاشمئزاز تلك الطريقة التى تغذى بها الضرائب كل هؤلاء التافهين من جيوبنا .

الاستجابة : الى ماذا سيؤول الأمر ؟

الحافز : أولاد هذه الأيام كسالى .

الاستجابة : انها من علامات الزمان .

الحافز : سأستأصل هذا الشر الى الأبد .

الاستجابة : على بركة الله ، عليك أن تقضى على الفساد فى مهده .

الحافز : أنت تعرف أن هذا غير مشروع .

الاستجابة : أوه . ذلك يفسر ما حدث .

الحافز : فصل جون . كيف يجرؤون على عمل مثل هذا الشىء ؟

الاستجابة : « يستأهل » يا عزيزى . أنا لا أعرف لماذا عمل لدى تلك الشركة الغبية من الأول .

الحافز : لقد تزوجته من أجل ماله .

الاستجابة : حسنا . هذا هو كل ما حصلت عليه .

الحافز : لا تستطيع أبدا أن تثق بأحد هؤلاء الناس .

الاستجابة : تماما ! انهم جميعا متشابهون .

معاملة « راشد ــ راشد » : (أنظر شكل رقم ١٠) :

الحافز : كم الساعة ؟

الاستجابة : ساعتى تقول : الرابعة والنصف .

الحافز : هذه بداية جيدة الشكل .

الاستجابة : أشكرك .

الحافز : هذا الحبر الجديد يجف بسرعة .

الاستجابة : هل هو أغلى من النوع الآخر .

الحافز : من فضلك ناولنى الزبد .

الاستجابة : هاك الزبـد .

الحافز : ما هذه الرائحة الطيبة ، يا عزيزى ؟

الاستجابة : فطائر القرفة فى الفرن ... انها جاهزة تقريبا .

الحافز : لا أعرف ماذا أفعل . لا أستطيع أن أقرر ماهو صواب ؟

الاستجابة : لا أظن أن عليك محاولة صنع قرار عندما تكون شديد التعب - لماذا لا تذهب الى السرير وسنتحدث عنه فى الصباح .

الحافز : أعتقد أنها تمطر .

الاستجابة : هذا هو ما يقوله التنبؤ الجوى .

الحافز : العلاقات العامة احدى وظائف الادارة .

الاستجابة : تعنى أنه لايمكن ترتيبها من خلال احدى الوكالات .

الحافز : السفينة لورلاين ستبحر فى الساعة الواحدة يوم الجمعة .

الاستجابة : ما الوقت الذى علينا أن نكون فيه هناك ؟

الحافز : يبدو جون متعبا مؤخرا .

الاستجابة : لماذا لا ندعوه للغداء ؟

الحافز : أنــا متعب ٠

الاستجابة : لنذهب للسرير ٠

الحافز : أرى أن الضرائب سترتفع هذا العام مرة ثانية ٠

الاستجابة : حسنا ٠ ليست هذه بالأنباء الطيبة ٠ ولكن اذا كنا سنستمر في الصرف ، فعلينا أن نحصل على النقود من مصدر آخر ٠

معاملة « طفل ــ طفل » : (أنظر شكل رقم ١١) :

يظهر أن هناك القليل من الألعاب الحرة التى تدور حــول معاملة « طفل ــ طفل » التكميلية ٠ هذا لأن الطفل مخلوق يطلب الحنان أكثر من أن يعطيه ٠ ويقيم الناس العلاقات للحصول على الحنان ٠ قال برتراند راسل : « لايستطيع الانسان أن يفكر بقوة من منطلق الاحساس المجرد بالواجب ٠٠٠ أريد نجاحا قليلا من وقت لآخر للمحافظة على مصــــدر للطـــــاقة (٢) ٠

وبدون انغماس « الراشد » في المعاملة لن يحصل أن شخص على حنان أو مديح ، وتصبح العلاقة غير تكميلية أو تموت من الملل ٠٠

وتعتبر حركة الهيبز (*) نموذجا اجتماعيا واضــحا لهذه الظاهرة اذ يحب هؤلاء **الصغار** الذين فى عمر الزهور ، حياة يمارسون فيها معاملة « طفل ــ طفل » ولكن الحقيقة المفزعة بدأت تظهر : ليست هناك متعة في عمل ما تريد اذا كان كل شخص لايجد المتعة الا فى عمــل الشىء الذى يريده ٠ وهم باستئصال المؤسسة ، استأصلوا « الوالد » أى عدم الموافقة و « الراشد » أى الواقع المألوف ، ولكنهم مع استئصال عدم الموافقـــة هذا ، وجدوا أنهم قد استأصلوا أيضا مصدر المديح (قد يقرر اثنان عمر

---

(٢) B. Russell, "The Autobiography of Bertrand Russell", (Boston : Little Brown, 1967).

(*) **الهيبز** : حركة شبابية معارضـــة ظهرت بالولايات المتحدة الأمريكيـــة فى السبعينيات ، خرج أفرادها على نماذج السلوك العادية فى المجتمع الأمريكى ، وعبروا عن معارضتهم بارتداء ملابس غير عادية ، والعيش معا فى جماعات ، وكان بعضهم يتناول المواد المخدرة لاستجلاب المتعة ٠ وقد انتشرت هذه الحركة فى مجتمعات أخرى ، ووصلت الى المجتمع المصرى ، ولكنها اندثرت بسرعة لأن مجتمعنا لم يستطع أن يهضمها كما أن شبابنا لم يتجاوب معها أو يستسيغها لأنها لم تكن أصيلة بل بدعة مستوردة ٠ وسيقوم المؤلف هنا بمناقشة حياة أفراد هذه الحركة من منطلق تحليل المعاملات ـ المترجم ٠

كل منهما أربع سنوات أن يهربا من البيت ، ولكنهما يتخليان عن الفكرة عندما يفكران أنه من الأفضـــل الحصول على فمح من الايس كريم · وهذا يستدعي وجود الأم) · ان الصغيرين اللذين في عمر الزهور كانا يبحثان عن الحنان ، ولكن الأمر صار أكثر وأكثر موضوعية وبدون معنى · قال الوله للبنت : « انني أحبك طبعا · انني أحب كل شخص ! » وعلى ذلك فقد بدأت الحياة تستقر بأساليب للمداعبة أكثر وأكثر بدائية · منها هذا الحنان الغريب (الهروب بتعاطي المخدرات) والنشاط الجنسي المستمر · ويمكن للجنس وحده أن يكون نشاطا « طفل ــ طفل » طالما أن الحافز الجنسي تسجيل وراثي في « الطفل » ، مثل كافة الحوافز البيولوجية الأخرى · وأكثر أنواع الجنس جلبا للسعادة يزداد على أية حال عندما يوجد في « الراشد » عناصر المراعاة والتلطف والمسئوليـة نحو مشاعر الآخرين · وليس كل الهيبز مجردين من هذه القيم ، كما أنهـم ليسوا جميعا مجردين من « الوالد » و « الراشد » فالكثيرون منهم يعيشون على أية حال ــ على أساس مبدأ البحث عن الذات ، ويبحث كل منهـــم لدى الآخر ــ من وجهة نظر خاصة ــ عن الحافز الجنسي ·

اننا نكتشف في علاقات الهيبز السعيدة أو صداقات الطفولة المليئة باللهو ، أنها لاتقتصر على علاقات « طفل ــ طفل » بل تنطوي على بيـــانات « الراشد » وقيم « الوالد » أيضا · وعلى سبيل المثال ، اليك هذا الحوار بين فتاتين صغيرتين تلعبان :

الفتاة الأولى « طفل » : سأمثل دور الأم وأنت تمثلين دور الفتاة الصغيرة ·

الفتاة الثانية « طفل » : لماذا يتحتم أن أكون الفتاة الصغيرة دائما !

الفتاة الأولى « راشد » : حسنا · دعينا نتبادل الأدوار · أنت تمثلين دور الأم أولا ، وفي المرة الثانية سأكون أنا الأم ·

وهذا التبادل لايمثل معاملة « طفل ــ طفل » لأن مدخلات « الراشد » (حل المشاكل) ظاهرة في العبارة الأخيرة وكذلك فان العديد من معاملات الأطفال الصغار تأخذ صورة « راشد ــ راشد » ، بالرغم من أنها قد تبدو « طفولية المظهر » بسبب نقص المعلومات :

الطفلة الصغيرة : انظروا ، انظروا ! لقد فقدت « بازي » (القطة) احدى أســـنانها ·

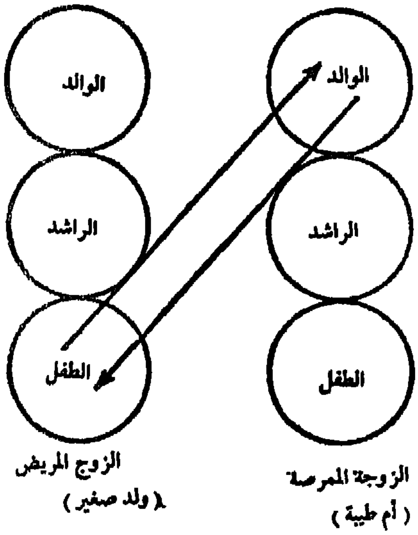
الأخت : هل ستعطيها الشمس « سنة العروسة » ؟

ان كلا من الحافز والاستجابة يعبران عن « الراشد » . انهما عبارتان ساريتا المفعول على أساس المعلومات المتوفرة ٠ انها عملية تصنيف جيدة للمعلومات ٠ المعلومات الخطأ ! ٠ ويمكن ملاحظة معاملات « طفل ــ طفل » التكميلية فيما يفعله الأشخاص معا أكثر مما يقوله الواحد للآخر ، وهذا صحيح بالنسبة للصغار ٠ ان الفتى والفتـــاة اللذين يتشبث كل منهما بالآخر وهما يركبــان أرجوحة سريعـــة خطرة ويصرخان ويصيحان ملء شدقيهما ، انما يؤديان معاملة « طفل ــ طفل » ٠ ويمكن القول بأن الممثلين المعروفين باسم : تاجليافيني وتاسبيناري ، وهما يؤديان الفصل الثالث من أوبرا ميفيستوفيلي « غناء ثنائيا أى دويتو » ــ انما يؤديان دورا مكثفا لمعاملة « طفل ــ طفل » ٠ ويمكن القول بأن الجد والجدة اللذين يسيران عاريا الأقدام على شاطىء البحر ــ انما يؤديان دور معاملة « طفل ــ طفل » ، ولكن « الراشد » هو الذى يرتب مثل هذه التجارب السعيدة ٠ لقد دفع الصبيان نقودا لدخول مدينـــة الملاهى وركوب الأرجوحة كذلك تدرب المغنيان سنوات طويلة لاتقان أداء هذا الغناء الباعث للنشوة ٠ أما الجد والجدة فقد تقاسما لذة أن يكونا معا ، تلك التى صارت مستطاعة مع حياة العطاء والأخذ ٠ ان العلاقة بين الناس لايمكن أن تستغرق وقتا طويلا بدون « الراشد » ــ وعلى ذلك فقد نقول أن معاملات « طفل ــ طفل » تدوم باذن واشراف « الوالد » وعندما لايكون « **الوالد** » « مراقبا » ، يكشر « الطفل » عن أنيابه فى معاملات متقاطعة ، ســـنقوم بوصفها فيما بعــد فى نفس هذا الفصل ٠

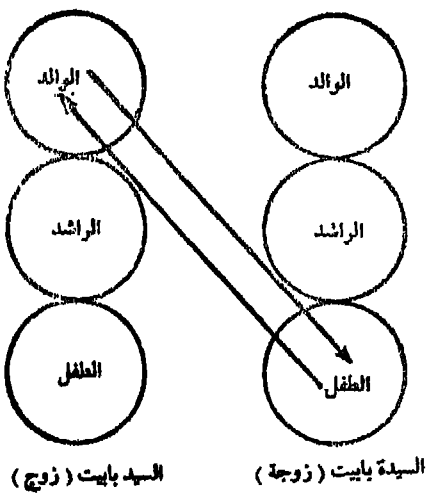
معاملة « والد ــ طفل » :

تعتبر المعاملة مابين « والد ــ طفل » (شكل رقم ١٢) طرازا من المعاملات التكميلية ٠ الزوج (طفل مريض بالحمى ، ويريــد العناية ٠ الزوجة (والدة) تعرف مدى احساسه بالمرض وترغب فى مراعاته مثل الأم ، ويمكن لهذه المعاملة أن تستمر بطريقة حسنة طالما كانت الزوجة راغبة فى أداء دور الأم ٠

وتنتمى بعض الزيجات الى هذا النوع ٠ اذا أراد الزوج أن يلعب دور « الولد الصغير » ورغبت زوجته فى أن تكون « والدة » ، تتحمـــل مسئولية كل شىء وترعاه ، فان هذا الزواج يمكن أن يكون مجزيا طالما أنه لم تبد أية رغبات فى تغيير الدور ٠ واذا تجاوز الواحد أو الآخـــر هذا الترتيب ، فان العلاقة المتوازية تنفصم ، وتبدأ المتاعب ٠ وقد صورنا فى



شكل رقم ١٢ ـ معاملة « طفل ـ والد »



شكل رقم ١٣ ـ معاملة « والد ـ طفل »

شكل رقم ١٣ معاملة تكلميلية بين جورج ف • بابيت (والد) والسيدة بابيت (طفل) :

مستر بابيت (وهو ينظر الى الجريدة) : « أخبار كثيرة • اعصار رهيب في الجنوب • حظ سيىء ، حسنا • ولكن هذا يقول :

هذا كلام فارغ · بداية النهاية لهؤلاء الرفاق ! مجلس مدينـــة نيويورك آجاز بعض القوانين التى ستجرم الاشتراكيين ! وهناك اضراب لعمـــال المصاعد فى نيويورك · وعدد كبير من طلبة الجامعة يحلون محلهم · هذا هو الكلام ! واجتماع عام فى برمنجهام طالب بطرد هذا المشاغب الايرلندى المدعو دى فاليرا · عين الصواب · يا للعجب ! جميع هؤلاء المشاغبين دفع لهم الذهب الألمانى بطريقة ما · وليس لنا ما نعمله للتدخل مع الايرلنديين أو أى حكومة أجنبية أخرى لننفض أيدينا نهائيا ، وهناك اشـــاعة جيدة الحبكة من روسيا تقول أن لينين قد مات · هذا حسن · لا أستطيع أن أفهم لماذا لانخطو الى هناك ونطرد هؤلاء البلشفيك خارجا » ·

السيدة بابيت : « وهو كذلك » (٣) ·

معاملة « طفل ــ راشد » :

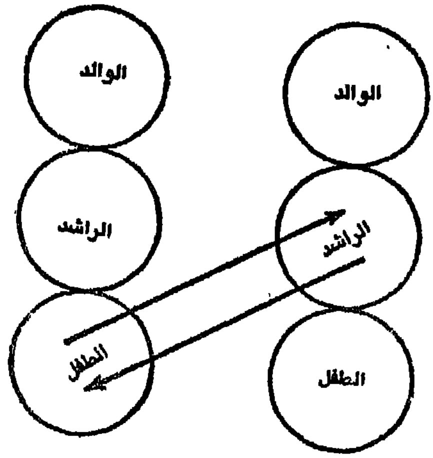
المعاملة بين « طفل ــ راشد » تمثل نوعا آخر من المعاملات التكميلية (شكل رقم ١٤) · شخص واقع تحت ضغط مشاعر أنه ليس على مايرام ، قد يمد يده الى شخص آخر طالبا تأكيدات حقيقية · ربمـا يخشى زوج مجابهة عمل وشيك الحدوث ، يعتمد عليه للحصول على ترقية ، وحتى مع كفاءته له من جميع النواحى ، الا أنه مثقل بحمل بيانات « الطفل » الموجودة فى الحاسب · « لن أنجح فى القيـــام به » ولذلك فهو يقول لزوجتـــه :

« لن أنجح فى القيام به » · على أنها قد تعيد عليه ذكر الأســباب الواقعية التى تجعل فى قدرته القيام به اذا لم يدع « طفله » الذى يشعر أنه ليس على مايرام ، يضيع فرصته فى النجاح · انه يعـرف أن لديها « راشد » طيب وهو « يستعيره » عندما لايكون « راشده » على مايرام ، وتكون استجابتها مختلفة عن استجابة « الوالد » التى لابد وأن تكون مؤكدة حتى اذا لم تتوفر للوالد البيانات الواقعية أو قد تتجاهل مشاعر « الطفل » ببساطة : « طبعا ستقوم به ، لا تكن أحمقا ! » ·

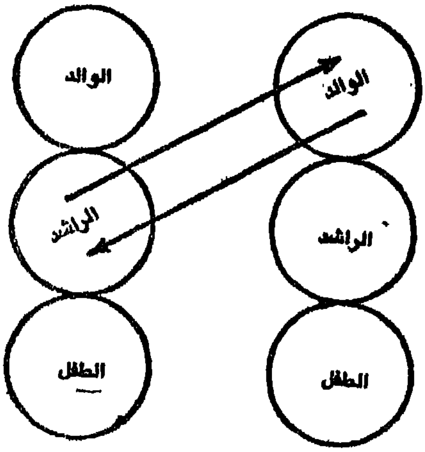
معاملات « راشد ــ والد » :

المعاملة بين « راشد ــ والد » تمثل نوعا آخر من المعاملات التكميلية (شكل رقم ١٥ » ويمثلها رجل يريد التخلى عن التدخين · ان لديه معلومات

(٣) Sinclair Lewis, "Babbitt", Major American Writers, ed. H. M. Jones & E. E. Leisy. (New York, Brace, 1945), pp. 17-36.

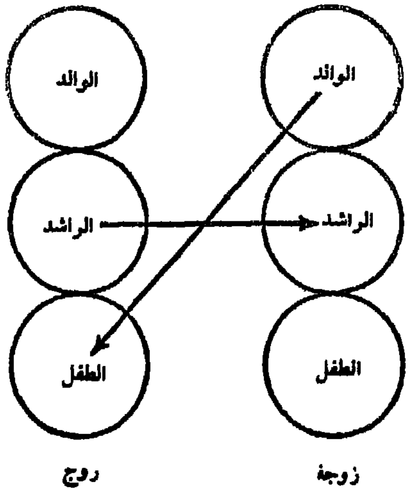


شكل رقم ١٤ ــ معاملة « طفل ــ راشد »

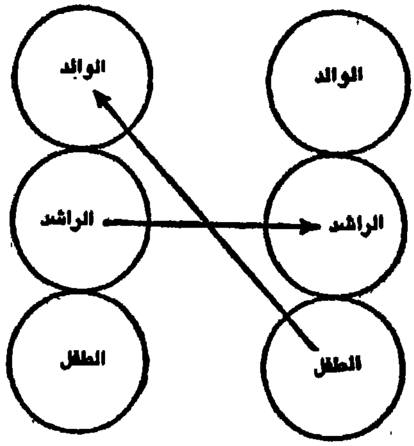


شكل رقم ١٥ ــ معاملة « راشد ــ والد »

« راشــد » كافية لتفسير أهمية هذا الأمر بالنسبة لصحته . وبالرغم من هذا فانه يسأل زوجته أن تلعب دور « الوالد » بأن تهلك سجائره عندما تجدها ، وأن تعترض بشدة عندما يشعل واحدة . وهذه المعاملة لهــا امكانيات اللعبة الجيدة ، وبمجرد أن يحيل الزوج المسئولية الى « والد » زوجته ، يمكنه أن يصير ولدا صغيرا شقيا ويلعب دور « لولاك لقمت بذلك» أو « حاول أن تمسك بى » .



شكل رقم ١٦ ــ معاملة متقاطعة



شكل رقم ١٧ ــ معاملة متقاطعة

المعاملات غير التكميلية أو المتقاطعة :

أما المعاملات المتقاطعة فانهـــا تمثل نوعيـــة المعاملات التى تسبب المتاعب (شكل رقم ١٦) والنموذج الكلاسيكى الذى وضعه برن لهذا النوع يتمثل فى المعاملة بين زوج وزوجة ــ حيث يســأل الزوج : « أين زراير قميصى يا عزيزتى ؟ » (حافز من « الراشـــد » يطلب معلومات) وتكون

الاجابة التكميلية من الزوجة كما يلى : « فى الركن العلوى الأيسر من درج ثيابك » أو « لم أرها ولكننى سأعاونك فى البحث عنها » • وعلى أية حال اذا كانت عزيزته قد قضت يوما عابسا ولايزال لديهـــا كمية من الأذى والعبارات المجنونة فانها ستصيح قائلة : « أين تركتها ! » وستكون النتيجة معاملة متقاطعة • لقد كان الحافز « راشدا » ولكن الزوجة حولت الاستجابة الى « الوالد » •

ويأتى هذا الى القاعدة الثانية للاتصال خلال تحليل المعاملات • عنـدما يتقاطع الحافز والاستجابة فى الرسم البيانى الخاص بمعاملة (والد ــ راشد ــ طفل) ، يتوقف الاتصال • ولا يستطيع الزوج والزوجة أن يتحدثا عن أزرار القميص مرة أخرى ، فعليهما أولا أن يناقشا ــ لماذا لا يضع كل شىء فى مكانه • وما دامت استجابتها تنتسب الى « الطفل » (« لماذا تصرخ فى وجهى دائمـــا ؟ ») فسنصل الى نفس الموقف الذى لامخرج منه ، هذه المعاملات المتقاطعة يمكن أن تشغل سلسلة كاملة من التراشقات المتبادلة ، التى تنتهى بانفجار عند بعض العبارات الثائرة التى قد تصل الى حد تبادل الألفاظ النابية (شكل رقم ١٧) •

وتكرار هذه النوعية من التراشقات يشكل ألعابا مثـــل : « أنت السبب فى كل ماحدث » ، و « لولاك لاستطعت » ، و « الصخب » ، و « الآن أمسكت بك يا ••• » وسنشرح ذلك فيما بعد فى الفصل السابع •

ويكمن أصل الاستجابات غير الراشـــدة فى موقف « أنا لست على مايرام » فى « الطفل » والشخص الذى يسيطر عليه هذا الاحساس ، يقرأ فى التعليقات التى تقال أشياء غير موجودة فيها : « من أين حصلت على شريحة اللحم ؟ » ، « ما بالهم ؟ » و « أحب تسريحتك الجديدة ! » ، « لم تعمل مثلها منذ فترة طويلة • » ، « اننى أســـمعك تتحـرك • » ، « لانستطيع فى الوقت الحالى الانتقال الى مسكن جديد ولكن الحى ينحدر الى الأسوأ » ، « ناولنى البطاطس ياعزيزى » ، « وتدعونى سمينا » • أو كما قالت احدى مريضاتى : « يقول زوجى انه لايستطيع أن يفهم كتب الطهى » •

صور أخرى للمعاملات المتقاطعة :

المريض (أ) : أحب أن أعمل فى مستشفى مثل هذا •

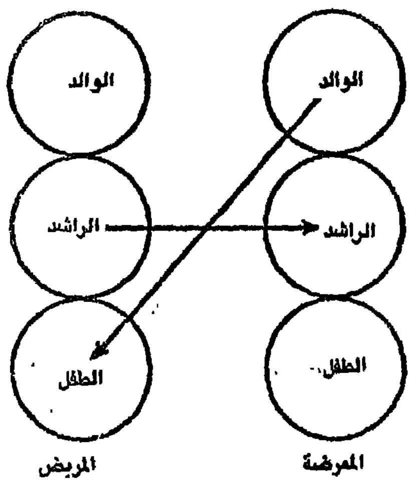
الممرضة (والد) : أنت لاتستطيع حل مشكلاتك الخاصة (شكل رقم ١٨) •

الأم (والد) : اذهبى ورتبى غرفتك ٠

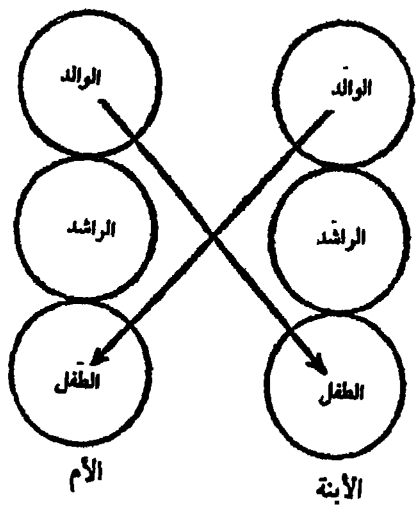
الابنة (والد) : ليس لك أن تأمرينى ٠ أنت لست صاحب الأمر والنهى هنا ٠ أبى هو صاحب الأمر والنهى ٠ (شكل رقم ١٩) ٠

الطبيب النفسى (راشد) : ما هو هدفك فى الحياة ؟

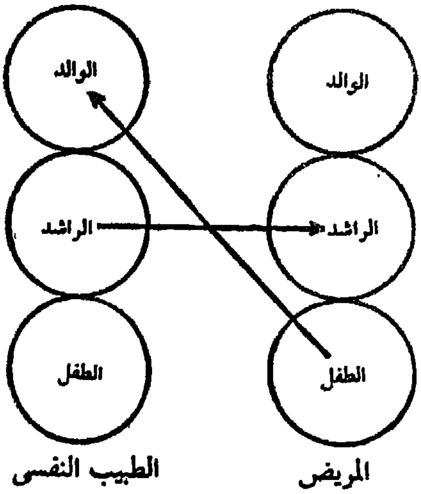
المريض (طفل) : الروتين ، الروتين (يضرب المنضدة) عليه اللعنة ، انه الروتين (شكل رقم ٢٠) ٠



شكل رقم ١٨



شكل رقم ١٩



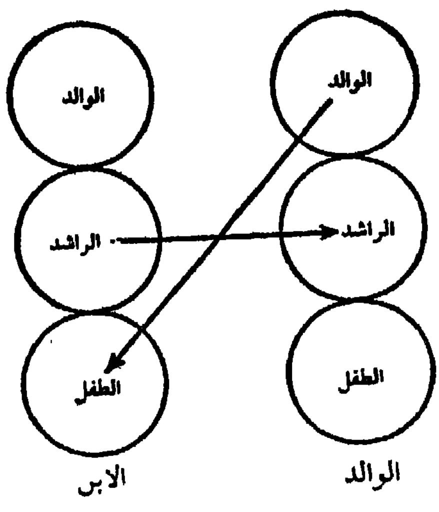
شكل رقم ٢٠

الابن (راشد) : « يجب أن أنهى التقرير الليلة · انه مطلوب غدا » ·

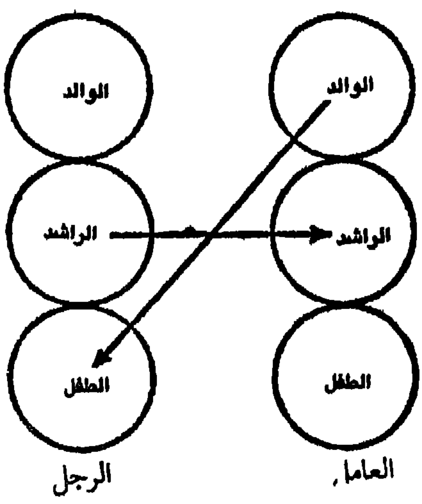
الأب (والد) : لماذا تترك الأشياء دائما حتى آخر دقيقة ؟ (شكل رقم ٢١)·

الرجل (راشد) واقفا مع صديق : كنا نحاول فتح هذا الغطاء وأسقطنا المفتاح خلف الرفرف · هل تستطيع معاونتنا فى اخراجه ؟

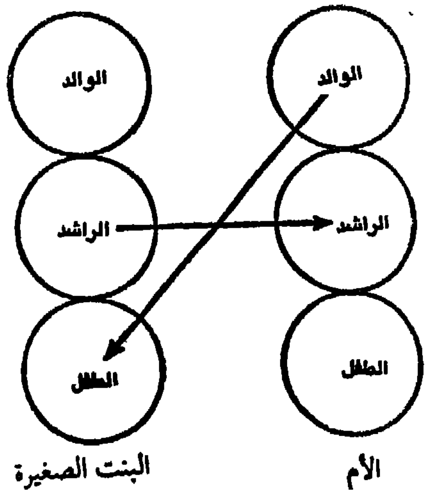
عامل محطة البنزين (والد) : من الذى أسقطه (شكل رقم ٢٢) ·



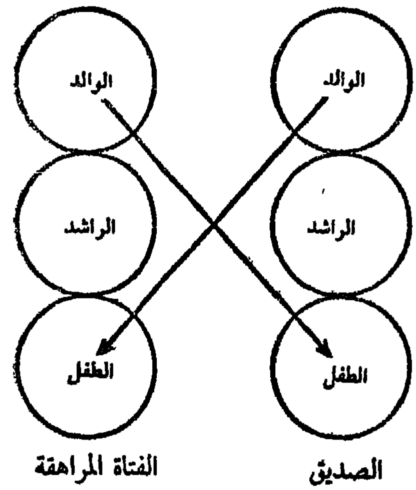
شكل رقم ٢١



شكل رقم ٢٢



شكل رقم ٢٣



شكل رقم ٢٤

الفتاة الصغيرة (راشد) : القمصان القذرة دافئة ·

الأم (والد) : اذهبى وخذى حماما (شكل رقم ٢٣) ·

الفتاة المراهقة (والد) : حسنا ، بصراحة ، أبى يحب منطقة بالم سبرنجز أكثر ·

الصديق (والد) : تحاول أسرتنا تفادى الأماكن السياحية (شكل رقم ٢٤) ·

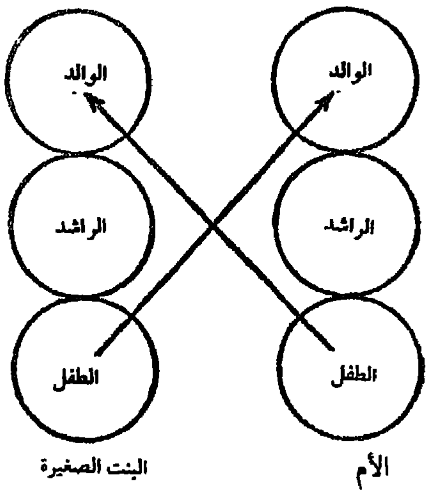
البنت الصغيرة (طفل) : اننى أكره الشوربة · لن أتناولها · أنت تطبخين طبيخا ردىء الطعم ·

الأم (طفل) : اننى على وشك الخروج وعندئذ تستطيعين أن تطبخى طعامك الردىء الطعم · (شكل رقم ٢٥) ·

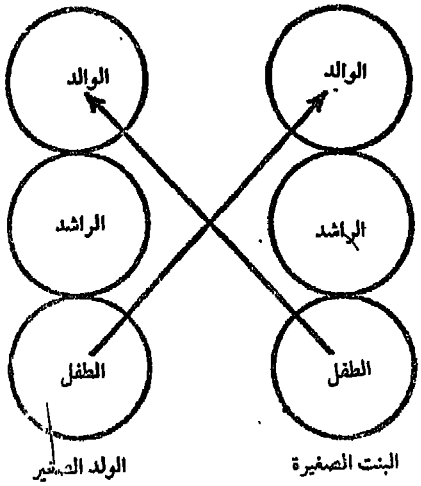
الولد الصغير (طفل) : أبى عنده مليون دولار ·

البنت الصغيرة (طفل) : هذا يساوى لاشىء ، ان أبى لديه دشليون دولار (دشليون تعنى عند الصغير عدد لانهائى) (شكل رقم ٢٦) ·

فيرونا ابنة بابيت (راشد) : اننى أعرف ، ولكن ــ أوه ، أريد أن أشترك ــ هل أستطيع أن أجعل أحد المتاجر الكبرى يساهم فى تحسين أثاث بيوت الفقراء ؟



شكل رقم ٢٥



شكل رقم ٢٦

بابيت (والد) : ما هذه الترهات ! ان أول شيء عليك أن تفهميه هو أن كل هذه المشاريع الاجتماعية ، لا تساوى شيئا فى عالم السماء ، ولكنها اسفين من أسافين الاشتراكية ٠٠ ان المرء اذا أدرك أن الحياة لن تدلله ، وأن السماء لاتمطر ذهبا وفضة ، أو أنه لن يحصل على الكثير لأولاده الا من كد يديه ، فسرعان ما يلتحق بالعمل وينتج ، وينتج ! هذا هو ما تحتاجه البلد ٠ وليست كل هذه الأوهام هى التى تكاد تنهك طاقة الرجل العامل وتقدم لأولاده قدرا كبيرا من المفاهيم أعلى من طبقتهم ٠ وأنت – لو تتجهين الى العمل بدلا من التصرفات الغبية والشغب الذى تبددين فيه وقتك كله ! عندما كنت شابا ، اخترت طريقى وتمسكت به فى السراء والضراء ، ولذا ارتقيت الى ما أنا عليه اليوم (شكل رقم ٢٧). (٤) ٠

ان استجابات « الوالد » الشبيهة باستجابات بابيت ، يبدو أنها ترتكز على شعور « مالا يرام » فى « الطفل » لقد أحس بأن أولاده لم يقدروه ، وأنهم لم يفهموا كم ناضل بشدة ، وأنه لايزال يشعر باحساس « مالايرام » نحو هؤلاء الذين لديهم أكثر مما لديه ٠ ولو كان قد سمح « للطفل » فيه بأن ينشط ، فربما كان قد بكى ، ولذلك فانه تبع المسار

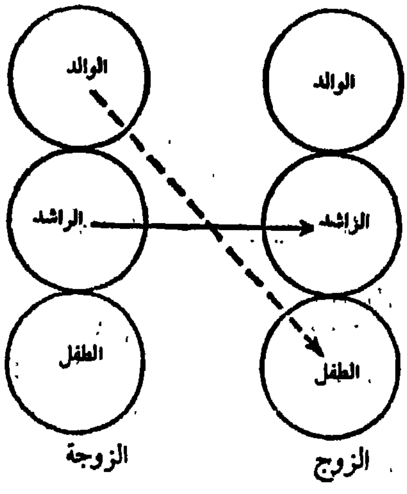
---

(٤) مرجع سابق Lewis, Babbitt

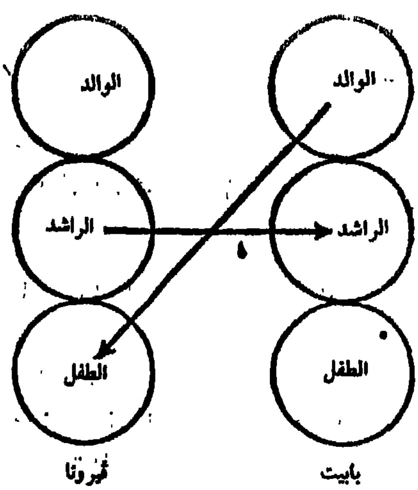
الأسلم وأدوار المعاملة الى « الوالد » الذى يكمن فيه الخير والصواب ، و « كل الاجابات » ٠

أما الشخص الذى يكون « طفله » دائما « ليس على مايـرام » فانه لايستطيع الاستمرار فى المعاملة التى ستطور تعامله مع الواقع ، لأنه مهتم دائما بعمل لم ينته ، متصل بالواقع الماضى لا الحاضر ٠ انه لايستطيع أن يقبل الثناء بامتنان لأنه لايظن أنه يستحقه ، فيخال أنه يبطن السخرية٠ انه منغمس فى محاولة مستمرة لتحقيق تكامل الموقف الذى نشأ فى مرحلة الطفولة ٠ والشخص الذى يجعل « طفله » يندفع دائما الى رد الفعـــل ، انما هو فى الحقيقة يقول : « أنظر الى ، أنا لست على مايرام » والشخص الذى يجعل « راشده » دائما يندفع الى رد الفعل ، انما هو فى الحقيقة يقول : « أنظر الى ذاتك ٠ أنت لست على مايرام » ٠ (وهذا يجعلنى أشعر بالتحسن) ٠ والحركتان كلاهما تعبير عن موقف « مالايرام » وكل منهما يساهم فى اطالة أمد اليأس ٠

ان موقف « مالايرام » لايعبر عنه فقط بالإستجابة : بل هو أيضا يمكن أن يوجد فى المثير ٠ يقول الزوج للزوجـة : « أين أخفيت فتاحة العلب ؟ » ان الحافز الرئيسى « راشد » لأنه يبحث عن معلومات ايجابية ٠ ولكن هناك « اتصال ثانوى » فى كلمة « اخفاء » (شئون منزلك تمثل سرا بالنسبة لى ، وسنفلس اذا صرت غير منظم مثلك ٠ أتمنى لو أننى استطعت مرة ؛ أن أجد شيئا فى مكانه !) وهذا هو « الوالد » انه نقد مخفى برقة ٠ وهذا يعطى حافزا لمعاملة مزدوجة (شكل ٢٨) ٠



شكل رقم ٢٨



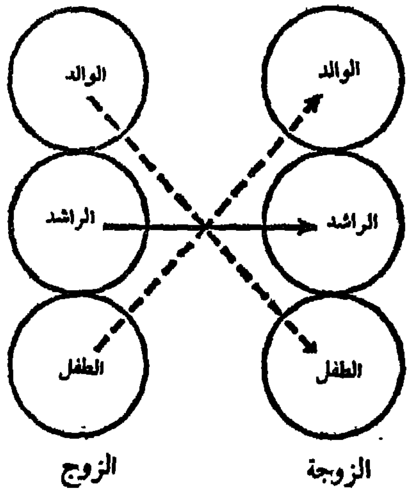
شكل رقم ٢٧

ويعتمد تطور المعاملة على أى الحوافز ترغب الزوجة فى الاستجابة لها · اذا أرادت أن تجعل الأشياء ودودة وأن تشعر بأنهـــا على مايرام بما يكفى لعدم شعورها بالتهديد ، فانها سوف تستجيب : « لقد أخفيتها بجوار ملاعق المائدة يا حبيبى » · وهذه الاستجابة تكميلية لأنها تعطيه المعلومات التى يريدها ، وتقر أيضا بنبرة رقيقة جهله بأســـلوب ادارة المنزل · واذا قدر « راشدها » أنه من المهم بالنسبة لزوجها أن تفعل شيئا ازاء اشارة زوجها الخفية ، فانها سوف تفهم التلميح ، وتصير أكثر تنظيما · واذا شغلت « راشـــدها » معها لارادة المعاملة ، فانهـــا ســـوف تستطيع تحقيق ذلك ·

وعلى كل حال فانها اذا استثير « **طفلهـــا** » الذى يشعر أنه ليس على مايرام » فان استجابتها الأولية ستكون لكلمة « الاخفاء » وقد تستجيب على طول خط عبارة : « اذن فما هو شأنك ؟ هل أنت أعمى أم أى شىء ؟ » وهنا ينتهى السؤال عن فتاحة العلب ، بينما هما يتجادلان حول مزايا ونقائص كل منهما فى مجال التنظيم ، والعجز عن الرؤية ، والغباء ·· الخ · ولا تزال علبة البيرة مغلقة ، ولعبـــة « الضوضـــاء » تسير على أحسن مايرام ·

ويمكن لبعض المعاملات من هذا القبيل أن تقدم حافزا واستجابة على كافة المستويات : رجل يأتى الى البيت ويكتب « أنا أحبك » على الغبار الذى يكسو منضدة القهوة ·· ان « الراشد » يتحكم فى الموقف رغم أن « الوالد » و « الراشد » كليهما منغمسان فى الموقف (شكل رقم ٢٩) · ان « الوالد » يقول : « ألا تنظفين هذا المكان أبدا ؟ » ويقول الطفل : « من فضـــلك لاتغضبى عندما أنتقدك » · وعلى أية حال فان « الراشد » يتحمل المسئولية على أساس أن اظهار الحب مهم لزواجى ، ولذلك فاننى لن أدع « والدى » أو « طفلى يثار ، اذا قلت لها اننى أحبها ، فانهـــا لن تغضب منى ، بل ربما عملت بالفكرة القائلة بأنه من المهم قبل كل شىء لرجل فى مثل مركزى أن يكون لديه منزل جميل المنظر ·

ويمكن لذلك أن يتحول الى معاملة تكميليـــة اذا كانت الزوجـــة « على ما يرام » بما فيه الكفاية لقبول نقد بناء · وسيكون الناتج سعيدا اذا نظفت المنزل واستقبلت زوجها عند الباب بمشروب بارد كبير الحجم ، وقالت له كم هو زوج لطيف وعاطفى وواسع الخيال : ان الأزواج الآخرين يزمجرون ويئنون فقط ، ولكن هاكم الجوهرة التى نلتها ! ومثل هذا الاقبال مؤكد النجاح · وعلى أية حال ، اذا لم تستطع أن تفعـــل ذلك ، فانه من



(شكل رقم ٢٩)

المحتمل أن يجيب « والدها » بحدة : « متى نظفت الجراج آخر مرة ؟ » أو أن يرسلها « طفلها » خارجا لتتسوق سلعا باهظة الثمن ترهق بهـا زوجها . وهذه المعاملة تصور لنا أنه بالرغم من أن « الوالد » و « الطفل » منغمسين فى المعاملة ، الا أن الناتج يمكن أن يكون وديا ، ويحقق زواجا طيبا اذا كان « الراشد » هو الذى يتولى المسئولية .

و « الراشد » له حق الاختيار فيما يتعلق بالاجابة على المثير ، بطريقة تكميلية تحمى كلا من العلاقة والأفراد الداخلين فى العلاقة . ويتخذ ذلك فى بعض الأحيان شكل حساب بديهى سريع جدا :

المنظر : حفل كوكتيل . وتبـدأ المعاملة عن طريق رجل يغازل « طفله » سيدة مغازلة وقحة فيقرصها فى خدها ، فتجيب :

(**راشد**) : ان أمى تنصحنى دائما بأن أدير خدى الآخر .

لماذا عرفنا هذه الاجابة بأنها صادرة عن « الراشد » ؟

كانت من الممكن أن تجيب اجابة من « الوالد » فتقول : « أيها العجوز القذر ! » أو حتى تصفعه .

أما اذا أجابت من « الطفل » فانها قد تصرخ ، أو ترتبك ، أو تغضب، أو ترتعش ، أو تبتسم .

وعلى أية حال فان اجابتها صدرت عن « الراشد » لأنها ضمنت اجابتها الواحدة قدرا كبيرا من المعلومات :

١ ــ لى أم قالت لى دائما ــ اذن فأنت تحت المراقبة !

٢ ــ أعرف الكتاب المقدس أيضا وهذا ما تعنيه ادارة الخد الآخر ، وهكذا ترى أننى لست من الفتيات العابثات ٠

٣ ــ المزاج الصافى لهذه التمثيلية الكلامية دله على أن « طفلى » يضحك ، وأنت على مايرام ، وأنا أستطيع أن آخذ الأمر على سبيل المزاح ٠

٤ ــ تمت المعاملة ٠

والشخص الذى ينجح دائما فى التغلب على المواقف الحرجة ، لايفعل ذلك مصادفة ٠ ان لديه « راشد » عالى السرعة ، ينجده فى موقف يلم به فى سرعة ، وهو عنصر هام فى الحياة الاجتماعية مثل الموقف السابق ، ولكنه أهم بكثير فى المنزل ، فأنت تستطيع أن تهرب من حفل الكوكتيل ، أما الهروب من البيت فشىء آخر ٠

وهنا يبرز السؤال : كيف يستطيع « الراشد » أن يعمل أفضل وأسرع ؟ عندما يدق شخص على الباب الأمامى للحياة ، فمن يذهب الى هناك أولا ــ « الوالد » ، أم « الراشد » ، أم « الطفل » ؟

كيف تبقى فى « الراشد » :

ينمو « الراشد » متأخرا عن « الوالد » و « الطفل » ٠ ويبدو أن مواكبة نموه لنمو الانسان ليست من الأمور اليسيرة ٠ ان « الوالد » و « الطفل » يحتلان الدوائر الأولية التى تأتى تلقائيا استجابة للحافز ، ولذلك فان الطريق الأول هو بناء قوة « الراشد » بحيث يصبح حساسا لاشارات « الوالد » و « الطفل » ٠ وتعتبر المشاعر المثارة مفتاحا يكشف عن أن « الطفل » قد التقط الطعم ٠ وأول متطلبات تشغيل بيانات « الراشد » هى معرفة المرء « للطفل » الكامن فيه ، وأن يصبح حساسا لمشاعر (ليس على مايرام) ، اذ أنه لو أحس أن « هذا هو « **طفلى** » الذى ليس على مايرام » لبات بوسعه أن يتجنب الافصاح عن هذه المشاعر فى شكل أفعال ٠ وتشغيل هذه البيانات يستغرق لحظة ، ويعتبر العد من واحد الى عشرة ، طريقة مفيدة لتأخير الاجابة التلقائية لكى يحقق « الراشد » التحكم فى المعاملة ٠ ويمثل مبدأ « عندما تشك ، اتركها » تدريبا جيدا لتأخير ردود أفعال « الطفل » القديمة أو المدمرة ٠ وقد صرح أرسطو بأن

المظهر الحقيقى هو أن يتمالك المرء نفسه بالتحكم في استجابات « **الوالد** » و « الطفل » التلقائية القديمة ، وانتظار أن يحسب « الراشد » الاستجابات المناسبة للموقف · ويمكن التحكم فى اشارات « الوالد » بنفس الطريقة · ومن المفيد برمجة أسئلة معينة « للراشد » فى الحاسب حتى يمكن تطبيقها على بيانات « الوالد » : هل هذا حقيقى ؟ وهل يمكن تطبيقها ؟ وهل هى ملائمة ؟ ومن أين واتتنى هذه الفكرة ؟ وما هو الدليل ؟ وكلما زاد ما نعرفه عن مضمون « الوالد » و « الطفل » كلما سهل علينا أن نفصل « الوالد » و « الطفل » عن « الراشد » · ويقر بنا هذا من النصيحة القديمة بأن يرتب المرء عناصر شخصيته · انها بالضبط هى العملية المطلوبة لتطوير « الراشد » · وكلما كان الانسان حساسا بالنسبة « للوالد » و « **الطفل** » كلما صار « الراشد » أكثر انفصالا واعتزازا بنفسه وأشد قوة ·

ان التحكم فى الحوار الداخلى هو الطريق الوحيد للتعرف على « الوالد » و « الطفل » · وهذا الأمر ميسور الى حد ما طالما أنه لايوجد هناك مطالب خارجية تستدعى الاستجابة ، وأن الفرد لديه الوقت لفحص المعلومات · وعندما يشعر الفرد بأنه ليس على مايرام ومكفهر ونادم ومغتم ، فانه يستطيع أن يسأل السؤال : (لماذا يضرب « والدى » « طفلى » ؟) وتصبح المحادثات الثنائية الداخلية التى تتضمن الاتهام عادية الحدوث · لقد كتب برتراند راسل عن ألفريد نورث هويتهيد قائلا : « كان مثله كمثل الرجال الآخرين الذين عاشوا نمطا صارما من الحياة ، عرضة لنوبات مزعجة من مناجاة الذات · وعندما كان يظن أنه بمفرده ، كان يوبخ نفسه من أجل نقائصه المفترضة (٥) ·

وعندما يكون الانسان قادرا على أن يقول : « هذا هو والدى » أو « هذا هو طفلى » يستطيع أن يقولها بالنسبة « للراشد » ، ومن ثم يمكنه عن طريقة الاستفهام أن ينتقل الى « الراشد » · ان بوسع الانسان أن يشعر بالراحة العاجلة فى موقف مفعم بالاجهاد ، ببساطة عن طريق توجيه السؤال : « من الذى يقوم برد الفعل ؟ » · وعندما يصير الانسان حساسا بالنسبة « **للطفل** » الخاص به ، يصبح بالتالى حساسا بالنسبة « **لطفل** » الآخرين · ولا يوجد انسان يحب الانسان الذى يخاف منه · اننا نخاف « الوالد » فى الآخرين ، ولكننا نستطيع أن نحب « الطفل » فيهم · ومن التدريبات المفيدة في المعاملات المختلفة ، أن ترى الولد

Ru sell, "The Autobiography of Bertrand Russell."

الصغير ، أو البنت الصغيرة ، فى شخص آخر ، وان نتحدث الى هذا الولد أو تلك البنت ليس بأسلوب التفضل ، بل بأسلوب مفعم بالحب والحماية ٠ وعندما تكون فى شك ، قدم الحنان ٠ وعندما يستجيب الانسان « لطفل » انسان آخر فانه لايكون خائفا من « والد » الشخص الآخر ٠ ويظهر المثال التالى عن « الحديث الى الولد الصغير » فى كتاب اديلى روجرز سانت جونس ، وعنوانه : لاتقل لأحد Tell no man ، وفيه يقول هانك جافين :

استطعت أن أنفذ الى باطنها من خلال مظهرها وسلوكها ، لقد حدث لى هذا من قبل مرتين وأنا أعقد صفقات مع بعض الرجال ، رؤساء الشركات ـ لقد استطعت النفاذ الى ذواتهم ، وكأنما بانت جلودهم شفافة ، فرأيت فيهم أحيانا رجالا يائسين حزانى وغرباء ـ مثل صبى خرج للصيد بدون الصنارة ٠ قد يبدو ذلك غير قابل للحدوث ولكنه حدث مرتين ، فتعاملت معهم على هذا الأساس ونجحت فى عقد الصفقة (٦) ٠

ان الراوى هنا تعامل مع « **الطفل** » الكامن فى هؤلاء الرجال ٠

وهناك طريقة أخرى لتقوية « الراشد » وذلك بأن تقضى الوقت الكافى لاتخاذ بعض القرارات الكبرى حول القيم الأساسية ، التى ينتج عنها عدد كبير من القرارات الأصغر غير الضرورية ٠ وهذه القرارات الكبرى يمكن اختبارها دائما ولكن الوقت الذى تستغرقه لاتخاذها يجب ألا ينقضى فى فحص كل حدث صغير يمكن أن تنطبق عليه القيم الأساسية ٠ وهذه القرارات الكبرى تشكل أساسا أخلاقيا للأسئلة التى تبادرنا كل لحظة : ماذا نعمل ؟

واتخاذ هذه القرارات الكبرى يتطلب جهدا وإعيا ٠ لأنك لاتستطيع تدريس الملاحة وسط عاصفة ٠ وبالمثل ، فانك لاتستطيع بناء نظام للقيم فى طرفة عين مابين قول « طفلك » : « لقد ضربنى جونى بقبضته فى أنفى » ٠ واستجابتك ٠ لاتستطيع أن تستمر فى معاملة بناءة مع « الراشد » المسئول ، اذا لم تتدبر القيم الأساسية والأولويات من قبل ٠ اذا كان لديك قارب فانك تصير ملاحا ماهرا ، لأنك تعرف النتائج المترتبة على فشلك فى قيادة الزورق ٠ انك لن تنتظر حتى تهب الريح ، لكى تفكر كيف تدير الراديو ٠ واذا كنت متزوجا ، فانك تصير شريكا خبيرا لأنك رتبت نفسك للنتائج المترتبة على الفشل ٠ وستقيم نظاما للقيم يدعم

---

(٦) A. Rogers st. Jones, "Tell no man", (New York : Doubleday, 1966).

زواجك ، ومن ثم يخدمك عندما تشتد الأزمات • اذن فان « الراشد » قد استعد لتغطية المقابلات بسؤال مثل : « ماهو الشيء المهم هنا ؟ » •

ويستطيع « الراشد » وهو يؤدى دور الخبير فى تقييم الاحتمالات ـ أن يعمل نظاما للقيم يشمل ليس فقط علاقة الزواج ، بل كافة العلاقات • وعلى عكس « الطفل » فانه يستطيع تقييم النتائج ولا يتعجل المكافأة • انه يستطيع انشاء قيم جديدة مؤسسة على اختبار أكثر شمولا للأسس التاريخية والفلسفية والدينية للقيم • وعلى عكس « الوالد » فانه مهتم أكثر بالحفاظ على الفرد أكثر من الاهتمام بالحفاظ على التقاليد الاجتماعية•

ويستطيع « الراشد » أن يتمسك عن وعى بموقف يحرص فيه على محبة الآخرين له • و « الراشد » يستطيع أن يرى فى فكرة « مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ » أكثر مما يراه الأب الوصى على تصرفات ابنه •

وهذا هو نوع العطاء الذى ينعكس عليه « الراشد » كما تحدث عنه اريك فروم :

يخطىء الناس أشد الخطأ حينما يتصورون أن « العطـــاء » يعنى « التنازل » أو « التضحية » أو « الخسران » ! ان هؤلاء الذين يسلكون دروبا عظيمة غير منتجة هم الذين يحسبون أن « العطاء » افقار لهم ••• وهم يحسون بهذا الشعور ، ولأنهم يجدون العطاء مؤلما ، لذلك يجعلونه واجبا ، ففضيلة العطاء لديهم تندرج تحت باب التضحية •

وبالنسبة لسلوك الانتاج « راشـــد » فان العطاء له معنى مختلف كلية • فالعطاء هنا هو أعلى درجات التعبير عن القدرة • وأنا أجرب من خلال فعل العطاء ـ قوتى وثروتى وقدرتى • وهذه التجربة المفعمة بالحيوية والقدرة العالية تملؤنى بالفرح • اننى أختبر نفسى كشخص حى يفيض ويصرف ، ومن هنا يأتى الفرح • ان العطاء أكثر اسعادا من الأخذ • ليس لأنه حرمان ولكن لأن فعل العطاء يتضمن التعبير عن حيويتى (الموافقة)(٧) • وهذا النوع من العطاء يمكن أن يكون طريقا مختارا للحياة • وهو اختيار يبرز كافة القرارات • عندما يسأل « الراشد » قائلا : « ما هو الشيء المهم هنا ؟ هل أنا محب ؟ » وما دمت قد اتخذت هذه القرارات التقييمية

E . Fromm, "The art of loving", (New York : Harper, 1956). (٧)

فان الفرد يستطيع أن يتصدى بطريقة بنــاءة قائلا : « أين أخفيت فتاحة العلب ؟ » ويمضى من خلال تقوية موقف « أنا على ما يرام ، وأنت كذلك » يوما بعد يوم • وبالاختصار فان « الراشد » القوى ينبغى على ما يلى :

١ ـ تعلم أن تعرف « طفلك » بما فيه من نقاط ضعف ، ومخــاوفه ، وطرائقه الرئيسية للتعبير عن هذه المشاعر •

٢ ـ تعلم أن تعرف « والدك » بما فيه من مواعظ وفروض ومواقف ثابتة وأساليبه فى التعبير عن هذه المواعظ والفروض والمواقف •

٣ ـ كن حساسا بالنسبة « للطفل » الذى فى الآخرين • تحدث اليه ، واظهر الحنان نحوه ، وأعطه الحماية والتقدير •

٤ ـ عد من واحد الى عشرة عندما يكون ذلك ضروريا حتى يجد « الراشد » الفرصة لتصنيف المعلومات وفصــل « الوالد » و « الطفــل » عن الحقيقة •

٥ ـ عندما تكون فى شك ، دع الأمور تسير ، فلن يهاجمك أحد على قول لم تنطق به •

٦ ـ اصنع لنفسك نظــاما للقيم • انك لاتستطيع أن تتخذ قرارات ، بدون اطار أخلاقى •

أما كيف يصنع « الراشد » نظاما للقيم ، فهذا هو موضوع الفصل الثانى عشر ، وعنوانه : (نموذج : الوالد ـ الراشد ـ الطفل) والقيم الأخلاقية •

الفصل السادس

كيف نختلف

(تصبح أدوات العقل عبئا عليه ، عندما تنتهى الظروف المحيطة التى جعلتها ضرورية ــ هنرى برجسون)

ان جميع الناس متشابهون من حيث البنيان ، بمعنى أن لكل منهم « والد » ، و « راشد » ، و « طفل » · وهم يختلفون بطريقتين فى مضمون كل من « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » والتى هى واحدة عند كل شخص من حيث كونهـا تسجيلات للتجارب الواحدة عند كل شخص · ويختلفون فى ترتيبات التشغيل أى وظيفة كل من « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » وقد خصصنا هذا الفصل لفحص هذه الاختلافات الوظيفية · وهناك نوعان من مشاكل التشغيل هما : الافساد ، والاستبعاد (٨) ·

الافســـاد :

فى نهاية الساعة التمهيدية التى شرحت فيهـا نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) لفتاة فى سن السادسة عشرة ، كانت محولة من شعبة الخدمة الاجتماعية · وقد كانت فتاة منطوية عاجزة عن التواصل وليست

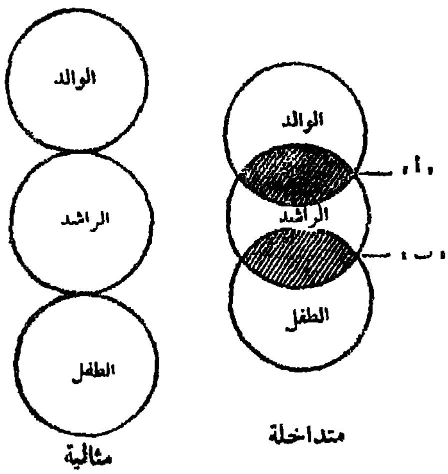
---

(٨) E. Berne, "Transactional Analysis in Psychotherapy", (New York : Grove Press, 1961).

على شيء كبير من الثقافة ، وقد تركت المدرسة قبل أن تكمل دراستها ، سألتها السؤال التالى :

« هل تستطيعين أن تذكرى لى ما يعنيه نموذج : الوالد ـ الراشد ـ الطفل ، بالنسبة لك الآن ؟

وبعد صمت طويل قالت : « انه يعنى أننا جميعا مكونين من ثلاثة أجزاء ، والأفضل لنا أن نحافظ عليها منفصلة حتى لا نواجه المتاعب » • ان المتاعب التى تنتج عندما لاتنفصل هذه الأجزاء تسمى : «**افساد الراشد**»، والوضع المثالى لدوائر « الوالد والراشد والطفل » (شكل رقم ٣٠) هو الفصل بينها • وعلى كل حال فان هذه الدوائر الثلاثة تتداخل لدى بعض الناس • ان التداخل « أ » فى الشكل يمثل افساد « الراشد » بواسطة معلومات « الوالد » القديمة وغير المفحوصة والتى تظهر حقيقية وهذا هو ما يسمى : **التحيز** •



شكل رقم ٣٠ ـ الافساد

(أ) **التحيز**

(ب) **التوهم**

وعلى ذلك فان بعض المعتقدات مثل « البشرة البيضاء أفضل من البشرة السوداء » ، « المتعاملون باليد اليمنى أفضل من المتعاملين باليد اليسرى » ، « رجال الشرطة أردياء » • تظهر فى المعاملات على أساس قاعدة « الحكم المسبق » (*) قبل تطبيق المعلومات الحقيقية « للراشد » عليها •

(★) تسمى هذه الظاهرة فى الاعلام أى علوم الاتصال البشرى باسم : الصور النمطية Stereo-types ومعناها : وجود قوالب سابقة التجهيز يفرغ فيها الشخص معلوماته عن الأشخاص الآخرين أو افعالهم وينتج عن ذلك اصدار حكم مسبق غير مفحوص ـ المترجم •

وينشأ « التحيز » فى الطفولة المبكرة ، عندما يغلق باب التساؤل حول بعض الموضوعات المعينة على يد « الوالد مانح الأمان » وهنا لايجرؤ الصبى على فتحه خوفا من تبكيت « الوالد » ·

ونعرف جميعا كم هو صعب الحوار المنطقى مع شخص متحيز · ويستطيع الانسان أن يستعرض مع بعض الناس قضية منطقية وواضحة ، متعلقة بموضوعات : التمييز العنصرى ، أو استخدام اليد اليسرى ، أو أى موضوع يتحيز الفرد اليه ، ولكن « الوالد » فى هؤلاء الناس يحتل بثبات جزءا من « الراشد » · وسيحيطون قضاياهم الانحيازية بكافة أنواع المجادلات الخارجة عن الموضوع لمساندة موقفهم · وتبدو صلابتهم فى التمسك بموقفهم الآمن ، غير منطقية مثل موقفهم ذاته · وكما أوضحنا فى الفصل الثانى فانه من الأسلم للصغير أن يصدق كذبة من أن يصدق عينيه وأذنيه ،·ولذلك لايستطيع الفرد أن يقضى على رأى متحيز بمجرد مناقشته مناقشة راشدة · والطريقة الوحيدة لاستبعاد التحيز تتمثل فى كشف حقيقة أنه لا يوجد خطر ماثل فى الاختلاف مع « والد » الشخص ، وتحديث معلومات « الوالد » بمعلومات منبثقة من واقع اليوم · وعلى ذلك نستطيع أن نرى العلاج متمثلا فى الفصل ما بين « الوالد » و « الراشد » واسترجاع الحدود بينهما ·

أما التداخل « ب » فى شكل رقم ٣٠ ، فيمثل افساد « الراشد » بواسطة « الطفل » فى شكل مشاعر أو خبرات قديمة تظهر فى غير محلها · وهناك اثنان من الأعراض العادية لهذا النوع من التحيز هما : **الأوهام والهلوسة** · والأوهام تجد لها أرضية فى الخوف · ان المريض الذى قال لى : « ان العالم بشع » · كان يصف كيف ظهر له العالم فى حداثته ، فأى صبى صغير يعانى من خوف مستمر من تعرضه لقسوة « والد » لا يمكن التنبؤ بتصرفاته ، يصبح عرضة ــ كشخص بالغ تحت تأثير الضغط ــ لأن ينغمر تحت نفس الخوف الى حد أن يلفق منطقا يبرر به البيانات المخزونة فى عقله ، فقد يظن أن البائع المتجول المتجه نحوه من آخر الشارع ، قادم فى الحقيقة ليقتله · واذا واجه حقيقة أنه مجرد بائع ، فان هذا الشخص قد يؤيد خوفه بأن يقول جملة مثل : « لقد كشفته فى نفس الدقيقة التى رأيته فيها · انه هو ! انه مطلوب أمام مكتب التحقيقات الفيدرالى · لقد رأيت صورته فى مكتب البريد ، وهذا هو سبب مجيئه لكى يقتلنى » · وكما هو فى حالة التحيز فان هذا الوهم لا يمكن أن يستبعد بالاكتفاء بالقول بأن هذا الرجل ليس سوى بائع ، وانما بكشف

حقيقه أن التهديد الأصلى « للطفل » لم يعد موجودا فى الظاهر اذ لايستطيع « الراشد » أن يتعامل مع البيانات الواقعية الا اذا تطهر من الشوائب ٠

وتعتبر الهلوسة نوعا آخر من أنواع « افساد الراشد » بواسطة « الطفل » ٠ والهلوسة ظاهرة تنتج عن الضغط الشديد ، تطفو فيها الى السطح من جديد ، التجارب الخارجية التى كان قد تعرض لها المرء والتى عانى فيها من شعور بالانحطاط والرفض والنقد ٠ وقد تطفو هذه الظواهر دون استثارة من أحد ٠ وتظهر التجربة المسجلة للمريض كما لو كانت حقيقة واقعة ٠ ويسمع الشخص الأصوات التى عاينها فى تجربة واقعية فى الماضى ، واذا سألته عما تقوله الأصوات ، فانه سيصف بصفة خاصة ، المحتويات ، على أنها كلمات النقد والتهديد أو العنف ٠ وكلمات زادت غرابة الهلوسة ، كلما زادت غرابة الحياة بالنسبة له كصغير ٠ والهلوسة الخارجة عن المألوف لاتستعصى على فهمنا عندما نمعن النظر فى النوعيات المختلفة من المعاناة التى يخضع لها بعض الصغار ، لفظية كانت أم مادية ٠

الاستبعاد Exclusion :

بالاضافة الى التحيز هناك اضطراب رئيسى آخر يوضح لنا كيفية الاختلاف ، وهو : الاستبعاد : يتجسد الاستبعاد فى موقف نمطى يمكن التنبؤ به ، ويتمسك به المرء لأطول فترة ممكنة ازاء موقف التهديد ، وينتج « الوالد » الثابت و « الراشد » الثابت و « الطفل » الثابت ــ جميعهم ، من الاستبعاد الدفاعى للعاملين التكيميليين فى كل حالة (٩) ٠

وهذا الموقف يستطيع فيه « الوالد » المستبعد أن **يوصد** « الطفل » ، كما أن « الطفل » المستبعد يستطيع أن **يوصد** « الوالد » ٠

الشخص الذى لايستطيع اللعب :

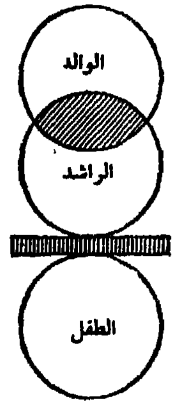
ان نموذج « الراشد » الذى يهيمن عليه « الوالد » الذى يستبعد « الطفل » يتمثل فى الرجل المثقل بالأعباء ، الذى يعمل فى مكتبه حتى

---

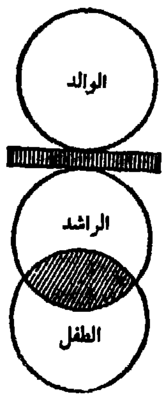
(٩) Berne, "Transactional Analysis in Psychotherapy".

ساعة متأخرة ، منشغلا بالعمل طول الوقت ولا يميل لمشـــاركة أفراد أسرته ، في لهوهم ومرحهم مثل القيام برحلات للأماكن الخلوية ٠ اننـــا نخال أنه متوقف عند نقطة ما في حداثته ، كان واقعا فيها كلية تحت ضغط والدين جادين وصارمين وملتزمين بأداء الواجب ، لدرجة أنه وجد أن الطريقة الوحيدة الآمنة للتقدم في الحياة انما تتمثل في استبعاد « طفله » تماما ، أو أن يوصده ٠ لقد وجد بالتجربة أنه في كل مرة يطلقه ، كانت تحدث متاعب : « اذهب الى غرفتك ٠ » ، « لاينبغى أن يســمع للطفل صوت » ، « كم مرة يتحتم أن أقول لك ٠٠٠٠ » ، « عليك أن تكبر ! » ٠ واذا كوفىء هذا الشخص الصغير أيضا للالتزام الكامل والجهد الدؤوب والاذعان وتنفيذ ما يطلب منه تمـاما ، فسيبدو له أن طريق الحكمة هو الالتزام الكامل بشخصية « الوالد » ومن ثم فانه يعتاد الاغلاق الكامل على « الطفل » وعدم مســايرة الطفولة ٠ وهذا الطراز من الأفراد لديه القليل جدا من السعادة المسجلة في « الطفل » ، ومن المحتمل الا يستطيع الافراج عن « طفله » السعيد لأن الصغير الذى لديه « محدود السعادة » ٠ (أنظر شكل رقم ٣١) ٠

ويمكن مساعدته بايضـــاح أن موقفـه ليس عادلا بالنسبة لأسرته وأولاده ، وأن زواجه في الحقيقة قد ينفصم اذا أصر على محـاولة الاغلاق على « الطفل » في زوجته وأولاده ٠ ويستطيع من خلال الجهد الهادف عن طريق « الراشد » أن يقوم برحلة مع أسرته ، ويقطع ساعات عمله بالمكتب، وينصت في حب (تقويم الراشد) لحكايات أولاده ، وأن يشــارك في حياتهم ٠ ويستطيع عن طريق « راشده » تحقيق قيمة الحب أو المحافظة على أسرته ٠ انه لن يغير طبيعة « والده » أو ينشىء « طفلا » سعيدا هو



شكل رقم ٣١ ـ راشد تدخل معه الوالد واقصى عنه الطفل



شكل رقم ٣٢ ـ راشد تداخل معه الطفل واقصى عنه الوالد

أصلا غير موجود عنده ، ولكنه يستطيع أن يتبصر الطرق التى تجعل ذلك مستطاعا لبناء حياة راضية فى الحاضر .

الشخص المجرد من الضمير :

ويمثل « الراشد » المهيمن عليه « الطفل » ، و « الوالد » الموصد (شكل ٣٢) صعوبة شديدة جدا بالنسبة للمجتمع .

وتتطور هذه الحالة فى الشخص الذى كان أبوه الحقيقى ، أو هؤلاء الذين أشبعوا دور « الوالد » فيه ، متميزين بالوحشية والارهاب ، أو على النقيض ، مفرطين فى التدليل الى حد البله بحيث تمثلت الطريقة الوحيدة للحفاظ على الحياة فى « اغلاق الوالد » أو « طرده » . وهذا هو الطراز النموذجى للسيكوباتيــة (*) ، وهو الشخص الذى يترك الموقف الأول (أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام) فى السنوات الأولى من حياته ، ويتخذ موقفا جديدا هو موقف (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) . ويستنتج هذا الشخص الصغير تماما أن أبويه هما فى الحقيقة (ليسا على مايرام) الى درجــة أنه يطردهما خارجا تماما . وقد يبالغ فى ذلك حتى يصل الى القتل . واذا لم يفعل ذلك فهو على الأقل يستبعدهما نفسيا ، ولذلك فانه من وجهة نظره الخاصة . ليس لديه « والد » . انه لا يطرد « الوالد » المؤلم فحسب ، ولكنه يطرد أيضا الخير القليل الموجود فى « الوالد » ، ومثـــل هذا الشخص لا يوجــد فى معاملاته الجبارية أى شرائط مســـجلة تمده بالمعلومات التى تتعلق بالانضباط الاجتماعى ، والتعليمات الصحيحة حول « ما يجب ومالا يجب » ، والمعايير الثقافية ، أو ما يمكن العودة اليه كضمير . ان سـلوكه مســير « بالطفل » الذى يستطيع من خلال « الراشد » الفاســد ، أن يستميل الأفراد الآخرين لتحقيق أغراضه . ان « راشده » يستطيع تقييم النتائج ولكنها تلك التى تتعلق بما لو كان سيقع أم لا ، ونادرا ما تتضمن عناصر الاهتمام بالآخرين . وبالرغم من أنه قد توجد استثناءات ، الا أن القاعدة العامة هى أننا لانتعلم أن نكون محبين ان لم نكن قد نلنا الحب مطلقا .

واذا تمثلت السنوات الخمس الأولى بكاملهـا فى معركة حرجة من أجل البقاء الطبيعى والنفسى ، فان هذه المعركة قد تستمر طوال الحياة .

(*) اضطراب عقلى يجعل من الفرد عدوا للمجتمع ــ المترجم .

والطريقة الوحيدة لتحديد ما اذا كان الشخص لديه « والد » من عدمه ، تتمثل فى تحديد استمرار مشاعر الخجل · ان هذه المشاعر التى تبقى فى « الطفل » تنطلق مع ضربات « الوالد » « للطفل » · واذا لم تستمر هذه المشاعر ، فمن المحتمل أن يكون « الوالد » مقيدا · ولنا أن نستنتج أنه اذا لم يعبر رجل اعتدى على صغير ، عن أية مشاعر للاحساس بالذنب أو بالندم ، سوى ندمه على وقوعه فى يد الشرطة ، فان هذا الرجل يفتقر الى « والد » يعمل فى ذاته ، وينطوى ذلك على دلالات هامة قد تنفع المهتمين باصلاح المجرمين ، ومن الصعب علاج مثل هذا الشخص ، فلا يمكن للانسان أن يثير « الوالد » لأنه غير موجود · وقد أجرى عدد من التجارب على القرود التى فصلت عن أمهاتها الحقيقية وربيت مع أمهات بديلات فى شكل دمى من السلك مغطاه بطبقات من القماش القطنى السميك · ووجد أن القردة قد كونت فى مستهل الطفولة انجذابا قويا نحو هذه الأمهات البديلات ، ولكنها حينما وصلت الى مرحلة النضج ، قلت قدرتهـا على التناسل وتربيـة الصغار (١٠) · لقد أصبحت تفتقد الكفاءة فيما يتعلق بخبرة الأمومة التى يحسبها الكثيرون غريزة من الغرائز · ان خبرة الأمومة لم تكن مسجلة فى « الوالد » ولذلك لم يظهر منها شيء عند تشغيل التسجيل ·

ان هذا التنبؤ قد لايصدق على الانسان الذى قيد « والده » لأنه على خلاف القرد ، لديه ١٢ مليار خلية فى عقله بمقام ١٢ مليار كومبيوتر ، يستخدمهـا فى تقييم الحقيقة وبنـاء الاجـابات ، حتى لو لم تكن قد سجلت مبكرا ·

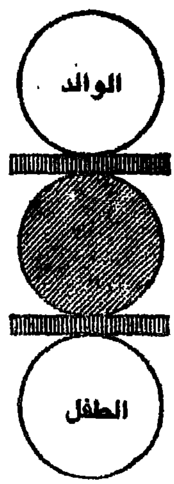
ان المجـرم المضطرب عقليـا يستطيع أن يفهم نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) الخاص به لدرجة أن « راشـده » يستطيع توجيـه أنشطته بطريقة تجعل من الممكن تغيير مصيره من اقتراف جريمة والقاء القبض عليه ثم سجنه · وهكذا قد لايكون لديه « والد » عامل لمساندة « راشده » ولكن « راشده » يمكن أن يصير قويا بما فيه الكفاية ليقوده الى حياة ناجحة يحظى فيها بالقبول وربما أيضا بتقدير الآخرين · وهذا هو الاحتمال الذى يجب أن تعتمد عليه جهود اصـلاح المجرمين وتقويم سـلوكهم ·

---

(١٠) H. F. Harlow, "The Heterosexual Affectional System in Monkeys", American P ychologist, 17 (1962) : 1-9.

الراشد الموقوف

ان الشخص الذى عنده راشـــد « موصد » (شكل رقم ٣٣) هو مصاب بالذهان (مضطرب عقليا) • ان « راشده » لايعمل ولذلك فانه منفصـــل عن الواقع ، ومن ثم ينفتح الطريق أمام « والده » و « طفله » مما ينتج في الكثير من الأحوال خليطا مهوشا للمعلومات القديمة والتجارب المبكرة التى تبدو غير منطقية حاليــا ، لأن المعلومات لم تكن منطقية عند تسجيلها • وقد لوحظ ذلك فى مريضة بمستشفى لأمراض النســاء تخلل أداءها للتراتيل الدينية « والد » ألفاظ بذيئة تدور حول وظائف الجسد « طفل » • ان المضمون خارج عن المألوف ، ولكن يبدو أنه ترديد لصراع قديم بين « الوالد والطفل » حول الخير والشر ، ما يجب ومالا يجب، الخلاص والهلاك ، وقد كشف مضمون هذه المخرجات اللفظيــة عن قدر كبير مما يتعلق « بوالدها » و « طفلها » • أما حقيقة أن « راشدها » غائب فقد أظهر عنف الصراع • ان المعركة عنيفة جدا • « لن أحاول » ولا يعنى هذا القول أنها تجد راحة فى الاستسلام ، فقد كانت واقعـــة تحت رحمة المشاعر المرعبة التى عانتها فى طفولتها •



شكل رقم ٣٣ ــ الراشد الموصد او الموقوف (المريض العقلى)

وتتركز الخطوة الأولى لعلاج المضطرب عقليا فى تقليــل مشـــاعر الفزع هذه • ومن الأمور الأساسية لشفاء المريض ، احساسه من الوهلة الأولى للقائه بالطبيب النفسى ــ بالموقف الواضح (أنا على ما يرام وأنت

على مايرام) • فى سنة ١٩٦٣ أبلغنى زميلى جوردون هايبرج ـ بأثر هذا الموقف على مرضى الاضطراب العقلى ، الذين كان يعالجهم حينذاك فى مستشفى ولاية ستوكتون :

يبدأ العلاج مع بداية تبادل النظرات بين الطبيب النفسي والمريض ، عندما يدخل الطبيب المعالج من الموقف الأساسى (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) • ان المضطربين عقليا متلهفون على اقامة علاقة أقوى مع الناس ••• وعندما يواجه هؤلاء الأفراد السريعو الفهم عادة ، شخصا يتخذ موقف (أنا على مايرام وأنت على مايرام) فان ذلك يشكل تجربة جديدة ومثيرة بالنسبة لهم ، ويقع « الراشد » فى شبكة هذه المواجهة الانسانية ويبدأ في التساؤل قائلا : « كيف تكون أنت فى الخارج بينما أنا فى الداخل ؟ » ولا يتلقى ردا سريعا على السؤال ، وانما فى الوقت الذى يحدس فيه المعالج أنه مهيأ لاستقباله بعد أن يكون الطبيب النفسى قد انتهز الفرصة لتحديد اكثر المناورات أو اللعبات التى يستخدمها الشخص تدميرا ، يقال للمريض ببساطة وبطريقة مباشرة مثلا : « انت تخيف الناس وتفزعهم » ••• أى اننا نخبره صراحة أنه على مايرام • انه يشعر بالأهمية بسبب تفرد وجوده البشرى مما يشيع فى نفسه الأمل • وعندما يستطيع « الراشد » أن يبدأ فى تصنيف المعلومات ، والانصات ، والتعلم ، والمعاونة فى اتخاذ القرارات ، تبدأ القوى التوليدية الجديدة فى العمل وحدها وتبدأ عملية العلاج تبعا لذلك (١١) •

وكثيرا ما تحتوى مجموعات العمل الخاصة بى والتى تتضمن فى أى وقت عددا يتراوح مابين عشرة الى عشرين مريضا ، على مرضى بالذهان • وعند اعداد فريق متعاقد على أساس نموذج (أنا على مايرام وأنت على مايرام) ، يشعر المريض بالذهان ـ بأنه يتلقى المعاونة والمديح والطمأنينة • وهنا يكون المسرح قد أعد لعودة « الراشد » •

وفى احدى مجموعات المستشفى ، أخذت احدى السيدات فى تسوية جونلتها مرات ومرات وشدها الى أسفل ركبتها خلال الجلسة التى استمرت ساعة ، بالرغم من أن هذا العمل لم يمر دون ملاحظة ، فان أحدا لم يفعل شيئا حياله ، أو ينظر باستنكار ، وبالتالى استمرت المجموعة فى المناقشة • وكانت هناك ثلاثون دقيقة من هذه الساعة لتعليم نموذج

---

(١١) G. Haiberg, "Transactional Analysis with State Hospital Psychotics", Transactional Analysis Bulletin, Vol. 2. No. 8 (October, 1963).

(الوالد ـ الراشد ـ الطفل) ثم يلي ذلك المناقشة • وعند نهاية الساعة اذا بالرجل المجاور للمرأة يقول لها : « هل تعرفين أنني أحصيت عدد المرات التي سويت فيها جونلتك • لقد فعلت ذلك تسع عشرة مرة » •

فقالت في عجب يخالطه شعور بالسعادة لهذا الاكتشاف : « أنا فعلت ذلك ؟ » •

كانت قادرة على قول هذه الاجابة الصادرة عن « الراشد » دون خوف من التهديد • أما انبثاق « الراشد » مهما كان ضئيلا ، فانه هو بداية اعادة الاتصال بالحقيقة ، وأن المسرح معد لدراسة نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) الذي يجري من خلاله أوسع اكتشافات المريض لسلوكه الذاتي •

ويرتبط بالعلاج الجماعي ، استخدام العقاقير للمساعدة في رفع الروح المعنوية وتهدئة الهياج الشديد ، وفي حالات الاحباط الشديد ، يستخدم العلاج بالصدمة الكهربائية وتأثيره هائل جدا فيصبح المريض بعد جلستين أو ثلاثة ، بشوشا ، ومسترخ ، وراغبا في الحديث • ويمحو العلاج مؤقتا ، التسجيلات المؤلمة القديمة ، ويسمح بعودة « الراشد » ومن ثم يستطيع المريض تحت قيادة « الراشد » أن يبدأ في تعلم نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) ، لمعرفة من أين تأتي المشاعر القديمة ، وكيف يستطيع التخلص منها بنفسه •

الانغلاق المرحلي في الشخصية المصابة بالهوس الانقباضي
Manic-depressive :

ان الشخص الذي لديه « والد » مستقر أو « طفل » مستقر ، يطغى على العنصرين الآخرين ويستبعدهما ـ يستجيب للأحداث المحيطة به بطريقة ثابتة يمكن التنبؤ بها ، وتبقى حالته النفسية ثابتة أيضا •

والكثيرون منا لديهم تغييرات مزاجية ، حيث أن كل جزء من جهازنا المكون من (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) يساهم بدوره في تفكيرنا وسلوكنا • ففي بعض الأيام نشعر بأننا على مايرام ، وفي بعض الأيام الأخرى يخامرنا شعور معاكس • واذا حاولنا فاننا نستطيع عادة أن نكتشف سبب ارتفاع معنوياتنا ، أو هبوطها • وفي بعض المرات تكون الأسباب مراوغة ، أو لاتبدو متعلقة بأي علامة محددة في الحاضر • وقد اختبر كثير من الناس حالة تقلب المزاج مع تغير الفصول • وفي موسم

الاجازات تكثر حالات الاحباط كما هو واضح من تزايد الحالات المرضية في عيد الميلاد · كذلك فان مقدم فصل الخريف يؤدى الى البهجة لدى الكثير من الناس حيث يعاد تشغيل أشرطة العودة للمدرسة القديمة ، و « نستنشق » مرة أخرى النكهة المثيرة لصناديق الاقلام ، والأرضيات المدهونة بالزيت ، وأقلام الرصاص · ونفس هذه الروائح قد تؤدى الى الاحباط لدى بعض الناس ، اعتمادا على ما حدث في تلك السنوات الدراسية المبكرة · ويعاد تشغيل العديد من التسجيلات القديمة لتنتج « المعنويات المرتفعة أو المنخفضة » التى خبرناها جميعا · والكثيرون منا يتجاوزون المشاعر الحزينة ، ويستمتعون بالمشاعر الطيبة ، لأن « الراشد » يظل مسيطرا ويجعل سلوكنا سليما ·

وهناك حالة تصبح فيها تغيرات هذه الأمزجة متطرفة ، وتؤدى الى سلوك مبالغ فيه ، لايكون « للراشد » سيطرة عليه · ولا يكون « الراشد » غير قادر على التحكم فى السلوك فقط ، بل أيضا غير قادر على اكتشاف سبب تغير المزاج · وتوجد هذه الحالة لدى الشخصية المريضة بالهوس الانقباضى ، ويصاب المريض به ــ بين حين وآخر ــ بتقلبات مزاجية شديدة وليس لها تفسير · وفى حالة الهوس أى عند الحالة القصوى ، يشعر بالابتهاج وأنه يقف على قمة العالم ، وأنه مفعم بالحيوية ، وقد يصبح كثير الكلام أو عدوانيا · ويبدو كما لو كان « طفله » يفر معه من هذا العالم ·

ويبدو أن « الوالد » ليس له تأثير يحد من هذه الحالة عند الوصول الى هذه المرحلة · ويشعر الشخص بأنه لايقدر أن يرتكب خطأ ، ويقفز من شىء الى آخر ، صارفا سعادته فى نشاط واحد ، لايتخلى عنه الا للقيام بعمل مبهج مفعم بمغامرة أكثر ، كما لو أنه كان من وجهة نظره الخاصة ــ يختبر الى أى مدى يستطيع أن يمضى فى نوبة سعادته هذه · والمشكلة هى أنه رغم شعوره بالعظمة الا أن « راشده » قد أضير ، أو أفسد ، ولم يعد سلوكه حقيقيا ، وقد يتعالى على الآخرين · واذا اشتد به الأمر فقد يلزم احتجازه ، أو يودع فى مستشفى · وفى النهاية ، يهبط ويستعيد ما يبدو أنه فترة استقرار قد تستمر لمدة طويلة · وخلال هذا الوقت يكون « الراشد » مسيطرا على سلوكه الذى يبدو حقيقيا ومناسبا ، ثم يغوص لسبب لا يعلمه ، فى خضم فترة من الاحباط الشديد ، ويختفى الاحساس بأنه على ما يرام بطريقة سرية مثلما ظهرت ، وتبدو الحياة فارغة ، وتتبدد حيويته ، ويعود « والده » بالانتقادات المخزونة والاستبداد القديم · ومرة ثانية يصاب « الراشد » بالضرر ، ويسكن الشخص فى حالة الاحباط ·

ويختلف المصاب بهذه الحالة عن الآخرين الذين يعيشون كل يوم حالات النشوة والاكتئاب العادية ، من حيث حقيقة ان هذه التغيرات المزاجيه تبدو مستعصية على التفسير . كذلك فان هذه التغيرات المزاجية تحدث على فترات ، ومتكررة . ولكي نفهم ما الذي يجرى أثناء تلك الدورات ، فمن الضروري معرفة أن كلا من الاحساس بالقدرة على كل شيء المصاحب لحالة الخلل ، والاحساس بالتفاهة المصاحب لحالة الاحباط ، يمثل المشاعر المسجلة في « الطفل » . ويمثل كلاهما استجابات للتسجيلات القديمة في « الوالد » . وفي كلتا الحالتين يكون الحوار الداخلي دائرا ما بين « الوالد » ـ « الطفل » وفي مرحلة الاحباط يكون « الوالد » منهمكا في ضرب « الطفل » . أما في حالة الهوس فيمتدح « الوالد » « الطفل » وكما هو الحال في تحليل كافة المشاعر ، فمن الضروري توجيه هذا السؤال : « ماذا كانت المعاملة الأصلية ؟ » وغالبا ما نجد في الشخصية المريضة بالهوس الانقباضي « والدا » قويا ، ان لم يكن مستبدا ، يتضمن أوامر وتصاريح متناقضة مسجلة مبكرا ، ربما على أساس قاعدة ملاحظات بياجيه ، خلال العامين الأولين من العمر ـ عندما كان «الراشد» في الشخص الصغير قد ارتبط لأول مرة بعمل نظام العلة والمعلول . وفي هذه الفترة العصيبة ، لو كانت هناك تناقضات عاصفة ومخالفات ، فان « الطفل » قد يقعد عن محاولة التوصل الى بناء للسببية قائم على التفكير والتدبر (ليس للأمور معنى مهما قلبت على أوجهها) . وقد ينظر لما يحدث له على أنه مسألة « وقت » وليس علاقة الأشياء بالأحداث . ولا يستطيع الشخص المريض بالخلل العقلي أن يقرر ما الذي يدفعه الى الاحساس بالانقباض أو النشوة بالنسبة الى الأمور التي كانت عليها حالته في البداية . ويكون مزاجه غير متوقع في المستقبل في اللحظة الحاضرة مثلما كان في اللحظة السابقة، لأن الأبوين اللذين يعاقبان ويمتدحان لايمكن التنبؤ بلحظة ظهورهما . وقد كتبت فريدا فروم رايشمان أن الشخص الذي يظهر عليه تذبذب الهوس الانقباضي قد وقع ـ كقاعدة عامة ـ تحت ظل تناقض عظيم ، ولم يستطع « الراشد » في نفس الصبي أن يدرك التغيرات المرحلية في أبويه . ولذلك اعتزل « الراشد » في محاولة أخيرة لاتخاذ موقف (أنا لست على مايرام ، وغير متأكد بالنسبة لك) . ان « الطفل » صار يعرف على أي حال « ان الوقت قد أزف لحدوث شيء ما . » أو أن « كافة الأشياء الطيبة لابد أن تنتهي . » لقد حدث بالفعل . وسيحدث الآن .

ان حقيقة وجود أشياء طيبة ، وأشياء طيبة جدا ، التي يعاد سماعها في حالة الهوس ، قد تظهر أن « الوالد » (وهو في العادة الأم حيث إنها كانت أكثر الأشخاص تأثيرا في العامين الأولين من العمر) ، أعطت في

الحقيقة حنانا عظيما وقبولا يضافان الى احساس المريض بالنبذ . ولم تكن استجابة الأم « الوالد » للطفل ترتجع بداية الى ما فعله الصغير ، ولكن الى تقلباتها المزاجية أو التغيرات المؤثرة فى شخصيتها .

فكروا معى فى مدى الصعوبة التى يلقاها الصغير ذو العامين فى محاولة فهم ما يجرى عندما تتغير الأم دوريا وكلية من احدى نوعيات الشخصية الى نوعية أخرى . ان فى استطاعتنا احصاء عدد من الأسباب لهذا النوع من التغيير . أحدها هو تعاطى المسكرات . الأم هنا تحس بالنشوة ، انها تحتضنه وتدلكه وتدغدغه حتى يصرخ ، وتلعب معه لعبة المساكة حول المنضدة . انها تقذف به فى الهواء . انها تصفق بيديها وتضحك فى هستيرية عندما يمسك القطة من ذيلها ويطوح بها فى الهواء . ياه ! ان الحياة عظيمة ! ثم تفقد الأم وعيها وتترك الصغير وحيدا عدة ساعات . انه جوعان ، وفارغ .

لقد مضت .. ومضى الحنان .. كيف يستعيدها ؟ ماذا حدث ؟ انه لايعرف . وفيما بعد تستيقظ مريضة . انها لا تستطيع أن تنظر اليه . انها تدفعه بعيدا ولكنه يبكى ويعود اليها ثانية . انها تضربه .. ماذا حدث؟ ماذا عمل ؟ لقد كانت تمنحه احساسا طيبا من قبل . انها الآن تمنح احساسا سيئا . انه يصرخ ويصرخ حتى ينام . ويأتى الغد . ان الروح المعنوية للأم مرتفعة مرة ثانية . ونمضى معا . لقد كانت الليلة الماضية سيئة جدا ، وهاهى ذى الآن تتحسن ثانية . وبالطبع ستسوء مرة ثانية . أنا لا أعرف لماذا ، ولكن كل شىء سيتغير فى وقته . انها حالة طيبة بصورة مخيفة (هوس) وسيئة بصورة مخيفة (انقباض) . ان الخوف هو الذى توصف به كلتا الحالتين بسبب الواقع المعاش الذى يخبره أن التغيير سيأتى فجاة ، وشاملا ، ودون توقع .

وهناك حالات أخرى فى الأبوين تؤدى الى هذه النوعية من التقلبات مثل : ادمان المخدرات ـ التطرف الدينى (الانشغال الزائد عن الحد ، أو الاستبعاد الزائد عن الحد ـ بالشئون الصوفية الدينية) ، أو الذهان (اختلال عقلى حاد يؤثر على شخصية المصاب تأثيرا شاملا) ، أو تكون الأم ذات شخصية منقبضة ، لاتستجيب للكحول ، بل للتسجيلات القديمة التى يظهر تأثيرها الآن فى ولدها . ان الخلل العقلى يجرى فى دم العائلات . ومن السهل رؤية كيفية انتقاله . ان احساس « الطفل » بأنه على غير مايرام ، يتعاظم فى مثل تلك الأحوال ، فهو قديرى خلاصه فى محاولة ارضاء « الوالد » أى أنه يستطيع أن يكون على مايرام (لو) ، ولكن أسلوب

الشرط حفظ التغيير (فى الليله الماضية عندما طوحت بالقطة من ذيلها ابتسمت واحتضنتنى ، وقد فعلت ذلك مرة أخرى صباح اليوم · ولكنها تضربنى) · وعندما يكبر الصغير تقوى هذه الأنواع من الاستجابات غير المستقرة · ان الصغير يعاقب بشدة لاستخدام « كلمات بذيئة » ، ولكنه فى هذه الليلة يسمع أباه الشمل وهو يقيم وليمة لأصدقائه وهم يلعبون البوكر مع حكايات عن براعة ابنه ، وفى النهاية ينـــادى الصبى مصمما (على عكس الأمر السابق) على أن يقص على العـــم هارى النكتـــة التى حكاها من قبل ·

وعلى ذلك فان الشخصية المصابة بهذا الهوس يمكن رؤيتها كشخص أبعد « راشده » النامى عن عملية بناء نظام العلة والمعلول القائم على موافقة أو توبيخ « الوالد » · وحيث أن هذه الموافقة أو التوبيخ قد فسرت غالبا بواسطة الاستحسان أو التوبيخ الشفوى فان المزاج المتأرجح للكبـــار المصابين بهذا الهوس ، يؤدى أيضا الى الاحساس أثناء حالة الاختلاف بأن « الحياة غنية » والاحساس خلال حالة الاحباط بأن « الحياة فارغة » ·

ومن الضرورى كما هو حادث فى علاج كافة المشاكل الوجدانية ، ربط « الراشد » باختبار الأحاسيس ، وتشجيع « الراشد » على السؤال بكلمة : لماذا ؟ · أما الصعوبة العظيمة البادية فى علاج حـــالة الهوس الانقباضى فتتمثل فى أن « الطفل » قد توقف مبكرا عن السؤال بكلمة : لماذا ؟ وهو فى الحقيقة قد قرر ألا يعاود السؤال ·

ويذكر فروم رايشمان أن الهوس الانقباضى يتصف « بفقدان القدرة على الملاحظة الصحيحة ، وفقدان الاهتمام ، والتدريب المبكر على الاستبطان أى قدرة المرء على فحص أفـكاره وتصرفاته وتفهمها » · وهذه القـدرات المبنية على الملاحظة ، انما هى نتاج القرار المبكر · ويتكون العلاج من اعادة « الراشد » الى موقفه الســابق اعتزاله أى الذى كان فيه يدير مبـــدأ « العلية ــ Causality » · وحيث أن الفاصل بين « الراشد » و «الطفل» والشخص قد تحطم ، وأن الشخص قد اكتنفته المشاعر ، فمن الضرورى غالبا ، اعطاء المريض المساعدة من خلال العلاج باستعمال العقاقير المهدئة ، أو المضادة للاحباط ، أو الصدمة الكهربائية · ومادام « الطفل » قد هدأ ــ فان « الراشد » يبدأ فى العمل · ويمكن مساعدته على كشف أســـباب النوبات المزاجية « غير القابلة للتفسير » · لقد كان « الطفل » فى البداية تحت رحمتها ، والآن يستطيع الشخص أن يتوصل لمعرفة أن ما يفعله هو الذى يحدد المديح أو التأنيب الذى سيناله · أما المديح أو التأنيب الذى

يلقاه اليوم فقد لا يكون في مثل كثافة ذلك الذى تلقاه فى الطفولة ـ ولن يؤدى المديح الى الخلل الشديد ، كما أن الاحباط لن يؤدى اليه التأنيب ـ ولكنه متحرر من القلق الشديد الخاص بعدم القدرة على التنبؤ بالمستقبل الذى يساوره حتى فى حالة الهوس ٠

الملل المستمر :

وهناك طراز من الافراد باهتى الشخصية الذين تتميز تسجيلاتهم فى « الوالد » و « الطفل » بأنها تافهة لدرجة أن الواحد منهم يفتقد بحق ، المواد الخام الضرورية لتلوين الشخصية ، وفى الغالب فان ذلك يعبر عن نفسه مرضيا ، فى الشخص الذى يعانى من اكتئاب غامض (السعادة للآخرين) أو أنه ببساطة قد أحس بالملل من الحياة ٠ لقد كان أبواه غبيين وعاجزين عن التعبير عن رأيهما ، ويجمعان بين موقفين متعارضين ، وكانت العقوبة نادرة ، والمكافأة أيضا نادرة ، كما كان هناك حماس قليل تجاه أى شىء ٠ وهو كشخص صغير لم يتعرض لاثارة العالم الخارجى ، ونادرا ما كانت له علاقات بالصغار الآخرين ٠ وبالرغم من أنه كان ولدا طيبا اذ لم يسبب أى متاعب خاصة ، الا أنه لم يكن بالصغير الذى يلاحظه أحد ٠ لقد أدرك « راشده » الحقيقة ، ولكنها لم تكن بالحقيقة السارة ٠ وربما يكون قد كبر بحيث يتمتع « براشد » متحرر ، ولكنه « راشد » لا يرى أية قيمة ايجابية فى محاولة التواصل مع الآخرين (يلمس المرء هذا النوع من القيم لأول مرة فى « الوالد » لو صح حقا أنها قيمة من قيم « الوالد ») ٠ ان شخصيته تشبه الحاسب الآلى ، فبينما يمتع الآخرون أنفسهم فى حفل ، فانه يقلب مجلة فى ركن ، مؤديا العمل الوحيد الذى يعرف أن يعمله : غربلة المعلومات ٠ واذا حضر فى النهاية للعلاج ، فان سؤاله سيكون شيئا مثل : « ألا يوجد ما هو أكثر من ذلك فى الحقيقة؟ » وبالرغم من أنه لايمثل مشكلة للمجتمع الا أنه يعتبر مشكلة بالنسبة لنفسه ٠ ان حقيقته محدودة بنفس محدودية واقعه فى بداية حياته ٠

وينطبق هنا رأى ألفريد نورث هوايتهيد من وجهة نظر خاصة حيث يقول ان « تعليم الأخلاقيات غير مستطاع بعيدا عن الرؤية المعتادة للعظمة » ٠ واذا فكرنا فى الأخلاقيات على أنها نظام قيمى ، واذا لم تكن « مملة » أو كانت « مثيرة لاهتمام الآخرين » أو « خلاقة ومنتجة » ، فانها تكون قيما ايجابية ٠ ومن الواضح أن الشخص الذى كانت انطباعاته

الأولية عن الحياة فاترة ، سيكون هو نفسه بليـــدا ، اذا لم تظهر فى طريقه بعض العلاقات العظيمة ٠

وهناك أسباب أخرى للملل ، فنجد مثلا أن الشخص الصغير الذى تلح عليه أسئلة فى مطلع حياته مثل : لماذا يرتفع الدخان ؟ ولماذا ينزل المطر ؟ ومن صنع الله ؟ ومن صنعه ؟ انه يتلقى باستمرار اجابات مراوغة ، تزيد من حيرته ويتضح له فيما بعد أنها خاطئة ٠ وفى نهاية الأمر يتخلى عن السؤال ، ويتخلى عن الاستكشاف ، ويتوقف عن الاهتمام ، ويبدأ حياة الملل ، ويبدأ حاسبه فى الانغلاق على مناطق واسعة تتطلب الاهتمام ، لأن الأجوبة على أسئلته لم تزد الا من حيرته ، ويظهر هذا النوع من الملل بين طلبة المدارس العليا والكليات حيث ينمو الملل لديهم من الاجابات المبسطة التى يتلقونها خلال البحث عن الحقيقة ، والموانع التى فرضت على متابعتهم للحقيقة ، والى أين تقودهم ، فيتصورون أن عليهم الاختيار بين الايمان والحقيقة ، وأن كليهما ينفى الآخر ، ورغم أن من رجال الدين من لايجد حرجا فى النقاش ، ويتعمق فى البحث ، الا أن الكثير من المجتمعات الدينية تطرح العقيدة طرح المسلمات التى لاتناقش ٠

ومع تقدمنا فى الدراسة رأينـــا كيف أن النـــاس تختلف حسب الترتيبات البنائية المختلفة لدى « الوالد » و « الراشد » ، و « الطفل » وتظهر أغلب هذه الاختلافات كمشاكل مرضية ، وتختلف أيضا اختلافات صحية ، لأن « تعريف الصحة » يتمثل فى أنها « راشد » متحرر مسئول دائما عن كل المعاملات ٠ ويعنى هذا أن « الراشد » يأخذ البيانات من « الوالد » ومن « الطفل » ومن الحقيقة ، ثم يتوصل الى قرار حول ماذا يجب أن يفعل ٠ وكلما أخذت المعلومات عن مصدر غنى ، كلما زادت احتمالات الاشباع ٠ ان الصغير الذى تضمنت تجاربه المبكرة استكشافا غير معوق للقـــدور والحلل ، والطين الممتـــد بطول أحواض الزهـــور ، والحشرات ، والأصدقاء ، والرحلات الى الريف ، والأمسيات التى تحكى له فيها القصص ، والاجازات التقليدية فى البيئة المحيطـــة ، واللعب التى يتحكم فيهـــا ، والتسجيلات التى يستمع اليها ، والمحادثات المفتوحة الودودة مع الأبوين غير المتعجلين ، والعديد من المشاعر الايجابية فى حداثته ــ هو أفضل من الشخص الصغير المنعزل والذى يحـــاط بالحماية الزائدة ، والشخص الصغير الذى يختبر مبكرا أساليب التغلب على موقف الاحساس بأنه هو أو غيره ليسا على مايرام ، انما يقوى « راشده » ، ويتشجع للتقدم نحو الاستكشاف والتحكم الأوسع ، ومن ثم يتحول الى « طفل لامع » يكتسب لنفسه المديح والثقة بالنفس اللذين يدفعـــانه لأن يصير أكثر لمعانا ٠

أما حقيقة أنه يجلب الثقة للأسرة فانهـا لا تقلل من حقيقة أنه يكتسب الثقة لنفسه ، اذا لم يمارس أبواه ضغطا مفرطا ، ويفرضان عليه طلبات ليست في حدود اهتمامه ، خلال هذه العملية ٠

ومن خلال فهمنا لنموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) في كل منا نستطيع أن نصل الى فهم ما يدور في « الوالد » و « الطفل » بل وأيضا مالا يدور هناك ٠ فاذا استطاعت الفتاة التي تتحسر لأنهـا تشعر بأنها بسيطة وغبية ٠٠ ولا تزيد على ذلك ، أن تقـدر العجز في « والدها » و « طفلها » لأن معرفتها بالحياة بسيطة سـاذجة ، تستطيع حينذاك أن تتحرر مع « راشدها » للوصـول الى الحقيقة واكتشاف أن الحياة تزخر بأشياء مثيرة ٠ وقد تستغرق فترة لتدركها ، ولكنها تستطيع أن تجـد المعاونة لمعرفة أنها صاحبة الاختيار ٠ واذا قلت « أسـتطيع أن أكون مختلفا » ، فان ذلك يساعدك كثيرا ٠

الفصل السابع

كيف نستخدم الوقت

(ان الوقت هو ما نريده أكثر من غيره ، ولكن يا للعجب ! اننا نستعمله أردأ استعمال ــ وليم بن) ٠

يعتبر استكشاف الفضاء واحدا من أكثر المغامرات العلمية اثارة فى هذا القرن ولا يكفينا أن نعرف أنه لا نهائى ، لأننا نريد معرفة المعالم التى تسهل التعرف على النقاط البارزة لكى نتحدث عنها ــ بما فى ذلك منصات لأقمارنا الصناعية ، ومواقع محسوبة رياضيا نستطيع أن نصوب اليها مركباتنا الفضائية ٠ اننا نريد أن نستوعب الفضاء ونضع له تعريفا حتى نستخدمه أفضل استخدام ٠

أما الحقيقة الكونية الأخرى فهى الوقت ٠ قد نتأمل فى نهاية وجودنا على الأرض ، وقد نؤمن بالخلود فى مواجهة الموت الذى يتعذر فهمه ، ولكن علينا فى تعريفنا للوقت أن نبدأ من حيث نقف تماما مثل مجهوداتنا الخاصة بمحاولة وضع تعريف للفضاء ، وكل ما نستطيع أن نعرفه هو أن متوسط ما يخص الفرد من الزمن لايتعدى سبعين عاما ، ماذا نفعل بنصيبنا المحدد ، هذا هو ما يعنينا ٠ وما يعنينا بالأكثر هو ماذا نفعل بالمجموعات الصغيرة من الزمن التى فى أيدينا : الاسبوع القادم ، واليوم التالى ، والساعة التالية ، وهذه الساعة الحالية ٠

ونحن جميعا نشاطر دزرائيلى الاحساس بأن « الحياة أقصر من أن تكون صغيرة » ٠ ولكن الاحباط الأعظم يتمثل فى أن معظم الحياة ربما كان

هو ما يتفوق على استكشاف الفضاء معنويا ودراميـا ، وأعنى به فحص استخدامنا للوقت . قال جون هاو : « ياإلها من حماقة أن نرتعد من فكرة التخلص من الحياة مرة واحدة ، ولكننا لا نأبه أن نبددها على دفعات » . وكما هو الشأن بالنسبة للفضاء ، فاننا لانكتفى بفهم الزمن على أنه مجرد شىء لانهائى . والسؤال الملح بالنسبة لأناس كثيرين هو : « كيف سأتحرك خلال الساعة القادمة ؟ » وكلما كان هناك تخطيط أكثر للوقت كلما خفت صعوبة هذه المشكلة ، ولا يملك الناس المنشغلون تماما بالمطالب الخارجية العديدة وقتا ضائعا اذ أن « الساعة التالية » قد تم التخطيط لها جيدا . وهذا التخطيط أو البناء هو ما يحاول النـاس أن يحققوه ، وعنـدما لايستطيعون ذلك بأنفسهم ، فانهـم يطلبون من أشخاص آخـرين أن يضعوا لهم برامج زمنية « قل لى ماذا أفعل ؟ » ، « ماذا أفعل بعد ذلك ؟ »، « ان ما نحتاج اليه هو القيادة » .

ان الحاجة الى التخطيط تفوق الحاجة الى المعـرفة التى ننمـو من الحاجة المبدئية للمديح . ان الصغير ليست لديه المعرفة الضرورية بالوقت حتى يخطط له ، ولكنه ببساطة يرتب لعمل الأشياء التى يشعر أنها طيبة لحظة بلحظة . وبينما هو يتقدم قليلا فى العمر يتعلم أن يرجىء التشجيع لأجل مكافآت أعظم : « أستطيع أن أخرج لألعب مع سوزى الآن ، ولكننى اذا انتظرت عشرين دقيقة أخرى وارتديت فستانى الرقيق ، أستطيع أن أذهب الى المركز التجارى مع أبى » . وهذه المشكلة أساسية فى التخطيط للوقت : أى الاختيارين سيكون أكثر امتاعا ، وأيهما يـؤدى الى مكافأة أكبر ؟ ومع تقدمنا فى السن يكون لدينا اختيارات أكثر وأكثر . وعلى أية حال فان موقف (ليس على مايرام) يحفظنا من ممارسـة هذه الاختيارات بحرية أكثر مما نظن ، ونحن قادرون من خـلال ملاحظتنا للمعاملات بين الناس ـ على اقامة ستة أنماط من الخبرات ، متضمنة كل المعاملات :

هذه الأنماط هى : **الانسـحاب** ، **والطقوس** ، **والأنشطة** ، **وتسلية وقت الفراغ** ، **والألعاب** ، **والألفة** .

وبالرغم من أن **الانسحاب** لايعتبر معاملة مع شخص آخر ، الا أنه مع ذلك يمكن أن يحدث فى الاطار الاجتماعى . ان الرجـل الذى يتناول الغداء مع جماعة من الرفاق المثيرين للملل ، الذين يهتمون براحتهم أكثر من راحته ، ينسحب الى أوهام الليلة الماضية ، عنـدما كانت المجاملة أفضل ، وبينما لايزال جسده على منضدة الغداء ، فانه هو نفسه غير موجود . ان فصول الدراسة فى يوم ربيعى لطيف مزدحمة بالأجسـام التى تهيم

أرواحها في ذكريات المرح في حوض السباحة ، أو اللهو مع الأصدقاء أو مغازلة الفتيات • وعندما ينسحب الناس بمثل هذه الطريقة فمن المؤكد أن الانسحاب يبعدهم عن هؤلاء الذين يجاورونهم بالجسد • وهذا لايضر اذا لم يحدث طول الوقت •

أما **الطقوس** فهى استخدام للوقت مخطط اجتماعيا حيث يوافق كل فرد على عمل نفس الشيء • انه في أمان • ولا يوجد التزام نحو شخص آخر أو تورط معه ، والناتج محسوب مسبقا ، ويبعث على السعادة طالما أنت ملتزم بالخطوات أو منفذ للشيء الصحيح • وهناك طقوس للعبادة ، وطقوس للتحية ، وطقوس لحفلات الكوكتيل ، وطقوس لغرفة النوم • ان الطقوس قد رسمت ليتمكن فريق من الناس من تمضية الوقت المعين دون أن يضطروا الى التقرب الى أى شخص ، وربما حدث ذلك التقرب ، ولكنه غير مفروض عليهم فالعلاقات الجنسية في الظلام ، أقل احراجا بالنسبة للأفراد الذين لاترقى درجة علاقتهم الشخصية الى دفء علاقتهم الجنسية ، وهناك فرصة أقل للاندماج في حفل كوكتيل عنها في تناول غداء لستة أفراد • هناك التزام أقل ، وبالتالى اشباع أقل ، فالطقوس مثل الانسحاب يمكن أن تحافظ على الفوارق بيننا •

أما **النشاط** كما يراه برن ، فهو طريقة عمومية ومناسبة ومريحة ونفعية ، لتخطيط الزمن بمشروع مصمم للتعامل مع الواقع الخارجى أو المادى (١) • ان الأنشطة العامة تحفظ مواعيد العمل ، وعمل أطباق الطعام ، وبناء المنازل ، وتأليف الكتب ، وجرف الثلوج ، والاستعداد للامتحانات •

أما هذه الأنشطة من حيث كونها منتجة وخلاقة ، فقد تتضمن فى حد ذاتها أعلى درجات الرضا ، أو أنها قد تقود الى الرضا في المستقبل على هيئة الثناء الذى قد يناله المرء عندما يؤدى عملا باتقان ، ولكن لاتوجد حاجة للاندماج الحميم مع شخص آخر خلال وقت أداء النشاط ، وقد يكون ذلك موجودا ولكنه غير مفروض • ان بعض الناس يستخدمون عملهم لتفادى الألفة فيعملون بالمكاتب ليلا بدلا من العودة للبيت ، مكرسين حياتهم لاكتساب الملايين بدلا من اكتساب الأصدقاء •

---

(١) E. Berne, "Transactional Analysis in Psychotherapy", (New York : Grove Press, 1961), p. 95

ان الأنشطة يمكن أن تبتعد بنا بعيدا ، تماما مثل الانسحاب •

أما تسلية وقت الفراغ فهى وســيلة لقضاء الوقت • ويعرف برن التسلية لتمضية الوقت بأنها :

علاقة تكون فيها المعاملات صريحة •• قد تنطلق تسلية وقت الفراغ من أجل التسلية ذاتها وتؤدى الى ارضاء الذات اذا تمت مع اناس سعداء أو منظمين جدا ، على أن تكون قدرتهم على الاستمتاع سليمة لم تفســد • أما التسلية مع غيرهم خاصة المصابين بأمراض عصبية فتكون حسب دلالة اسمها ، مجرد طريقة لتمضية الوقت (أى تخطيطا للوقت) ، وحتى يصل الانسان الى معرفة الناس جيدا ، وحتى يتم انجاز هذه الساعة ، أو على نطاق واسع حتى وقت النوم ، أو حتى وقت الاجازة ، أو حتى بداية الدراسة ، أو حتى حلول العلاج ، أو حتى حلول شكل من أشكال الموهبة ، أو النجدة ، أو الموت • وتعتبر التسلية بغرض تمضية الوقت ــ من وجهـــة النظر الوجودية ــ طريقة لتجنب الذنب ، أو اليأس ، أو المودة ، أو أداة أوجدتها الطبيعة أو الثقافة لتخفيف اليأس البطىء • وهى تعتبر من الوجهة المتفائلة على أحسن الفروض ، شيئا يستمتع به الانسان لذاته ، وهى تعمــل على الأقل كوســيلة للتعارف ، يهدف منها المرء الى تحقيق التفاهم المرغوب مع الكائنات البشرية الأخرى ، وعلى أية حال فان كل المشتركين يستخدمونها بطريقة الفرصــة المتاحة ليحققوا منهــا أية مكاســب أوليــة وثانوية مستطاعة (٢) •

أما هؤلاء الذين لايستطيعون المشــاركة فى تسليـــة وقت الفراغ فليسوا موهوبين اجتماعيا ، ويمكن النظر الى تسلية وقت الفراغ على أنها نوع من الفحص الاجتماعى ، حيث يطلب الانسان معلومات عن المعارف الجدد بطريقة تخلو من التهديد وغير متميزة • وتنحصر ملاحظــة برن فى أن تسلية وقت الفراغ تشكل قاعدة لاختيار المعـــارف ، وقد تقــود الى الصداقة ، وفيما بعد قد يتمتع الذين يمارسونها بخاصية « تأكيد الدور وتثبيت الموقف » •

وقد أعطى برن بعض الأسماء الســـارة الساحرة لبعض من ألوان أنشطة وقت الفراغ ، التى يمكن ممارستها فى حفلات الكوكتيل ، وغداء السيدات ، وجلسات العائلات ، والنوادى الخاصة ، حيث تدور نوعيات

---

(٢) E. BERNE, "Transactional Analysis in Psychotherapy". (New York : Grove Press), p. 85.

من الأحاديث العامة عن المهن المختلفة ، فمثلا يتحدث العاملون فى جنرال موتورز عن (المقارنة بين السيارات) ، أو يتحدث رجلان عن « برامج التليفزيون » ، أو تتحدث السيدات فى شئون البقالة والمطبخ والملابس ، أو كيفية عمل شيء ، أو الأسعار ، أو بعض أماكن الذكريات ، أو الاستفسار عن معرفة بعض الأشياء ، أو الأصدقاء القدامى ، أو توقعات الغد ، أو أنواع المشروبات (٣) ·

ويمكن أداء لعبة تسلية وقت الفراغ عن طريق « الوالد » أو «الراشد» أو « الطفل » · وقد تبدأ اللعبة بين « والد ــ والد » بالمعاملة الآتية :

مود : تقصدين أنك تقومين بتنجيد المفروشات ؟

بيسى : فقط عند الضرورة ·

ويقود ذلك الى مناقشة حول أسعار التنجيد ، وتدهور مستوى العمل الآن أو الأوكازيونات ·

أما لعبة تسلية وقت الفراغ التى تبدأ بين « طفل ــ طفل » فهى المشاركة فى اختيارات مستحيلة ترمز الى موقف **الطفل الصغير** من اختيار أحد أمرين أحلاهما مر ، ويمكن لهذا اللون من ألوان النشاط أن يخفف من القلق ، ليس لأن المشكلة قد وجد لها حل ، ولكن لأنه قد شارك فيها شخص آخر ــ « حاول مع هذه المشكلة لحظة ! » · لقد سمعت هذه الأسئلة خلال حديث متبادل بين شخصين عمر كل منهما خمسة أعوام : « هل تفضل أن تأكل تلا مملوءا بالنمل ، أو تشرب دلوا مملوءا بالدواء المغلى ؟ وهل تحب أن يطاردك ثور وحشى أو تلبس فردة حذائك اليمنى فى قدمك اليسرى والعكس طول اليوم ؟ وهل بودك أن تجلس على فرن ساخن أو تدخل الغسالة الكهربائية خمسين مرة ؟ وهل تريد أن تلدغك آلاف الزنابير أو تنام فى حظيرة الخنازير ؟ ــ أجب باختيار واحد من الأمرين ؟ أى عليك أن تختار واحدا من كل اثنين · ويمكن أن تكون أسئلة الكبار أكثر حنكة مثل : هل أنت ديموقراطى أم جمهورى ؟

ويمكن للراشد أن يلعب تسلية وقت الفراغ بموضوعات مثل الطقس لعمل علاقة تستمر حتى ظهور شيء يثير الاهتمام أو يؤدى الى المديح :

---

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٩ ·

مستر أ : يبدو أن عاصفة ستهب .

مستر ب : هذه السحب تبدو سوداء فى حقيقتها .

مستر أ : انها تذكرنى بالوقت الذى كنت أقود فيه طائرتى ، ودخلت فى عاصفة مفاجئة فوق خليج سان فرانسيسكو .

مستر ب : أوه . أنت طيار ؟

وما دامت تسلية وقت الفراغ مفيدة فى مواقف اجتماعية معينة ، فمن الواضح أن العلاقات التى لاتتقدم الى أبعد منها تموت - أو على الأقل تعيش فى يأس بطىء وملل متزايد . وتسلية وقت الفراغ مثل الانسحاب ، والطقوس ، والأنشطة ، يمكن أن تأخذ الناس بعيدا .

أما **الألعاب** فهى ظاهرة معاملات هامة حتى أن برن قد وضع كتابا كاملا عنها هو أفضل كتبه توزيعا ، وعنوانه :

(ألعاب يلعبها الناس - Games People Play) . ومعظم الألعاب تسبب الضيق ، انها تمثل محطمى العلاقات ، ومنتجى البؤس . وتكمن اجابة السؤال « لماذا يحدث لى ذلك دائما ؟ » فى فهم هؤلاء جميعهم ! يقول برن : ان كلمة (لعبة) يجب ألا يساء فهمها وهى لاتنطوى بالضرورة على اللهو أو حتى المرح . وأنا أنصح من يرغب فى فهم تلك الألعاب فهما حقيقيا بقراءة كتابه . وعلى أية حال فاننا نقدم فيما يلى تعريفا موجزا يؤدى الغرض من هذا الدليل الخاص بتحليل المعاملات :

تمثل اللعبة تطور سلسلة متصلة من المعاملات التكميلية الكامنة خلف السطح نحو مخرجات جيدة التعريف ومستقبلية . انها بالتحديد مجموعة دورية من المعاملات ، تتكرر فى الغالب ، وتبدو مقنعة ظاهريا ، مع حافز خفى ، أو انها ببساطة أكثر ، سلسلة من التحركات ذات مصيدة أو طعم . والألعاب تختلف بوضوح عن الاجراءات والطقوس وتسلية وقت الفراغ فى صفتين أساسيتين : ١ - أنها كامنة تحت السطح ٢ - أنها مثمرة .

أما الاجراءات فقد تكون ناجحة ، كما أن الطقوس قد تكون فعالة ، كما أن تسلية وقت الفراغ قد تكون مفيدة ، ولكنها فى مجموعها صريحة وأضحة ، فهى قد تسبب المنافسة ولكنها لا تسبب الصراع ، وقد تكون نهايتها مثيرة ولكنها غير درامية ، ومن الناحية الأخرى فان كل لعبة فى

أساسها غير شريفة ، ونتائجها يتسم بشيء من الدرامية التي نستطيع أن نميزها عن الاثارة التي تحدثها (٤) ٠

وكما بينا في الفصل الثالث فان كل الألعاب لها أصلها الذي يعود الى لعبة الطفولة البسيطة التي اسمها « مالدى أفضل مما لديك » ، والتي يمكن ملاحظتها بسهولة في أي فريق من **الصغار** الذين في سن الرابعة ، الذين يلعبونها كما يلعبها الكبار ، لتوفير بعض الراحة الوقتية من حمل عبء الاحساس بأن المرء ليس على مايرام ٠ وكما في حالات الكبار الأكثر حكمة فانها خفيفة من حيث أنها لاتعبر صراحة عن حقيقة ما يشعر به الفرد٠

وعندما يقول الصغير « ما لدى أفضل مما لديك » يخالجه احساس « أنا لست مثلك » ٠ انه دفاع هجومي من حيث سعيه لتحقيق الاستقرار الداخلي ٠ وفيها أيضا رد أو وفاء مثل ألعاب الكبار ٠ وعندما يستغرق اللاعب في لعبة « ما لدى أفضل مما لديك » فان اللعبة تنتهي بدفعة شديدة أو صفعة على الوجه ، أو يتحقق الصغير من أن ما معه مثلا ليس هو الأفضل ، وهي حقيقة موجعة وهي تعيد الشخص الصغير مرة أخرى الى مكانه بعد أن تبرهن مرة أخرى على موقف « أنا لست على مايرام » وللابقاء على هذا الموقف الثابت ، يخالج **الصغير** نوع ما من الاحساس الضعيف بالأمن ٠

وهذا هو جوهر كل الألعاب ٠ انها طريقة لاستهلاك الوقت بالنسبة للناس الذين لايستطيعون احتمال فقدان الحنان الناتج عن الانسحاب ، ومع ذلك لايزال موقفهم (أنا لست على مايرام) يمثل عقبة كؤودا أمام تحقيق الشكل النهائي للانتماء والمودة ٠ وبالرغم من وجود البؤس الا أن هناك شيئا ٠ وكما قال المثل الهزلي : « أن تنبعث الرائحة الكريهة من فمك ، أفضل من ألا تتنفس مطلقا » ٠ نقول أن مواجهة القسوة في الألعاب أفضل من عدم وجود علاقة على الاطلاق ٠

وقد كتب الدكتور ريتشارد جالدستون عن **الصغار** الذين يعانون من سوء المعاملة ، ما يلي : « ان [**الصغير**] النامي أكثر عرضة لأن يتغلب على مرارة القسوة ، منه على مرارة التجاهل واللامبالاة (٥) ٠»

---

(٤) E. Berne "Gomes People Play", (New York : Grove Press, 1964), p. 48.

(٥) R. Galdston, M.D., "Observations of Children Who Have Been Physically Abused and Their Parents", American Journal of Psychiatry, Vol. 122, No. 4 (October, 1965).

وعلى ذلك فان الألعاب تفيد جميع اللاعبين فهى تحمى سلامة الموقف دون أن تهدد بالفضيحة ٠

ولتحديد طبيعة الألعاب بصورة أوسع سنورد الحركات الخاصة بلعبة واحدة هى : « لماذا لاتفعل ؟ نعم ولكن » ، واللاعبان هما امرأة شابة تدعى جين ، وصديقتها (وهذه اللعبة تؤدى غالبا فى موقف المساعدة ، أو مكتب رجل الدين ، أو مكتب الطبيب النفسى ، أو مطبخ جارة تعانى من مشكلات طويلة الأمد) ٠

جين : اننى ساذجة جدا ، وغير منسقة المظهر لدرجة تنفر منى الرجال ٠

الصديقة : لماذا لاتذهبين الى صالون تجميل ممتاز ، وتقومين بتغيير تسريحتك ؟

جين : فكرة رائعة ، ولكن ذلك يكلف مبلغا كبيرا من المال ٠

الصديقة : طيب ، ولم لاتشترين مجلة من مجلات التجميل وتستفيدين منها فى تصفيف شعرك ؟

جين : ومن قال أننى لم أحاول ذلك ؟ ولكن شعرى ناعم جدا ٠ انه لا يثبت على تسريحة معينة ٠ أما اذا عقصته ، فسيبدو على الأقل مقبول الشكل ٠

الصديقة : وماذا عن استخدام الماكياج لتجميل ملامحك ؟

جين : نعم ، ولكن بشرتى حساسة بالنسبة للماكياج ٠ لقد عملته مرة فصارت بشرتى خشنة وتشققت ٠

الصديقة : هناك كميات ضخمة من الماكياج المضاد للحساسية ، فلماذا لاتذهبين لزيارة طبيب للأمراض الجلدية ؟

جين : نعم ، ولكننى أعرف ما سيقوله ٠ سيقول أننى لا أتناول الغذاء الصحيح ٠ أعرف أننى أتناول كميات كبيرة من الحلوى ، ولا أتناول وجبات متوازنة ٠ وهذا هو ما يحدث عندما تعيش بمفردك ٠ أوه ٠ حسنا ، ان الجمال شىء سطحى ٠

الصديقة : حسنا ، هذا صحيح ، وربما يساعدك أن تحصلى على بعض الدراسات الخاصة بتعليم الكبار ، فى مجال الفن ، أو الأحداث الجارية ٠ انها تساعدك على أن تكونى متحدثة جيدة كما تعلمين ٠

جين : نعم ، ولكن هناك حقيقة أن هذه الدراسات كلها مسائية ، وأنا أكون خائرة القوى بعد انتهاء العمل .

الصديقة : حسنا ، ادرسي بعض المناهج بالمراسلة .

جين : نعم ، ولكن ليس لدي وقت لكتابة الخطابات لأقاربي ، فكيف أجد وقتا للدراسة بالمراسلة .

الصديقة : ستجدين الوقت ، لو كانت الدراسة مهمة بما فيه الكفاية .

جين : نعم ، ولكنه من الميسور لك أن تقولي هذا القول ، لأن لديك طاقة كبيرة ، أما أنا فان قوتي خائرة دائما .

الصديقة : لماذا لاتذهبين للسرير ليلا ؟ لا عجب في أن تشعري بالتعب عندما تجلسين وتشاهدين « فيلم السهرة » كل ليلة .

جين : نعم ، ولكنني تعودت أن أشاهد عملا ترويحيا . وهذا هو كل ما تفعلينه عندما تكونين مثلي .

نرى هنا أن المناقشة اتخذت دائرة كاملة . وقد هدمت جين بأسلوب منتظم كل اقتراح من اقتراحات صديقتها . انها تبدأ بالشكوى من أنها ساذجة وغير منسقة المظهر ، وتنتهي بادئة بالسؤال الذي يحمل السبب الأخير : انها ساذجة وغير منسقة المظهر لأن « هذا هو حالي » . وأخيرا تنفض صديقتها يدها منهزمة ، وربما تتوقف أخيرا عن زيارتها ، فتضاعف من احساس جين بأنها ليست على مايرام . وهذا « يبرهن » لجين على أنه لا أمل لها حقيقة ، وأنها لاتستطيع حتى الاحتفاظ بأصدقائها . ويبرز هذا دخولها في لعبة أخرى هي : « أليس الأمر مزعجا » وتنحصر الفائدة التي تنالها جين في أنها ستوفر على نفسها عبء العمل لأنها كررت البرهان على أنه لايمكن عمل شيء .

أما لعبة « لماذا لاتفعل ؟ نعم ولكن » فمن الممكن أن تمارس بأي عدد من الأفراد حسب قول برن :

يطرح لاعب ما مشكلة . ويبدأ الآخرون في تقديم الحلول ، ويبدأ كل منهم بعبارة « لماذا لا تفعل ؟ » ولكن اللاعب يرفض كل حل مستعملا عبارة « نعم ولكن » ويستطيع اللاعب الممتاز ان يتفوق على باقي المجموعة بلا حدود حتى يستسلم الجميع ، وهنا يفوز هذا اللاعب عليهم .

وحيث أن جميع الحلول قد رفضت بلا استثناء ، فمن الواضح أن هذه اللعبة لابد وأن تخدم غرضا خفيا . والفخ الموجود فى لعبة « لماذا لاتفعل ؟ نعم ولكن » هو أنها لاتمارس من أجل غرضها الظاهرى (راشد يطلب معلومات أو حلولا) ، ولكن لتأكيد وتشجيع (الطفل) . وقد يخال من يقرأ الحوار أنه أمام « راشد » ، ولكنه ان استمع الى اللاعب أو اللاعبة لوجدهما يقدمان نفسيهما « كأطفال » غير مؤهلين لمواجهة الموقف ، بينما يكون الآخرون قد تحولوا الى آباء حكماء متشوقين لتقديم حكمتهم لمصلحة ذلك المسكين وهذا هو ما يريده اللاعب ، حيث أن رفضه يهدف الى بث الحيرة فى هؤلاء الآباء الواحد بعد الآخر (٦) .

(وهذه صورة حديثة من لعبة « ما لدى أفضل مما لديك » التى تنكر فكرة حقيقية ، وهى أنك أفضل منى) . ومع انتهاء اللعبة ، يحزن جميع هؤلاء الذين قدموا نصائحهم لأنهم فشلوا فى مساعدة اللاعب بينما يبرهن هو على أن مشكلته فى حقيقة الأمر ، ليس لها حل ، وهذا يجعل فى امكانه أن يدخل « طفله » فى لعبة جديدة هى : « أليس الأمر مزعجا ؟ » أى أن هذا هو الواقع وهذه هى طريقتى (ولذلك لا أستطيع أن أفعل شيئا حيال الأمر لأنه كما رأينا ، لا يوجد ما يمكن عمله) .

ويصف برن فى كتابه الخاص بالألعاب حوالى ستة وثلاثين لعبة وعناوين هذه اللعبات موضوعة بالعامية الدارجة ، وأغلبها دقيقة المعنى ، تضع اصبعك على الشخصية الرئيسية فى اللعبة مثل : « أليس الأمر مزعجا ؟ » و « لو لم تكن لك كنت أستطيع » و « هيا تشاجرا » و « الآن قد أمسكت بك يا ابن الـ.... » (٧) . ونظرا لأن العناوين بالعامية ، فانها غالبا ما تدعو الى الضحك ، والحقيقة هى أن الألعاب ليست مسلية ، انها دفاعات لحماية الأفراد من درجات أكبر أو أقل من الألم الذى يتضخم من موقف « أنا لست على مايرام » . أما شعبية كتاب برن عن الألعاب ، فقد أدت الى ظهور لعبة من ألعاب تزجية وقت الفراغ بين أبناء بعض الأوساط الراقية . ويمكن أن يكون مبدأ الألعاب أداة علاجية مفيدة

---

(٦) E. BERNE, "Transactional Analysi·," P. 104.

(٧) نورد هنا عناوين هذه اللعبات الأربعة التى أوردها المؤلف كنموذج مرتبة من اليسار الى اليمين وذلك بعد العودة الى الكتاب الأصلى وهو : Games people play كما يلى : Ain't It Awful. ✶ If it weren't for you, I could ✶ Let's you and him Fight ✶ Now I've Got you, son of a Bitch.

ـ المترجم ـ

عليهما تستخدم مع فهم مسبق لنموذج « الوالد ـ الراشد ـ الطفل » ولكن ان غاب هذا الفهم يمكن ببساطة أن تتحول اللعبة الى طريقة أخرى للعدوان • ويستطيع الأفراد مع فهم نموذج «الوالد ـ الراشد ـ الطفل» أن يستخدموا مناقشة أكاديمية للألعاب بتطبيقها على أنفسهم ، ولكن اذا استدرج المرء الى اللعبة دون فهم أو اهتمام فقد تؤدى الى انبثاق مشاعر الغضب • انني مقتنع أشد الاقتناع من الملاحظة الطويلة لهذه الظاهرة أن تحليل الألعاب يجب أن يحتل دائما مكانة ثانوية بالنسبة لتحليل المعاملات • ولا تتيح لك معرفة اللعبة التي تلعبها ـ فى حد ذاتها ـ أن تتغير • وهناك خطر ينطوى عليه نزع الدفاع قبل أن نساعد الشخص أولا على فهم الموقف ـ وموقف الطفولة الذى نشأ منه ، والذى جعل ذلك الدفاع ضروريا ، ويمكن أن نذكر ذلك بطريقة أخرى وهى أنه اذا كانت هناك ساعة واحدة من الزمن متاحة لمساعدة شخص ما ، فان طريقة الاختيار ستنحصر فى التعليم الدقيق لنموذج « الوالد ـ الراشد ـ الطفل » وظاهرة المعاملة • وأعتقد أن هذا الاجراء يقدم فرصة أكبر للتغيير باستخدام العلاج القصير الأجل أكثر من تحليل الألعاب •

وباختصار ـ فاننا نرى الألعاب كأدوات لتخطيط الوقت وهى مثل الانسحاب والطقوس والأنشطة وتسلية وقت الفراغ ، تباعد بين الناس • اذن ـ ما الذى نستطيع أن نفعله بالوقت بحيث لايباعد بيننا ؟ يقول جورج سارتون :

« أعتقد أن الانسان يستطيع تقسيم الناس الى فئتين رئيسيتين : هؤلاء الذين يعانون من الرغبة الشديدة فى الاندماج وهؤلاء الذين لايعانون منها • وتوجد هوة بين النوعين ـ أما التواق الى الاندماج فهو المتضايق ، وأما الآخر ففى سلام » •

لقد غلبت على حياة الانسان منذ عدة آلاف من السنين ، أساليب الانسحاب ، والطقوس ، وتسلية وقت الفراغ ، والأنشطة ، والألعاب • وربما كان الشك فى هذه التشكيلة يواجه على أحسن ما يكون بتذكر التكرار الدؤوب للحرب على مدى التاريخ ، والحرب هى أكثر اللعبات قسوة • وقد سلم معظم الناس بأن هذه النماذج هى الطبيعة البشرية ، والمسار الحتمى للأحداث ، وأعراض التاريخ التى تكرر نفسها ، وكان هناك سلام معين فى قبول هذا النوع من الآراء ، ولكن كما يقول سارتون، فان أشد الناس احساسا بالضيق على مدى التاريخ هم هؤلاء الذين رفضوا اخضاع أنفسهم لحتمية التباعد ، والذين استمروا فى التقدم برغبة شديدة

فى الاندماج ، لقد كان المركز الديناميكي المحور للفلسفة هو دافع الاتصال أو التواصل · كان الأمل موجودا دائما ، ولكنه لم يهزم الخوف الكامن فى النفس من اقتراب المرء من الآخرين ، ومن فقـــدان الذات فى نطاق الآخرين ، ومن التآلف الذى يعتبر آخـــر الاختيـــارات التى يختـــارها الانســـــان ·

أما علاقة **الألفة** بين شخصين فقد يظن أنها موجـــودة مستقلة عن الأساليب الخمسة الأولى لتخطيط الوقت وهى : الانسحاب ، وتسلية وقت الفراغ ، والأنشطة ، والطقوس ، والألعاب · انها ترتكز على قبول الناس الذين يتخذون موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) كمـا ترتكز حرفيا على الحب المفعم بالقبول ، حيث يصبح تخطيط الوقت الدفاعى غير ضرورى · ان العطاء والمشاركة هما تعبيران عفويان عن الفرح أكثر منهما استجابتان لطقوس مخططة اجتماعيا · ان الألفـــة هى علاقة خاليـــة من الألعاب لأن الأهداف غير خفية · ان الألفـــة مستطاعة فى الموقف الذى يتيح فيه غياب الخوف ، الادراك التام ، حيث يمكن رؤية الجمال منفصلا عن المنفعة ، وحيث يصبح الامتلاك غير ضرورى بالنسبة لحقيقة المالك ·

انها علاقة يصبح فيها « الراشد » مسئولا فى الشخصين كليهما ، ويسمح بظهور « الطفل الطبيعى » · و « الطفل » فى هذا الصدد قد يظن أن له طبيعتين : « **الطفـــل الطبيعى** » (خـلاق وعفوى ومحب للاستطلاع وواع ومتحرر من الخوف) « **والطفـــل المطوع** » (طوع نفســـه لمطالب « الوالد » الأصلية المتمدينـة) ويمـكن لتحرير « الراشـد » أن يتيح « **للطفل الطبيعى** » الظهور مرة أخرى ، كما يستطيع « الراشد » تحديد مطالب « الوالد » حسب ماهيتها القديمة — ويعطى الاذن « **للطفل الطبيعى** » بالظهور مرة أخرى ، دون خوف من عملية التمدين المبكرة ، التى غيرت ، ليس فقط سلوكه العدوانى غير الاجتماعى ، بل أيضا سـعادته وقدراته الخلاقة · وهذه هى الحقيقة التى تجعله حرا — ليكون واعيا مرة أخرى ، وليسمع ويشعر ويرى بطريقته الخاصـــة · ويمثل هذا جزءا من ظاهرة الألفة · وعلى ذلك فان الهدية المكونة من حفنة من أزهار الربيع قد تكون تعبيرا عفويا عن الحب والفرح أكثر من هدية من العطر الباريسى الفاخر تقدم فى احدى المناسبات الاجتماعية المهمة · ان نســـيان عيد الزواج لايمثل كارثة للزوج والزوجة المحبين ، ولكنه غالبا كذلك بالنسبة لهؤلاء الذين تدوم علاقتهم بفضل الطقوس ·

وهذا هو السؤال الذى يدور غالبا : هل الانسحاب ، وتسلية وقت الفراغ ، والطقوس ، والأنشطة ، والألعاب — رديئـــة دائمـــا بالنسبة

للعلاقات ؟ من الأسلم القول بأن الألعاب هدامة فى معظم الأحوال مادامت حركتها خفية ، وخاصية الاخفاء هى نقيض الألفة · ان الأربعة الأول غير هدامة بالضرورة الا اذا أصبحت شكلا سـائدا للتخطيط للوقت ، ومن الممكن أن يكون الانسحاب شكلا استرخائيا ومنشطا من أشكال التأمل الانعزالى · أما التسلية لتمضية وقت الفراغ فيمكن أن تكون طريقة سارة لتهدئة المحرك الاجتماعى · أما الطقوس فيمكن أن تكون ترفيهية ، مثل حفلات أعياد الميلاد ، والاجازات ، والجرى لملاقاة الأب عند عودته من العمل الى البيت ـ وبذلك فهى استعادة ثانية للحظات السعادة التى يمكن توقعها، وعمل حساب لها ، وتذكرها ·

أما الأنشطة التى تتضمن العمل فهى ليست فقط ضرورات للحياة ، ولكنها مكافآت فى حد ذاتها ، لأنها تسمح بالسيطرة ، والامتياز ، والمهارة فى الصنعة ، والتعبير عن تشكيلة كبيرة من المهارات والمواهب · وعلى أية حال فانه اذا لم تتوفر الراحة فى علاقة بين شخصين عندما تتوقف هذه النماذج من تخطيط الوقت ، فمن الأسلم القول بأن هنـاك ألفة قليلة ، وبعض الأزواج يخططون كل وقتهم معا بنشاط ملحوظ ، والنشاط نفسه غير مدمر مالم يكن الدافع للانشغال يماثل الدافع للانعزال ·

ويقفز السؤال الآن : اذا جردنا أنفسنا من الوسائل الخمسة الأولى لتخطيط الوقت ، فهل نكون قد حققنا الألفة آليا ؟ أم نـكون قد حققنا لا شىء ؟ ويبدو أنه لا توجد وسيلة بسيطة لتعريف الألفة ، ولكن يمكننا الاشارة الى تلك الأحوال الأثيرة جدا بسبب مظهرها : غياب الألعـــاب ، وتحرير « الراشد » والالتزام بموقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) ·

ومن خلال « الراشد » المطلق السراح ، نستطيع أن نصل الى المناطق الرحبة لمعرفة ما يتعلق بعالمنا ، وما يتعلق بنا ، والى استكشـاف أعماق الفلسفة والدين ، وملاحظة ما هو جديد ، دون أن يكسره القديم ، وربما نجد اجابات تحل لنا كلا من عناصر ذلك التساؤل المحير : « ما الهدف من هذا كله ؟ » سيرد شرح لهذه الفكرة فى الفصل الثانى عشر ·

الفصل الثامن

نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) والزواج

(اننا نعطي وعودا حسب آمالنـــا ، وننجزها حسب مخاوفنا ـ فرانسوا دوق دى لاروشفوكو)

يروى أحد أصدقائى القصة التالية حول موقف حدث عندما كان ولدا صغيرا • عند نهاية وجبة غذائية أعلنت أمه للأخوة والأخوات الذين كان عددهم خمسة ، أن الحلوى ســـتكون هى ما تبقى من الفطائر التى صنعتها • ومن ثم أحضرت برطمان الفطائر ووضعته على المائدة ، وتبع ذلك تدافع **الصغار** فى ضجة للوصول الى البرطمان ، وكان أصغر الاخوة وعمره اربعة أعوام هو الأخير كالعادة • وعندما وصل الى البرطمان لم يجد سوى فطيرة متبقية ، وقد ضاعت قطعة منها ، وهنا اختطفها وألقى بهـــا على الأرض باكيا فى غمرة من اليأس ، وصرخ قائلا : « لقد تهشمت فطيرتى كلهـــا ! » •

وهذه هى طبيعة **الصغير** أن يحسب خيبة الأمل كارثة ، ويفســـد الفطيرة كلها ، لأن قطعة منها ضاعت ، أو لأنهـــا ليست كبيرة أو لذيذة مثل فطائر الآخرين • وقد بقيت هذه القصة فى أسرته كنمـــوذج قياسى للرد على أى شكوى فيقال : « ما الخبر ؟ هل تهشمت فطيرتك ؟ » وهذا هو نفس ما يحدث عندما تفشل الزيجات ، ان « الطفل » يباشر عمله فى أحد الشريكين أو كليهما معا ، ويتحطم الزواج كله عندما تبدأ النقائص فى الظهور •

ان الزواج هو أكثر العلاقات الانسانية تعقيدا فقليل من العلاقات هى التى تستطيع أن تنجح مثل هذه الانفعـالات المتطرفة ، أو يستطيع الانتقال بسرعة من ممارسات النشوة الغامرة الى هذه القســوة العقلية الباردة والتى تؤدى فى النهاية الى الانفصال الشرعى ٠ وعندما يتوقف الانسان لتقييم المضمون الهائل للمعلومات القديمــة التى يدخلها كل شريك فى عملية الزواج من خلال المساهمــة المستمرة لكل من « والده » و « طفلة » يستطيع الانسان أن يرى سريعا ضرورة وجود « راشد » متحرر فى كل من الطرفين ليجعل هذه العلاقة فعالة ، ولكن عقد الزواج المتوسط يتم على يد « الطفل » الذى يفهم الحب على أنه شىء تحس به وليس شيئا تعمله ، ويرى السعادة كشىء تسعى خلفه وليس ناتجا ثانويا للعمل نحو تحقيق سعادة شخص آخر ســواه ٠ أما الشركاء الشبان الذين يتضمن « والدهم » المشاعر الخاصة بمـا يجب أن يـكون عليه الزواج الناجح ، فانهم سعداء وقليلون فى نفس الوقت ٠ وهناك أفراد عديدون لم ير الواحد منهم الآخر ، ولذلك فانهم يستعيرون مفهوم الزواج من القصص الخيالية التى تتشبع بالرومانتيكية والتى قرأوا عنها ، حيث يكون للزوج عمــل ممتاز كمدير تنفيذى مساعد فى شركة اعلانات كبرى ، ويعود الى البيت كل ليلة ومعه باقة من الزهور لتقديمها الى الزوجـة الرشيقة المتألقة التى تنتظره فى البيت الفخم ، الذى كسيت أرضياته بالسجاجيد الفاخرة . وأخذت نوافذه تتلألأ بما تكشف عنه من أضــواء الشموع الخافتة ، مع الموسيقى التى تنبعث من الستريو لتوفير جو الحب ٠ وعندما يبدأ الوهم فى الانقشاع ، وتبلى السجاجيد ، ويتوقف الستريو عن العزف ، ويفقد الزوج عمله ، ويتوقف عن قول : « اننى أحبك » ٠ فان « الطفل » يظهر ومعه شريط « الفطيرة المهشمة » وينتهى العرض كله ، وقد تحطم كل شىء الى قطع صغيرة أما الذى يتبقى فهو الوهم ، وما يبدو باللون الأزرق هـو « الطفل » ٠ لقد أفسدت المشاعر القديمــة الخاصــة بموقف « ليس على ما يرام » الراشد فى كلا الشريكين ، ومع عدم وجود مكان آخر ينقلبان عليه ، ينقلب الشريكان كل منهما على الآخر ، لقد عرف منذ مدة طويلة أن أفضل الزيجات تنمو عندما يكون لدى الشريكين كليهما نفس الخلفيـــة ونفس الاهتمام بالحقيقة ٠ وعلى أية حال عندما يتولى « الراشد » مسئوليته فى تخطيط الزواج فان الاختلافات المهمة يجرى تجاهلها غالبـــا ، ويتم توقيع عقد فحواه : « شركة حتى الموت » مرتكزا على مثـــل هذا التماثل غير الكامل من نوع « نحن الاثنان نحب الرقص » أو « نحن الاثنان نريد الكثير من **الأطفال** » أو « نحن الاثنان نحب الخيول » أو « نحن الاثنـــان متشاحنان » ٠ أما الكمال فيظهر فى الأكتاف العريضــة ، والأســـنان

اللامعة ، والصدور الناهدة ، والسيارات الفارهة ، وغير ذلك من العجائب القابلة للفناء ٠

وفى بعض الأحيــــان يقوم الارتباط على أساس اجتماع الاثنين على معارضة موقف ما ، بناء على الفكرة الخاطئة التى تقول أن عدو عدوى هو صديقى ، بنفس الطريقة التى يواسى بها صغيران غاضــبان من أمهما ، أحدهما الآخر ٠ ويتعانق بعض المتزوجين بطريقة « نحن ضــــد العالم » كاحتجاج ضد هؤلاء ذوى النوايا السيئة ٠ أو أن الزوجين يكره كل منهما عائلة الآخـــر ، أو يكرهان أصـــــدقاءهما السابقين ، أو أنهما يكرهان تلك المعاهدة السخيفة التى تمثل السطحية الأمريكية ، أو لعبة الباولنج ، أو البيسبول ، أو السباحة ، أو العمل ٠ انهما يعيشان حماقة يتقاسمان فيها نفس الأوهام ٠ وسرعان ما يصبحان أداتين تجلبان المرارة لنفسيهما ، وما يجرى فى لعبة « انها غلطتهم » يتحول الى لعبة « انها غلطتك » ٠

ومن أكثر الوسائل معاونة في اختبار التشابهات والاختلافات هو استخدام تحليل المعاملات فى الاستشارة السابقة للزواج لعمل تخطيط شخصى للشخصين المقدمين على الزواج ٠ والهدف ليس هو فقط استعراض المتشابهات والاختلافات الواضحة ، بل أيضا اجــــراء استكشاف كامل لما هو موجود في « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » لدى كل منهما ٠ والزوجان اللذان يدخلان في مثل هذا الاستكشاف سيتمتعان بعوامـــل كثيرة تعمل فى صالحهما اذا كانا جادين فى مشروع الزواج بما فيه الكفاية لالقاء نظرة متعمقة قبل الاقدام ٠ وعلى أية حال فانه من الممكن للطرف الذى يشك جديا فى صلاحية الطرف الآخـــــر ، أن يقوم بهذا الاستكشاف على نفقته الخاصة ، والمثال على ذلك سيدة شابة كانت بين احدى مجموعاتى العلاجية ، سألتنى أن أرتب ساعة منفصلة لأجلها بغرض مناقشة مشكلتها اذ كانت قد التقت بشاب منذ فترة قصيرة وقد تقدم هذا الشاب لطلب يدها ٠ كان « طفلها » منجذبا اليه ، ولكن كانت هنـــاك معلومات أخرى داخلة فى « حاسبها » دفعتها الى السؤال عما اذا كان الزواج فكرة جيدة أم لا ٠ لقد تعلمت أن تستخدم نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) بدقة وطلبت أن أساعدها فى فحص هذه العلاقة على أســـــاس فحص نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) فى كل منهما ٠

وفى البداية أجرينـــــا مقارنة بين « والد » كل منهما ٠ فوجدنا أن لديها « والدا » قويا اشتمل على قواعد للسلوك لاحصر لها ، والعديد من الأوامر والنـــواهى ، ومنهــــا تحذير بألا تندفع فى الزواج بدون تفكير ٠

وكانت هناك عناصر معينة تدور حول استقامتها الشخصية ، مثل « نحن من أفضل الناس » • وتضمنت أفكارا مثل : « المرء مرآة صديقه » و « لا تفعل شيئا أقل من مستواك » • وتضمنت السمات المبكرة لحياة البيت المنظمة جدا ، حيث كانت الأم ترأس البيت ، وحيث كان الأب يعمل فى مكتبه بجد والى وقت متأخر • وكان هناك مخزون من مادة « كيف أن ؟ » كيف تنظم عيد ميلاد ؟ ، وكيف تزين شجرة عيد الميلاد ؟ ، وكيف تربى الصغار ؟ ، وكيف تكيف نفسك فى المواقف الاجتماعية • لقد كان «والدها» ذا تأثير مهم فى حياتها لدرجة أن الانطباعات كانت ثابتة تقريبا • وبالرغم من أن التشدد كان جائرا أحيانا ، وأنتج احساسا ملحوظا بأنها ليست على مايرام فى « طفلها » الا أن « والدها » استمر كمصدر ثابت للمعلومات فى كل معاملاتها فى الوقت الحاضر •

ثم تحولنا الى فحص « الوالد » فى الشاب • كان أبواه قد انفصلا عندما كان عمره سبع سنوات ، وقامت أمه على تربيته ، ورغم أنها أغدقت عليه المتع المادية ، الا أنها أعطته اهتماما متقطعا ، وكانت هى نفسها واقعة تحت سيطرة « الطفل » وانفعالية ، وعبرت عن مشاعرها فى سفهها فى انفاق الأموال ، وراودتها فترات متقطعة من العبوس ، والانسحاب ، والشراسة • ولم يظهر « والده » فى التسجيلات أبدا الا فى صورة « وغد دنىء فاسد مثل كل الرجال » • وعلى ذلك فان « والد » الشاب كان مختلا ومحطما وغير منسجم فى تصرفاته ، لدرجة أنه لم يظهر خلال المعاملات كمؤثر متحكم أو معدل لنزواته الطائشة ، وسلوكه الخاضع لسيطرة « الطفل » • ان « والدها » و « والده » لم يكونا جد نقيضين فحسب ، بل أن « والدها » كان يرفض « والده » ، لقد ظهر سريعا أن هناك قاعدة ضئيلة موجودة لاقامة معاملة (والد ــ والد) حول أى موضوع بحيث تحكم أى شىء تكميلى على هذا المستوى •

وبعد ذلك أجرينا استجوابا حول قوة « الراشد » فى كل منهما ، وتقييما لاهتماماتهما بالحقيقة ، فكانت هى شابة ذكية ، ومثقفة ، تمتعت بتشكيلة كبيرة من الاهتمامات • كانت تحب الموسيقى الكلاسيكية ، وتساير التقاليع الموجودة ، وكانت قارئة جيدة للأدب الكلاسيكى ، ومتعت نفسها بعمل الأشياء اليدوية ، وأحبت أن تعمل أشياء خلاقة وجميلة فى أو كان المنزل ، وكانت تستمتع بمناقشة الأفكار الفلسفية والدينية ، وبالرغم من أنها لم تتقبل معتقدات أبويها الدينية الا أنها كانت تشعر بأهمية وجود نوع من الاعتقاد • كانت خبيرة فى ادارة المحادثات ، وفضولية ، وكانت تهتم بنتائج ما عملته ، كما أحست بالمسئولية تجاه نفسها • وكانت

فى شخصيتها مناطق معينة للمحاباة تعبر عن افساد « الوالد » « للراشد » مثل « كل رجل تجاوز عمره الثلاثين عاما ولم يتزوج ، لا ترتجى منــه فائدة • » ، « المرأة التى تدخن ، تعمل أى شىء » ، و « أى شخص لم يدخل الجامعة فى أيامنا هذه يكون كسولا • » و « ماذا تتوقع من رجل انفصل عن زوجته » •

وعلى العكس منها ، كان « راشد » صديقها قد أفسده « الطفل » • كان منقادا للملذات « مثلما كان وهو ولد صغير » وكان طالبا غير مجد خلال دراسته بالمدرسة الثانوية ، ثم ترك الكلية خلال الفصل الدراسى الأول لانها « لم توافقه » ، ولم يكن ذكيــا ولكن كان لديه اهتمام قليل بالموضوعات الجادة التى كانت مهمة بالنسبة للبنت • وكان يظن أن كل العقائد مخادعة بنفس الطريقــة التى ظن بهــا أن جميع البالغين مخادعين فانصرف عنها وعنهم ، وكان يتعثر فى القراءة ، ولا يقرأ سوى تعليقات الصور الموجودة بمجلة لايف ، وقالت عنه « انه من هؤلاء الرجال الذين اذا سألتهم عن باخ حسبوك تتحدث عن نوع من البيرة الألمانية • وكانت لديه أفكار سطحية عن السياسة مع الاحساس بأن الحكومة سيئة لأنها « تجردك من حريتك » ، كان حاضر النكتة وذكيا ، ولكنه فارغ المضمون ، وكان اهتمامه المبدئى بالحقيقة منصبا على سيارات السباق ، التى كان لديه معلومات واسعة عنها ، وكان من الواضح أنه لايوجد سوى القليل مما يمكن تطويره فى علاقة « راشد - راشد » بين الاثنين ، وقد أوجــد هذا المستوى من المعاملة احباطا لديها ، وضجرا لديه • •

ثم تحولنا الى عمل اختبــار « للطفل » فى كل منهما • كان طفلها يحس بالجوع للحنان ، والاشتياق للبهجة ، ويشعر بالاكتئاب غالبــا ، كما كان حساسا بالنسبة لمؤشرات الانتقاد الواردة اليه ، والتى أوجدت احساسا قويا بعدم الرضا ، ولم تتجاوز حقيقة أن « أى شخص أنيق » لابد أن يقع فى حبها ، ولم يكن لديها أصدقاء كثيرون ، وظنت فى نفسها أنها ساذجة ، أما ملامحها فقد كانت عادية بحيث لايستطيع الفرد أن يعرفها بعد لقاء واحد • وكانت ما أن ترى شابا أشقر محبــا للهو حتى يجتاح قلبها حب جارف • ولا تستطيع أن تتحفظ حيال شعورها الجياش بأن تكون محبوبة ومطاردة من الشبان ، وعندما كانت معه ، كانت تشعر بأنها على مايرام بطريقة لم تشعر بها من قبل ، لم تكن تستطيع أن تتخلى عن هذا الشعور بسهولة • وأما من الجهــة الأخــرى فان « طفلة » هو كان عدوانيا ، ومحبا للذات ، وميالا للسيطرة و « يعرف طريقه » دائما وقد خطط للوصول اليها أيضــا • وكان ذلك جزءا من المشــكلة حيث أن

« والدها » لم يكن يسمح لهـا بأن تستمتع بالمباهج النادرة التى عرضـها للتعرف اليها ، وعلى ذلك يكون « طفله » قد أفسـد « راشـده » . أما « والده » فكان ضعيفا جدا ، لدرجه انه لم يعجز عن تقـدير النتائج فقط ، بل أنه ظن أن فكرة النتائج كانت ساذجة ، ومتزمتة بصفة عامة ، وأنه كان مثل سكارليت اوهارا يفضل أن « يفكر فى ذلك غدا » .

ومع نمو علاقتهما قل الحديث بينهما شيئا فشيئا ، فلم تكن هناك معاملات على مستوى (والد ـ والد) وكانت هنـاك معاملات قليلة على مستوى (راشد ـ راشد) . أما على مستوى (طفل ـ طفل) فقد نتج عنها مضايقات ضخمة فى « والد » الفتاة . ومن هنا بدأت العلاقة تستقر على طراز (والد ـ طفل) مع قيامها بدور الشريك المسئول والناقد ، وقيامه هو بدور « الطفل » الشقى صعب المراس وأخذ يعيد تمثيل موقفه الأصلى فى الطفولة .

كان هذا التقييم المتعلق بنموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) مختلفا تماما عن الحكم على كل من الشريكين بأنه طيب أو ردىء . كان بحثا عن معلومات ايجابية تدور حول كل منهما ، على أمل التنبؤ بنوعية العلاقة الممكنة فى المستقبل . وبعد القاء الضـوء الكثير على هذه المادة ، قررت الفتاة انهاء العلاقة لأنها لم تكن توحى بالسعادة المنتظرة لكل منهما . وقد ساعدتها على رؤية كيف كان طفلها الذى يشعر أنه ليس على مايرام » يخشى من محاولات الرجال الذين كانوا يسعون للتقرب منها لأنها ، رغم أن منهم من كان أقل منها ، تشعر بأنها ليست جديرة بالاقتران بانسان مثالى . وقد اكتشفت السبب فى عدم تكامل هذه العلاقة كما فطنت الى ما كانت تبحث عنه فى الرجل ، وتغير موقفها من الشعور بأنها ليست على مايرام ، الى موقف آخر تحترم فيه ذاتها . ولا تتناقض كافة العلاقات بمثل وضوح هذه العلاقة . لقد كان لها « والد » قوى ، بينما كان له « والد » ضعيف .

وهناك حـالات عديدة يكون فيهـا « الوالد » قويا لدى الطرفين كليهما ، ولكن بمضمون مختلف ومتنافر فى الغالب . فاختلاف المضمون الدينى والثقافى يمكن أن ينتج متاعب جدية اذا شعر كل طرف بالحاجة الشديدة للالتزام بتوجيهات « والده » غير المختبرة . وأحيـانا يحدث التغاضى عن هذا الاختـلاف فى المرحـلة المبكرة للزواج ، ولكن سرعان ما ينطلق فى اندفاعة ضـارية عند انجاب **الصغار** . فقد يوافق الرجل اليهودى مسبقا على تربية أولاده حسب العقيدة الكاثوليكية طبقا لرغبة

عروسه الكاثوليكية ، ولكن هذا لا يعنى أنه لن يكون قلقا جدا حول هذا الموضوع فيما بعد ٠

والحقيقة هنا هى أن « عقيدتى أحسن من عقيدتك » وأن « أهلى هم أفضل من أهلك » ، سرعان ما تتحول الى : أنا أفضل منك ٠ ولا يعنى هذا القول بأن الاختلافات التى من هذا النوع تستعصى على الحل ، ولكنها تحتاج « راشدا » متحررا فى كلا الطرفين ينطلق على أساس موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) ٠

ربما تعرف هذه الاختلافات قبل الزواج ، ولكن ذلك نادر الحدوث٠ ان الطرفين قد وقعا فى الحب ، واذا رغبا فى عمل أى استشارة قبل الزواج ، فانهما يقضيان جلسة سطحية لمدة ساعة مع رجل الدين ، ثم يمضيان على أساس تحقيق رغبتهما فيما يطلق عليه اسم : الزواج السعيد ، غالبا دون تحقيق الفائدة المرجوة من هذه الزيارة ٠

اذن فما هى احتمالات بناء أو انقاذ الزواج الذى دخل فيه الطرفان دون الاستفادة من هذا النوع من التحليل ؟ وحيث أنه لايوجد شخصان متشابهان ، فان فكرة المطابقة الكاملة تكون فكرة مضللة ٠ ويمكن أن نعرض المشكلة بصورة افضل اذا استخدمنا مصطلح مقارنة الصعوبات : انه من الصعب تجاوز الاختلافات وعمل تسويات ، ولكن البديل صعب أيضا ونعنى به فسخ الزواج ٠ ان الانسان لايستطيع أن يمضى فى العمل على أساس التعبيرات المطلقة مثل « الطلاق خطأ دائما » لأن هناك مبادىء أخرى يمكن تطبيقها ، أما الاصرار على مبدأ أن تعيش المرأة مع زوج متعنت ووقح ، ولا تجد السعادة أبدا مع أى شخص آخر ، فانه يلغى أهمية الكرامة الانسانية الى يوم الحساب : (هذا اختيارك وعليك تحمله) وهذا يعنى الاصرار على أن يستمر الرجل فى تحمل زوجة كسولة حقودة ، تنكر أى مسئولية عليها فى تدهور زواجهما ، وهو تجاهل لنفس مبادىء الكرامة الانسانية ٠ ولا يعني ذلك القول بأننا لانستطيع الحصول على الزواج المثالى كرابطة مستديمة ، ولكننا يجب ألا نراه رخصة للايقاع بالناس فى شرك يرتبطون فيه الى الأبد بواجبات شرعية ولكنها غير أخلاقية ٠ وفى بعض الأحيان لايبدأ الناس فى فحص زيجاتهم حتى يرون الطلاق قادما نحوهم ، وحينئذ تبدأ صعوبات المقارنة النسبية فى الظهور ، ويبدأون فى فهم طبيعة الاختيارات التى يجب اتمامها ٠

ان الزواج التعس ربما يجعل حياة المطلق السعيد أو العازب المرتاح البال تبدو عظيمة حقا ، ولكن الاختيار الطائش على أساس فرض غير مفحوص

قد يقودنا فيما بعد الى المزيد من اليأس • ويعالج مورتون م • هنت فى أحد كتبه (١) : حياة الأزواج السابقين ويرى أن تجربة انتهاء الزواج لم تكن بالمدمرة تماما ، ويذكر هذا المؤلف الحقائق العديدة التى تلى الطلاق والتى يجب على من يزمعون الطلاق أن يأخذوها فى الاعتبار لكى تجعل قراراتهم قائمة على أساس مقارنه الصعوبات : صعوبه الوحدة بصفتها ألما متواليا ، وفقدان الأصدقاء القدامى الذين لايريدون أن (ينحازوا الى أحد الجانبين) ، وفقدان **الصغار** ، وتمزيق قلوب **الصغار** ، والخراب المالى ، والتورط فى الفشل والتعب الناتج عن ضرورة أن يبدأ الانســـان من جديد • ان على « الراشد » عند تقييم موقف الشخص أن يأخذ هذه الحقائق فى الاعتبار • وبعد ذلك يجب أن يتجه البحث الى الزواج نفسه • اننا نجد فى الغالب أن شريكا واحدا فقط هو الراغب فى بدء الفحص حيث أن واحدة من أكثر ألعاب الزواج شيوعا هى « انها غلطتك أنت وحدك » ، فاذا جـاءنا أحد الشريكين وليكن هو الزوجة التى تتعلم نمـــوذج (الوالد ـ الراشـد ـ الطفل) فاننا حينذاك نتعمق فى الطرق التى نستطيع بهـــا أن نشبك « راشد » زوجها ، ونجعله يهتم بأن يتعلم اللغة جيدا ، لأنه لايمكن البدء فى التقدم على أساس قاعدة (راشد ـ راشـــد) دون الاعتماد على لغة مشتركة • فاذا رفض أحد الطرفين التعاون فى هذا ، فان فرص إنقاذ الزواج ستكون معدومة • أما اذا كان الطرفان مهتمين بما فيـــه الكفاية للعمل فى سبيل استمرار الزواج ، فان نموذج (الوالد ـ الراشـــد ـ الطفل) سيمدهما بأداة لفصل ذاتيهما عن توجيهات « الوالد » القديمـة ويحقق لهما أساليب ممتازة لممارسة اللعبة (٢) •

ويعتبر عقد الزواج نفسه أحد أوليات الأشياء التى سيفحصانها بعد أن يتعلما اللغة • ان عقد الزواج العادى هو عقد سىء لأنه يمثل عقد صفقة متكافئة ويركز هنا على الحسابات المادية • ويسمى اريك فروم هذا النوع من عقد الزواج : « المتاجـرة بطرود الشخصية ، أو المقايضـــة الغيبية للشخصيات • انها ستكون مجرد معين له ـ أليسا زوجين لطيفين ؟ ـ الا يكمل أحدهما الآخر ؟ ان مثل هذه الأقوال تحيلهما الى أشياء لا أشخاص، فى سوق المنافسة • ان عليهما أن يستمرا فى تقاسم هذا العائد المادى والا انهار الزواج القائم على المصلحة ، ويـكون هذا العقد من عمـــل

---

(١) M. Hunt, "The World of the Formerly Married", (New York : McGraw-Hill 1966).

(٢) E. F., "Trade of Per onality Packages.

« الطفل » • ان « الطفل » يفهم العدالة وتقاسم الأرباح ، ولكنه في موقف (ليس على مايرام) لايعرف مبدأ أكثر عمقا ، مبدأ لا يسعى فيه لمجرد حصوله على نصيبه من الصفقة ، بل يكون فيه راغبا في التغاضي عن العائد ، ويكرس فيه وقته لشريك حياته في اطار الأهداف المشتركة التي يرسمها « الراشد » • ويعبر بول شيرر في كتابه التأملي الرائع عن هذه الفكرة بهذه الطريقة : « ان الحب مسرف ، لا يأبه للحساب ، ولذلك فهو دائما مدين (٣) •

ان « الطفل » وهو يريد الحب ، لايرى الحب بهذه الطريقة • أما « الراشد » فانه يستطيع • هناك حساب لليأس في عالم اليوم ، لأن كل شخص يبحث عن الحب ولكن يبدو أن القليلين هم القادرون على تقديمه • وهذا بسبب التأثير الدائم لسيطرة موقف (أنا لست على مايرام، وأنت على مايرام) على « الطفل » • وهو تأثير موجود في كل شخص • وعلينا أن نتذكر كيف أن الشخص الصغير يحاول أن يخفف هذا الحمل عن نفسه مبكرا في بداية الحياة بلعبتين أصيلتين هما : « ما لدى أفضل » ، و « حصلت على الأكثر » • ومن الحق القول بأن فكرة تقاسم الأرباح تبدأ في الظهور ، ولكن يبدو أن موقف (ليس على مايرام) يزحم فكرة العدالة مبكرا في بداية الحياة •

في صباح أحد الأيام كانت ابنتي هايدي ذات الأربعة أعوام ـ على وشك شراء قطعة من الحلوى مع زميلتها ستاسي ، وأخذتا تفكران في أي منهما ستحصل على القطعة الأكبر ، بالرغم من تذكيرهما مرارا بأن هذا النوع من المنافسة يؤدي دائما الى المشاكل • وحينئذ أعطت الأم لكل منهما فطيرة • وكان واضحا للبنتين أن هاتين الفطيرتين كانتا متساويتين • ولكن مع التسليم بهذا التماثل ، ظلت هايدي غير قادرة على مقاومة الاعتراض الذي بدأته وتمسكت به : « ها •• ها •• لقد حصلت على فطيرة مماثلة لفطيرتك •• أما أنت فخلاف ذلك ! » وهذا نوع من المناورات المحفوظة في « الطفل » والتي تظهر فيما بعد عند زواج الصفقة •

ولذلك يجب على الشريكين اللذين يبحثان عن انقاذ لزواجهما ، أن يبذلا جهدا مشتركا لتحرير « الراشد » حتى يمكن فحص (الاحساس بأن المرء ليس على مايرام) في « الطفل » والمضمون المثير للمضايقات في

(٣) P. Scherer, "Love is a Spendthrift", (New York : Harper & Brothers, 1961).

« الوالد » لدى كل منهما لمعرفة كيف أن هذه المعلومات القديمة تستثمر في السيطرة وتخريب علاقتهما في الحاضر ·

ومما يخرب العلاقات المشتركة الآراء المطلقة مثل : « هكذا أنا – لاتحاول أن تغيرني » · ومن يتمسك بالمبدأ المتشدد : « انني صعب المراس حتى أتناول أول فناجين القهوة » يلقى بوزر أخطائه على طبيعته بدلا من أن يعتبر أن أخطاءه هي السبب في سوء طباعه · ومثل هذا الشخص يكون مصدر ازعاج لعائلته في كل صباح ، مع أن الصباح يمكن أن يكون أفضل أوقات اليوم ، ولكنه يتحول من نقطة انطلاق للعمل والنشاط ، الى محنة جنونية مفعمة بمشاعر اليأس والعداء · يذهب الأبناء الى المدرسة وهم يتشاجرون ، ويندفع الزوج خارجا الى عمله وقد أصيب بعسر الهضم · وتشعر الأم بالهبوط لأنها فقدت مستمعيها المرغمين على الاستماع اليها · والحقيقة هي أنه ليس من حق أحد أن يرغي ويزبد حتى يتناول أول فناجين القهوة أو في أي وقت آخر · ان كل انسان لديه الاختيار ، طالما أن « راشده » قد تحرر ·

تقول أغنية فرنسية قديمة : « الحب هو طفل الحرية » ويحتاج الحب في الزواج الى حرية « الراشد » لفحص « الوالد » لقبوله أو رفضه على أساس سياق أحداث اليوم الحاضر ، وأيضا لفحص موقف « الطفل » والتعويضات المشاكسة ، أو الألعاب التي يمارسها حتى ينضو عن نفسه حمل (الشعور بأنه ليس على مايرام) ·

ان الأزواج الذين يدخلون في مجموعات العلاج انما يفعلون ذلك لعدة أسباب : البعض قد سمع عن تحليل المعاملات وجاء « ليتعلم شيئا جديدا »، والبعض الآخر يأتي للبحث عن اجابة السؤال الباهت غير المستقر ، ولكنه يتوازى مع « ألا يوجد في الحياة ما هو أكثر من ذلك ؟ » والبعض الأخير جاء لأن صغاره يقعون في المتاعب · ويأتي الكثيرون لأن علاقتهم الزوجية تمر بمرحلة حرجة · وكان العديد من الأزواج السبعة والثلاثين الذين عالجتهم على فترة أربع سنوات يفكرون في ، أو على الأقل قد ناقشوا « الطلاق » كأسلوب وحيد للتخلص من مشاكلهم · وكان البعض قد بدأ الاجراءات الشرعية وأحال الموضوع الى محاميه أو قاضي محكمة الأحوال الشخصية · وكانت أزمة سبعة عشر من هؤلاء الأزواج (٤) (٤٦٪) قد

---

(٤) في هذه الفقرة من الموضوع يجد القارىء أن كلمة زوج تعني اثنين أما كلمة أزواج فتعني مجموعات مكونة من اثنين هما الزوج والزوجة معا – المترجم ·

ظهرت مع نقل أحد الشريكين الى المستشفى بسبب هبوط شديد مع الميل الى الانتحار أو محاولة الانتحار بالفعل . وكان بين المرضى الذين نقلوا الى المستشفى أربع عشرة زوجان وزوجان . وتضمنت حالة واحدة فقط زوجا وزوجته معا حسب طلبهما « ليجعلا الأشياء متساوية » . ولم يكن أى من هؤلاء الأزواج قد مضى على زواجهما أقل من عشر سنوات . وكان لديهم جميعا صغار ، كما كان لدى بعضهم أحفاد .

وقد تعلموا نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) اما فى مجموعات بالمستشفي ، أو في جلسات فردية بمكتبى . وعندما كانوا يفهمون المبدأ ، كانوا يعبرون عن الاشتياق للانضمام الى احدى مجموعات الأزواج الموجودة التي يتكون كل منها من خمسة أزواج ، وكان متوسط عدد جلسات العلاج لكل زوج هو سبع عشرة جلسة ، بمعدل جلسة كل أسبوع على مدى أربعة شهور . وكان هناك جدول زمنى لمجموعات الأزواج حتى آخر ساعة فى اليوم بمعدل ساعة واحدة وأحيانا كانت تزيد عن الساعة . ومن بين هؤلاء الأزواج السبعة والثلاثين لايزال خمسة وثلاثون زوجا متزوجين حسب علمى وانفصل اثنان فقط . وقد تخلى عن المجموعات أربعة من بين هؤلاء الخمسة والثلاثين لأنهم كان عليهم أن ينصرفوا عن الألعاب لعدم رغبتهم فيها . أما الواحد والثلاثون زوجا الآخرون فقد قرروا أنهم يتمتعون بمعاملات طيبة فى زيجاتهم ، حيث يجد كل شريك الآن ، السعادة فى الأهداف الجديدة ، مع الغياب النسبى للألعاب القديمة المدمرة ، وتحقيق الألفة . وبذلك تحقق أحد الأهداف الأصيلة للعلاج وهو انقاذ الزواج بحيث نستطيع أن نحقق النجاح مع هذه المجموعة بنسبة ٨٤٪ .

ان العلاقة بين الأزواج العديدين تمثل شبكة معقدة من الألعاب حيث ينتج تراكم مشاعر الاستياء والمرارة ، نسخا معقدة ومكررة من المشاجرات « انها غلطتك وحدك » أو « عيب عليك » أو « والدك رجل مشاكس » أو « لولاك لكنت كذا وكذا ... » . ان القواعد والأنماط فى هذه الألعاب مذكورة بتفصيل عظيم فى كتاب برن : ـ Games People Play ـ ألعاب يلعبها الناس » الذى يعتبر دليلا من أعظم الأدلة المثالية نوصى كل زوجين بقراءته فى حالة العلاج . وتتطور هذه الألعاب كلها من لعبة الطفولة المعروفة باسم « ما لدى أفضل » والتى صممت للتغلب على الخوف الأصيل لدى الانسان من الوقوع فريسة للخداع . وقد كشف ادوارد ألبى ببراعة فى مسرحية « من يخاف فرجينيا وولف ؟ » التى سبق ذكرها ، عن أحد أساليب الحياة القائمة على الألعاب . وهذه المسرحية تصور أنه بالرغم من

كل اليأس الناتج ، فلا تزال هناك فوائد ثانوية بما فيه الكفاية للقول بأن الألعاب يمكن أن تبقى على الزواج وبعض الزيجات يمكن أن تظل قائمة بفضل شريك « مريض » واذا بدأ هذا المريض فى التحسن ، وبدأ يرفض الاندماج فى الألعاب القديمة ، فان الزواج يبدأ فى التصدع • وقد دعانى أحد الأزواج وكانت زوجته قد خرجت من المستشفى بعد عشرة أيام من دخولها ، وكان فى حالة من الذعر وقال : « ان زوجتى تبدو أسعد وأحسن ، ولكننى الآن لا أستطيع أن أتماشى معها مطلقا » • ان الزواج مثل بدن الانسان ، اذا بدأ أحد الكتفين فى التهدل كان حتما أن يتكامل معه الكتف الآخر فيتهدل بدوره حتى تحتفظ الرأس بوضعها العمودى بالنسبة للقدمين • وكذلك اذا تغير أحد الشريكين فلابد من حدوث تغيرات أخرى تكمله لكى تحتفظ العلاقة بوضعها السليم • وتعتبر هذا أحد نقائص نوعيات العلاج النفسى القديم ، حيث كان الطبيب النفسى يعالج أحد الشريكين وحده ، ويرفض حتى مجرد الكلام مع الشريك الآخر • وكان التركيز يدور حول العلاقة التى أقيمت بين الطبيب النفسى والمريض ، تاركا العلاقة الزوجية خارج الباب • ورغم تغير ولاء المريض وسلوكه ، الا أن الزواج كان يعانى من المتاعب غالبا ، لأن الشريك الآخر لم تكن لديه الأدوات الادراكية التى يفهم بها ما كان يجرى ، أو يفهم معنى ما تراكم لديه من الغضب واليأس •

واذا كان فى وسع الطرف الآخر العلاج فقد يلجأ للعلاج مع طبيب آخر لتزداد الفجوة بين الزوجين اتساعا حيث يغير هذا الطرف أيضا موطن عاطفته ، واذ تضيق قاعدة الاتصال بين الزوجين ، يصبح الطريق مفتوحا لطرق جديدة أفضل لممارسة لعبة « ما لدى أفضل » فى شكل « طبيبى النفسى أفضل من طبيبك » أو « اننى أتغلب على مشكلتى أفضل منك » أو « سأتخذ قرارا عما اذا كنت سأمارس معك الحب بعد جلسة يوم الأربعاء » • ان الاثنين قد أغرقا « طفلهما » فى عملية استبطان كلية قد تمدهما ببيانات مفيدة حول منشأ شعورهما ، ولكنها تعجز عن الامساك بحقيقة أنه ليس هناك شخص واحد ، بل اثنان فى علاقة زواج • وهناك مبدأ يجمع عليه أطباء النفس – بالرغم من أنه قد يبدو متطرفا الى حد ما ، الا أنه وثيق الصلة بموضوعنا اذ يصر العديد من الأطباء النفسيين على أنه لا توجد صحة للمشاعر العقلية اذا لم يواجه الانسان الحقيقة » • واذا كانت هذه هى القضية فلماذا يجعلون مرضاهم يرقدون على الأرائك حيث يسهل حلم اليقظة ؟ ربما كانت المرتبة ذات المسامير أفضل •

ويجب أن يكون كل شريك راغبا فى تأكيد مسئوليته عن نصيبه فى خلق المشكلات التى يعانى منها الزواج • ان وجهة النظر القائلة : « انها غلطتك وحدك » قد اعتبرها امرسون حجة باطلة — فى ملاحظته عن أنه « لايستطيع رجل أن يقترب منى الا من خلال سلوكى الشخصى » فاذا كان الزوج قد دأب على اهانة زوجته لمدة عشر سنوات وقد احتملت الزوجة ذلك مدة العشر سنوات ، فانها تكون بطريقتها هذه قد شاركت فى التغيير • واذا رفض كلا الشريكين تأكيد هذه المشاركة ، فان الأمل فى التغيير يصبح ضئيلا •

وقد كتب آرثر ميللر فى قصته المؤثرة عن ماجى فى مسرحيته (After the fall — بعد السقوط) (وهى قصة شخصية كانت شديدة الشبه بزوجته مارلين مونرو) أن مسرحيته كانت تدور حول احجام أو عدم قدرة الانسان على أن يكتشف فى نفسه بذور تدمير ذاته • « انها نفس المعركة دائما وأبدا : « أن ندرك بشكل أو بآخر مدى تورطنا فى صنع الشر أمر رهيب لا يستطيع المرء احتماله ، ولذا فنحن نطمئن أكثر الى رؤية العالم فى صورة الضحايا الأبرار والمحرضين الأشرار على استخدام العنف والقسوة وهى صورة لا تؤذى احساسنا بالبراءة • ولكن ما هو أكثر الأماكن براءة فى أى قطر ؟ أليس هو مصحة الأمراض العقلية ؟ وهناك يمضى الناس فى ممارسة حياتهم بمنتهى البراءة ، غير قادرين مطلقا على النظر الى أنفسهم • ان كمال البراءة حقا هو الجنون (٥) •

وهذا « الهلع الذى لا طاقة لنا به » يكون مفهوما عندما يفكر المرء فى أن الاعتراف بالمشاركة فى خلق المشاكل ، يضيف حملا آخر الى حمل الاحساس بأن المرء ليس على مايرام ، وهو الاحساس الفظيع الذى كان سببا للمشكلة فى المحل الأول • ان الاعتراف بالذنب ، أمر صعب • انه الاساءة العظمى « **للطفل البائس** » • وهذا الحمل الاضافى الذى قال عنه اللاهوتى الألمانى ديتريش بونهوفر : « أليس هذا عبئا جديدا ثقيلا نضيفه الى الأعباء التى تثقل كاهل البشر ؟ ، وهل هذا هو كل ما نستطيع أن نفعله عندما تئن نفوس وأبدان الناس تحت ثقل العديد من المعتقدات التى صنعها الانسان (٦) ويظهر لنا تحليل طبيعة (الوالد — الراشد — الطفل) طريقة للخروج من هذه المشكلة التى تتمثل فى استحالة التغيير بدون الاقرار بالمشاركة ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى

---

(٥) A. Miller, "With Respect for Her Agony. But with love", Life, 55 : 66 (Feb. 7th, 1964).

(٦) D. Bonhoeffer. "The Cost of Discipleship". (New York : Macmillan. 1963).

ضرورة الاعتراف بالذنب • ونستطيع بطريقة عملية جداً أن نرى اختلافا في كيفية مواجهة شخص بما يعمله • فاذا قلنا : « أنت انسان شاذ الأطوار ، وسيء الطباع ، وصعب ، وغير مقبول ــ وهذا هو الخطأ في زواجك » فاننا ببساطة نزيد من احساسه بأنه ليس على مايرام • وننتج مشاعر تجعل الشخص أكثر شذوذا ، وأسوأ طباعا ، وأشد صلابة ، وغير مقبول • اما ذلك ، واما أن تدفعه الى الحزن العميق • واذا استطاع الانسان من جهة أخرى أن يقول مشجعا : « انه « طفلك » الذى ليس على مايرام هو الذى يسبب لك الضيق ويدمر فرص السعادة فى الحاضر بطريقته الشاذة وطباعه السيئة » فان هناك بعض الايجابية فى المشكلة • ويرى الشخص نفسه ليس صفرا كاملا ، بل خليطا من الخبرة الماضية ومن الايجابية والسلبية ، التى تنتج الصعوبة • وعلاوة على ذلك فانها تتيح الاختيار • ويستطيع الشخص أن يؤكد هذه الحقيقة عن نفسه بدون الانعزال ، ويمكن أن يبدأ هذا التأكيد لتقوية « راشده » للقيام بعمل اختبار « الوالد » و « الطفل » والطريقة التى تنتج بها هذه التسجيلات القديمة طغيان الماضى •

وبدون الاقرار يذور المرء فى صنع المشاكل التى يواجهها ، يمكن لتحليل المعاملات أو تحليل الألعاب أن يصبح ببساطة أسلوبا آخر للتعبير عن الكراهية : (اللعنة عليك وعلى « والدك ») أو « لقد عاد طفلك الشقى » أو « هل ستلعب نفس اللعبة من جديد ؟ » وحينئذ تصبح هذه التركيبات نعوتا ساخرة ومهينة فى لعبة جديدة تسخر من مسميات التحليل • وبينما نرى المشاكل التى تظهر ، فاننا نبدأ فى فهم معنى الفكرة التى يعبر عنها عنوان موضوع آرثر ميللر حول هذه المسرحية : « مع احترام عذابها ــ ولكن بالحب » •

ان الالتزام بهذه الفكرة هو المطلوب من الأزواج الداخلين فى العلاج اذا أرادوا النجاح فى بناء شيء من القيمة فى زواجهم وهنا يبرز سؤال أخير هو : « ماذا نفعل عندما نتوقف عن الألعاب ؟ ماذا يوجد غيرها ؟ ماذا نفعل « بالراشد » المتحرر ؟ » •

وضع الأهداف :

ان السفينة التى ليس لها ميناء وصول تنحرف وتحملها الأمواج على غير هدى فتعلو وتهبط بها ، وتتلاعب بها الرياح فى عرض البحار • فاذا هدأت العاصفة ، أخذت تنساب فى هدوء على صفحة الماء • انها تساير

البحر في حركته • وهناك العديد من الزيجات التى تماثل حالة السفينة هذه • انها تظل طافية ولكن على غير هدى • وتكون أولوية المعلومات الداخلة فى صنع القرار هى : ما الذى يفعله الآخرون ؟ ان أفراد هذه الزيجات لايشذون عن دائرتهم الاجتماعية فى الملبس والمسكن وتربية الصغار والقيم والتفكير • أما النموذج الذى يتبعونه فيما يفعلون فهو : « مادام الآخرون يعملون ذلك ، فلابد أنه على مايرام » • « اذا كان كل فرد يشترى نوعا معينا من السيارات الفخمة فانهم أيضا سيشترون واحدة ، حتى اذا كانوا غارقين فى الديون • انهم لم يقيموا بناءهم الخاص من القيم المستقلة الذى ينتمى الى واقع حياتهم ، ولذلك فانهم ينتهون غالبا الى خيبة الأمل والوقوع فى براثن الاستدانة •

و « الراشد » فقط هو الذى يستطيع أن يقول : « لا » لمطالبة « الطفل » بشىء أكبر أو أحسن أو أكثر ، لكى يشعر أنه على مايرام أكثر • و « الراشد » فقط هو الذى يستطيع أن يسأل السؤال : « اذا كانت أربعة أزواج من الأحذية تجعلك سعيدا ، فهل عشرة أزواج منها تجعلك أكثر سعادة ؟ القاعدة هى أن كل زيادة فى الممتلكات المادية تسبب سعادة أقل بالنسبة للزيادة السابقة عليها • واذا استطاع انسان قياس السعادة كميا فسيجد أن زوجا جديدة من الأحذية يسبب سعادة بالنسبة للصغير أكثر مما تسببه السيارة الجديدة بالنسبة للرجل البالغ • وكذلك فان السيارة الأولى تسبب سعادة أكثر من الثانية ، والثانية أكثر من الثالثة • وقد قال هـ • ل • منكين (٧) : ــ « يتذكر الرجل دائما الحب الأول ، أما ذكريات الحب التالية فتتوه بين حشد الذكريات •

ان « الطفل » داخلنا يحتاج الى المزيد مثلما يحدث فى صباح عيد الميلاد : يصرخ الصغير المحاط بالهدايا ، « هل هذه هى كل الهدايا ؟ » لقد سئل ولد صغير فى برنامج تليفزيونى للصغار عما حصل عليه من أجل عيد الميلاد ــ فقال فى أسى : « لا أدرى ، لقد كان هناك الكثير من الهدايا » •

ويمكن « للراشد » اذا فحص واقع عائلته أن يتبين ما اذا كان احراز

---

(٧) H. L. Mencken, "The Vintage Mencken, gathered by Alistair Cooke, (New York, 1956).

أحد الممتلكات المحددة يساوى بمفهوم السعادة — رهن عقار ، أو بطاقه تموين ، أو تحويل النقود عن شيء آخر • ويستطيع « الراشد » ايضا أن يشبع حاجة « الطفل » لتكديس الممتلكات بممارسة هواية مثل جمع الطوابع ، أو العملات ، أو الكتب النادرة ، أو نماذج معدات السكك الحديدية ، أو الزجاجات ، أو الصخور • ويستطيع « الراشد » تقرير ما اذا كانت تكلفة هذه المجموعات واقعية ، ولكن متى يكون هذا التكديس ضارا ، اذا كان للهواية فهو لون من ألوان المرح واللهو ، أما اذا أدى ذلك الى افلاس الأسرة (مثل تجميع الفيلات ، وسيارات السباق ، ولوحات بيكاسو الأصلية) فان « الراشد » هنا قد يقول « لا » بالنسبة للهو « الطفل » • أما القرارات بخصوص الهوايات والممتلكات ومكان الاقامة وما يتحتم شراؤه ، فيجب أن تتم حسب مجموعة من القيم والاعتبارات الحقيقية الفريدة بالنسبة للزواج • والاتفاق حول هذه القرارات شديد الصعوبة اذا كانت أهداف الزواج لم تتحدد بعد • وقد يتعلم الزوجان من خلال العلاج أن يلاحظا الفارق بين (الوالد — والراشد — والطفل) الا أنهما لايزالان فى نفس الموقف من الرؤية الاجتماعية ، واذا لم يرسما خطا للسير فانهما وان تمتعا ببصيرة نفاذة ، يستمران فى التأرجح يمينا ويسارا ، صعودا وهبوطا ، ويظلان يمارسان الألعاب القديمة • وقد يتطلب زواجهما شيئا آخر أكثر من الالمام بتلك النظرية حتى يصمد أمام أعاصير الحياة الاجتماعية وتياراتها ، اذ يحتاج الزوجان الى انشاء واقامة خط سير جديد فى اتجاه الأهداف التى يتم التوصل اليها عن طريق « الراشد » • واما أن يبدأ الناس مسارا جديدا ، أو ينحرفوا من جديد مع التيار مهما عظمت معرفتهم بأساليب مكافحته اذا ظلت هذه المعرفة نظرية • هنا تصبح لدراسة القيم السلوكية والأخلاقيات والمعتقدات أهمية بالنسبة لمسار الزواج • ويجب على كل من الرجل والمرأة القيام ببعض التحقيقات الرئيسية حول ما يعتبرانه مهما لرسم مسارهما • ويصور ويل ديورانت المشكلة الأخلاقية الأساسية فى شكل السؤال القائل : « هل من الأفضل أن تكون طيبا أو تكون قويا ؟ » (٨) وهذا السؤال يمكن أن يوجه بطرق عديدة فى اطار الزواج : هل الأفضل أن تكون رحيما أم غنيا ؟ وهل من الأفضل أن تقضى الوقت مع الأسرة أو أن تقضيه فى الأنشطة المدنية ؟ وهل من الأفضل تشجيع صغارك على « قبول الهجوم » أم يردون الهجوم بمثله » وهل من الأفضل أن تعيش اليوم مبذرا أم تدخر كل قرش

---

(٨) W. Durant, "The Story of Philosophy," (New Nork : Simon & Schuster 1926).

فى البنك لأجل الغد ؟ وهل من الأفضل أن تكون معروفا بأنك تراعى مشاعر الجيران أو أن تكون معروفا كقائد ؟

وهذه هى الأسئلة التى يمكن أن تقود الى الوقوع فى شبكة لا أمل فى الخروج منها الا اذا قام « الراشد » بتوجيهها ، لأنهـا حتى ذلك الحين شديدة الصعوبة ٠

ولا تكفى معرفة الآراء التى يتضمنها « الوالد » فى كل من الشريكين ردا على هذه الأسئلة ٠ ولا تكفى معرفة أن مشـاعر « الطفل » تحتاج الى مساهمة كل منهما ٠ واذا كانت معلومات « الوالد » أو « الطفل » غير متوافقة ، فلابد أن تكون هناك بعض النماذج السلوكيـة التى يقبلهـا الطرفان ، والتى تعطى توجيها لمسار الزواج ، وقيمة لكل القرارات التى يجب اتخاذها ٠ لقد قيل أن « **الحب ليس هو تبادل النظرات بين اثنين ، ولكنـه نظرة مشتركة من الاثنين الى الخارج وفى نفس الاتجـاه** » وقد يقود « الوالد » و « الطفل » فى كل شريك الى الخلف فى انفراجات متشعبة ٠ والالتقاء ميسور من خلال « الراشد » فقط ، ولكن لايستطيع الزوجان أن يرسما هدفهما المشترك بدون الاعتبارات السلوكية والأخلاقية٠ وهذا هو أحد أسئلتى التى أوجههـا كثيرا الى الزوجين فى المواقف التى لا مخرج منها عن « ما العمل الآن ؟ » والسؤال هو : « ما هو الشىء الذى تحبان القيام به ؟ » وما هو الحب ؟ وما هى نوعية كلمات مثل « يجب » و « يلزم » ٠

سندرس هذه الأسئلة بعمق فى الفصل الثانى عشر ــ وعنوانه : نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) والقيم الأخلاقية ٠

نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) والأطفال الصغار

(ان هؤلاء الذين لايتذكرون الماضي ، قد حكم عليهم بأن يكرروه ـ جورج سانتايانا) ٠

ان أفضل طريقة لمساعدة **الصغار** هي مساعدة الأبوين ، فاذا لم يحب الأبوان ما يعمله صغارهم ، فلن يكون **الصغار** فقط هم الذين يجب أن يتغيروا ٠ واذا كان جوني يمثل مشكلة ، فلن يمضي في طريق التحسن بتحويله من أخصائي الى أخصائي ، اذا لم يتم عمل شيء بالنسبة للموقف في البيت ٠ لقدكتب هذا الفصل لمعاونة الأبوين على مساعدة **الصغار** ، لأن الأخصائيين لايستطيعون أداء العمل الذي يعمله الأبوان ٠

اننا نسلم بوجود أخصائيين عديدين في تربية **الصغار** ، بما فيهم الأطباء النفسيون وعلماء علم نفس **الطفل** الذين يقومون بالاختبار وأداء العلاج ، ولذلك فان البعض يتراءى له أن احضار التلميذ الصغير الى الطبيب النفسي **للصغار** قد يعني ضمنا « تجديد الطفل » أو ربما « حل الطفل » ٠ واذا لم يكن الأبوان قد تجددا معا في وقت واحد ، فانني أعتقد أن معظم هذه الجهود ليست الا مضيعة للوقت والمال ٠ انني أعتقد أن معظم الوالدين يشعرون فطريا بنفس هذا الاسلوب ، ولكن بعض الآباء والأمهات لايعرفون ماذا يفعلون خلاف ذلك ، أو أنهم لايريدون أن يورطوا أنفسهم ، فيتمسكون بفكرة علاج **الصغير** ، اذا كانوا يستطيعون تحمل تكاليفها ٠ ويخجل الكثيرون من الآباء والأمهات الآخرين بسبب النتائج غير المعروفة التي تترتب على لجوئهم الى طلب المعاونة في تربية **الصغار** ، وينظرون الى

موقفهم هنا كما لو كانوا أمام معضله تستعصى على الحـــل متوجسـين متخوفين ربما من الفشل أو عدم التوفيق . انهم ينظرون الى موقفهم هنا كما لو كانوا أمام صندوق باندورا (١) الذى كان من الأفضـــل أن يترك مغلقـــا .

انهم يقرأون أحدث الكتب ، ويستشيرون كتاب الأعمدة بالجرائد ، ويلعبون لعبة « أليست فظيعة ؟ » بعد تناول قهوة الصباح ، انهم يتذرعون « بالصبر » بدون تقـــديم ردود على أمل أن الصغير « يمر بحـــالة » . ويؤسسون آمالهم على مبدأ غير يقينى وهو أن « الاباحية » (٢) شيء جيد . ولا تأتى الردود التى يبحثون عنها ، ويعانون الأمرين من تربيـة الصغير ويلتمسون شيئا من العزاء فى قولهم : « حسنا ، على الأقل أنا أكبر منه » . وبعض الآباء والأمهات يمارسون هذه الحقيقة المتعلقة بأنهم كبار فى قسوة ، بالتعدى والتعذيب لصغارهم بحجة تقويمهم . وسرعان ما يأتى الحساب يوما ، خلال فترة المراهقة ، عندما يصبح « أكبر منى » . وينتشر الشقاء فى كل اتجاه بالنسبة للأبوين والأبناء . ان هذا لن يكون . والمقصود بهذا الفصل تحسين صورة تربية الصغار بتطبيق نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) ليس فقط على العلاقة بين الأبوين والصغار ، بل أيضـــا تلك العلاقة بين الصغار وغيرهم من الصغار .

ويعتبر العلاج النفسى للصغار ، تطورا حديثا نسبيا ، فبينما أكدت أفكار التحليل النفسى المبكرة أهميـــة ما حدث للصغير فى بداية حيـاته العائلية ، نجد أن العمل مع الصـــغار مباشرة لم يكن جزءا من التطبيق المبكر لهذه الفكرة فى مجال العلاج ، وهناك صعوبة تتمثل فى مشكلة التواصل بالنسبة للشخص الصغير . أما المشكلة الأخـــرى فهى المعرفة المبكرة بأنه لايمكن تطبيق ذلك لتحقيق الكثير فى العمل مع الصغير بدون ادخال الكبار الذين يلعبون دورا هاما فى بيئته المحيطة خاصة أبويه .

لقد تأسست أول مستشفى شامل مفهوم لعلاج الصغار فى العشرينيات من هذا القرن العشرين تحت اسم : Child guidance clinic ـ ومعناه :

---

(١) كانت باندورا حسب الأسطورة الاغريقية ـ هى أول امرأة فى الوجود ، وقد أغراها حب الاستطلاع بأن تفتح الصندوق الممنوع ، وبذلك سمحت بخروج كل شرور العالم التى هربت من الصندوق لكى تصيب الجنس البشرى ـ المترجم .

(٢) المقصود هنا هو الحرية المطلقة فى ممارسة شئون الحياة دون تدخل من الآخرين ، وهو المبدأ الذى تستند اليه الديموقراطية الليبرالية ـ المترجم .

مستشفى ارشـــاد الصغار · ونطور هذا الى « تجـربة مشتركه » لعلاج « الوالد » و « الطفل » · وننحصر في معالجه الصغير بأسلوب أطلق عليه اسم : العلاج النفسى عن طريق اللعب ، ومعالجة الأب بمساعدته عن طريق الاستشارة المعروفه باسم : Case work ـ أى دراســـة حالات العجز عن التكيف الاجتماعى · وتتركز الطريقـــة فى اتاحة الفرصـــه للأبوين والطفل معا للتعبير عن المشاعر بغرض ازالة مصدر قوى من المصادر التى تؤدى الى ظهور السلوك السلبى والمدمر · ويتم تشجيع الصغير على مواجهة من يقلقه وهما الابوان وذلك عن طريق استخدام اللعب وغيرها من الوسائط الرمزية للاتصال ، مع التخلص من « المشـــاعر السلبية » المكبوتة ، وعلى ذلك فانه عندما يلقى التلميذ الصغير بالعروسة التى تمثل الأم فى دورة المياه ، أو يكسر ذراعى العروسة التى تمثل الأخت ، يقوم المعالجون بتدوين ذلك لطرحه فى الجلسة الثانية من المشاورات ، وهى من الأنشـطة المهمة التى يقوم بهـــا العاملون فى العيادة · ويتركز هذا الغرض فى أن هذه التعبيرات قد تفسح الطريق لتطوير المشـــاعر الأكثر ايجابيـــة القائمـــة على الرؤية الجديدة التى قد يستخلصها الأبوان من عملهما مع الباحث الاجتماعى ـ بحيث أنه بعد عدد محدد من مقولات · « انى أكرهكما » تجىء تباعا مقولات : « انى أحبكما » · ولكن عدم كمال فهم الأبوين للأفعال ، أو المعاملات الذى يترتب عليه ظهور المشاعر غالبا ما يترك الموقف معلقا . وفى الحقيقة أن الموقف يتطور الى الأسوأ لأن الصغير قد قيل له : « ان التعبير عن المشاعر شىء طيب » وبذلك تتحول الأسرة الى ميدان معركة يخوض فيه الصغير حربا شعواء · وتصير الحالة مثل نقط الأنف ، انها تخفف الاحتقان لحظة ، ولكنها لا تساعد على منع الاحتقان فى الغد · ان بعض الناس يمضـــون فى الحيـــاة معبرين عن مشاعرهم ، ولكن قد يظهر أن نشاطهم يتجه الى الجانب الخطأ فى الأشياء · وليس التعبير عن المشاعر أو استخدام نقط الأنف هو المفيـد فى العلاج النفسى ، لأن هناك ما هو أكثر من ذلك · كان التشجيع فى هذه الأساليب المبكرة للعلاج يرتكز على ما يمكن أن يحققه الصغير وكيف يمكن لسلوكه أن يتغير بالرغم من وجود بعض التأكيـد على ضرورة اشتراك الأبوين · ويتركز تشجيعنا فى تحليل المعاملات على ما يستطيع الانسان المتمثل فى الأبوين تحقيقـه لكى تتغير طبيعـة المعـاملات بين الأب والصغير · وعندما يحدث ذلك سيتبعه التغيير فى « الطفل » على وجه السرعة ·

ويعرف كل واحد التعقيد المتزايد للبناء الثقافى والاجتماعى الذى نعيش فيه اليوم ، مع الضغوط العديدة التى تتجه الى اضعـاف بل تدمير

الأسرة ، مثل البنـــاء الاجتماعي الابتدائي المتعلق بمقابلة الاحتياجات العاطفية لدى **الصغار** • وتحت دافع الشـكوك ، وتدفق وســائل الاعلام والترفيه ، وفيض الحاجات ، تشعر الأم الحديثة بأنها محاصرة وعلى حافة الاختلال العقلي في معركتها مع الاحباط • ان كل شيء حولها متضارب ، وحساسيتها معتمة ، كما لو أنها وجدت جهاز التليفزيون ينتقل من تقارير الحرب السريعة الى اشراقات الحياة الجديدة مع الأحلام • ان « والدها » في صراع مع « والد » زوجها حول أدق نقاط التربية الجيدة للصغير • ويتفوق « والدها » على « طفلها » في حوار داخلي يجعلها تشعر بالفشل كأم • ان صغارها يصرخون أحدهم في الآخر ، وفيها • انها تقرأ للحصول على معلومات أوفر ، ولكن المعلومات تتضارب • تقول احـدى السلطات « عاقبه بالضرب » بينما تقول أخرى « لاتعاقبه بالضرب » وتقول ثالثـة « عاقبه بالضرب أحيانا » • وفي نفس الوقت تثور مشاعرها الى الدرجة التي تريد فيها أن « تطفيء الجحيم المستعر في داخل الأشرار الصغار » • ان منزلها يغص بالأجهزة التي تبدعاها في كل شيء بمنتهى السهولة ، ولكن ما تحتاجه بالأكثر هو أداة لاعادة النظام الى الفوضى الموجودة ، بتحديد أي الأهداف مهم وأيها غير مهم ، وايجاد اجابات واقعيـة للسؤال المتكرر « كيف أربي **صغاري** تربية سليمة ؟ » •

وعلى الجدة أن تلاحظ هذا السؤال بحكمة : « لم نواجه مثل هذه المتاعب كلها في أيام الماضي المجيدة قبل ظهور كل هذه الكتب التي تدور حول علم النفس الحديث » • ان الجدة لها وجهة نظرها حول وجود قدر كبير من الخير في الأيام الماضية • وقد لاحظ جيسيل والج أن :

في الأزمنة القديمة جدا ، امتـد عالم الطبيعة والعلاقات الانسانية بطريقة منظمة الى حد ما ، متمشية مع نضوج الصغير • كان البيت واسعا والأسرة متعددة الأفراد ، ومع ذلك فقد كانت الأسرة عادة تتوقع ميلاد المزيد من الصغار وكان هناك شخص ما قريبا لرعاية الصغير الذي لم يصل الى سن المدرسة وقيادته في عالمه المتزايد الاتساع ، في مراحل متدرجة خطوة خطوة ، مع التزايد التدريجي في احتياجاته • وكانت حرية السير مباحة حول منزله أو في الحقل أو المراعي أو بسـتان الفاكهة • وكانت توجد حيوانات في الحظيرة ، والحوش ، وعشة الدجاج ، والمرعى • وكان بعض هؤلاء الرفاق صغار العمر مثله ، وكان يستطيع أن يملأ عينيه منهم ويلمسهم واحيانا يحتضنهم •

وقد لعب الزمن لعبة التغيير في هذه البيئة • لقد حـرم « صغير الشقة » ، أو حتى على المجال الأوسـع قليلا ــ « صغير الضاحية » ــ من

رفاقه السابقين ، من البشر أو ما دون البشر • أما الفضاء الذى كان يعيش فيه ، فقد انحصر فى حدود قليل من الحجرات أما الشرفة والحوش ، فربما تحولا الى حجرة واحدة بشباك واحد أو اثنين (٣) •

لقد تباكوا على فقدان الصغير اليوم « للاتصـــال الفسيح النابض بالحياة النامية ، مع **الصغار** الآخرين ومع تشكيلة من البالغين » • ولا يبدو فقد أن هناك فقدانا ملحوظا لهذه التجارب المبكرة الطيبة ، بل أن هناك أيضا فيضا من المعلومات المخيفة الواردة ، ومن الطبيعى القول بأنه كانت هناك دائما « حروب وأعمال وحشية » ، ولكنها لم تحدث فى غرفة المعيشة على شاشة التليفزيون ، فالصغير قبل أن يستطيع أن يتمشى مع الصعوبات الأولية المتعلقة بالتوافق مع الأسرة بوقت طويل ، يـكون قد تعـرف الى ما تســـميه ابنتى الصـغيرة « عالم مجنــون » ، يتألف من الاضطرابات العنصرية ، **والصغار** المساجين المعصوبى العينين الذين يجبرون على السير بالسونكى ، والقتل الجماعى ، وقادة العالم يتجادلون حول امكانية ابادة سكان الكرة الأرضية • ويضاف الى ذلك الصعوبة التى تواجه **الصغير** فى التفرقة ما بين الحقيقة والخيال : هل هذه هى نشرة الأخبار أم أنها فيلم سينمائى ؟ هل هذا هو رئيس الفرسان الفارس أم أنه المحافظ ؟ هل يسبب التدخين السرطان أم أنه نسيم الربيع ؟

أثناء الأزمة الكوبية التى حدثت سنة ١٩٦٢ كانت ابنتى هايدى فى الحضانة حيث كانوا يعلمون الأطفال « تدريبات القنبلة الذرية » فقالت لأمها : « ماما •• دعينا نتحدث عن الحرب والقنبلة وهذه الأمور » فأجابت الأم : « اننى موافقة يا هايدى ـ فماذا تقول عنها ؟ » فردت هايدى قائلة : « قولى جميع الكلمات يا أمى • اننى لا أعرف كلمة واحدة من الكلمات التى تتعلق بذلك » •

اذن فهذا هو العالم كما نراه ، ليس بعضا من المناظر الريفية التى تغطيها الحملان الصغيرة والأزهار الصفراء والمصاصة التى يحبها **الصغار** ، ولكنه عالم يضج بأصوات الغضب والتصادم • وعلى نفس هذا المستوى من التضخيم نواجه الاغراء ، بصرف النظر عن ذلك كله ، ولا نهتم بالاختلاف بين الحلم والجريمة ، أو الاختـلاف بين اغتيال رئيس والوفاة المضحكة لصارع ثيران ذى قبعة سوداء •

---

(٣) Arnold Gessel and Frances Ilg, "Infant and child in the Culture of Today," (New York : Harper, 1943).

قال ويل روجوز مرة : « ان المدارس لم تعد كما كانت فى الماضى ، ولم تكن كذلك أبدا » • ربما لم تكن الأيام الخوالى الطيبة « طيبة » ولكن الشر لم يمس **الصغار** مبكرا وبعمق كما يحدث فى هذه الأيام • ولا يغير هذا من المشكلة ولكنه يجعلها أكثر الحاحا عن ذى قبل لأن **الأبوين** لديهما الآن أداة لمساعدة **صغارهم** على تطوير « الراشد » مبكرا للتمشى مع ظروف العالم كما هى بالفعل •

من أين نبدأ :

من الناحية المثالية ، نحب أن نبدأ من البداية ، لقد اتضح أحد التطبيقات الفعالة لتحليل المعاملات فى برنامج تعليمى للآباء والأمهات الذين ينتظرون الانجاب ، وتم تنفيذ هذا البرنامج فى ساكرامنتو سنة ١٩٦٥ على يد الدكتور ايروين ايشهورن وزوجته ــ وهو طبيب لأمراض النساء وأخصائى فى التوليد • أما زوجته فهى مدرسة بكلية ساكرامنتوسيتى ــ ان معظم تدريبات الاستعداد لولادة **الصغار** تتضمن فى العادة ــ تعليمات لمن سيرزقون بأولاد ــ خاصة الأمهات ــ حول ما يتوقعنه خلال فترة الحمل والمخاض وولادة **الصغير** ، مع معلومات فياضة حول العناية البدنية **بالصغير** • وغالبا ما كانت تضاف الى هذه الدراسة كتب وأفلام مختلفة ، تصور الحياة المثالية مع **الوليد** • وتدور بعض المناقشات حول الجوانب السلبية للتجربة ، مثل احتمالات ظهور علامات زرقاء على جلد الأم عقب الوضع ، أو الاجهاد أو المغص ، ولكن نادرا ما كان يجرى فحص خاص متعمق حول العلاقة بين الزوج والزوجة ، وهما الأم الجديدة والأب الجديد وهذا الشخص الجديد الجميل والمفزع أحيانا الا وهو **الصغير** ، ويحب معظم أطباء التوليد مساعدة الزوجين فى هذا الصدد ، ولكن لايوجد نظام معين يمكن تدريسه بسرعة وفهمه ببساطة وجاهز للاستخدام • وقد صرف عدد كبير من أطباء التوليد ساعات عديدة فى مناقشات مشجعة حول المصاعب المحيطة بموقف الأسرة ، مخففين من التوتر باجابة الأسئلة ، ومحاولة تسكين الخوف بالمساعدة الرقيقة ، واعتمد عدد آخر منهم على الموقف الأبوى الذى يقول بالضرورة : « اتبع تعليماتى ، ونفذ ما أقوله ، وسيكون كل شىء على مايرام » •

وعلى أية حال فانه اذا كانت هناك مشاكل جدية فى العلاقات بين الزوجين فان هذا النوع من الأساليب قد يبعد هذه المشاكل مؤقتا الى قائمة الأولويات حيث ان **الصغير** بعد كل شىء ، يجب أن يأتى أولا •

ولكن مع عدم توافر الحل ، فان المشاكل تظل مصدرا للمضايقات والغربة المستمرة للأم والأب كليهما خلال الشهور أو الأعوام الأولى من حياة الصغير، وهى التى تحدث خلالها الانطباعات الأساسية لدى الصغير ٠

وبدأ الزوجان « ايشهورن » وهما عضوان فى مجلس ادارة معهد تحليل المعاملات ، فى التعرف الى تدريس نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) لفصل الآباء والأمهات الذين كانوا ينتظرون الانجاب سنة ١٩٦٥ ٠ لقد نظمت لقاءات مسائية لكل من الزوج والزوجة أسبوعيا ٠ وكان الحضور اجباريا ، ولكن معظم الأزواج كانوا يحضرون بانتظام ٠ وبالاضافة الى التعليمات المنتظمة حول الحمل والمخاض والولادة ، كانت تدرس أصول تحليل المعاملات ، تلك التى كانت تدرس بمفاهيم التجربة الحقيقية التى يمر بها الزوجان ، وهى تجربة الحصول على صغير ٠ انها أداة وضعت لتحقيق غرض خاص ، ولكنه غرض وجد الأزواج أنه يمكن استخدامه لحل مشاكل عديدة أخرى فى الحياة بعد وصول الصغير ٠ ويبلغ مجموع محاضرات نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) لكل زوج حوالى أربع وعشرين ساعة ، ولكن اللغة المستخدمة قدمت الأساس الصالح لاجراء مناقشة أوسع عندما تصل الأم الموشكة على الوضع الى مرحلة اختبارات الولادة ٠ وفى صحبتها زوجها غالبا ، وهو الذى يشعر بجزء من المسئولية أكثر من أن يكون مجرد متفرج ٠

لقد اتضح أن فهم نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) مبكرا أثناء الحمل قد ساعد الزوجين على فهم مصدر بعض المشاعر الجديدة المعقدة التى ليست ايجابية كلها ٠ ان الشباب الذين يتضمن « والدهم » تسجيلات عديدة ملحة وغير مميزة حول الاتصال الجنسى والحمل ، يجب ألا يندهشوا عندما تدار هذه التسجيلات خلال هذه التجربة المشحونة بالانفعالات ٠ ان الزوجين الشابين حتى اذا كانا قد خططا وانتظرا الحمل بشغف ، فانهما سيجدان أنهما معرضان لفترات من الاحباط « الذى ليس له تفسير » ٠ ان عقد الزواج وعش الزوجية الرومانتيكى غير كافيين لمحو شريط « الوالد » القديم الذى سجلت به عبارة « أنا حامل » على أنها خبر فظيع حقا ، ولن تغيرا أيضا شريط « الوالد » لدى الزوج الذى يظهر بالطريقة القديمة عندما يعرف النبأ « لقد جعلتك تحملين » ٠ وهناك مشاعر متوترة أخرى مرتبطة بالحمل ، أشار اليها جيرالد كابلان على أنها « فترة تزايد الحساسية الى درجة التأزم ، وأنها فترة يتراءى فيها

للزوجين أنهما يواجهان مشـاكل عويصة متزايدة (٤) • وبالاضافة الى التغيرات الخارجية الاقتصادية والاجتماعية توجد تغيرات داخليه كيميائية وعاطفية وهي التي تعطي دورا جديدا بالنسبة للأم خاصه اذا كان هذا هو صغيرهما الأول ، فهناك الوحدة أثناء المخاض ، والوحـدة بعد العودة الى البيت مع الصغير ، خاصة اذا كانت زوجـة عاملة ، وعليها أن تتحمـل المسئولية الجديدة المتعلقة بتنظيم الوقت • وهناك حقيقة أصيلة بالنسبة للأم التي تستقبل مولودها الأول وهي أنهـا لن تعود طفلة صغيرة مرة أخرى ، وأنها قد باتت تنتمي الى الجيل الأكبر سـنا : انهـا الآن أم • وهذا هو نفس الشعور الذي يخامرنا بأن الحياة قصيرة ، ومرور الزمن بلا توقف ، وهو الاحساس الذي يجعل الناس يبكون أثناء حفلات الزفاف، فالمناسبات الجليلة تفتح الأبواب للمستقبل ، وفي ذات الوقت توصـد أبواب الماضي بلا عودة • وهذه هي مشاعر الأم الشابة أيضا • وأحيـانا تصبح هذه المشـاعر كئيبـة جدا حتى أنهـا تؤدي الى ما يسمى : Post-Patrum أي : اختـلال ما بعد الولادة • وفي هذه الحالات وتصبح غير قادرة تماما على العناية بالمولود • وهنـاك مريضـة واحدة ، الكامل « للراشد » • ولا تستطيع الأم التعامل مع احتياجاتها المتزايدة ، وتصبح غـير قادرة تمـاما على العنـاية بالمولود • وهناك مريضـة واحدة ، كنت قد رأيتها أولا في حالة اختـلال مزمن بعد ولادة صغيرها الأول • ولكنها باتت قادرة على ترك المستشفى بعد ثلاثة أسابيع بعد التعرف الى نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) • وكانت قادرة على مباشرة العناية بصغيرها ، وصار « راشدها » أكثر قوة ، مع اسـتمرارها في حضـور مجموعات العلاج ، وجاء الاختبار الحقيقي لهذه القوة عند حملهـا للمرة الثانية بعد ذلك بعامين ، اذ أكسبتها التجربة السابقة احساسا بالخوف والقلق خلال هذا الحمل ، ولكنها كانت قادرة على مناقشـة هذا الموقف مع أخصائي التوليد حسب مفاهيم نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) • **(ان حقيقة وجود طبيبين احدهما اخصائي توليد والآخر اخصائي نفسي ، يتكلمان نفس اللغة ، كانت مشجعة في حد ذاتها)** • ووضعت صغيرها وظلت تتمتع بروح معنوية عالية خـلال فترة « اختلال ما بعد الولادة » (وليس من غير العادي أن تتكرر الاصابة بحالة اختلال ما بعد الولادة ـ مع كل حمل) •

هذه اذن هي بعض المشـاعر التي يمكن فهمها والتغلب عليهـا من

G. Caplan, "An approach to community Mental Health", (New York, Grune & Stratton, 1961).

خلال نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) حيث صــــار الزوج والزوجة قادرين معا على استخدام لغتهما المكتسبة حديثا · وقد شاركا سويا فى الاستمتاع بالاثارة التى تتولد من تــرقب الحدث السعيد · ويقــــرر ايشهورن أنه اذا استطاع الطبيب استخدام « راشــــد » الزوج ، فانه يسهل على الزوج أن يصبح أبا ، ان علاقة (والد ــ طفل) بين بعض أطباء التوليــد ومريضاتهــم نستبعد الأب بالضرورة ، وتظهــر الأم والطبيب مندمجين فى نشاط يظهران من خلاله مهارة فنية استثنائية ، بينما يترك الزوج ليتأمل دخان سجائره المحترقة فى غرفة الانتظار · وتسمح معظم المستشفيات الحديثة للزوج بالبقاء مع زوجته ومساعدتها خلال ساعات المخاض · ويقرر ايشهورن أن نظام (الوالد ــ الطفل) يعمل مبكرا خلال ممارسته · ويصبح الزوج منشغلا بما يستطيع عمله لمساعدة زوجتــه أثناء المخاض ، كيف يدلك ويخفف الضغط البدنى ، كيف يستطيع أن يحمى زوجته من المخاض ، وكيف تستطيع هى فى الحقيقة أن تكذب على « راشده » حتى اذا كان « طفلها » هو الذى يسيطر أثناء احساســها بالتعب والخوف · وعندما يمر الزوجان معا بأزمة من هذا النوع ، فان مواجهة أى أزمة أخرى فى الحياة يكون لها سابقة « اذا عملنا ذلك فاننا نستطيع أن نعمل أى شىء ! » وسرعان ما يتحدث هؤلاء الآباء عن « مولودنا » ويشعر كل من الأب والأم بالرضا عن نفسيهما ، وينتقل ذلك الى الصغير ·

لقد وجد هؤلاء الأزواج المعاونة فى أن يعرفوا مبكرا خلال الحمل كما يقول كابلان :

(المرأة الحامل تحتاج الى حب اضافى مثلما تحتــاج الى فيتامينات أو بروتينات اضافية · ويحدث هذا خاصــة فى الشهور القليلة الأخيرة من الحمل · وخلال فترة الرضاعة · وغالبا ما تصبح خـــلال الحمل فى حاجة الى المساعدة ، وتميل الى الانطواء ، وكلما كانت أكثر قدرة على تقبل هذه الحالة ، مع تزايد الحب والعناية اللذين تحصل عليهما من الناس المحيطين بها ، تتزايد قدرتها على ممارسة أمومتها نحــو صــغيرها · ان المتخصصين لايستطيعون أن يقدموا لها الحب الذى تحتاجه ، ولكنهـــم يستطيعون تحريك أعضاء أسرتها ، وخاصة زوجها ، لتقديم ذلك الحب · ونجد فى الحضارة الغربية أن الزوج والأقارب الآخرين يخشون غالبــا افساد الأم المستقبلة والمطلوب جهود خاصة لمقاومة هذا الموقف) ·

ان وجود الزوجين معا أثناء عملية الوضع نفسها هو ذروة المثاليــة بالنسبة لكليهما ، ولكن حتى اذا كان الزوجان متباعدين أثناء الوضع فان

نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) لايساعدهما فقط أثناء وقت الحمل ، بل يسمح أيضا بأقصى الحرية للتخلص من الصراعات ، وهو أمر أساسى لتوفير بيئة مثالية ينمو فيها الوليد خلال سنواته الأولى .

ان الأم الدافئـــة الحنون هى الأم المتحـررة من حوار (الوالد ـ الطفل) الداخلى الذى يثير فى نفســـها موقف (لست على مايرام) ان « راشدها » المتحرر يستطيع أن يسمح الحقائق ، وأن يطرد النصـــائح والوصفات القديمة ، ويستطيع أن يستجيب لمشـــاعر الأمومة العفوية التى تثير الرغبة فى حمل الوليد وتدليله ومداعبتـه دون أن تتوقف الام لتفكر ما اذا كانت هذه الرغبـة سليمة أم لا . وهنـــاك فكرة من أفكار « الوالد » التى يكثر التعبير عنها ، فى مجموعات الأزواج الذين سيرزقون بالصغار ألا وهى « عليك ألا تكثر من حمـل الصغير حتى لاتفســـده » . واذا أدير هذا الشريط فى كل وقت تذهب فيـه الأم الجديدة لمداعبـــة صغيرها ، فمن الواضح أنه ستحدث مشكلة تصل الى «الوليد» بطريقة ما . ان « الراشد » فى الأم يستطيع فحص هذه الفكرة ويمضى مع تقدير الأم للموقف الذى سيقترب من هذا المعنى « اذا عاملت الصغير فى طفولته على أنه صغير ، فلن تحتاج الى أن تعامله كذلك بقيـــة حيـــاته » . (هذه الاصطلاحات : (افســـاد الصغير ، أو منعه من عادة تعودها ، قد بدت بالنسبة لى دائما فظة جدا ، وقاسية عند تطبيقها على البشر ، ولابد أنها من اختراع زوجة أب شريرة من أولئك المذكورات فى قصص الجنيات ـ كانت تعيش فى برج مظلم ورطب فى مكان ما على الأرض البور !) .

وتستطيع الأم ذات « الراشد » القوى أن تعالج مواقف أمها أو حماتها (التى غالبا ما تكون من المواقف المشحونة بالتوتر) بطريقة تقلل المعاملات المتقاطعة المدمرة . انها تستطيع أن تقدر أن الجدة أيضا لديها (والد ـ وراشد ـ وطفل) وأن « والدها » و « طفلها » كليهما معرضان للوقوع فى المصيدة ، أو أن « راشدها » قد يقول لحماتها أن لديهما خادمة للعناية بالمنزل وأن الأم تعتنى بالصغير . ويستطيع « راشدها » أن يدع التراب يتجمع أثناء اهتمامها بالصغير ، حتى اذا كانت عمتها الغنية أحيانا ستتصل فى هذه الليلة بالذات ومعها هدية ، وباختصار فان الأم والأب الجديدين لديهما الاختيار فيما يتعلق بكيفية المضى فى الابقاء على هذه الوحدة الجديدة الثمينة ـ عائلتهما ـ التى جاء اليها وليد وأب جديد وأم جديدة .

ومن أهم المفاهيم المعاونة فى تربية الأطفال الصغار هو وعى الآباء والأمهـات بموقف (أنا لست على مايرام ، وأنت على مايـرام) . ان

« الطفل » يبقى طافيا بفضل احساس الأم بأنها على مايرام • انه يشعر بموقف (أنه ليس على مايرام) ، ولكن طالما كانت هى على مايرام فهناك شيء يستطيع أن يستمسك به • ان قيمة حنان الأبوين بالنسبة للصغير تعادل تماما القيمة التى يراها الصغير فى أبويه • ومن الواضح أنه عندما يقع « طفل » الأم فى الفخ ، وتصبح داخلة فى علاقة (طفل ــ طفل) مع الصغير ، فانه يشعر بأن عالمه كئيب حقا • انه « طفل » (ليس على مايرام) من جهة • ومن جهة أخرى فهو « طفل » أم (ليست على مايرام) • واذا ساد هذا النوع من المعاملة فى حياة الشخص الصغير المبكرة ، فان الطريق سيكون مفتوحا لظهور موقف (أنا لست على مايرام ، وانت لست على مايرام) أو المبالغة فى موقف (أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام) •

ويجب أن تكون الأم والأب (خاصة الأم لأنها الطرف الأكثر تأثيرا فى السنوات الأولى) حساسة لموقف « الطفل » الذى يشعر بأنه (ليس على مايرام) الكامن فيها • ونستطيع أن نتوقع انتشار الحقد الناتج عن موقف (ليس على مايرام) ، ويصير أشد طالما أن الأبوين خاصة الأم لم تطور الحساسية الضرورية ، والقوى الادراكية ، والاهتمام بتطبيق أدوات مثل نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) فى تربية الصغير • وان كان « الطفل » فى الأم يتمتع بموقف (لست على مايرام) قوى ، وأنه يتأثر بسهولة بمصاعب الحياة وعقباتها ، أو عدم التوفيق ، مثل السلوك العنيد للصغير الذى لديه هو أيضا « طفل » (ليس على مايرام) ، ويصير الطريق مفتوحا لسيطرة « الطفل » على « الوالد » مما يطلق سيلا من المواقف التى تؤدى الى انتكاس المرء الذى يأخذ فى ممارسة أشواط من اللعبة القبيحة • وتكسب الأم الجولة الأخيرة لأنها تدرك أنها أقوى وأكبر •

ومن السهل أن نرى أنه من خلال « الراشد » فقط يستطيع الصغير أن يتعلم أساليب أكثر فاعلية للحياة ، ولكن على الصغار أن يسألوا جيدا : كيف يتطور « الراشد » بدون رؤية أحد ؟ ان الصغار يتعلمون بالتقليد ، ومن أفضل الطرق التى يستطيع بها الصغير أن يطور « راشده » مع تزايد الدوائر القوية للتحكم هو اتاحة الفرصة له لملاحظة أحد أبويه عندما يستثار فى موقف ، ويناضل لتكون له الغلبة بثورة غاضبة ، وليتحكم فى « طفله » ويجعل استجابته استجابة « الراشد » أى استجابة منطقية ورشيدة •

ان توضيح ماهية « الراشد » بتجربة عملية أكثر فاعلية من محاولة تعريفه نظريا • وهذا يثير السؤال عما اذا كان يجب على الأبوين أن يعلما

صغارهما نموذج (الوالد – الراشد – الطفل) أم لا ؟ وبالنظر الى تقارير (الوالد – الراشد) الصادرة عن الذين يدرسون النموذج من آباء الصغار ، نجد أن الصغير يستطيع أن يفهم مبادىء نموذج (الوالد – الراشد – الطفل) فى سن مبكر مثير للعجب وهو سن الثالثة أو الرابعة . ويمكن الوصول الى ذلك عن طريق تعريض الصغير لتحليل المعاملات الخاص بأبويه . وعند انخراط الأبوين فى تحليل المعاملة ، وتأديتها باستمتاع واضح ، فان الصغير يلتقط معنى ما يجرى . لقد اندهش آباء أطفال صغار فى سن الثالثة أو الرابعة لدى سماع الصغير وهو يلقى بملحوظة يستخدم فيها كلمتى « والد » و « طفل » استخداما سليما .

وعندما يقول صغير فى الخامسة (أبى ، لا تستنفد « والدك » كله)، فانه يفهمنا أن أباه ينقسم الى أجزاء ، وأن لديه « والد » و « طفل » يمكن وقوعهما فى الفخ . وعندما يقول الأب لصغير الخامسة ، « اذا استمريت فى عمل ذلك ، فانك ستستثير « والدى » وليس هذا فى صالح أى منا . ويصير الطريق مفتوحا لقبول معاملة (راشد – راشد) بحيث يدرك كل من الصغير وأباه أن لكل منهما مشاعر وأنه من الممكن استثارتها. ومعاملة (راشد ، راشد) هذه لاتستطيع أن تتطور اذا زمجر الأب قائلا : « افعل ذلك ثانية ، فأضطر الى صفعك أيها العبيط ! » . وكل ما سيؤدى إليه هذا القول هو اغلاق الكومبيوتر فى الصغير . انه لايستطيع أن يتدبر مزايا ومساوىء « ما كان يفعله » فيما عدا حقيقة أنه سينال صفعة وأنه عبيط . وهكذا ينتهى الدرس . ولابد أن الأب قد سمعها بنفس الطريقة عن أبيه ، إلى مالا نهاية . اننا نحذر الأبوين هنا من أن أى اشارة الى نموذج (الوالد – الراشد – الطفل) خاصة (الدعوة الى الألعاب) عندما يستثار « الطفل » فى صغيرهما لأن الصغير سيعتبرها « والدا » ، وهذا يعنى أن الفكرة كلها يمكن أن تنسب الى « الوالد » مما يضعف من فائدتها كأداة لانتاج معاملات (راشد – راشد) فى البيت.

انك لا تستطيع تدريس نموذج (الوالد – الراشد – الطفل) لصغير غاضب ومشحون بالأدرينالين . أما نموذج (الوالد – الراشد – الطفل) فيمكن الحديث عنه أكاديميا فى مناسبات أخرى ، مع اعطاء الصغير المعلومات التى يستطيع أن يصل بها الى تجربته التى يكتشف من خلالها حقيقة الأمر ويتفهمه أى « ماذا ؟ أهذا ما أفعله ! » واستخدام هذه الكلمات فى الوقت المناسب ييسر للصغار البدء فى التعبير عن مشاعرهم بكلمات بدلا من تمثيل الاحباط الذى حدث لهم فى شكل سورة غضب لاحتواء الموقف بالأداة الوحيدة التى يملكونها وهى مشاعرهم .

وعندما يتدبر الانسان الفواصـــل التى تكاد أن تكون منيعة والتى تحول دون تطور « الراشد » فى الطفولة ، فلن نعجب من وجود هذا القدر من الحماقات فى حياتنا • ان حب الاستطلاع فى الصغير ، وحاجته الى المعرفة ـ يعبران عن « راشده » النامى ويقدمان الحماية والمساندة للوالدين الحساسين والمدركين • وعلى أية حـال فقد يكون من المتعذر على الزوجين أن يتمتعا بالقدر الكافى من الحساســـية والادراك اذا وجدا صعوبة فى تقبل الحاح صغارهما عليهما بالطلبات لأنهما يعطيان الأولوية « للطفل » و « الوالد » الكامنين فى نفسيهما •

ان خروج « الراشد » من البيانات المختزنة فى الذهن يمكن أن يجعل تلك المواقف الايجابيـــة كالصبر ، والشفقة ، والاحترام ، ومراعاة شعور الآخـرين ـ موضـــوعا للاختيار • والاختيـــار هو واحد من أمرين : اما الاستمرار فى مساعدة الصغير ، أو قمعه باستخدام أســاليب العنف القديمة « الوالدية » التى أفرزتها أجيال لاحصر لها من الآباء والأمهات الذين يرون أن الحق دائما معهم وأن الأبوين لايخطئان •

اذا كان الفيلسوف معتادا أن يسأل فى كل معاملة : « وماذا بعد ؟ » فان الأب قد يجد من المفيد أن يتساءل : « ماذا حدث من قبل ؟ » ماذا كانت المعاملة الأصلية ؟ من قال ذلك ؟ أما استجابات الصغار فليست بعيدة عما يثيرهم • ان التدريب على توجيه الأسئلة الصحيحة ، والانصات الى الاجابات ، سيقودنا سريعا الى مصدر الصعوبة • فاذا جـاء الصغير الى أمه باكيا ، فانه يتحتم عليهـا القيـام بعملين : أحدهما هو تهدئة « الطفل » المشوش ، والآخر هو أن تدفع « الراشد » للعمل • انها تستطيع أن تقول : « أستطيع أن أرى البعض قد آلمك ، فالصغار دائما يعانون من المتاعب ••• وفى بعض الأحيان لاتستطيع أن تفعل شيئا سوى الصراخ •• هل تستطيع أن تذكـــر لى ما حدث ؟ •• هل أهانك أحـد ؟ » وسرعان ما يخبرها بمـا حـدث ، وتستطيع الأم والصغير أن يتحدثا عنهـــا (راشد ـ راشد) •

وأحيانا نجد الصغار يستغلون بعضهم ، فعلى سبيل المثال نجد أن الأخت الكبرى تحتال على الأخت الصــغرى للاستيلاء على بعض النقـود فتتعمد ارباكها ، وسرعان ما نعاقب الأخت الكبرى من أجل هذه المعاملة الاستغلالية ، ولكن علينا أن نسأل أنفسنا : « أين تعلمت هذا ؟ » ربما تكون قادرة على الابتكار بالفطرة ، أو قد يكون ذلك نتيجة درس تلقنته عن الأم والأب : كونى ذكية واحصلى على نقود كثــيرة ، لأنهـا أهم من

المناس (حتى الأخوات الصغيرات) • ونحن غالبا ما ننسى كيف تنعكس نظرتنا الى القيم على تصرفات صغارنا • ويحكى هـ • ألن سميث ، قصة كتبتها صغيرة فى سن التاسعة : « حدث مرة أن كانت هناك فتاة صغيرة تدعى كلاريسا نانس ايموجين لاروز • ولم يكن لديها شعر ، كما كانت أقدامها ضخمة ، ولكنها كانت غنية جدا ، فكان الباقى سهلا » •

ويستطيع « الراشد » بجانب سؤاله : « ماذا حدث من قبل ؟ » أن يسأل أيضا : « ما هو الاعتبار المهم هنا ؟ » ان الوالد هنا فياض فى المشاعر والتعبير ، ويستطيع أن يورد العديد من الأسباب والمبررات التى تحمل الانسان أو لا تحمله على العمهل ، وهذا الاستنكار لتصرفات « الطفل » الصغير كما لو كان يتعرض لهجوم بمدفع رشاش فلا يسمع شيئا بالمرة • ويستطيع « الراشد » الاختيار ، ويعرض أفضل الجوانب وليس كل الجوانب •

ان المعاملة التى تتشوش الصغير هى تلك التى يعمد فيها الأب الى الرد على أحد أسئلته بأن يقدم فى ضجر كل الأسباب التى تبرر لماذا لا يجب أن يفعل شيئا بدلا من أن يذكر السبب الرئيسى ببساطة ، واذا لم يكن هذا السبب الرئيسى قويا بما فيه الكفاية بحيث يمكن تقديمه فى مفردات بسيطة ، فقد يجدر بنا أن نغفله •

تدخل الصغيرة ذات السنوات الست الى المطبخ وخلفها أربعة من رفاق اللعب ، الوقت هو الخامسة الا ربعا بعد الظهر ، والأم تجهز الغداء (٥) وتتذوقه أيضا • تقول الصغيرة ذات السنوات الست : « يا أمى •• ألا يوجد شىء نأكله ؟ » وتجيب الأم من خلال فمها الممتلىء : « لا •• سيكون ذلك وقت العشاء ، أنت تأكلين حلوى كثيرة ، وهذا يضر أسنانك • ستملئين معدتك (والأم الآن تملأ معدتها) • اذا أكلت الآن فانك لن تأكلى عشاءك ، (والأم تأكل الآن) • اذهبى خارجا والعبى • انك توسخين المطبخ دائما • لماذا لا تضعين الأشياء بعيدا ؟ » ان هذه فرصة عظيمة « لوالد » الأم لكى يعذب الصغيرة بسلسلة كاملة من التوبيخات « بالاضافة الى • » يزمجر الصغار ويخرجون ، ويعودون خلال عشرة دقائق الى المزيد من « التسلية والألعاب » •

كان السبب الحقيقى لضيق الأم هو : « لماذا يجب أن تدخلى معك

---

(٥) لعل القارىء يتذكر أنهم فى الغرب يتناولون أربع وجبات ، وتطلق كلمة الغداء dinner على الوجبة الثالثة ــ المترجم •

دائما كل أولاد الجيران ؟ اننى متضايقة من اعطاء كل كمية الجيلاتى لأولاد الجيران ، ولا يتبقى لنا شىء » ٠وفى هذه اللحظة الخاصة يكمن السبب الحقيقى ، وهو سبب سارى المفعول ، ولكن نظرا لعدم قدرة الأم على الافصاح عنه بصورة طبيعية ، حملت ابنتها سيلا من المعلومات التافهة ، وبدلا من تطوير هذا النوع من المعاملة ينكمش الصغير ويبدأ فى تعلم الأساليب التافهة أو (المعوجة) لكسر التقاليد ٠ واذا كان الأدب قد منع أمها من اظهار السبب الحقيقى ، فانها ستكون أفضل لو قالت ببساطة : « لا ٠ سنتحدث عن ذلك فيما بعد » ٠ ثم تستطيع أن تكشف السبب الحقيقى لابنتها فيما بعد فى غياب الصغار الآخرين ٠ أو تخترع أكلة يمكن أن يتناول منها ، الصغار الآخرون دون أن تضطر الى استنفاد الأكلة « المرتفعة التكلفة » ألا وهى أكلة الجيلاتى ٠

وكما حدث ، فانها حملت المعاملة تناقضات تؤدى الى اثارة أسئلة فى ذهن الصغيرة : « كيف يتسنى أن تأكلى أنت ، ولا نستطيع نحن أن نأكل ؟ وما هو الخطأ فى ملء المعدة ؟ انك تملئين معدتك ، وأنت توسخين المطبخ أيضا ٠ انك تأكلين ٠ كم ثمن « الحلوى الكثيرة » ؟ ان فى ذلك قسوة ان لم يكن الموقف مهيجا للصغير بصورة تماثل ما يمكن أن يحدث للشخص البالغ عندما يسأل رئيسه علاوة ، فاذا به يجبره على سماع موعظة مملة ٠

ان الرجل الناجح يعمد الى اثبات أى نقطة يريد اثباتها بأوضح دليل ، ولا يشوه قضيته بالخروج عن الموضوع ٠ وتنطبق نفس هذه القاعدة على الأبوين ٠٠ انهم ينجحون فى النظام اذا التزموا بأحسن الأسباب ٠ وهذا يعطى « راشد » الصغير شيئا صلبا يستطيع أن « يصنفه » ، ولا يصير الكومبيوتر الخاص به مكتظا بالمعلومات غير المنطقية ٠ وتكون لديه الفرصة أيضا للخروج من المعاملة مرفوع الرأس بدلا من الاحساس الطاغى بأنه ليس على ما يرام ٠ وعليك أن تحجم عن وعظ الموظف العامل لديك لأنك تحترم « راشده » واذا أردت « للراشد » فى صغيرك أن ينمو فعليك أن تحترمه أيضا ٠

الطفل فى سن المدرسة : ــ

عندما يبدأ صغير الخامسة فى الخطو لهذا اليوم الذى يحتفل فيه أبواه بدخوله الحضانة ، فانه يأخذ معه حوالى خمسة وعشرين ألف ساعة من تسجيلات الشرائط المزدوجة ٠ يمثل أحد نظاميها « الوالد » بينما يمثل

النظام الآخر « الطفل » ، ولديه أيضا حاسب عظيم يستطيع أن يستبعد الاستجابات ويقدم أفكارا لامعة بالآلاف ، اذا لم ينغمس تماما فى حل مشاكل (لست على ما يرام) • ان الولد الصغير المشرق هو ذلك الذى نال قدرا كبيرا من الحنان ، وهو الذى تعلم أن يستخدم ويثق فى « راشده » والذى يعرف أن « والده » (على ما يرام) ، وسيطل كذلك حتى عندما يشعر بموقف (ليس على ما يرام) • سيكون قد تعلم فن « الراشد » فى الحلول الوسط (بالرغم من توقع حدوث ارتداد) ، ولديه الثقة التى تنمو من السيطرة الناجحة على المشكلات، وسيشعر بالرضا عن نفسه • ومن الناحية الأخرى فهناك الخجل ، والصغير المنسحب الذى تدور تسجيلاته ذات الخمسة وعشرين ألف ساعة فى تنافر ناتج عن التوجيهات الحادة والانتقادات اللاذعة والايقاع المنخفض والمنتظم لاحساس المرء بأنه ليس على ما يرام ، ولئن كان لديه حاسب عظيم الا أنه لم يستعمله كثيرا • لقد علق لويجى بونبنسيير فى كتاب صغير مشهور عن عزف البيانو ـ علق على كيفية استخدامنا الضئيل للجهاز الطبيعى العظيم المتمثل فى الجسم الانسانى ـ قائلا : « ان ذلك يشبه أكمل أجهزة القياس التى صممت ونفذت لكى يستخدمها أكفأ الفنيين ، واذا بنا نسند استخدامها الى أقل المهندسين خبرة ، ولذلك فانه سيشكو فى النهاية من قصورها » (١) •

واذا لم يستطع الصغير أن يستخدم هذا الحاسب ، فمن المحتمل أن يكون ذلك فى الغالب : اما لأنه لم يشاهد واحدا يستخدم من قبل ، أو أنه لم يجد من يساعده فى تعلم كيفية استعماله • واذا كان ضعيفا فى المدرسة ، فانه سيعبر عن شكواه من قصوره بقوله : « أنا غبى » • وسيكون قول والديه : « انه لا يعمل بكامل طاقته » • وتتركز المشكلة الأساسية فى شدة موقف (أنا لست على ما يرام وأنت على ما يرام) • ان المدرسة لو لم يكن بها مدرسون أكفاء ، فسيزداد الطالب المجد علما ويزداد الطالب المهمل جهلا • أما الصغير الذى يعانى من مشكلة فى المدرسة ـ فاما أن يكون فوضوى السلوك ، أو شارد الفكر ، أو قليل الانجاز ـ وفيه نتوقع أن نجد موقف (أنا لست على ما يرام ، وأنت على ما يرام) يشغل باله باستمرار ، ان المدرسة تمثل موقفا تنافسيا يحفل بالعديد من التهديدات الايجابية للصغير مع القليل من الفرص (عند البداية) التى يتمكن فيها الصغير من تحقيق بعض الانجازات الرمزية التى تخفف من حدة شعوره بأنه ليس على ما يرام • ويمكن لسنوات الدراسة

(١) L. Bonpensiere, "New Pathways to Piano Technique", (New York, Philosophical library, 1953).

المبكرة أن تكون بداية لنوع من معاملات الاختبار المتكررة التى تؤكد موقفه (أنا لست على ما يرام) بما يصاحبه من مشاعر عدم الجدوى واليأس ·

ويتمثل المظهر الحقيقى العاجل لهذا الموقف فى أن الحياة كلها منافسة ، ابتداء من الحياة فى الأسرة ، وامتدادا بفترة الدراسة كلها وعالم الكبار فى المجتمع · وخلال الحياة تستطيع المشاعر والأساليب الخاصة بالتكيف مع موقف (لست على ما يرام) التى يؤسسها الولد الصغير فى نطاق الأسرة والمدرسة أن تستمر خلال سنوات الرجولة ، وتنكر عليه الانجازات والتعويضات التى نشأت مع الاحساس الحقيقى بالحرية لتقوده الى مصيره الخاص به ·

وتتركز نصيحتى لأبوى الصغير الذى يواجه صعوبة بالمدرسة فى تعلم نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) للتعامل مع الصعوبة الماثلة بجدية ، والبدء فى تولى مسئولية التعامل مع صغيرهما بأسلوب معاملة (راشد ـ راشد) مع طلب مساعدة الطبيب النفسى عند الضرورة · ويجب أن يتذكر دائما التأثير المبدئى لحالة (لست على ما يرام) · والقاعدة هى : عندما تكون فى شك ، قدم الحنان · وهذا كفيل بتهدئة الصغير الخائف والمنفعل ، بينما يتعامل « الراشد » مع حقائق الموقف · وهذه الحقائق فى الغالب غير واضحة بالنسبة للصغير · ويقول الدكتور وارين برنتيث أستاذ التعليم بكلية مدينة ساكرامنتو ، وعضو مجلس معهد تحليل المعاملات ، أن التلميذ الذى يأتى الى المنزل بالشهادة وعليها الملحوظة القائلة « حاول أن تبذل جهدا أكبر » يفسر الملحوظة على أنها صادرة عن موقف (أنت لست على ما يرام) الأبوى غير المميز ، بينما ما يحتاج لمعرفته هو « جرب ما هو أصعب » · أما عبارة « بطىء جدا » فانها تثير السؤال القائل : « كم هى سرعة الاتجاه نحو الرأى الصائب ؟ » يقول برنتيث أن الطفل يحتاج الى المساعدة لتحديد المناطق التى هو ناجح فيها أو يمكن أن ينجح فيها ، ولا يتم هذا عن طريق اختبار تحريرى ، حيث أن هذا الأسلوب يثير الشريط القديم القائل : « أنا لا أستطيع أن أعملها ، فلماذا أحاول ؟» ويتم انجاز ذلك بالاستماع والحديث مع الصغير · ويقول أنه اذا كانت هناك مشكلة تواجه الصغير فى المدرسة فمن غير المجدى القول بأن البقاء أكثر فى مدرسة صيفية ، أو فى أيام العطلات سيساعده اذا لم تفصل المشكلة المحددة وتتم مواجهتها · يقول « الوالد » : « اعمل أكثر من هذا » ويسأل « الراشد » : « ماذا أعمل أكثر ؟ » (٦) نشرت جريدة

(٦) The Centre Circle, "News letter of the Institute of Transactional Analysis, Vol. 1, No. 7, (October 1967).

كانساس سيتى ستار خبرا يتعلق بموظف عمومى أعلن عن تردد الكثير من الأحــداث على حــانات البيرة ، وعقبت الصحيفة قائلة : انه يقول ان الصغار يغشون الحانات ، ولكنه كعادته يغفل الاشــارة الى كيفية التزام الطريق القويم ٠

بعد أن ألقيت كلمة عن تحليل المعاملات على فريق من الدارسين ، قيل لى : « المفروض أن ندرس ذلك فى المدارس ؟ » ووافقت بالتأكيــد ، كما يوافق كذلك العديد من الآباء ٠ وقد وجهت السؤال القائل : « هل يجب تعليم تحليل المعاملات فى المدارس ؟ » الى ســـتة وستين من الآباء والأمهات الذين أكملوا دراسة سلسلة محاضرات فى تحليل المعاملات ، استغرقت ثمانية أسابيع ٠ وردا على السؤال أجاب ٩٤٪ من الآباء بالايجاب بالنسبة للمدارس العليا ، بينما أجاب ٨٥٪ بالايجاب بالنسبة للمدارس الاعدادية والابتدائية ٠

ان التعليم هو أعظم علاج لأمراض البشرية ، تلك الأمراض المتأصلة فى السلوك ٠ ولذلك يستطع « التعليق المتعلق بالسلوك » من خلال نظام سهل الفهم مثل نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفــل) أن يكون الشىء الأعظم أهمية الذى نستطيع أن نعمله لحل المشاكل التى تحاصرنا وتهدد بتدميرنا ٠ ان المهمة المطلوبة تستعصى على الفهم ، لكن علينا بطريقة ما ــ أن نوقف مسيرة الأجيال الحالية المندفعة نحو الجنون أو غيره من أشكال تدمير الذات التى تعود فى أصلها الى الطفولة ٠

علاج ما قبل المراهقة :

ينظر بعض الآباء الى فترة ما قبل المراهقـــة على أنها فترة الدفاع المستميت التى تسبق ظهور هورمونات المراهقة وتقاليعها ، التى تسبب التعقيد فى العلاقة الصعبة بين الصغار وآبائهم ٠ وهذا هو الوقت الذى يتعرض فيه الصغار أقصى التعرض للأفكار الجديدة عن العــالم المحيط بهم ، فى المدرسة وفى الاتصالات الاجتماعية ٠ انه الوقت الذى ينفذ فيه الصغار ألعابهم المبكرة بحركات جديدة مبتكرة ، تدفع بعض الآباء الى الارتباك ، والبعض الآخر الى الطبيب ٠ وعلينـــا أن نتذكــر أن الصغير يحتاج الى الأمان الناتج عن الانتماء ، والثبــات ، والحنــان ، والتقدير ، والتوافق ، والمساندة ٠

لقد وجد بعض **الصغار** أن أنجح طريقة لتحقيق هذا الأمان هي الامتثال ، والتعاون والابتكار اذا سمح الأبوان ، وسيستمر الآخرون الذين لم يتعلموا الحصول على الحنان بهذه الطريقة فى استخدام أساليب التعامل المبكرة الخاصة بالسنة الثالثة من العمر ، مثل التمثيل ، والاختبار ، والتنافس ، والمراوغة ، والاختلاس ، والاغراء . ويمكن لهذه الأسباب أن تعمل على بث الفوضى فى الأسرة خاصة عندما يستخدم **صغير** ما قبل المراهقة تفكيره الحاد للوصول الى الكمال .

لقد بدأت فى سنة ١٩٦٤ مع مجموعة ممن هم فى سن ما قبل المراهقة ، **الصغار** الذين تتراوح أعمارهم ما بين تسع سنوات ، الى اثنتى عشرة سنة . وكان أفراد المجموعة يتقابلون كل أسبوع مرة . وكانت مجموعة من آبائهم تتقابل مرة كل أسبوعين مساء . واستمرت هاتان المجموعتان فى الحضور على مدى العام الدراسى . وعند نهاية العام دعى كل **صغير** مع أبويه للحضور لاستعراض النتائج . وكانت النتائج باهرة ، ذلك أنه حتى الشكل البدنى للصغار كان قد تغير .

جسد العديد من **الصغار** احساسهم بأنهم ليسوا على مايرام فى تعبيرات وجوههم وايماءاتهم ، وكان هناك تحسن ملحوظ فى المجموعتين . وأفاد الجميع بحدوث تحسن فى الاتصال . وشعر الصغير بقدرته على الحديث عن مشاعره ، وتوضيح وجهة نظره بدون اثارة عاصفة من الأب ، أو موقف عابس . واكتشف الآباء قدرتهم على وضع مطالب واقعية ، وفرض الحدود المعقولة ، بدون استثارة أنواع سلبية من السلوك يحاصرهم بها **الصغار** . وتحاور **صغار** سن ما قبل المراهقة مع آبائهم باستخدام مفهوم « العقد » الذى ينص على ما يتوقعه كل طرف من الآخر ، ومناقشة التوقعات واستعادتها من وقت لآخر على مستوى (راشد ــ راشد) . وحيث أن العقد كان واضحا فانه تضمن ما يجوز عمله ومالا يجوز مع نتائج الخروج على العقد . وتحسنت العلاقة بين الأب والابن بصورة ملحوظة . ويعتبر العقد واحدا من أحسن الأدوات التى أعرفها لتأكيد الثبات فى الاتجاه والنظام ، وذلك لأنه عقد بمعرفة « الراشد » ، ويمكن فحصه من وقت لآخر بمعرفة « الراشد » مع الاستفادة القصوى من المحافظة عليه مجددا ومرنا بما فيه الكفاية لمواجهة الحقائق المتغيرة . ويعامل العديد من الآباء **الصغار** الذين فى سن ما قبل المراهقة بنفس الطريقة التى عاملوهم بها عندما كان عمرهم أربع سنوات ، وذلك فى الغالب بسبب أنهم لايقدرون مدى تغير **الصغير** من عام لآخر ،

وازدياد قدرته على استخدام « راشده » · وبعد كل شيء فان تعلم الصغير التحكم الداخلي الحقيقي أمر يعود الى « الراشد » · ان ادراك الصغير أن لديه « راشد » وأنه لم يعد مجرد « ولد صغير أحمق » يستبعد قدرا كبيرا من المتاعب والاحتكاكات من حياة الأسرة ·

وتعلم مرضاى الذين فى سن ما قبل المراهقة نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) بسهولة ، ووجدوه ممتعا ومفيدا · ومما ساعد على ذلك تشجيع آبائهم الذين اهتموا بتلك التجربة · وسرعان ما تطور فهمهم لتحليل المعاملات · وبينما أصبح الحوار الداخلي والخارجي بين (الوالد والطفل) أقل حدة ، تحرر « الراشد » ليتولى مهمته الخاصة باكتشاف شئون الحياة · وهذا هو الوقت الذى يشرد فيه فكر الأولاد والبنات حول ما يريدون أن يكونوا عليه · وعندما يبدأون فى وضع مثل سامية ، ويشعرون بتقارب جديد فى العلاقات مع أصدقائهم يكون هذا هو الوقت الذى يبدأون فيه توجيه الأسئلة الصعبة حول الصواب والخطأ · انه الوقت الذى يعطى فيه توم سويرز وهكليرى فينز « وعدا بالدم » (*) ويريدان من الحياة الأكثر والأكثر · وهذا هو الوقت الذى يصبح فيه الصغير حساسا بالنسبة لنوعية الحياة التى يحياها أبواه · ويظهر خلال سنوات ما قبل المراهقة أنه لايكفى أن تكون مجرد أب طيب ، كما لو أن تلك كانت هى الوظيفة الوحيدة للوصول الى سن الرجولة ، ولكن المطلوب أن تكون شخصا طيبا له اهتمامات واسعة وخلاقة فى كل مناحى الحياة ، وليس مجرد شخص قلق وانطوائى يدور اهتمامه حول « صغيرى ، وأسرتى ، واذا ما كنت أبا طيبا من عدمه » ·

ويتحدث ألان واطس القس الأنجليكانى المتخصص فى الفلسفة الشرقية عن موقف الانهزامية فى الأب الذى يجلس فى المنزل ويتساءل فى حيرة عما اذا كان يوفر للصغار خير رعاية لأنه يظن أن كل ما عليه تقديمه فى الحياة هو صغير حسن التربية » · ويقول القس أيضا : « ان المشكلة هى أننا جعلنا الأب والأم فى عائلات كثيرة جدا يحسان بالذنب فيما يتعلق بمدى صحة الأسلوب الذى يتبعانه فى تربية صغارهما · انهما يظنان أن السبب الوحيد الذى يدفعهما للاخلاص فى القيام بأعمالهما المحترمة هو الحصول على نتيجة طيبة فى الصغير · ان

(*) اشارة الى بطلى رواية « توم سويرز » لمارك توين ، وهما طفلان يعقد ميثاق صداقة بينهما بالدم ـ المترجم ·

ذلك يشبه محاولة أن تكون سعيدا لمجرد أن تكون سعيدا • وان السعادة ناتج ثانوى • وكذلك الطفل الدمث الأخلاق (٧) • ولو كان الشيء الوحيد الذى يجب على **الصغير** أن ينظر اليه عندما يكبر هو أن يكون أبا أو أما عليه أو عليها أن يعتنى **بصغير** غر (مثله) ، فلماذا يهتم بأن يصبح رجلا أو (امرأة) صالحا ؟ هنا يجدر بالأبوين أن يتساءلا : « كيف نتصرف كأشخاص أمام **صغارنا** ؟ » بدلا من : « الى أى نوع من الآباء أنتمى أنا ؟ » أريده أن يكون سعيدا ، فهل هناك بهجة فى بيتنا ؟ وأريده أن يكون مبتكرا ، فهل أنفعل أنا ازاء الأشياء الجديدة ؟ وأريده أن يتعلم شيئا ، فكم كتابا قرأت أنا فى الشهر الماضى ؟ أو العام الماضى ؟ أو الأعوام الماضية ؟ وأريد أن يكون له أصدقاء ، فالى أى مدى أنا ودود ؟ وأريد أن يكون لديه مثل عليا ، فهل عندى أنا مثل عليا ؟ وهل هى مهمة بما فيه الكفاية حتى أعبر عنها فيما أفعل ؟ هل حدثته أبدا عن آرائى ومعتقداتى ؟ وأريده أن يكون كريما ، فهل أنا أشفق على أى فرد خارج أسرتى ؟ ان الناس يتعلقون ليس بما يريدونه ولكن بما هم عليه • والناس أيضا لايربون **الصغار** الذين يريدونهم ، ولكن **الصغار** هم الذين يكررون ما عليه آباؤهم • ومع « انسحاب » الآباء يستطيع الصغار أن يبدأوا فى رؤية الطريق الذى يبعدهم عن الخضوع لموقف (أنا لست على ما يرام) • ان **الصغير** يبدأ فى اكتساب التجربة باحتكاكه مع العالم الخارجى والناس حيث يمارس الحياة وحيث يبدأ « الراشد » فى اكتساب المزيد من القوة ، وتولد التجربة مشاعر (أنا على ما يرام) التى تعمل على مواجهة الاحساس بأنه ليس على ما يرام ، وتمحو احساسه باليأس •

الطفل المتبنى :

ان فترة ما قبل المراهقة صعبة ، خاصة بالنسبة للصغار الذين يناضلون ضد الأحمال الزائدة • وهذا هو على سبيل المثال ـ الوقت الذى يبدأ فيه الصغير المتبنى فجأة فى التمرد المؤسف على أبويه ، رغم تأكيد أبويه له مرارا أنهم قد اختاروه ولم يفرض عليهم فرضا ، ولذا فهو يفضل الأبناء الآخرين • ومنذ وقت ليس بالقصير بدأت مؤسسات التبنى تدعو الآباء المتبنين الى مصارحة الصغير مبكرا بحقيقة وضعه على قدر الاستطاعة ، قبل أن يصير « راشده » كفؤا للمعاملة • وكل ما يحصل عليه من ذلك

---

(٧) A. Watts, "A Redbook Dialogue", Redbook, Vol. 1, 127, No. 1 "May 1966".

هو الشعور بأنه مختلف ، اذ أن الصغير فى سن الثالثة أو الرابعة ليس بقادر على فهم معنى التبنى ، وكل ما يحتاجه هو احســـاسه بالانتمـاء لشخص ما ، لأبويه • ان العناصر الدقيقة للميلاد البيولوجى لا تعنى شيئا بالنسبة له فى هذه السن ، ولكن بعض الآباء البدلاء يحدثون صغارهم فى هذا الموضوع انطلاقا من حقيقة أنهم اختاروه من بين الآخرين مما يفرض على الصغير التزاما لايستطيع أن يرده ، ونعنى بهذا أنه يتساءل : كيف يمكن أن أكون طيبا بما فيه الكفاية بالنسبة لكما مثلما كنتما بالنسبة لى عندما اخترتمانى ؟ » انه احساس بالخجل يراود الصغير يشـــبه ذلك الاحساس الذى نراه عندما يشعر انسان بالحاجة لأن يقول : « أشكرك لشخص آخر لمجـرد أنه يعامله كبشر ، ومثـل أن يتقدم عجوز بالشكر لشاب لأنه يرحب به (*) ويستطيع احساس الطفل المتبنى بالاختلاف ، أن يعلو بموقف « أنا لست على ما يرام » حتى يصبح صرخة مدوية وينقلب الى يأس مفعم بالاضطراب • أما موقفى بهذا الصدد فانه يتلخص فى أن مناقشة التبنى يجب تأخيرها حتى اللحظة التى يصبح فيها لدى الصغير « راشد » قوى بما فيه الكفاية ، وربما يحدث ذلك فى ســن السادســة أو السابعة •

وهنا قد يثـور الأبوان ويؤكد ان الحاجة الى « الأمانة المطلقــة مع الصغير » • وربما ينطبق هنا مبدأ مهم أكثر من الأمانة المجردة وهو الاهتمام الحقيقى بالصغير ، الذى من المحتمل ألا يستطيع تصنيف كل المعلومات المعقدة المتعلقة بهذه المعاملة • اننا نتقدم ونحمى الصغار من الأشـــياء الأخرى التى يكونون غير قادرين على فهمها بسبب صغر السن ، فلماذا لانتقدم هنا ونحميهم من « حقيقة » لايستطيعون فهمها ؟ ولكن قد يعترض الأبوان لأنه سيسمع الحقيقة من صغار الجيران ! حقيقة ، انه سيفعل ، أما كيف تسجل هذه المعلومات عند الشخص الصغير فان ذلك يعتمد الى حد كبير على : كيف يكون رد الفعل لدى أبويه ، اذا دخل صغير فى الرابعة وذكر أن الأولاد الآخرين يقولون أنه متبنى و « ما معنى كلمة : متبنى ــ هذه ؟ » تستطيع الأم تحويل ذلك لشىء غير مهم نسبيا فتؤكد للصغير مثلا « أنت تنتمى الينا » وأعتقد بشرف أنه من الأفضل أن يقال للصغير : « نعـم أنت جئت من بطن ماما » حتى ولو بشبهة الكذب ، أفضـــل من

(*) المؤلف يعبر هنا عن موقف كبار السن فى المجتمعات الأوربية حيث يعانون فى الغالب من اهمال الشباب واستخفافهم بهم ، وهذا الأمر للأسف بدأ يظهر مؤخرا فى مجتمعاتنا الشرقية وان كانت روح الدين لدى بعض الشـــباب تخفف من وطاته لدى الشيوخ ــ المترجم •

الدخول فى تفاصيل كثيرة عن النمو فى بطن أم أخرى • واذا جعلنا الشخص الصغير يشعر بأنه ينتمى حقيقة لأبويه الجديدين ، فسيكون لديه فيما بعد « راشد » قوى بما فيه الكفاية ــ ليعرف لماذا كذبا عليه : انهما بصرف النظر عن محبتهما له ، أرادا أن يجنبـــاه عبء الحقيقة المربكة والمقلقــة •

علينا أن نفحص الحقائق المجــردة لدينــا • هل الشرف التام هو الالتزام الأفضل دائما ؟ وعلى أية حال يبدو أنه كما يشـــير تروبلاد : « نحن دائما مهتمين بالتبسيط المخل عندما نشدد فقط على مبدأ واحد من عدة مبادىء وثيقة الصلة » (٨) •

وهو يرى فى المثال التالى أن الاهتمام برفاهية شخص أو أشخاص أمر أهم وأثمن من التزام الشرف المحض :

اذا تدبرنا عواقب قول الصدق فى كل موقف ، فما قولك فى هذا الموقف : افترض أنك فى بلد شمولى ، وضـــع فيه رجل ذو مبادىء سامية وشجاعة فى السجن • وحدث أن رأيته يهرب فى شـــارع معين ، وسرعان ما رأيت بعد ذلك أن حراس السجن يبحثون عنه ، وأنت متأكد منطقيا أنه اذا اعيد الى السجن بعد القبض عليه ، فسوف يعذب • فاذا سئلت عما اذا كنت قد رأيته يجــرى فى الشارع فان اجابتك المحتملة ستكون : نعم أو لا • اذن فما هو واجبك الأخلاقى فى هذا الموقف الخاص ؟

انه موقف يجب أن تتخذ فيه قراراتنا بوضوح ــ عن طريق موازنة الصعوبات النسبية ــ وهذا هو ما يجب أن يعمله الأبوان عند مواجهـــة مشكلة ماذا يجب أن يقال للصغير المتبنى ؟ من الصعب أن تصارحــه ، ومن الصعب ألا تقول له وهو سيعرف حتما ، ولكن الأبــوان يستطيعان تعديل القول بطريقة تحميه من التورط فى الاحساس بأنه ليس على ما يرام عن طريق اختيار الوقت ، والوسيلة ، والتفاصيل ، وقد يكون من السهل بالنسبة للصغير عندما يكون قد طور « راشده » أن يقبل القول : « لقد كذبنا لأننا أحببناك » • أفضل من الاعلان فى سن مبكر أنه مختلف عن أى شخص آخر من حيث عمق النظرة والأهمية • ليس فى الاســتطاعة تحديد ما يقال ، ولكن من المستطاع مســـاعدة الأبوين فى التعرف على احساس الصغير بأنه ليس على مايــرام ، والتأثيرات المختلفـــة لنموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) الخاص بهما • وبهذه المعـــرفة يستطيع

(٨) Elton Trueblood, "General Philosophy," (New York : Harper and Row, 1963).

الأبوان الاستمرار فى « عزفها سماعيا » فى السياق التالى ، مرة أخرى ، كما حددها تروبلاد فى نفس الكتاب قائلا :

ان الأفضل هو أى موقف واقعى يتمشى مع « الأقل ضررا » • وهنا ضرر معين فى كل الأكاذيب ، لأنها تنحو نحو كسر قاعدة الثقة ، وهناك ضرر فى اعادة مظلوم الى السجن • وعلى الرجل الصالح أن يزن هذه المعانى كأفضل ما يستطيع ، وواجبه هو الالتزام بالأقل ضررا ، لآن الاختيار الوحيد أسوأ • وحتى فى مثل هذا الموقف فاننا نرغب فى تفادى الاختيار القاسى ، ولكننا لا نستطيع ، لأننا سنواجه بما أسماه وليم جيمس : اختيارا اجباريا ، والفشل فى اتخاذ قرار هو قرار فى حد ذاته • ربما كان قرارا يتجه نحو أسوأ الاختيارات المتاحة ، ومن الواضح أن الرجل الذى يرفض اتخاذ القرار لايتحرر من المسئولية بل أنه يستحق اللوم • اننا مسئولون عن الضرر الذى نسمح بحدوثه كمسئوليتنا عن الشر الذى نرتكبه •

ولذلك علينا أن نتلمس طريقنا على أساس ما نعرفه • ان معرفة موقف الصغير تمثل بناء من المعرفة يساعد الأبوين فى اتخاذ تلك القرارات التى ستفيض حنانا وتهدىء من احساسه بأنه ليس على مايرام وتؤكد على حقيقة (أنت تنتمى الينا) ومثل هذا الفهم سيساعد أيضا الأبوين القائمين بالتبنى على أن يكونا حساسين بالنسبة لصغيرهما الذى يشعر بأنه ليس على مايرام • والعديد من الذين لايستطيعون الانجاب يشعرون بموقف لست على مايرام لدرجة أنهم يطلبون فى الحاح أن يتبنوا صغيرا ويؤكدون أن هذا الصغير لن يجلب العار للأسرة ••• الخ •

ان عبء الاحساس بأن المرء ليس على ما يرام أشد وطأة بالنسبة للصغير المتبنى • ولكن ، كما هو الحال مع كل صغير ، علينا أن نبدأ من حيث نقف • اننا لا نستطيع العودة الى الوراء واعادة بناء الظروف لتشكيل حالة لم تكن موجودة • وتكمن فائدة نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) فى بث النظام فى فوضى المشاعر اذ أنه يفصل ما بين « الوالد » ، « والراشد » ، « والطفل » ، وبذلك يجعل الاختيار ممكنا • وقد أتيحت لى الفرصة من خلال عملى لسنوات طويلة كمستشار « لشعبة الطفل » بهيئة ولاية ساكرامنتو للخدمة الاجتماعية للعمل مع عدد كبير من الصغار المتبنين وآبائهم البدلاء • ووجدت أننا لو استطعنا أن نطور لدى كل من الأبوين والصغار ، حساسية نحو تأثيرات « الوالد » ، « الطفل » فى كل منهم ، لاستطعنا أن نبدأ فى استنباط أفضل الطرق لمساعدة هؤلاء الصغار للتغلب على تسجيلات الاحساس بأنهم ليسوا على ما يرام ،

القوية والهدامة والتى تكونت خلال شهورهم وسنواتهم المبكرة التى قد تؤدى الى اصابتهم بالصدمات النفسية ٠

أما صغار المطلقين فهم ضحايا عاصفة أخرى : عاصفة الخوف ، والاحباط ، والانفعال التى فرقت الأسرة ٠ وفى أفضل الحالات نجد ان الطلاق هو موقف (أنا لست على ما يرام) الذى يصيب « الطفل » الذى يشعر بأنه (ليس على ما يرام) الكامن فى سائر الأطراف المعنية ٠ وعادة ما يفتقر هؤلاء الأطراف الى « راشد » قوى ٠ وهذه هى المشكلة الأساسية ٠ ان الأم والأب محاصرين كلية بالمؤثرات الضارة فى معاملات متقاطعة بحيث يترك الصغار فى حيرة خلال معاملاتهم الخاصة ٠ وبالرغم من آن الأبوين قد يكونا مهتمين بمعالجة الأمر ، الا أنهما غالبا لا يستطيعان تقديم المساعدة الكافية لتمكين الصغار من الحياة فى خضم الأسر الممزقة دون التعرض للمخاوف والاهانات التى تساند موقف (أنا لست على ما يرام) بشدة ٠ وفى هذه الحالة ، كما يحدث فى كل الحالات التى يعيش فيها الصغار خلال فترات الضغط الشديد ، توجد امكانية تخليص أنفسهم من قبضة الماضى اذا ساعدناهم على معرفة أن لديهم « راشد » يستطيع مساعدتهم للعثور على حقيقتهم وطريقهم خارج غابة المشاعر التى يعيشون فيها ٠

الطفل وسوء المعاملة : ــ

حينما يتعرض الصغير لمعاملة سيئة فاننا قد نصنع منه عدوا للبشر ٠ وهذا هو الصغير الذى يتكرر ضربه بطريقة وحشية تؤدى الى تمزيق جلده ، وتكسير عظامه ٠ ما الذى سجل فى « الطفل » ؟ وما الذى سجل فى « الوالد » لدى هذا الصغير وهو يتعرض للضرب ؟

لقد سجلت فى « الطفل » مشاعر الفزع والخوف والكراهية المفجعة ، والصغير يناضل ويتخبط فى هذا الكابوس الذى يثور داخله (ضع نفسك فى مكانه) ٠ لو كنت كبيرا مثلك كنت قتلتك ! وهنا يحدث التحول الى الموقف المعقد (أنا على ما يرام ، وأنت لست على ما يرام) أى أن « الوالد » يسجل رخصة تخول له ارتكاب القسوة ، ان لم يكن الاذن بالقتل ، بل وأدق تفاصيل أسلوب ارتكاب الجريمة ٠

وخلال مسار الحياة فيما بعد ، قد يفسح هذا الشخص الطريق لهذه التسجيلات القديمة تحت الضغط الشديد ، ان عنده الرغبة فى القتل « الطفل » ، والاذن بالقتل « الوالد » ٠ وهكذا يقدم على القتل ! ٠

لقد سنت العديد من الولايات الأمريكية قوانين لحماية الصغار ، تفرض على الأطباء الذين يتشككون فى حدوث معاملة وحشية تكون قد أدت الى حدوث الاصابات التى يعالجونها ، أن يبلغوا شكوكهم تلك الى السلطات . والسؤال هو : « ماذا يحدث بعد ذلك ؟ » أقول أن فرصة العلاج ستكون ضئيلة اذا لم يتلق الصغير ، فى فترة ما قبل المراهقة ، علاجا مكثفا حتى يستطيع أن يفهم مصدر مشاعره . الميالة للعنف ، ويفهم بعد ذلك أنه بالرغم من ماضيه ، الا أن أمامه أن يختار مستقبله . أما المجتمع الذى يقدم للصغير المحطم أقل من هذا ، فانه يلعب بالنار .

ويوجد بالطبع درجات من سوء المعاملة ، وأعتقد أن العنف الجسدى واستخدامه مع الصغار ينتج مشاعر تدعوهم لاستخدامه . والأمر المسجل هو : « عندما تفشل كل الوسائل ، اضرب ! ان حكم الاستئناف النهائى هو العنف ، وأنا لا أرى ضرورة لعقاب الأطفال بالضرب الخفيف الا مع استثناء واحد : عندما يكون الطفل أصغر من أن يفهم الخطر ، عندئذ يصبح الضرب هو الأسلوب الوحيد لمنعه من النزول الى الشارع . وهو فعال جدا فى مثل هذا الموقف اذا لم يستخدم يوميا بالنسبة للانتهاكات غير الخطيرة مثل سكب اللبن ، أو ضرب الأخت . اننا لا نستطيع أن نعلم الصغار نبذ العنف بالعنف . وعلى أية حال فان الآباء بشر وليسوا ملائكة ولذا فقد يندفع الوالدان فى عقاب الصغار ، ولكن مشاعر الأب والصغير يمكن تحليلها من خلال نموذج (الوالد والراشد والطفل) وبذلك يمكن أن يخرج الأبوان بشىء بناء من الواقعة : كيف نمنعها من الحدوث ثانية على سبيل المثال . ومن المهم للأبوين أن ينظرا الى العقوبة البدنية على أنها نابعة من « الطفل » الكامن فيهما ، وليست صفة ايجابية تندرج تحت عنوان : التأديب والتهذيب . ويقول برونو بتلهايم عن ذلك :

« دعنا نتوقف لحظة ، ونتمعن فى كلمة ـ تأديب ـ وهى مرادفة لكلمة : نظام discipline . اذا عدت الى قاموس Webster ، ستجد أن هذه الكلمة مشتقة من كلمة : تلميذ disciple ، والتلميذ ليس شخصا تضربه على رأسه . انه شخص يتلمذ نفسه على أستاذ ويتعلم عنه صنعته ليعمل فى نفس المهنة . وهذا هو مفهوم النظام . ولذلك فانك اذا أوضحت لصغارك : عندما تغضب ـ اضرب ، وهذه طريقة جديدة للحصول على الأشياء ـ فانهم يسجلون ذلك . ثم نشكو من العنف المنتشر فى مدننا » . (٩) .

---

(٩) B. Bettelheim, "Hypocrisy Breeds the Hippies ?" Ladies Home Journal March 1968.

تدريس نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) للمعوقين :

عندما نعرف أن جميع الصغار يناضلون تحت وطأة الاحساس بأن المرء ليس على ما يرام ، فاننا نبدأ فى تقدير قسوة الحمل الذى يحمله الصغير المعوق ٠ انه لا يشعر فقط بأنه ليس على ما يرام ، ولكنه فى الحقيقة أقل مواءمة من ناحية الموهبة الذهنية بالنسبة للصغار الآخرين ، ويصحب تخلفه الذهنى فى الغالب نقائص بدنية أخرى وعاهات ظاهرة ، تستدعى من الآخرين استجابات تكشف عن ضعف تقديره لنفسه ٠ أما بالنسبة للمنافسة مع الصغار الآخرين ، فان موقفه يتأكد دائما ، ويضاعف من مشاكله تصارع المشاعر الثائرة فى داخله ٠ انه فى الحقيقة ، يجد صعوبة فى استخدام حاسبه لأنه يتأثر الى حد بعيد بالتأثير الهدام المستمر لموقف (أنا لست على ما يرام) ٠

أما عجزه عن تثبيت نفسه فى مجتمع يخضع للمقارنة والمنافسة فانها تخلق أحيانا متاعب تتطلب رعاية فى معهد خاص تخفت فيه حدة هذه المنافسة ، الا أن اضطرابه الانفعالى يظل يعذبه هو والذين حوله ٠ وتعتبر فاعلية العلاج بالتحليل النفسى مع المعوق موضوعا مثيرا للجدل الكثير ٠ ولا يوجد فى مادة الطب النفسى الا القليل عن علاج المعوقين ٠ أما أسلوب العلاج الجماعى فلم تجر عليه حتى الآن سوى القليل من التجارب ٠ وتتضمن الأساليب التقليدية المستخدمة فى معظم المعاهد التى يقيم فيها المعوقون ، أسلوب الحنان الأبوى ، وتنظيم الوقت ؛ وتجنب المنافسة الزائدة عن الحد ، وفرصة للنجاح النسبى فى الأعمال التى يقدر المعوق على أدائها ٠ وهذه النوعية من الأساليب أثبتت نجاحا معقولا فى تقديم حياة آمنة ، وأحيانا سعيدة بالنسبة للمعوقين ٠ وعلى أية حال فقد جرى تنسيق هذه الأسالب فى الغالب انطلاقا من معاملات (الوالد ـ الطفل) التى لها تأثير فى معاونة الصغير على تنمية التحكم الداخلى بتقوية « راشده » رغم أن هذا التأثير محدود ٠ وكانت المشكلة الدائمة بالنسبة للمشرفين على السكن تتمثل فى التعامل مع المواقف الانفعالية وهى مهمة تستنفد الكثير من الوقت ٠

لقد جرى تنفيذ برنامج جديد لتعليم نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) للمعوقين فى ساكرامنتو وذلك خلال شهر يناير ١٩٦٦ على يد دنيس ماركس ـ وهو عضو مجلس ادارة معهد تحليل المعاملات ، كما أنه أخصائى ومدير مستشفى لوريل هيلز ، الذى أقيم فيه مؤخرا مركز يشمل مائة سرير للمعوقين ٠ أحس ماركس بأن نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) كان نظاما من السهل فهمه لدرجة أنه يمكن تدريسه

للمقيمين فى المراكز الذى أنشأه • وتتراوح الأعمار ما بين ستة شهور ـ الى سبعة وأربعين عاما • وهى تمثل المحور العمرى الكامل للاعاقة •

وتتراوح درجة ذكاء هؤلاء الذين يحضرون مجموعات (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) ما بين ٣٠ ـ ٧٠ ، وثلث هؤلاء من المصابين بمعوقات بدنية جسيمة ، بينما أصيب الكثيرون منهم باضطرابات عصبية • وقد وضع ثلثهم فى أماكن منفصلة ، أما الثلثان الآخران فقد كانا تحت اشراف جمعيات عامة مثل : هيئات الرعاية الاجتماعية ، وأحيانا هيئة مراقبة المحكوم عليهم • وهم يحضرون من الدور الخاصة ، والملاجىء ، وأحيانا المستشفيات الحكومية ، أو اصلاحيات الأحداث • أما بخصوص العمر الزمنى ، فان معظمهم من المراهقين ، وصغار البالغين •

ان وجود الصغار المعوقين الذين لا حول لهم ، يجعل من الضرورى استبعاد الصغار الذين لا يستطيعون التحكم فى سلوكهم العدوانى • وكذلك فان الطبيعة المفتوحة للعلاج (لا أبواب مغلقة) تستدعى استبعاد الصغار ذوى المشاعر المدمرة أو شديدة العداوة للمجتمع ، أو هؤلاء الذين يعتزمون الهروب • وعلى أية حال فان التخطيط يتيح حرية ملحوظة ، ويمكننا من التعامل مع الصغار المفرطى النشاط والمشاغبين • ولذلك فان أكثر المشاكل الحاحا تتمثل فى مشكلتين هما تهدئة الصغير الثائر الميال للقتال ، وكيفية منع الصغير من الهروب • ويقرر ماركس أنه قد حدث نجاح ملحوظ فى هذين الموقفين بالذات ـ من خلال استخدام تحليل المعاملات •

وتتقابل مجموعة الصغار الثلاثين (نستخدم هنا اصطلاح الصغار للاشارة الى مدى العمر الكلى نظرا لعدم وجود اصطلاح أفضل) ، مرة كل أسبوع فى حجرة معيشة واسعة فى الوسط • ويجلسون فى دائرة واسعة بحيث يظهر ماركس والسبورة لكل فرد من المجموعة • مع العلم بأننا (نحن هنا لنتعلم نموذج : الوالد ـ الراشد ـ الطفل) ـ الذى سيساعدنا على فهم كيف يعمل الناس لكى نستطيع مقايضة احساسنا بالتعاسة والغضب ، بوقت عامر بالسعادة والنشاط » • وتتعرف المجموعة أولا الى مبادىء نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) : تتميز هذه العناصر الثلاثة للشخصية ، الممثلة فى الدوائر الثلاثة (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) • ويساعد ماركس الصغار على تمييز : « أى العناصر هو الذى يتحدث » عندما يقول أحد الأعضاء عبارة • وعلى سبيل المثال فانه يسأل المجموعة : « الآن •• من الذى يتحدث ؟ » (هل هو « والد » جون أم « راشده » أم « طفله » ؟) وبهذه الطريقة يتعلمون أيضا تحديد الكلمات • « اذا نظرت الى قطعة من الفاكهة الفاسدة ـ فتقول : « انها رديئة » والمتحدث

هنا هو « الراشد » • واذا نظرت الى صورة يرسمها شخص ولم تعجبك الصورة ـ فتقول : « انها رديئة » والمتحدث هنا هو « الوالد » • ان الموقف حرج وأنت تطلق حكما • واذا جئت عدوا الى حجرة اللعب وعيناك مغرورقتـان بالدموع وأنت تصيح : « انني أرى كل النـاس أشرارا » فالمتحدث هنا هو « الطفل » • وبهذه الطريقة يتعلم الصغار سريعا تحديد الكلمات والأفعال • انهم يجدونها مجزية وتجربة تساعدهم على معرفة أن لديهم « راشد » أو حاسب •

ان كلمة « حاسب » كلمة أخرى يرتاح اليها الصغار • وعندما يفهمون أن « راشدهم » شيء شبيه بالحاسب الاليكتروني يصبح من اليسير الحديث عن التخلف العقلي بصورة قد لا تتاح لنا في ظل معظم التقاليد الاجتماعية • وهذه هي الطريقة التي يقدم بها ماركس هذا الموضوع الى المجموعة •

بعض الناس لديه حاسب يساوي مليونا من الدولارات ، والبعض الآخر يساوي حاسبه عشرة آلاف دولار ـ ولكننا لن نقلق لهذا الأمر ـ وكل ما علينـا هـو أن نكتشف أفضل طريقة لاستخدام الحاسب الذي لدينا • ورغم كل ذلك لن تحتاج الى حاسب يساوي مليون دولار لكـي تعامل الناس بلطف ، أو تؤدي عملا طيبا •

ويفسر البرنامج كله العبارة الكثيرة التكرار « أنا على ما يرام وأنت على ما يرام » والصغار يكررونها في تآلف عند بداية ونهاية كل فترة ، وتصبح في حياتهم اليومية مفتاحا يغلق المشاعر السلبية ويفتح « راشدهم » • انهم يتلقون المساعدة ليفهموا أن المقارنة هي من شأن « الطفل » الكامن فيهم • ويشرح ماركس ذلك قائلا : ـ

يريد « الطفل » أن يقول : « ما لدي أفضل » و « لدي حاسب أفضل مما لديك » • وهذه هي احدى الوسائل التي يشعر الصغير بالتحسن من خلالها • ان « الطفل » دائم القلق حول من هو الأكثر وسامة • ولكن « الراشد » يسـتطيع رؤية أنه : اذا كانت الوسـامة هي أهـم شيء في الحياة ، فحينئذ سيكون هناك عدد محدود من الناس السعداء في العالم ، أي أن أحسن رسام ، أو أحسن عالم في الرياضيات ، أو احسن موسيقار • أما الباقون فسيكونون غير سعداء لأنهم ليسوا في نفس مستوى الوسامة • وتلتقط المجموعة هذا المفهوم وتقدره •

أما بخصوص مشكلة التحكم في السلوك العدواني ، فان ماركس يقرر أن الصغير الشديد الازعاج والميال للقتال ، يمكن تهدئته في خلال

دقيقتين أو ثلاثة • ويوضح أن العمل التحضيرى قد أجرى على هـــذه المجموعة ، وفسرت أساليب التحكم على أنهـا تنتمى الى ثلاثة أنـواع : « الوالد » ــ « الراشد » ــ « الطفل » • ويبدأ بأن يستثير أحد الصغار ويتظاهر بأنه سيضربه ويقول : « ثم أجذب ذراعه وأمسك به » ثم يسأل المجموعة : « كيف أتحكم فى جو ؟ » ويوافقون على أن هـــذا تحكم من « الراشد » لأنه يوقفه عن الضرب • ثم يتظـــاهر ماركس بأنه يضرب الولد ، وسرعان ما يعرفون ذلك بأنه تحكم من « الطفل » • ثم يتظاهر ماركس بأنه سيحمله على ركبتيه ويضربه على مؤخرته ، وسرعان ما يفسر ذلك بأنه تحكم من « الوالد » • أما طريقة استخدام هذا المفهوم فى التحكم فى المشاعر فقد سردها ماركس كما يلى : ــ

دخلت فى أحد الأيام حجرة كان بها ثلاثة أشخاص يمسكون صغيرا كان فى حالة هياج شديد ، وينتفض من الغضب ، ويناضل لكى يضرب كل واحد ممن حوله • كان ولدا فى درجة ذكاء تساوى خمسين • وكان جذابا ومبهجا بوجه عام ، فسرت اليه وأحطته بذراعى بشدة لوقفه • كان يرتعش ويصرخ : « دعنى وحدى ، دعنى وحدى ••• « وبعد حوالى عشرين ثانية قلت : « الآن ياتوم ، كيف أتحكم فيك ؟ هل هذا التحكم من « الوالد » ، أم « الراشد » ، أم « الطفل » ؟ فصاح : « من الوالد » •

فقلت : « غير حقيقى ياتوم • اننى لست أعاقبك والعقاب تحكم من « الوالد » ــ ولست أتشاجر معك ، فماذا يكون ذلك ؟ » فأجاب توم : « براشدك » • فقلت : « موافق • هذا صحيح ياتوم • والآن سنوضح لهؤلاء الناس كيف نعمل ذلك • ، عليك أن تأخـــذ يدى الآن وسنقول ما نقوله دائما • فتناول يدى وغمغم قائلا : « أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام » ودخلنا معا الى غرفة التلفزيون حيث اقترحت عليه أن ينضم الى الصغار الذين كانوا هناك يشاهدون أحد البرامج •

وقد استغرق الموقف كله منذ الالتقاء المرتعش ، المشحون بالأدرنالين، والمفعم بالغضب ــ حتى الدخول معا الى غرفـــة التلفزيون ، ثلاث دقائق بالتمام • وتمثل المفتاح فى اغلاق « الطفل » وتشغيل « الراشد » • وتم ذلك باستخدام السؤال البسيط : « كيف أتحكم فيك ؟ » ولم تكن هناك طريقة للتعامل مع هذه الكتلة الغاضبة المتأججة بالانفعالات والتى تسمى « الطفل » • ومن المؤكد أنه لم تكن توجد فى هذه اللحظة طريقة للتوصل الى معرفة ما يضايقه • وكان هدفى فى تلك اللحظة هو ببساطة تعديل سلوكه وتجاوز الموقف اذ لم يكن من الممكن قول أو سماع شىء معقول عندما كان هذا الصغير واقعا تحت سيطرة « طفله » •

وكان من الممكن للأسلوب التقليدى فى معالجة هذا الموقف أن يستغرق وقتاً أطول ، فضلا عن شعوره بأنه « ولد سيء » نظرا لاحساس « الطفل » بأنه ليس على ما يرام فضلا عن شعوره فى تلك اللحظة بأنه أسـوأ من المعتاد ، وكما رأينا فقد بث المعالج شيئا من الاحساس بالمشاعر الايجابية والثقة فى شكل « الراشد » ، والقدرة على التحكم فى الذات والعودة الى ممارسة النشاط الجماعى ٠

ويستجيب الصغار بسهولة لأسلوب تشغيل « الراشد » واغـلاق مفتاح « الطفل » الخائف أو « الوالد » المدعى (كما يحـدث لجهـاز التلفزيون) ٠

ويقدم ماركس مثالا آخر يتعلق بمعالجة موقف الهروب ٠ انها فتاة خجولة فى سن الثامنة عشرة ، درجة ذكائها ثمانية وستون ٠ تتحـدث بصوت رقيق ، وهى فى العادة لا تقول الكثير ٠ وفى أحد الأيام تمشى ماركس بجـوار حجرتها ووجد أنهـا قـد حزمت كل متاعها استعدادا للرحيل ٠ ولما رأته ، قالت من خلال الدموع التى انسابت على وجهها : « لا أحتاج الى هذا المكان أكثر من ذلك ٠ اننى راحلة ! » ٠

ان المدخل العادى قد ينكر عليها مشاعرها بعبارة مثل : « بالطبع أنت لست راحلة ٠ اذهبى الآن الى الغداء مع الصغار الآخرين ، لن تذهبى الى أى مكان ٠ وبالاضافة الى ذلك ، أين وسيلة المواصلات التى ستنتقلين بها ؟ » ٠

ومثل هذا القول قد يجعل « طفلها » أكثر تصميما ، وأكثر عنادا ، وأكثر غضبا ٠ انه لا توجد وسيلة « للمجادلة العقلية مع « الطفـل » المنفعل عندما يكون هو المتحكم ٠ وبدلا من ذلك جلس ماركس على سرير البنت ، وقال :

« هل أنت متأكدة » ياكارولين أنك لا تشعرين بالرضا اليوم ؟ لابد أن شخصا ما قد أوقع « طفلك » فى الفخ » ٠

فأجابت بسرعة : « نعم » ٠

فقال ماركس : « حسنا ، ماذا حدث ؟ »

فقالت كارولين : « لن يسمحوا لى بشراء أحد كتب الجيب » ٠

فقال ماركس : « أنت تعلمين أننى أحب « طفلك » (الشقى) ، ولكننى الآن أريد أن أتحدث الى « راشدك » ٠ ولذلك سأقول لك ماذا ٠٠٠ اقبضى على يدى ، وستقول : « أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام » ومهما كان ما عملاه ، فانه كان هو المفتاح الذى تشكل خلال أسابيع الدراسات

منذ بداية العام • ثم أصبح ماركس قادرا على الحديث الى « راشدهـا » • واستطاع « راشدها » معرفة أنه لا يوجد أحد هناك يستطيع أن يخرج في ذلك اليوم ليشترى لها كتاب الجيب الذى أرادته ، وربما أمكن غدا أو بعد غد • وكان ذلك الأمر بسيطا حيث عاد « راشدها » للسيطرة ، التى كانت مستحيلة عندما كان « طفلها » هو المسيطر • ووضعت حقائبها وذهبت للغداء • واستغرقت العملية كلها أربع دقائق • وعلق ماركس قائلا : —

« لقد حققنا ما أردناه فى هاتين الحالتين كلتيهما » • لقد أخضعنا الموقف الانفعالى ، وأثرينا علاقتنا ، وأخاطر بالقول بأنه لو توفر لهـؤلاء الصغار قدر كاف من العلاقات ، فانهم فى خلال بضعة شهور ، وربما عام يستطيعون أن يتعلموا بقـــدر كاف — التحـكم فى الذات ، وتصنيف المعلومات ، ليتمكنوا من الاحساس والتصرف الحسن •

وقد نقول فى اختصار أن حل مشاكل جميع الصغار ، بصرف النظر عن موقفهم ، هو نفس الحل الذى يطبق على مشاكل الكبار • علينا أن نبدأ انطلاقا من حقيقة أننا لا نستطيع تغيير الماضى • وعلينا أن نبدأ من حيث نقف • اننا نستطيع فقط أن نفصل الماضى عن الحاضر ، باستخدام « الراشد » الذى يستطيع أن يتعلم تحديد تسجيلات « الطفل » مع مخاوفه القديمة ، وتسجيلات « الوالد » مع الاعادة المقلقة لحقيقة الماضى • وسيجد الابوان اللذان تعلما أن يفعلا ذلك من خلال فهمهما وتطبيقهما لنموذج (الوالد — الراشد — الطفل) أنهما قادران على مســاعدة صغارهما على التفرقة ما بين الحياة كما رأوها أو تعلموها (والد) ، وبين الحياة كما أحسوا بها (الطفل) ،والحياة كما هى فى الحقيقة ، والحياة كما يمكن أن تكون (راشد) • وسيكتشفون أن نفس هذا الاجراء سيكون له أعظم أهمية خلال فترة التغيير القادمة وهى سنوات المراهقة ، التى سنفحصها فى الفصل القادم •

الفصل العاشر

نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) والمراهقون

(اذا أردت ان تتحدث معى فعليك ان تحدد معانى مصطلحاتك ـ فولتير)

فى أحد الأيام ذكر أحد أفراد مجموعاتى من المراهقين وكان عمره ستة عشر عاما ـ الواقعة التالية : « كنت أقف فى ركن من الطريق ، وكانت الإشارة حمراء • فقال « والدى » : لاتعبر • بينما قال « طفلى » : امض فى أى اتجاه ، وبينما كنت أناقش ما يجب أن أفعله ، تغيرت الاشارة الى اللون الأخضر » •

ان سنوات المراهقة تمضى على هذا المنوال • ويجابه المراهقون قرارات ضخمة وصغيرة فى آن واحد ، ولكنهم فى الغالب ، ينتظرون الظروف التى تتيح لهم اتخاذ القرارات ، لأنهم فى الحقيقة ليسوا أحرارا فى اتخاذ قراراتهم بأنفسهم • ان عقولهم تقترب من النضج ، وأجسادهم ناضجة ، بينما هم غير مستقلين قانونيا واقتصاديا • وغالبا ما تنقطع محاولاتهم للتحرر فى العمل لدى معرفة أنهم لايستطيعون بأية حال اتخاذ قراراتهم بأنفسهم • اذن فما فائدة اتخاذ قرارات صائبة ؟ انهم يشعرون كما لو كان تيار لحياة يجرفهم خلال سنوات المراهقة ، وينتظرون أن تتحول الاشارة الى الضوء الأخضر • بالطبع فان « الراشد » لاينمو تحت هذه

الظروف • وتأتي الصدمة عندما يتحررون قانونيا فيجدون أنهم لايعرفون ماذا يفعلون • ويقضي العديد منهم الوقت على أمل حدوث شيء ، أو حضور شخص ، أو يغيرهم شخص ما بطريقة ما •

وعندما هذا الحد يكون قد انقضى ربع عمرهم • وتتراجع معاملات المراهقين فى الغالب الى الأنماط القديمة التى تمثل (طفل ــ والد) بسبب الضغوط الخارجية والداخلية • وخلال فترة المراهقة يعاد تشغيل الشريط الخاص بمشاعر (الطفل) وبينما يزداد افراز الهرمونات ، وينفصل المراهق عن أبويه بصفتهما المصدر الرئيسى للحنان ، وينضم الى أقرانه التماسا لحنان من نوع آخر ، تدور شرائط (أنا لست على مايرام) بايقاع متزايد ، ولكن أساليب الموازنة التى تعلمها فى الطفولة للتقليل من سيطرة موقف (أنا لست على مايرام) يمكن الآن أن تكون خطيرة • فأسلوب التدلل الذى تصطنعه الفتاة الصغيرة يجب أن يوضع تحت السيطرة لحراستها من التطورات الجديدة الخارجية والداخلية ، أما العناد الماثل فى لعبة « ما لدى أفضل » عند الولد الصغير ، فيجب أن يتطور الى قواعد السلوك والأدب وهو يخوض التجربة المؤلمة التى يتعلم فيها كيف يضبط نفسه ويكبح جماح ذاته • كذلك يجب اعادة تعليم وتعديل مفهوم الاتصال • ان المراهق يندفع الى المسرح وفى يده نص جديد ، لم يقم بقراءته ، ولذلك فان السطور غير واضحة فى البداية ، مما يجعله مثل طائرة تنطلق بأقصى سرعتها بين طبقات السحاب المتراكمة ، وتحت الطائرة توجد سحب الرغبات الجنسية الفوارة ، والنضال الثائر من أجل الاستقلال الذاتى ، وهى سحب آخذة فى الارتفاع ، بينما تحوم وتهبط فوق الطائرة سحب القلق والرفض الصادرة عن « الوالد » • انه يشعر بالأشياء تطبق عليه ويبحث عن مخرج •

وتبدو الصعوبة الرئيسية فى أنه هو وأبواه فى الغالب ، يظلون يعملون حسب شروط عقد معاملة (والد ــ طفل) ، وبينما يرى نفسه ناضجا ، فانه لايزال يشعر شعور الطفل • وربما يقترح الأبوان ما يعتقدان أنه مسار منطقى تماما للعمل ، ولكن رفضه لوصايتهما قد يثيرهما ويشعرهما بالاضطراب والاحباط مما يثير « طفلهما » • وتنجم المشكلة فى كثير من الأحيان من أن المراهق يخلط بين أبويه الخارجيين و « الوالد » الكامن فيه • انه لايقدر أن يسمع الأب والأم أثناء سنوات المراهقة لأن الشرائط القديمة تعيد رواية الأب والأم المسجلة فى سن الثالثة ، بما تتضمنه من الصفعات ، والنظرات المرعبة ، وكلمات « لا » التى ترتفع كالرعد خلال تلك السنوات المبكرة • ويصدم الحافز الخارجى « الوالد »

و « الراشد » و « الطفل » في المراهق فى آن واحد · والسؤال هو : أى من هذه العناصر الثلاثة سيقوم بالمعاملة ؟ كان « الطفل » هو الذى يستثار دائما خلال الطفولة ، رغم أن « الراشد » كان يتولى العديد من المعاملات ، ويختلف كم هذه المعاملات باختلاف الشخصية · ان من السهل استثارة « الطفل » الكامن فى المراهق خــلال هذه الفترة من الحيــاة المشحونة بالمشاعر · وبينما كان من الممكن سرعة تبرير تصرفات الصغير باعتبارها حماقات طفوليـــة ، الا أن نفس هذه التصرفات تأخذ مظهرا مروعا فى عيون الأبوين ، فاغلاق الباب بشدة من قبل صغير فى الخامسة ، يتحول الى وقاحة مفزعة فى عيون أبويه حينما يصدر منه وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وطوله يناهز طول أبيه ، أما مص الاصبع الذى قد يتجاوزان عنه مع ابنتهما الصغيرة ، يصبح عادة قبيحة بشعة حينما يصدر من ابنتهما المراهقة ، أما الخيال الخصب والبراعة فى نســـج القصص فيتحول فى سن المراهقة الى وصمة « الكذب » · ولا تتغير التسجيلات القديمـــة ، فالكثير من الأساليب التى كان « الطفل » يلجـأ اليها للتعامل مع المواقف أثناء الطفولة ، تستمر فى سنوات المراهقة ، ويروى برتراند راسل :

لقد حرمت على ممارسة الكثير من الأشياء ، الا أننى اكتسبت عادة الخداع ، تلك التى داومت عليهـــا حتى ســــن الحادية والعشرين · وبت أعتقد أنه من الأفضل الا أفضى لأحد بما أقوم به من أعمال مهما كانت، حتى بات هذا الاعتقاد عادة لصيقة · ولم أتغلب مطلقا على دافع اخفاء ما أقوم بقراءته عند دخول أحد الى الغرفة · ولم أستطع التغلب على هذا الدافع الا بقوة الارادة (١) ·

وقوة الارادة هنا هى « الراشد » · ان « الراشد » يستطيع تحديد التسجيلات القديمة ، كما يستطيع أيضا معرفة أخطـــاء ونقائص اعادة الاستماع اليها فى فترة المراهقة · اذن فالحاجة الرئيســـية هى ضرورة أن يكون « الراشد » مسيطرا على هذا الجسم الذى يخصه لكى تستطيع حقائق الوقت الحاضر أن تكتسب الأســـبقية بالنسبة لحقائق الماضى ·

ان الشىء الذى يشكل المحور الأســـاسى فى العلاج هو تحــــرير « الراشد » فى كل من المراهق وأبويه لكى يمكن عمل عقد (راشـــد ـــ راشد) ، وبدون الراشد المتحرر تصبح الحياة عقدة مزدوجة غير محتملة

---

(١) B. Russell ; The Autobiography of Bertrand Russell", (Boston : Little Brown, 1967).

للطرفين كليهما . ان مشكلة المراهق تنحصر فى وجود « والد » مشاغب فى داخله ، بينما هو مجبر على الحياة فى داخل البيئة التى يتطور فيهـا هذا « الوالد » حيث أن هذا « الوالد » الذى فى الداخل ، يلقى التدعيم من الأبوين . وبينما يصبح الأبوان مهددين وخائفين ، فانهما يجـدان نفسيهما يدوران أكثر وأكثر حول « والدهما » طلبـا للحلول عن طريق الأجداد ، تلك التى يمكن أن تكون غير كافية مثل محاولة تشغيل الطائرة النفاثة بالتبن بدلا من البنزين . ويصـل التهديد فى كل من الأبوين الى درجة عزل « الراشـد » فى كليهما . ويتصرف المراهق حسب مشاعر « الطفل » . أما الأبوان المتخوفان من ترك مشاعرهما للعمل ، فانهما يحولان المعاملة الى « الوالد » (الجدة والجد) . ولا يستطيع الابن مشاركة أبويه فى الواقع دون عقد (راشد ــ راشـد) ، ومن ثم يتوقف الاتصـال بدونه . لقـد أعجبت كثيرا بالاحتفـال اليهودى المسمى بارميتسفا Barmitzvah ، وهـو طقس رمـزى وعمـومى لعقـد جـديد ، أو اعـلان عن توقعات الأبوين من ابنهما ، وأنه عند نهاية العام الثالث عشر من عمر الصغير اليهودى يصبح رجلا يتحمل المسئوليـة والواجبات الدينية وهو لايقوم بذلك دون استعداد . ويعتبر هذا الاحتفال تحقيقا لهدف تم اعداده منذ فترة طويلة ، وهو اعداد الصغير لقبول تحمل المسئوليـة بالتدريب والنظام الصارم حسب القانون اليهودى . وأعتقد أن مثل هذا الاحتفال يؤثر تأثيرا ايجابيا على شخصية المراهق . اننى أعـرف أسرة غير يهودية عقدت احتفالا مشابها ، بمنزلها ــ فى عيد الميلاد الرابع عشر لابنها ، حيث قيل له انه صار الآن مسئولا عن كافة قراراته الأخلاقية . وقد تقبل هذه المسئولية بجدية : وبالرغـم من أنه أبدى بعض الاهتمام حول النتائج ، الا أن هذا يعتبر فى صالحه لأن هذا الشـاب تم اعداده لتحمـل هذه المسئولية ، ولقى المساعدة فى اتخـاذ القرارات الأخلاقيـة منذ طفولته المبكرة ، ولاحظ أبويه وهما يتخذان قرارات صعبة حول القيم الأخلاقية لديهمـا .

وغالبا ما نسـال المراهقين : « ماذا ستصبح ؟ » ومن الصعب أن نخرج باجابة تنطوى على فكر خلاق ، اذا انشغل وقت الحاسـب دائمـا بالتفكير فى الماضى ، مثلما تقول ميراكوماروفسكى :

من الناس من يسير فى حيـاته كمـا لو كان يركب حافلة وجهت مقاعدها الى الخلف بما فى ذلك مقعد السائق ، ويشبه ذلك موقف الطالب

الذى يحشو رأسه بالمعلومات الأكاديمية ، وعليه بالرغم من تطوره العاطفى أن ينظر الى الخلف وليس الى الامام (٢) ٠

واذا كان ذلك الماضى مفهوما ، وتم تصنيفه ، فان الحاسب لن يكون مشغولا دائما بالتفكير فى الأحداث السابقة ، بل سيكون حرا فى الانتظار والتمشى مع مواجهة الواقع ٠ وحينئذ يستطيع المراهق أن يركب حافلة تتجه مقاعدها الى الأمام ، وبهذه الطريقة يستطيع الحصـــول على اختيار سارى المفعول ، وحر ، ويستطيع أن يرى الى أين يمضى ، ويتخذ قرارات صعبة حول المكان الذى يريد الذهـاب اليه ، بدلا من قبول طريق حتمى لم يختره بنفسه ٠

وقد تعاملت أثنـــاء عملى مع مراهقين عديدين ، كانـوا يتقابلون أسبوعيا ٠ وكانت هناك أيضا فرصة الالتقاء بالآباء فى المساء ٠ لقد كانت المشكلة الرئيسية هى الاتصال ، اذ أدت المعاملات المتقاطعة المتكررة الى اقتصار الحديث على عبارات نمطية مثل « هات الزبدة » ، و « اننى أحتاج عشرة دولارات لنهاية الأسبوع » ٠ والخطوة الأولى فى العلاج هى تعليم كل من المراهقين وأبويهم لغة ومفاهيم نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) وهذه **اداة تصنيف** كافية تستخرج الموضوع من بين كتلة المشاعر المضطربة والأوامر المانعة التى تنتمى الى « الوالد » والتى توجد فى كل من المراهق وأبويه ٠ ان الأبوين خليط من الخوف ، والاتهام ، وعدم اليقين ، والتفكير الذى يعتقد فى صحة الأمر لمجرد رغبة المرء فى أن يكون ذلك صحيحا ٠ وكذلك يتكون المراهقون من نفس هذا الخليط ٠ وهكذا نجد أن هناك قدرا كبيرا من الجوانب المشتركة بين الأطراف ، خاصـــة فيما يتعلق بنموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) ٠ أما أكثر اكتشافات المراهق حيادية فهو اكتشاف أن أبويه لديهما « طفل » مشحون بالتسجيلات المؤلمة مثــل « طفله » هو ٠ وبهذه اللغة الجديدة يبدأ بحر الاضطرابات فى السكون ٠ وقد قال أحد مرضاى من المراهقين : « انه لعظيم حقا أن تكون قادرا على الحديث عن الأفكار فى البيت ، وليس مجرد الناس والأشياء ٠ » وقال آخر : « ان أعظم شىء حقيقى متعلق بنموذج : « الوالد » ــ « الراشد » ــ « الطفل » ، هو أنه يخرج علاقتنا من نطاق (أنا ــ أنت) ويقسمها الى

---

(٢) M. komarovsky, "Social Role and the Search for Identity".
محاضرة القيت فى ندوة عن : السيل البيولوجى يتحدى النساء The Challenge to women-Biological Avalanche عقدت بكلية طب جامعة كاليفورنيـا ــ سان فرانسيسكو ، يناير ١٩٦٥ ٠

ستة أشخاص » • ويتراءى لبعض الأفراد فى معظم العائلات أنهم سجناء وأن الآخرين هم السجانون ، يقول الصغير : « أنت لاتستطيع أن تهجر أبويك لأنك لن تجد مكانا آخر تذهب اليه • » وتقول الأم : « كنت سأحب ابنتى لو كانت جارتى ، ولكننى لا أستطيع أن أعيش معهـــا فى نفس المنزل » • ويمكن الحديث حول هذا الأمر من خلال نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) بوصفه مشكلة مشتركة ، ويمـــكن أن تتجه الجهود المشتركة ليس فقط لتحويل الأسرة الى جماعة يستطيع كل فرد فيها أن ينعم بالحياة بين بقية أفرادها ، بل أيضـــا تحويلهـــا الى أسرة مبهجة ومثيرة •

وعلى أى حال ، فانه ليس من السهل ، تغيير أسرة من أرض المعركة الى الهدوء العائلى •

وبعض المراهقين لايتخلون بسهولة عن لعبتهم المفضلة : «انها غلطتهم» حتى اذا عرفوا أنها مجرد لعبة يلعبونها وليست حقيقة • ويميل الأبوان أيضا الى لعبة : « انظر كم حاولت بشدة » ، عندما يصير الموقف فى البيت صاخبا وعدوانيا الى حد بعيد ، تصبح الطريقة الفعالة لفض الاشتباك هى إدخال المراهق مستشفى للعلاج لفترة قصيرة ، كأسبوع مثـــلا • وهذا لن يؤكد حقيقة أن بعض الأشياء فى البيت خطأ ، بل يخرج المراهق أيضا من المنزل الذى يسيطر عليه « الطفل » ، ويضعه فى بيئة مساعدة حيث يستطيع تشغيل « راشده » ثم يبدأ فى التعلم • وفى نفس الوقت يتعلم أبواه نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) ويطلب اليهم حضور مجموعات الآباء والأمهات • وعندما يخرج المراهق من المستشفى يلتحق بمجموعات المرضى الخارجيين الذين يترددون على المستشفى للاســتشارة والكشف والمعالجة ، وذلك بغرض استكمال العلاج •

ومن ســوء الحظ أن العلاج أحيانا يبدأ بداية سيئة ، عندما يجبر المراهق على الحضور للعلاج • قال أحد الأولاد : « لقد دفعت بين هذه المجموعة مما استثار « الطفل » الكامن فى ، فلم يخبرنى أحد أننى سأحضر هنا حتى صباح أول يوم حضرت فيه • لقد أدخلنـــا هنا لأننا سيئون ، ولكن منذ بدأ تعلمنا نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) ونحن نشعر بالتحسن ، ولكننا عندما نعود الى المنزل نتعرض للسخرية أو للازعاج • وعندما أحاول تفسير الأشياء يقاطعنى أبى قائلا :

« دعك من هذا الكلام الفارغ عن (الوالد والراشـــد والطفـــل) وافعل ما أقوله لك • والحقيقة أننى قد أشعر بالتحسن لو استطعت أن

أرى أبوى مهتمين مثلى بتعلم ما نتعلمه حتى يقلعا عن أسلوبهما العتيق ٠ لم يلتحق الأبوان بمجموعة الآباء فى البداية ، ولكنهما أقنعا بذلك مؤخرا وتعجبا لكيفية سرعة تحسن العلاقات فى البيت ٠

اننا قد نستمد بعض الأفكار الرائعة من مجموعات المراهقين ، التى تتراءى لى أحيانا فى شكل ثمانية أو عشرة حاسبات مخصصة لتصنيف المعلومات فى المجموعة بهدف انتزاع المعانى الجديدة ٠ وعلى سبيل المثال قال أحد المراهقين فى احدى الدورات : « أظن أن (الوالد) أكثر اهتماما بمؤسسته منه بالشخصية ككل و « الراشد » فقط هو الذى يستطيع أن يفهم أن « طفلى » لديه أيضا مشاعر مهمة ٠ » وفى موقف آخر قال أحد المراهقين : « أظن أن الجزء المفكر فينا هو الذى يأتى متأخرا ، وأن الجزء الذى يشعر منا كان موجودا أولا ٠ ان القول « أشعر » أكثر احاطة من القول « أفكر » وكلمة « أفكر » تستطيع أن تتخلى عنهـا ، ولكن كلمـة « أشعر » تحتوى وجودى ٠ » وقال مراهق آخر :

« يستطيع (راشدى) فقط أن يحترم أبى وأمى ٠ أما « طفلى » فهو نكد مشاكس ٠ » ان الكثيرين من الآباء يخشون أن يثقوا فى « الراشد » فى أبنائهم عند اتخاذ القرارات الصعبة ٠ وقد قال أبو احدى المراهقات ما يلى: « عنـدما كانت طفلة فى الخامسـة ، وكانت تلعب بالموسى ، كنت آخذه منها ٠ والآن ها أنت تراها تلعب بنوع آخر من الأمواس ، وكل ما أقوله هو : استمرى فى اللعب بها ٠ وجوهر الاختـلاف هنا هو أنها وهى فى سن الخامسة لم يكن لديها معلومات كافية لكى تفهم تماما النتيجة المميتة المحتملة لجرح نفسها بالموسى ، أما فى سن الرابعة عشرة ، فان المراهقة لديها ، أو تستطيع أن يكون لديها المعلومات الكافية لفهم كافة أنواع العواقب ــ وهذا هو ما يحدث لو كان الأبوان قد عكفا على مدى الأعوام ، على تلقينها القيم والحقائق وأقدار الناس وقدرها هى ٠

ان الثقة فى « الراشد » هى الطريقة الوحيدة البناءة لمواجهة الأقوال التى يفاجىء بها المراهق أسرته عند عودته الى المنزل ، فاذا عادت الفتاة المراهقة الى البيت وقالت فى اكتئاب : « أنا حامل » فمن المحتمل أن تفجر براكين اللهب فى البيت ، سيثور « الوالد » فى الأبوين ويبدى سخطه ، وسيبكى ويحزن « طفلهما » (فشل آخر) ويغضب (كيف تفعلين هذا ؟) ويشعر بالذنب (حيث أن « الوالد » الداخلى يعذب « الطفل » باحساس أنه ليس على مايرام) ٠ ما الذى سيقابل اعتراف الفتاة داخل الأبوين ؟ اذا اكتفى « الوالد » و « الطفل » بالحزن والأسى ، فيمكننـــا القول بأن

« الراشد » يغلي الماء أى يفكر فيما ينبغى عليه أن يعمله • ان « الراشد » يستطيع تحديد أن أجزاء « الوالد » و « الطفل » يمكن اظهارهما كمعلومات بناءة ، وفى ذات الوقت يساعدان الفتاة على معالجة هذا الموقف الصعب • ومن أشد الأمور فاعلية فى تدعيم القوة الداخلية للفتاة أن ترى أبويها وهما يدخلان المعركة ضد مشاعرهما اليائسة ، ويعملان على استمرار سيطرة « الراشد » على تفكيرهما ، بحيث يوجههما الى النهج السليم القائم على أساس الواقع وما يكناه لابنتهما من حب واعزاز • انها ستكون فى حاجة لقدر كبير من هذا النوع من ضبط النفس خلال الشهور القادمة • و « الراشد » يستطيع أن يتعامل مع كافة الحقائق : مشاعر الأبوين والفتاة ، والألم الناتج عن الحوار الداخلى فى كليهما ، وطغيان موقف « لست على مايرام » الذى يتردد فى كليهما • والعار الذى لحق الأسرة والذى لابد أن يعانى منه كلاهما ، وصعوبة عمل ما يجب عمله ، والقرار مع أو ضد الزواج ، والقرار مع أو ضد التبنى — وباختصار ، مواجهة النتائج •

وقد تكون الصدمة النفسية أشد عند الكثير من العائلات عندما تعلن الابنة : « سأخرج الليلة مع جون • انه زنجى • » ان المجتمع لايرحب بالحمل قبل الزواج ، ولكنه ينظر شذرا الى الزواج بين الأجناس المختلفه • وقد يزيد بعض الآباء من حدة هذه المشكلة بأسلوبهم : « أمضى الى الجحيم! اننى اذا سمعت أنك حتى تتحدثين مع هذا الولد فسأكسر رأسك الأحمق » • بالطبع ، فان هذا الرأس يشتمل على معرفة أن جون رئيس الفصل وأنه يتحدر من أسرة طيبة وسيدخل الكلية ، وهو فى الحقيقة شخص مثالى بالرغم من أنه أسود • ويضاف الى المشكلة حقيقة أنها قد درست عن المساواة فى المدرسة العليا ، كما أن المدرسة تعمل على انهاء التمييز العنصرى وادانة التطرف الفكرى • ان استخدام « الوالد » الكامن فى « الأبوين » للتعامل مع هذه المشكلة قد فاقم من اتساع الهوة الفاصلة بين الفكر والواقع • وهناك طريقة أخرى للتعامل ونعنى بها « الراشد » الذى يرى الحقيقة ليس باعتبارها شيئا ضارا بصالحه ، بل كجزء ضرورى لتقييم ما يجب عمله • ان العلاقة بين جنسين على مستوى « الراشد » « بالراشد » ، تتطلب شخصا يتمتع بدرجة فائقة من الادراك والأمانة • والحقيقة هى أن المجتمع لم يقرها بعد ، وكذلك الأقارب أيضا • ولا يعترف بذلك أيضا معظم رجال الكهنوت الكنسى بالرغم من تعارض ذلك مع تصريحاتهم الرسمية • ولكن هذا قد يتغير فى المستقبل • والسؤال هنا هو : « هل لدى هذين الاثنين (راشد) قوى بما فيه الكفاية لبناء علاقة

كريمة فى ظل هذه الأحوال ؟ » ان البعض لديه ، فهـــل لهذين الاثنين « راشد » بهذه القوة ؟ ان الرؤية الواقعية للعواقب هي الوسيلة الوحيدة للتعامل مع هذا الموقف • وهناك مخاطرة ، ولكن هناك أيضا احتمال وجود « راشد » قوى يجهز نفسه للاستقلال الكامل •

ويعتبر موضوع ممارسة الجنس قبل الزواج مثالا على ضعف بعض القرارات الابويه وعدم مواءمتها للظروف ففى الماضى كان يكفى رفع الاعلام الحمراء التى تحذر من العمل قبل الزواج وتخويف الأبناء من الأمراض التناسلية لكبح جماحهم ، ولكن هذين التهديدين قد انهارا نتيجة لاكتشافات العلم ، ولكن لاتزال الأسر تخشى أن يلحقها العار من جراء ذلك رغم أن هذا الخوف لم يعد بنفس القوة التى كان عليها فى الماضى ، لأن ممارسة الجنس بلا زواج نراها منتشرة هذه الأيام ، بل وتلقى موقفا ايجابيا بين العديد من مجموعات الآباء والأمهات المتناظرة • وكذلك فانها تلقى التشجيع من مجلة بلاى بوى Play boy ، ومن الاعلانات ، والأفلام • والحقيقة أن ذلك التشجيع موجود فى عالم الكبار (٣) • ويمكن أن تكون وجهة نظر المراهق مختلفة ، لأنه يسأل السؤال : « ما أثر ذلك على الأشخاص ؟ » ويعبر نيافة الأب الورع فورست أ • ألدرس عن هذه الورطة فى المحاضرة التى ألقاها فى مؤتمر الأسرة للكنيسة المشيخية الذى عقد فى زفيربوينت Zephyr Point بولاية نيفادا يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٦ فيقول :

يرى العديد من الشباب أنه : اذا اتفق اثنان على ممارسة الجنس مع اتفاقهما على أن هذه الممارسة ليس لها صفة الدوام ، مع عدم الاساءة الى احد ، فليس اذن من ضرر فى ممارسته ؟!! ان الضرر يتمثل فى أن شيئا له قيمة وهو الجنس قد انحدرت قيمته ، فأصـــبح شيئا عرضيا ولا يستحق كل ما يترتب عليه • وصار الهدف هو الدخول فى التجربة بسلام • ان خطيئة ممارسة الجنس قبل الزواج لا تعنى منح شيء ، بل تعنى أن ما تم منحه لم يكن كافيا •

وليست هنـــاك أفكار مطلقـــة عدا الشر الناجم عن اســـتخدام الأشخاص كما لو كانوا أشياء ، حتى لو كان أحد هؤلاء الأشـــخاص هو الفاعل ذاته • واذا حدث على المدى الطويل أن أنتجت العلاقة العابرة فقدان

---

(٣) الأوضاع الخاصة بالمباشرة الجنسيةقبل الزواج وما يرتبط بها من نتائج مؤسفة ـ فى الغرب بوجه عام والحمد لله أن بلادنا العريقة والحريصة على الالتزا مبالعفة وتطبيق تعاليم الأديان التى تحرم الزنا وكافة العلاقات التى تندرج تحته ـ خالية من هذه الأوضاع المخجلة والمنافية للأخلاق القويمة ـ المترجم •

احترام الذات ، وتقوية موقف (أنا لست على مايرام) ، فان ممارسة الجنس خارج الزواج لاتقدم سوى تنفيس للتوتر الذى فى الجسد ، ولكنها عندما يكون هنــاك كثيرون يتقاســمون عواطف الشخص ؟ وكذلك فان منهما · فكيف يستطيع الانسان أن يحترم هذه العلاقة بطريقة غير محدودة عندما يكون هناك كثيرون ينقاسمون عواطف الشخص ؟ وكذلك فان هناك فتيات كثيرات قررن أن هذه التجربة لم تكن سارة ، وأنهن كن غير قادرات على الوصول الى ذروة اللذة · وقد قالت احدى الفتيات :

« من المفروض أن تكون هذه العمليــة ممتعة ، ولكننى لم أشــعر بذلك » · وقد سئل أحد الشبان عما اذا كانت الفتــاة المصاحبــة له قد شعرت بهذا الشبع ، فقال : ــ « أواه ·· لم أسألها فى ذلك ، فليست علاقتنا وثيقة الى هذا الحد » ·

ان ممارسة الجنس بدون الألفة الشخصية لاينتج عنها سوى فقدان احترام الذات · ويصدق هذا على الزواج أيضا ·

وهناك كتاب عظيم تعرض بالفحص لكافة الحقائق المتعلقة بالجنس بالنسبة للمراهقين ، وكذلك آبائهم ، وهو كتاب الأسقف جيــم بايك ، وعنوانه : المراهقون والجنس Teenagers & sex ــ ويدور حول أن الانغماس فى الجنس يحمل فى طياته مسئولية أخلاقية فيقول :

« اننا لانتعامل مع المبادىء والقوانين ، ولكن مع التأثيرات المباشرة التى تكون لقرار الفرد بالنسبة للآخرين ، سواء بالاحسان أو الاســاءة · وكما أشار الفيلسوف وعالم اللاهوت مارتن بوبر ، فان : علاقتنا بالله ليست بمفهوم العلاقة بينى وبينه (أنا ــ هو) بل بمفهوم العلاقة بينى وبينك (أنا ــ أنت) ولذلك فان اى علاقة بين شخصين يجب أن تكون علاقة (أنا ــ أنت) ويمثل ذلك معيارا اخلاقيــا أساسيا يتركز فى عدم معاملة الأشخاص كالأشياء » (٤) ·

ومهما كان القــرار فى كل حالة على حدة فان الهدف يتركز فى أن القرار يجب أن يتخذ من موقع المسئولية ــ ويستمر الأسقف بايك قائلا :

« ان المهم ليس هو ما سيفعله أولادنا أو يقلعوا عن فعله ، بــل انه مفهوم الجنس ذاته باعتبــاره طقســا له دلالة روحية ، وعلامة ظاهرة ،

---

(٤) J. Pike, "Teenagers and sex, (Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1965)

مرئية للنعمة الروحية الداخلية . ولا يعبر الفعل الجسدى عن الاندماج الروحى والعاطفى للرجل والمرأة فقط ، بل أنه أيضا وسيلة يقوى بها هذا الاندماج . انه عمل رفيع ، وأية موانع تحظره سواء من الجانب المتزمت أو الجانب الوجودى ، يجب أن تنبنى على الأساس المنطقى الذى يقر بأنه عمل طيب ، وصالح لدرجة أنه لا يجب اخضاعه لظروف معينة . واذا قام الحظر على أساس حقيقة أن الممارسة الجنسية شىء صالح ، وليس على أساس أنها شر ، فان الشباب سيقدمون على الزواج من موقف أكثر صحة ، وتزداد فرصتهم لتحقيق الاشباع الجنسى عن طريق هذا الزواج » .

وستظل المشكلة هى : كيف يمكن لأفكار مثل هذه أن تكون موضوعا لمحادثة بين مراهق ، وشخص ناضج ، اذا قام بين الاثنين حاجز من الصمت والحرج وفقدان الثقة أو السخط ، لأن المراهق يعتنق مبدأ رفض الحديث الى الأم أو الأب (لماذا يتحتم على ذلك ! اننى أعرف ما سألقاه من توبيخ !) وتصور المحادثة التالية التى دارت بينى وبين فتاة مراهقة فى سن الخامسة عشرة ، طريقة استخدام نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) للحديث عن المشاكل المعقدة المتعلقة بالعلاقات التى تواجه المراهقين بما فيها الجنس . وعندما حدثت هذه المقابلة كانت هذه الفتاة قد شوهدت أربع مرات فى دورات العلاج الفردى وثمانى مرات فى مجموعات للعلاج . واليك ما دار فى واحد من اللقاءات الفردية معها . ويرمز الحرف « د » للدكتور ، كما يرمز الحرف « س » لأسم سالى وهو الاسم الرمزى للفتاة وليس اسمها الحقيقى :

س : هل تعرف أنك تشبه الأطباء النفسيين حق الشبه ؟! بالطبع أنت تعرف ذلك ، لأن هيئتك تمثل الهيئة النموذجية للأطباء النفسيين.

د : لماذا لاتتحدثين عن نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) ؟

س : لا أستطيع اليوم . لا أستطيع استخدامه . ولست استخدمه الآن . اننى أتعامل مع كل شىء تعاملا خاطئا .

د : أتعرفين معنى ما تقولينه ؟

س : لا .

د : انك تقولين لهذا الرجل الذى يقوم بدور الطبيب النفسى : « أتحداك أن تغيرنى . » أليس هذا هو ما تقولينه ؟

س : متى قلت لك ذلك ؟

د : حسنا ، ان هذا هو ما تقصدينـه ضمنا · اننى أســألك ، لماذا لاتستخدمين نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) لديك ، فتقولين : « اننى لا أســتخدمه ، ولن أســتخدمه ، واتحداك أن تجعلنى أستخدمه » ·

س : لم أقل أن ذلك سيستمر دائمــا · قلت عن اليـوم فقط أننى لا أستخدمه ، ولا أحس بالرغبة فى اســتخدامه · اننى متوترة ، وهذا هو كل ما فى الأمر · أننى أعانى من التوتر منذ يومين ·

د : اذن فأنت تريدين تمثيل التوتر اليوم ؟

س : لا ، لا أريد أن أمثل شيئا · اننى أريد مهدئا أقوى ·

د : أتريدين مهدئا أقوى ؟

س : لم لا ؟ اننى أحتاج مهدئا أقوى · وكان الواجب يقتضينى ألا أحضر اليوم ، وأنت تعرف أننى لم ارغب فى الحضور ·

د : أنت تريدين مهدئا أقوى لأنك كسولة جـدا لدرجـة عدم الرغبة فى استخدام نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) لديك ·

س : كنت أستخدمه ، وحاولت ، ولكننى متوعكة المزاج ، وأنا ·

د : اذن فما هو الجديد ؟

س : اذن ما هو الجديد ؟ (تضحك) لم يكن ذلك لطيفا منك · ولكننى أقصد أننى متوعكة المزاج جدا ، ولم أكن كذلك عندما خرجت من المستشفى ·

د : هل هذا هو الاختيار الوحيد بالنســبة لك ـ أن تكونى متوعكة المزاج ؟

س : لا ، ليس كذلك ، وأنا أحاول الا أكون كذلك ، ولكننى أكون كذلك أحيــانا ·

د : لقد ثرت ثورة عارمة ؟

س : ليست الى هذا الحـد · ولكن الغضب تملكنى · وعنــدما أكبت مشاعرى بداخلى ، يتملكنى الاضطراب · هل تفهم ؟ ·· اننى أكره

هذا ، وأكره كل الناس اليـوم · سأتوقف عن العلاج النفسى ، والآن ألا أبدو فى عينيك صورة نموذجية للمريضة النفسية ·

د : (بابتسامة) اننى سعيد لأنك تبتسمين ·

س : أواه ، اننى أبتسم حيـال الموقف · اننى ·· انه يجعلنى متوترة الأعصاب ، ولكن هل تعرف ماذا أفعل ؟

د : ماذا ؟

س : اذا ابتسمت ، فاننى بعد ذلك أضحك ، ثم أصبح منزعجة ، و ــ

د : هل تستطيعين أن تذكرى لى ماذا يزعجك ؟

س : لا !

د : هل أنت على وشك البكاء ؟

س : أرجو ألا يحدث ذلك · لا · اننى على مايرام · اننى منزعجة اليوم · أعرف ذلك ــ اننى أكره أن أكون كذلك · اننى لا أرى فائدة من هذا ، لماذا لا نوقف علاجى النفسى ، وسـآخذ أقراص الدواء ، ما الذى بى أكثر من نوبات الصداع والغضب الذى يتملكنى فى نوبات متتالية ــ ما هى مشكلتى ؟

د : انك لاتريدين النمو ·

س : هذا هو ما قلتـه لى مرة ، قلت أننى لا أريـد أن أكبر ، وهذا غير صحيح ·

د : أنا لا أدرى ما تعنيـه كلمـة « الكبر » ، اننى قلت : « النمـو » ، كما تعلمين ، افتحى عقلك لقبول بعض الأفكار الجديدة ·

س : لأية أفكار ؟

د : نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) ·

س : لقد فتحت عقلى لذلك عندما كنت فى المستشفى · وعدت الى المنزل وأنا أشعر بأننى سليمة ·

د : لماذا لاتستخدمين « راشدك » اليوم ؟

س : لا أدرى ·

د : كل ما تستطيعين الحديث عنه هو : اننى متوترة ، لا أستطيع ، كان يجب ألا أحضر هنا اليوم ، أنت طبيب نفسى متقدم فى السن ، وأنا مريضة ٠

س : حسنا ، هذا هو حالنا اليوم ٠

د : حسنا ، ان هذا قول صائب ، وقد جاء عن طريق « الراشد » : « هذا هو حالنا اليوم » ٠

س : لا أستطيع أن أطبق نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) كل يوم ٠

د : حسنا ، لن تكون هذه فكرة سيئة ٠ أنا أطبقه كل يوم ٠

س : هنيئا لك ، لو استطعت أن تنفذه ، أما أنا فلا أستطيع أداءه أداء صحيحا الآن ٠

د : أواه ٠٠ لم لا ؟

س : لأننى ـ

د : ان « طفلك » يحب أن يتولى الزمام ٠

س : حسنا ، اننى أشعر من حين لآخر أنه يسيطر على ، ولكننى لم استخدم نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) طوال حياتى ، أو حتى لمدة عام أو شهر ٠ اننى لا أعرف ٠

د : وماذا عن حياتك مع أبيك ؟

س : كنت طيبة مع أبوى ٠

د : كيف حال أمك ٠

س : طيبة ، لقد بتنا أكثر قربا مما كنا فى الماضى ٠ لقد كنت مغرمة بهما كليهما ، وكنت أحاول أن أكون بنتا من النوع الذى يحبانه الآن ، لا أدرى ، اننى أطور عقدة ذنب تجاه ـ اننى أشعر بأننى كنت سيئة جدا ، وكل شىء ٠

د : حسنا ، دعينا نخصص حوالى ستين ثانية لذلك ، لأننى لا أستطيع أن أرى فى ذلك جدوى ـ أعنى التفكير فى مدى السوء الذى نتحدثين عنه ٠

س : اذا ظللت تمارس معى هذا الاسلوب من العلاج النفسى ، فسأظل أحلل نفسى الى أبد الدهر ٠

د : وهل فى ذلك ضير ؟

س : نعـم ٠

د : لا ٠ اذا كان ذلك سيقدم بعض الاجابات ٠

س : لا ، ليس كذلك دائما ، لى صديق حميم وهو دائمـــا فى وعيه ٠ أظن ، أنه لن يذهب الى طبيب نفسى ، لقد عرفته منذ سنوات ، وهو يعيش فى عزلة عن الواقع ، ان حالته تدعـو للرثـاء ، وهو يعالج نفسه طول الوقت ، يقرأ كتبا ٠

د : هل هو مراهق ٠

س : نعـــم ٠

د : حسنا ، أن تعالجى نفسك دون أدوات ، هذا شيء ، ولكن لديك نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) لمعالجة نفســـك ، وهذا النموذج يعطيك الاجابات التى تحتاجين اليها ٠

س : حسنا ، سأظل (على ما يرام) سأذكر لك شـيئا ٠ اننى لا أعرف ما اذا كنت أريد أن أستخدم « راشـــدى » طوال الوقت أم لا ٠ اننى أحيانا لا أريد ذلك ٠ انه نوع من القتال ٠ انه يكاد أن يكون كاملا فهو يتعامل مع كل شيء بالأســـلوب السليم وفى الوقت المناسب ٠ ولكنه يتراءى لى فى بعض الأحيان بأنه غير انسانى ٠

د : أعرف ما تقصدينه ٠ بالطبع فاننا قلنا من قبل أن « طفلك » هو الذى يجعلك سعيدة ومبتهجة مع الآخرين ، ولذلك فلسنا نريد أن نقذف « الطفل » خارجا ٠ ولكن دعينا نقول أن نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) موجود ، أقصد أن يكون « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » حاضرين دائما ٠ وحقيقة أن « الطفـــل » قد يزاحم « الراشد » وتتولى العواطف الزمام ، ولكننى أعتقد أن المطلوب هو أن نستخدم « الراشد » دائما حتى اذا كان « الطفل » يؤدى دوره ٠ واذا أراد « الطفل » أداء دوره ، اتركى « الراشد » يستمر لتاكيد أن كل شيء يبقى سليما ، لأن الفتيات يقعن فى المتاعب ، حينما يؤدى « الطفل » دوره لأنه يؤدى ألعابا خطيرة ، أليس هذا صحيحا ؟

س : نعم ، أنت تقصد أنه يشبه المشكلة العويصة ، أو ما شابه ذلك ٠

د : حسنا ٠

س : ألا يعرف متى يتوقف ؟

د : نعم . انه غير قادر على هذا ، وعندما لايكون « الراشد » قادرا على أن يقول : لا « للطفل » فان أيا منا يلاقى المتاعب .

س : وهل ينطبق هذا على كل شيء ؟

د : هذا صحيح ، كل شيء . قد يرغب « الطفل » فى أن يأخذ شيئا لايخصه ، أو قد يرغب فى استغلال شخص آخر . وقد يرغب « الطفل » فى التلاعب بشخص آخر .

س : آه ، توقف عن الحديث بهذه الطريقة .

د : لقد رأيت أطفالا صغارا يتلاعبون بالكبار .

س : أنا أتلاعب ـ هذا خطأ تماما !

د : حسنا ، اننى لا أعرف ما اذا كانت الكلمة المقصودة خطأ أم لا ، ولكنك اذا كنت تتلاعبين بالآخرين وأصابهم ذلك بالاحباط ، أو جعلهم يشعرون بالضيق ، أو أزعجهم ، فأنا أنصحك حينذاك بأن تكفى عن هذا . أو اذا سمحت لنفسى بأن أصبح ألعوبة ، فاننى سأنزعج ، واذا تلاعبت بالآخرين ولم أعرف ذلك ولكنهم تنبهوا لذلك ، فاننى سأنزعج . أترين ذلك ؟ اذن فمتى تعلمنا أن نتلاعب بالآخرين ، أو أن نسمح للآخرين بأن يتلاعبوا بنا ؟ لقد كان ذلك فى سن الثالثة أو الثانية .

س : حسنا ، كيف يكون ذلك ؟ أعنى كيف يستمر ذلك ، لقد كنت أتلاعب بأبى ومازلت أفعل ذلك بدرجة ما . اننى لا أعرف ، وربما كنت أنت تسميه تلاعبا أو سيطرة على الناس ، ولكننى أنا أستطيع ـ لماذا ؟ نعم ، اننى أستطيع . وهو قد سمح لنفسه بأن يكون منقادا ـ لأننى لم أكن أعرف ماذا أفعل . ربما تلاعبت به ، وربما لم أتلاعب .

د : حسنا ، ان ما يدور بينك وبين أبيك ربما كان فيه شيء من التلاعب ، ولكنك تعرفين أن سعادة الأب بابنته المراهقة ، تدخل كجزء منها . انه يستمتع بأن يراك سعيدة ، ويستمتع بأن يراك تعملين أشياء ، كما يستمتع باعطائك أشياء ، فهذا جزء منه كأب لفتاة مراهقة سعيدة ، ولكنك تستطيعين أن تستغلى كرمه ، كما تعلمين ، أن تستغلى مشاعره ، وهذا ليس مقبولا بالنسبة لك أو له لأنه يقودك الى نوع من المشاحنات الطويلة التى لا تنقطع .

س : أنا فعلت ذلك ٠

د : ماذا فعلت ؟

س : استغليته ٠ واستغليت مشاعره ، توقعت أن أحصل على كل ما أريده ، توقعت كل ـ حسنا ، كنت أحسب أننى سأنال قسطا من مشاعره ، وكانت مشاعره نحوى فياضة ٠ ولكننى لم أكن أسمح له بأن يلمسنى طالما لم أكن معتدلة المزاج ٠ كنت أنفلت منه ، كما كنت قاسية فى بعض الأحيان ٠ وكان ذلك يحدث حتى فى المستشفى ٠ وفى احدى الليالى قلت شيئا مريعا عندما كان آتيا بى الى المستشفى وهو يهم بالنزول فى المصعد ، وأراد أن يضمنى الى صدره على ما أظن ، فتحركت بعيدا عنه وطلبت منه ألا يفعل ذلك ، ثم ضحكت وقلت : « ان هذا يصيبك بالاحباط ٠ أليس كذلك ؟ » كما لو كنت أحاول حقيقة أن أجرح مشاعره ، فقال : ـ « نعم » ووافقنى على ذلك مما جعلنى أشعر بالأسى ٠

د : اذن فهل ضممته أنت الى صدرك ؟

س : لا ٠

د : هذا أمر مؤسف ، لأن « راشدك » كان سيترك « طفلك » يحتضنه ، لأن « الراشد » يحترم مشاعر الآخرين ٠

س : ومع ذلك فقد تجاهلت هذا ٠ اذا أراد أن يحتضننى كنت أتركه يحتضننى ، وحينما كنت عازفة عن اظهار مشاعر الود والحنان ، كنت أكتفى بالسماح له باحتضانى لا أكثر ولا أقل ٠ ولكننى كنت أبدى له حبا وحنانا ٠

د : ألا تريدين أن تبادليه العناق ؟

س : حسنا ، الآن سأذهب وأقبله على خده أو أى شىء مثل ذلك ، وسأظهر له بعض المحبة ، وسأكون لطيفة جدا ٠ وقد فعلت ذلك بالنسبة لأمى أيضا ٠ لقد فعلت ذلك عمدا لأعبر لهما عن محبتى ، حسنا ، لم يكن ذلك مجرد تمثيل لأننى أعنى أننى شعرت ـ

د : كما ترين ، ان المشكلة هنا تتعلق بالمحبة ، أى بالجنس الآخر ، وتتلخص فى أن » الطفل » خائف من الجنس سواء كان شعورا ، أو ما يظنه الآخرون ٠ ان « والدك »الداخلى يراقب « طفلك » ٠

و « طفلك » خائف من الجنس بسبب « الوالد » الداخلى • ولكن « راشدك » يستطيع أن يقول : « آنظرى • ان هذا صحيح تماما ، ومناسب لك تماما أن تمنحى أباك المحبة ، فى شكل احتضـــان بدنى ، اذا استطعت أن تفعلى ذلك فسيكون شكلا من أشـــكال سيطرة « الراشد » على « الطفل » •

س : لقد قمت بذلك •

د : حســـنا •

س : كنت أقوم بذلك خير قيام •

د : ولكنك كنت تعرفين أنها مشكلة بالنسبة للمراهقين •

س : حسنا ، لم أكد أعرف ذلك •

د : وهذه هى الحقيقة •

س : هل هى كذلك ؟

د : توجد هنا كلمة ضخمة هى ما نسميه : **المحظور** •

س : لا أعرف لماذا •

د : لا • لقد امتد ذلك على مدى الأجيال • المحظور ! انه لايرى ضيرا فى الحب مع اقترانه بالجنس اذا لم يكن هناك روابط الدم • ان ذلك محظور عظيم • ولكن علينا أن نميط اللثام عن تلك المعلومة المسجلة فى الذهن • اننى أجد نفسى قادرا على مساعدة أى مراهق على أن يكون طبيعيا ومحبا ومتوافقـــا مع والديه ، اذا استطعت مساعدتهما على اخراج البيانات المختزنة فى « راشدهما » وأنت لاتستطيعين أن تحبى الجنس الآخر • انتبهى لذلك • انك تبدين عاجزة عن التمييز والاختيار ، ولكن ما أن يعرف الانسان تلك البيانات ، ويفطن الى معناها ، يصبح فى وســـعه أن يتعامل من منطلق الود والحب على مستوى « الراشد » وعلى مستوى « الطفل » وسيتولى « الراشـــد » العناية « بالوالد » • ولن يكون « الطفل » خائفا من « الوالد » لأن « الراشد » يصنف المعلومات باعتبـــار ما هو حقيقى ، ومعلومات « الوالد » تعود الى تاريخ معين ، كما تعرفين ـــ فى أى سن ؟

س : الثالثـــة •

د : هذا صحيح وهو يختلف تماما عما هو حقيقى اليوم · والى جانب ذلك ، كما نعرف كلانا ، فان لديك أبا وسيما ، وعندما أراكما معا ، وأراه ينظر اليك ، أدرك أنه يعتبرك بهجة حياته ·

س : أنا لست كذلك · اننى سيئة · ان ذلك يثير المشاعر أحيانا ·

د : حسنا ، لماذا أنت سيئة ؟

س : لأننى سببت له مثل هذا الشقاء ، اننى أشعر بالأسف ·

د : حسنا ، لابد أنك تحبينه جدا حتى أنك ــ كما قلت لى مرة ــ تعملين هذه الأشياء لكى تحافظى على وجود مسافة ، بحيث لاتقتربان من بعضكما البعض ·

س : نعم اننى أحبه هو ــ هذا لسوء الحظ ــ لا الرجال الآخرين ، ولكنى سأتغلب على ذلك ·· حقيقة أننى سأحاول ·· ان لدى مجموعة كبيرة من الأصدقاء الشبان ، وهناك شىء فيهم أكرهه · انهم يفكرون كثيرا فى الجنس ، وفى العادة فان الكثيرين منهم عندما ينظرون لى ، يبدو أنهم يريدون منى شيئا ، و ــ

د : ما شعورك ازاء ذلك ؟

س : ليس شعورا طيبا ، لا أدرى ، أنا لا أحب أن يلمسنى أحد ، اذا لم أرغب أنا فى ذلك · والأولاد يحبون أن يلمسوا البنات وهذا يضايقنى · لقد واجهت أوقاتا صعبة كنت أقول فيها : لا · أستطيع أن أقول : لا · ولكننى أحس بالرعب ، وعموما فانهم يتفهمون الموقف ، أما اذا لم يفهم أحدهم ، فاننى أثور ثورة عارمة ، ولذلك فاننى آخذ حذرى ·

د : حسنا ، دعينا نرى · يوجد دائما ثلاثة مجموعات من المعلومات · بالخجل » ، أو « التزمى حدود الأدب » ، أو « الأفضل لك أن تلزمى بالخجل » ، أو « التزمى حدود الأدب » ، أو « الأفضل لك أن تلزمى الجزء من الحقيقة التى يديرها « الراشد » يتركز فى : « ماذا تعنى هذا الموقف · أما « الراشد » فسيأخذ فى الاعتبار أن « الطفل » يريد أن يلعب و « الوالد » لا يريد أن يوافق ، و « الوالد » عنده قائمة طويلة من النماذج القياسية التى تظهر فى الصورة ، ولكن الجزء من الحقيقة التى يديرها « الراشد » يتركز فى : « ماذا تعنى المعاملة بالنسبة لك فى حقيقة الأمر ؟ » وعلى سبيل المثال : ماذا

تستخلصين منها ؟ ما هى الأخطار ؟ ما نســـبة المخاطرة ؟ ما هى النتائج ؟ وهل تتذكرين أن الفتيات اللائى كن يعانين من المضايقات ــ فى المجمــوعة ــ لم تكن أى منهن تحسـب حســـابا للعواقب ؟ طبعا ، فنحن نعرف أن « الراشد » هو الذى يتعامل مع العواقب التى لايحسب لها « الطفل » حسابا • ان « الطفل » يريد فقط أن يلعب • وكم واحـــدة من تلك المراهقـــات اللائى كن يعانين من المضايقات قد تدبرت العواقب بعناية قبل اتخاذ القرار ؟ حسنا ، سأقول لك كم كان عددهن ــ **صفر** • وهنـــاك أخريات كان لديهن « راشد » جيدا ، وكان عددهن قليلا • لقد رأيتهم بين الأخريات ، لأن الكثيرات منهن كن يدرسن هنا مع المجموعة لتطوير « الراشد » •

س : لذلك ، انه من الصعب أن أتعلم ، ولكن هذه قيم أخلاقية تحصل عليها من أبويك فى العـادة ، مثلمـا هو الحال معى • انكم تتعلمون من بعضكم البعض ، أما المراهقون فانهم يتحدثون فيما بينهم •

د : حسنا ، هذه قيم أخلاقيـة ، ولكنها حقيقة ، أو أنهـا قيم تنتمى الى « الراشد » تدور حول « لاتجعلنا نصـاب بضرر » ، أو اذا كنت أهم شخص فى العالم ، وعليك أن تعتبر نفسك كذلك بشكل ما ، فأنت لاتود أن تؤذى هذا الشخص أو أن تزج به فى مواقف تؤذيه • أنت تعرفين ما أرمي اليه •

س : هل تعرف ماذا أفعل ؟

د : ماذا ؟

س : أحب أن أغيظ الآخرين ، والواقع أن الأولاد قد أسمونى « المعاندة » وليس هذا بالشيء اللطيف •

د : حسنا ، ماذا يقصدون ؟ هل يقصدون أنك تدفعينهم الى مطاردتك ؟

س : نوعا ما •• بلمحة ، أو نظرة ، أو حتى مجرد وجودى هناك بل وعندما أقوم بأى شيء ، أحيانا أفعل ذلك دون قصد ، وأحيانا أكون متعمدة •

د : حسنا ، هنـاك طريقتـان للنظر الى ذلك • احداهما هى أنك مرحة وجذابة ولطيفة المعشر ، وهذا شيء طيب ، أما الشيء الآخر فهو أنك الجميلة الغاوية •••

س : الشريرة •• وأحيانا أفعل ذلك •

د : حسنا ، أتعرفين أين تعلمت فن الاغراء ! ان الاغراء لعبـــة تتعلمها الفتيات الصغيرات مبكرا جدا لأنها تجلب لهن الحلوى ، ولذلك فهن يتعلمن الاغراء مبكرا ـ

س : متى ؟

د : ينظر الأب الى محبوبته الصغيرة التى تتدلل عليه ، ويخرج الأب قطعة من الحلوى ، ويخرج لعبة ، وهكذا تنال أجرا مقابل تدللها ٠

س : (ضاحكة) ربما يكون هذا هو المكان الذى تعلمت فيه ٠ اذن فالخطأ هنا هو خطأ أبى ٠

د : ليس فى ذلك خطأ ٠ ان في ذلك متعة للأب والابنة ٠

س : نعم ، ولكنك لاتفعل ذلك مع الآخرين ٠

د : حسنا ، انه نوع من التسلية ، أليس كذلك ؟

س : أوه ، نعـــم ٠

د : انه نوع من التسلية اذا كان « الراشد » متوافقا مع « الطفل » عندما يلعب « الطفل » لعبة مثل لعبة الاغراء ، أو لعبة الاغاظة ، أو أى اسم تحبين اطلاقه عليها ، لأن « الراشد » سـيتعامل مع المعاملة عندما يحين دورها ٠

س : لم يكن الأمر قاصرا على الأولاد ، بل الرجال ٠ اذا نظر رجل نحوى فاننى أشعر بالزهو أحيانا ، اذا لم تكن نظرته قذرة ، والواقع أننى دائما أريدهم أن ينظروا ، ولكنهم عندما ينظرون الى نصف الوقت أو أكثر من النصف ، فاننى فى الواقع ، كما تعلم ، لا أشعر بالاهانة بل يساورنى شيء من الخوف ، ولا يتملكنى الخوف عادة ، ولكننى لا أنظر اليه مرتين ٠

د : هذا هو ما يقوله ، وما تقولينـــه : انه يقول : « أنظـرى ، أود أن أستغلك » وأنت تقولين : « أعرف أنك تريد ذلك ، ولكنك ستنال جزاءك » ٠ وهنا نعود مرة أخرى الى التلاعب ، كما تعرفين ٠ أنت تحبين أن تلعبى لعبة الاغراء أو الاغاظة لأنها تروق لك ٠ وهنا نعود مرة أخرى الى دراسة فائدة المعاملات المربحة ٠ تقولين أن ذلك يرفع من روحك المعنوية ٠ حسنا ، انك فى الحقيقة لاتحتاجين الى ذلك ٠ ان كل امرأة تلعب هذه اللعبة التى تبنى صورة الأنثى وترفع الزوح

المعنوية لها ، ولكن الشخص الذى يقدم لك هذه المتعة يريد شيئا فى المقابل ، وأنت تعرفين • وهذا هو ما يجهز « الراشد » نفسه للتعامل معــــه ، وهذا هو الموضـــــوع ـ ان بعض هؤلاء الأفـــراد لديهم ما يمنحونه • ان الشراء يبدو عليهم • انه موقف صعب ، فالشاب قد يكون من نوع جذاب طويل القامة ، ووسيم ، وعريض المنكبين ، ومتعالى ، ولكن كل ما عليك أن تفعليه هو ، كما يجرى فى محادثتنا هنا ، أن تخرجى البيانات المختزنة الى النور ، ولك الخيار طالما أنك ستتعاملين معها من خـــلال « الراشد » وليس عليك أن توغلى فى ممارسة هذه اللعبة ، مثل بعض الفتيـــات ، لأن ذلك هو اختيارهن الوحيد • ان لديك « راشد » جيد ، ولذلك لديك اختيار الاستمرار فى اللعبة الى حد معين ، ثم تقولين ، حسنا ، لقد سعدت بمعرفتك وبعد ذلك ليكن ما يكون •••

س : أوه ـــ ان هذا يروعنى • اننى لا أستطيع أن أسمح بحدوث ذلك ، الا اذا حدث بالقوة ، لأنه يروعنى • أنا لا أريد شيئا من ذلك •

د . ماذا يخيفك ؟

س : لا أدرى • ولكنه يروعنى •

د : ربمـــا أنت بحـــاجة للشعور بالخوف حتى لا يخـــرج « طفلك » عن سيطرتك ، ولكن طالما أنك تبنين الثقة فى « راشدك » وأن لديك « راشدا » جيدا ، فقد نجحت ، لأن « راشدك » يستطيع التعامل مع كل معاملة ، حتى اذا كان « الطفل » مستمتعا بالمعـــاملة فان « الراشد » يطلق الاشارات ، وهذا هو ما سينقذك •

س : أرى أن وقتى قد انتهى ، سأراك عندما تبدأ المجموعة الثانيـــة ـــ الى اللقـــاء •

د : اتفقنـــا ، وتذكـــرى (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) ـــ تنتهى المقابلة •

فى خلال سنوات المراهقة الحافلة بالمتاعب ، نخال أن الشـــباب عازف عن سماع نصائح آبائهم الملهوفين ، والواقع أنهم راغبون فى سماع عبارات الحب والاهتمام من الأب والأم ، وفى تجربة ذلك الحب والاهتمام • وقد لمست هذا بطريقة مذهلة مع ابنتى جريتسن ذات الخمســـة أعوام • عندما وصلت أمها ، كانت جريتسن تحاول الســـير على الحافة الضيقة

لسور حوض الزهور لتختبر قدرتها على حفظ التــوازن ، فقالت الأم : «انتبهى والا ستسقطين بين هذه الزهور ٠ » فقالت جريتسن : « هل تهتمين بالزهور ، أم نهتمين بى ؟ » ٠

ان « الطفل » الكامن فى المراهق ، يسأل نفس السؤال . ولكنــه لايذكره فى كلمات كثيرة ٠ ان الأبوين اللذين يفطنان لهذا التساؤل ، الذى لايعبر عنــه المراهق بالكلام ، والذى يجيبــان عنــه بأفعــال تعبر عما يكنانه من حب ورعاية واهتمام واحترام ، يؤكدان فى ذات الابن دائما « أنه هو الذى يهتمان به » ، وسيجنى الأبوان من ذلك الكثير من المسرات والمفاجآت المفرحة التى قد لايحسبان لها حسابا فى فترة مراهقة الأبناء ٠

الفصل الحادى عشر

متى يكون العلاج ضروريا ؟

« اننا لانفكر الا عندما نواجه مشكلة ـ جون ديوى »

اذا التوى كاحل شخص ، فانه يمكن أن يعرج فى سيره ، وسرعان ما تتحسن حالة الكاحل ، ولكنه يظل يستعمله بشكل محدود عندما يعرج فى سيره ، واذا كسرت ساقه فانه يحتاج الى ضمادة تسندها ، بينما تأخذ العظمة فى الالتئام • والمشكلة الأولى هى اعتلال الصحة ، أما المشكلة الأخرى فهى العرج • وربما تكون الرعاية الطبية مفيدة فى الحالة الأولى بينما هى ضرورية فى الحالة الثانية •

وبنفس الطريقة نستطيع أن نرى ضرورة العلاج للمشاكل العاطفية • ان « راشد » الشخص قد يلحق به الضرر بسبب التسجيلات القديمة من الماضى ، ولكنه يستطيع أن يقفز فوق المصاعب أو خلال المشاكل بدون علاج لأن العلاج يمكن أن يخففها ، ولكن « الراشد » لدى بعض الناس يصاب بالضرر الى الحد الذى يعجزهم عن العمل • انهم يعرجون بسبب الفشل المتكرر ، أو تشل حركتهم بسبب الشعور بالذنب • وهناك فى الغالب أعراض بدنية ، فلا تستطيع الأمهات تادية وظيفتهن كأمهات ، ولا يستطيع العمال أداء أعمالهم ، ويترك الصغار المدرسة ، أو يصبح سلوك بعض الناس فى غير محله الى حد الخروج على القانون • والعلاج ضرورى بالنسبة لهؤلاء الناس لأن كلا منهم يستطيع الاستفادة منه • ويستطيع كل الناس أن يصيروا محللين للمعاملات ، والعلاج ببساطة

يعجل بالتقدم • أما العلاج بأسلوب تحليل المعـاملات فيعتبر تجـربة تعليمية ضرورية من خلال ما يكتشفه الفرد حول تصنيف المعلومات التى تدخل فى قراراته • وليس هناك سحر فيما يطبقه الاخصـائى الخبير ، لأن الطبيب النفسى يستخدم الكلمات لنقل ما يعرفه ويستخدمه فى معاملاته الى الشخص الذى يأتى طلبـا للعلاج ، ولذلك فهو يستطيع أن يعرف ويستخدم نفس الأسلوب • وقد قال أحد أصدقائى من أطبـاء التحليل النفسى : « اننى أعرف واحدا من أحسن محللى المعاملات ، وهو سـائق سـيارة نقل » •

والهدف هنـا ينحصر فى تحويل كل شـخص تحت العلاج ــ الى أخصائى فى تحليل معاملاته الذاتية •

وتتباين أشكال العلاج النفسى ، كما أن صورته مختلفة فى أذهان الناس • ولهذا السبب فان قرار الذهاب الى محلل نفسى بصفة عامة ، لايتخذ بدون قدر كبير من الحوار الداخـلى • ويشعر الكثير من المرضى بالتعاسة عند طرح فكرة كشف حقيقة أنفسهم على شخص ما ، حتى لو كان هذا الشخص أخصائيا أو مرشدا محترفا ، مثل المحلل النفسى ، وعندما يفتح المريض الباب الى المكتب لأول مرة ، فانه غالبا ما يشعر بالوحدة ، والخوف والخجل ــ أمام احتمال الفشـل • وحتى اذا قاد « الراشـد » الشخص الى مكتب المحلل النفسى ، فان « الطفل » سرعان ما يتولى الزمام ، ويتم تطوير معاملة (والد ــ طفل) • ويعبر « طفل » المريض عن المشاعر ، ويتوقع العلاقة مع « والد » المحلل النفسى خلال معاملات الساعة الأولى • ويطلق المحللون النفسيون على هذه الحالة اسم : « النقل ــ أى أن المريض فى موقف يعمل على نقل المشاعر والسلوك المرتبط بها من الماضى ، عندما كان المريض صغيرا ، الى الحاضر ، الذى فيه يستجيب « الطفل » فى المريض ، كما كان يفعل قبلا بالنسبة لسلطة « الوالد « • وليست هذه « المعاملة » أو الموقف بالشىء القليل النادر فى حياتنا ، بل أننا نمر بها مرات ومرات ، وهناك عناصر منها ، مثلما يحدث على سبيل المثال عندما يوقف رجل المرور قائد سيارة • ويتأكد المحلل النفسى أن المريض قد تحسن عندما ينجح فى منع هذا النوع من المعاملات ، من نقل أو تحويل المشاعر عن الطفولة • وعند هذه النقطة من التحليل لايكون المريض مرغما على أن يختار ما سيكشفه عن نفسه للمحلل •

وبكلمات أخـرى ، نقول أنه ليس على المريض أن يخشى « والد » المحـلل • ويطلق على هذا الموقف فى التحليـل النفسى اسـم : **انتصـار المقـاومة أو مقاومة الخوف** overcoming resistance

ونحن نتجنب أثنـاء تحليل المعاملات ، الكثير من الآثار المعوقة لعمليـة النقل ، والمقاومة الناتجة عن شكل ومضمون نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) ذى المشاركة المتبادلة · وسرعان ما يجد المريض أنه يتعامل على قدم المساواة مع انسان آخر أتى لمساعدته ، وهو انسان مهتم بتطوير معرفة المريض لذاته سريعا حتى يستطيع أن يصبح المحلل النفسى المفضل لديه بأسرع ما يمكن · واذا تملكت المريض مشاعر النقل والمقاومة ، فان تلك المشاعر ستعالج مباشرة خلال الساعة الأولى بعد أن يتعرف الى « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » ·

وقد تطورت الساعة الأولى ــ من خلال ممارستى ــ الى نموذج ثابت ، حيث يخصص النصف الأولى الصعب من هذه الساعة لسماع حكايه المريض عن مشكلته ، بينما يخصص النصف الثانى لتعريفـه بأسس نمـوذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) وبعد أن يفهم المريض معنى النموذج ، تدور مناقشة مشكلته باستخدام اللغة التى تعلمها لتوه · وهذه المعاملة كفيلة باستحضار « الراشـد » ويكون المريض متشـوقا لسـماع الأكثر · ولا يستسلم « الطفل » المتضايق بسهولة · وقد يقـاوم أو يعاود إظهار (المقاومة) فى جلسات علاج فردية متتابعة ، أو فى مجموعة علاجيـة ، ويحدث تفسير علاقة (راشد ــ راشد) فى كل مرة يظهر فيها « الطفل » بالكشف عن طبيعة المعاملة المتأصـلة فى « الطفل » والحمـل المسبب لمشاكل معاملات الفرد فى الحياة ·

ويعتبر تحليل المعاملات فى المرحلة التمهيدية ، وسـيلة ضرورية للتعليم والتعلم بغرض غرس معان محددة كأساس للاستكشاف المتبادل لكيفية ظهور (الوالد والراشد والطفل) فى معاملات اليوم ·

وأعتقد أن عملية ارساء أصـول لغـة ذات معان محددة فى المرحلة التمهيدية للعلاج ، هى سـمة يتفرد بها هذا الاسلوب فى العلاج ، وهى مسئولة عن التعبيرات التى تجسد احساس المريض بالتحسن مثل قوله : « أشعر بتحسن كبير » ، أو « هذا يمنحنى الأمل » · وهى أقوال نستمع اليها غالبا عند نهاية الساعة الأولى ·

وتتضمن الساعة الأولى أيضا مناقشة « عقد العلاج » ونحن نستخدم كلمة « عقد » للدلالة على التوقعات المتبادلة (اننى هنا لكى أعلمك شيئا ، وأنت هنا لتتعلم شيئا) · وهذا لايعنى أن الشفاء مضمون ، ولكنها تعطى ببساطة وعدا بما سيفعله الطبيب النفسى المعالج وبما سيفعله المريض نفسه · واذا حاد أى منهما عن الاتفاق الأصلى ، يكون من السهل اعادة

النظر فى العقد · وتصير هذه المحاولة ميسورة باستخدام اللغة الجديدة ، التى تشق طريقها نحو الخصوصية · ويوافق المريض على تعلم لغة تحليل المعاملات ، واستخدامها فى فحص معاملاته اليومية ، ويهدف العلاج الى شفاء العرض الحالى ، أما طريقة العلاج فتتركز فى تحرير « الراشد » لكى يمارس الفرد حرية الاختيار ، وخلق اختيارات جديدة ، أرفع وأبعد عن تأثيرات الماضى المحدودة ·

تشخيص المرض :

يسأل المريض أحيانا خلال مسار الساعة الأولى من العلاج ــ قائلا : « ما هو تشخيص حالتى ؟ » فى صــــوت متهدج ، مرتعش النبرات ، كما لو كان استجداء · ويثير هذا معاملة (والد ــ طفل) فأتجنبها بسؤال مثل : « هل تحتاج الى تشخيص ؟ » أو « وماذا ســـيفعل التشخيص بالنسبة لك ؟ » وفى اعتقادى أن أشخاصا كثيرين قد أضيروا من أسلوب العلاج بسبب خطأ التشخيص النفسى · ويوافق كارل مييننجر على ذلك قائلا : « لا يأتى المرضى الينــا لكى يدمغوا بسمة المرض ، ولكنهم يأتون ليتلقوا المساعدة ، ويستطيع الناس أن يشفوا من أعراض المرض العقلى ، ولكنهم لايشفون من صدمة وصفهم بهذه الصفة » ·

ويعتبر التشخيص فى التقليد الطبى ، طريقة كافية لاقامة الاتصال من ناحية الأطباء · ان معرفة التشخيص تساعدهم على معرفة ما يجب أن يفعلوه · ان اصطلاحات مثــل : التهــاب مزمن فى الزائــدة الدودية ، أو التهاب الكيس الزلالى ، أو سرطان فى أنسجة الرئة ، أو انسداد عضلة القلب ــ تبين حالة معينة وتستدعى علاجا معينا ، أما فى العلاج النفسى فسنجد أن أسلوب التشخيص التقليدى يفشل فشلا ذريعــا فى تحقيق الغرض الأصلى منه وهو تحقيق الاتصال بين المريض والطبيب · وقد وردت صفحات عديدة عن التشخيص فى (دليل جمعية الطب النفسى الأمريكية) · وفيما عدا بعض الاستثناءات ، فان المعلومات التى يقدمها كل تشخيص غامضة ، مثل اصطلاحات الأنا الأعلى والأنا والهو · ان القول بأن المريض مصاب بانفصام مزيف ، أو قهر عقلى ، أو اعتماد سلبى ، أو قلق عصبى ، أو وقوع تحت تأثير الماضى ، هذه التشخيصات النفسية لن تفيد المريض بل ستجعله يعتقد أن العلاج سيستغرق وقتا طويلا · ان القول بأن المريض يعانى من الانفصام لايفيد كثيرا لأننا نفتقر الى تعريف واضح للانفصام · وقد يجد المريض بعض الراحة عندما يعرف أن عنــده مثــل هذا المرض

الغريب ، والصعب • ويتفق القليل من الأطباء النفسيين على طريقة علاج الانفصام أو متى يجب استخدام الملاحظة ، اذن فان الاصطلاحات التشخيصية من النوعية التى ذكرناها ليس لها معنى ، ونساعد فقط على اكساب جهود علماء النفس سمة طيبة ، وتحقيق متطلبات قسم الملفات بالمستشفى • ان كل كلمة تفشل فى تحقيق الاتصال غير مفيدة ويجب نبذها • وفى التحليل النهائي ونقول أن ما نعرفه هو الذى يبين الاختلاف • أما الكلمات التى تطمس الحقيقة فيجب نبذها واستخدام تلك الكلمات البسيطة والدقيقة والمباشرة التى تعبر عنها علما بأن معرفتنا للطريقة التى ركبنا بها ، كفيلة بتحرير نفوسنا وكسر قيودنا •

أما لغة تحليل المعاملات ، وملاحظة الوحدة المتفق عليها (المعاملة) والتعريفات المحددة « للوالد » و « الراشد » و « الطفل » ، فانها جميعها تتيح أسلوب اتصال جديد وغنى بالمعانى ودارج ـ ليس فقط بين الأطباء الذين يستخدمونه ، ولكن أيضا بين الأطباء والمرضى •

ان الشخص الواقع تحت سيطرة « الوالد » مع « راشد » موصد ، يعرف أين تكمن مشكلته ، ويستطيع أن يتحرر من الماضى بدون الرجوع الى حقيقة أنه يعانى من حالة القهر العقلى ، والوقوع تحت تأثير الماضى • وعندما يصر عضو بالمجموعة على معرفة تشخيص مرضه فيتساءل : « من أنا ؟ أخبرونى بأى حال من الأحوال من أكون ؟ » فاننى فى العادة أجيب بصيغة يستطيع أن يفهمها ومبنية على أساس معرفتى به تلك التى اكتسبتها من مراقبته فى مجموعته • ومثل هذه الصيغة يجب أن تكون كما يلى : (ان لديك قدرا كبيرا من الاحساس بأنك لست على مايرام فى « طفلك » مع قدر متوسط من افساد « راشدك » مما تجعلك تمضى فى بعض الأحيان على غير هدى ، وتعطى « لوالدك » المتأرجح فرصة ليضرب « طفلك » فما هو مصدر احساسك بالذنب ؟) •

ان اهتمام المريض بأعراض مرضه ، يمكن أن يسبب نفس الضرر الذى يناله من احساسه بالحاجة الى تشخيص لمرضه • وقد فشلنا فى الحصول على سند يدعم فكرة أن المناقشة المتكررة للأعراض المرضية ، مثل الهبوط ، والصداع ، والأرق ، أو آلام البطن ، تنفع فى تخفيف الأعراض ، ولكننا أثبتنا أن التقليل من حدة الصراع الداخلى يمكن أن يصنع العجائب بالنسبة لآلام البطن • وكذلك فان التشخيص وأعراض المرض ينتميان الى دائرة الألعاب التى يولع البشر للأسف ، بممارستها ، أو بالاحساس بالتفوق على الآخرين مثل « مالدى أفضل » أو « لا أحد يعرف كم أعانى » •

وماذا عانى » • واذا عانى شخص من مشاكل فى حياته بصرف النظر عن ماهية هذه المشاكل ، وطلب المساعدة فى حلهـا ، فمن المستطاع تعليمه تحليل المعاملات لفحص معاملاته الحالية فى الحيـــاة ، والتى يستطيع نتيجة لهـا أن يكشف التأثيرات القادمة من الماضى البعيد والتى تعـود اليها متاعبه •

وفى العادة فانه يجرى خلال الساعة الأولى توجيه السؤال التالى : « كم من الوقت سيستغرقه ذلك ؟ » وقد كانت الاجـابة عن هذا النوع من الأسئلة متحفظة ، على الأقل فى كثير من ممارسات العلاج النفسى ، ان لم يكن فيها كلها • أما مغزى السؤال فهو الاشـــارة الى أن العلاج سيستغرق دهرا • وقد أوضح جيروم د • فرانك أن توقعات المرضى عن فترة علاجهم تمثل عوامل أساسية فى تحديد طول المدة التى يستغرقهـا تحقيق نتائج نفســية مشابهة • وهو يستشهد بمجموعتين من المرضى « كانوا يعانون من أمراض سيكوسوماتية » فى نفس الوقت ولكن احداهما استغرقت ستة أسابيع ، بينما استغرقت الأخرى عاما كاملا للشفاء ، وكان الاختلاف هنا راجعـــا الى توقعاتهما فيما يتعلق بطول المدة التى يحتاجها كل فريق • وأظن أن المفتاح الى التوقع هو فهـــم نتائج العلاج النفسى التى يتم التوصل اليها •

وقد حددنا هدفنا من العلاج باستخدام اللغة الجديدة التى نعلمها للمرضى قبل علاجهم ، وعلى ذلك فان المريض يعرف الدور الذى يؤديه • وأنا أحب أن أعود مرضـاى على التفكير فى نطاق الحدود التى يفرضها عليهم واقع الزمن والمادة بوصــفها تحديات لا معوقات • وحينما أبـرم اتفاقا مع أحد المرضى أقول له عادة : « دعنا نرتب لك الحضور مع مجموعة الساعة الثانية يوم الثلاثاء لحضور عشر جلسات ، وسنرى ما نستطيع أن نعمله لك خلال هذه الفترة » •

أما اذا أراد المريض أن يستمر بعد هذه السلسلة فاننا نستطيع ترتيب عشر جلسات أخرى • وهو يعلم أنه يستطيع العودة • أما متوسط طـول الوقت فى أى مجمـــوعة من الذين يتدربون معى ، فانه يستغرق عشرين ساعة • وبالطبع توجد اختلافات ، تبدأ بالاختلافات الفـردية • اننا نختلف فى (الوالد والراشد والطفل) كمـــا نختلف فى مصاعب أوضاعنا المعيشية : مشاكلنا الزوجية ، والعمل غير المناسب ، وعدم وجود مجال لتمضية وقت الفراغ •• الخ لقد كان هناك مرضى حققوا تفوقا فى خلال ثلاث أو أربع جلسات ، وهذا يعنى أنهم كانوا قادرين على أن يحرروا

ما يكفى من « راشدهم » بحيث اسنطاعوا أن يبـدأوا فى التفـرقة بدقة ما بين « والدهم » و « طفلهم » وما بين الاثنين والحقيقة ـ أى العـــالم الخارجى ٠

ومن بين الدلائل الأولى على هذه التفرقة قول المريض : « ان طفـلى الذى ليس على مايرام ، كان ٠٠٠ » أو « يـكون ٠٠ » ان اسـتعمال هذا الاصطلاح يبين تحقيق فصل مفهوم ومحدد وحقيقى ـ « لطفل » المريض عن « راشده » وهذا يعنى أنه قد تكاملت فى شخصيته كافة الجوانب العقلية والداخلية والخارجية ٠

لماذا يستخدم العلاج الجماعى :

ان علاج الأفراد فى جماعات هو أسلوب الاختيـار بالنسبة لتحليل المعاملات ٠ هل هذا أسلوب طيب أم ردىء ؟ هل علاج الأفراد فى جماعات يمثل « أسلوبا اقتصاديا فى العلاج ؟ » ان رد فعل الكثيرين بالنسبة لكلمة «مجموعة» يشبه رد فعلهم ازاء الاصطلاح الذى استخدمه فرانكلين روزفلت « الرجل العادى » (*) من يريد أن يكون « عاديا » ؟ من يريد تذويب ذاته فى اطار عضوية جماعة ؟ ماذا يدور فى العلاج الجماعى ؟ ماذا يدور فى العلاج الجماعى باستخدام أسلوب تحليل المعاملات ؟ ان الانطباع العادى هو أن الناس من خلال العلاج الجماعى بأسلوب تحليل المعاملات يعبرون عن المشاعر « يخرجونها من داخلهم » ويقولون للآخرين ما يظنونه عنهم ، وعن « أى شىء يخطر فى بالهم » ٠ وفى الحقيقة فان الكتابات العديدة عن العلاج الجماعى قد شجعت وجهة النظر هذه ٠ وقد ذكر س٠ر٠ سلافسون احد رواد تطوير أساليب العلاج الجماعى ـ فى كتابه : The practice of Group Therapy أى : ممارسة العلاج الجماعى ـ ما يلى :

ان القيمة الرئيســـية العادية للمجموعة تتمثل فى أنها تســمح باستخراج الدوافع الغريزية التى تتزايد سرعتها بسبب التأثير المساعد للعوامل الأخرى ، فهناك حرص أقل وانطلاق أكبر فى المجموعة التى يلقى من خلالها المرء فى رفيقه سندا ، كما يتضاءل الخوف من تعرية النفس ، ونتيجة لذلك فان المرضى يكشفون عن مشاكلهم بسهولة ، مما يعجل العلاج النفسى ، وتنكمش الدفاعات ٠ وفى اطار هذه البيئة السمحة ، واقتداء بالآخرين ـ تبدأ الضغوط التى تفرضها النفس لحمايتهــا فى التلاشى ، وبالرغم من أن المجموعات تخفف من دفاعات « الراشد » كذلك ، فان هذا

(*) أى يعبر عن الازدراء ـ المترجم ٠

يصدق أيضا على الأطفال والمراهقين • أن حرية التصرف والحديث تؤدى الى الرضا ، وهى فى نفس الوقت تجعـل المرضى يتقابلون مع مشاكلهم وجهـا لوجه فى مرحلة مبكرة من العلاج • وكذلك تقلل الدفاعات التى يحاول بها المرء حماية كبريائه الشخصى • ان المناخ الودود للمجموعة ، والقبول المتبادل يجعلان الفرد فى غير حاجة لموقف الدفاع ، فالجميع لديهم نفس المشاكل ولا يتوقع أحد ردود فعل سلبية • ان الوضـع قد تأكد ولم يعد هناك خوف من الانتقام أو الاقلال من القيمة (١) •

وخلال ممارستى للعلاج ، لم أستطع أبدا أن أقر العبارة السابقة • ان السماح للصغير بالتعبير عن دوافعه الغريزية ، وأداء الالعاب كيفما اتفق من خلال مجموعة العلاج ، ليس الا اضـاعة لوقت المجموعة وعدوانا على حقوق وأهداف كل عضو فى المجموعة • واذا سمح للصغير بالاستمرار ، فانه سيخرب « العقد العلاجى » لتحليل المعاملات • وحتى يكون كل عضو على الأقل قد بدأ فى تحرير « راشده » سعيا للخلاص ، فان العائد المتوقع من « كرسى الاعتراف » سـيكون ضئيلا — ان كان هناك ثمة عائد — فى علاج أى من أفراد المجموعة • ولا يعجل الا بالمحافظة على وضع « الراشد » فى موقع المسئولية • و « الراشد » فقط هو الذى يستطيع أن يكشف « الطفل » أو « الوالد » • ان الكشف عن المشاكل يمثل دعوة للمشاركة فى الألعاب « لماذا لاتفعل • نعم ولكن » • ان التعبير عن المشاعر و « الحديث من خلالها » قد ينتج الرضا بالنسبة « للوالد » و « الطفل » ، كما يحدث فى الحياة اليومية ، ولكن من خلال مجموعات العلاج تتداخل هذه المعاملة مع اكتساب احساس المرء بأنه على مايرام ، والمفاهيم الضرورية للوصول الى « الراشد » المتحرر •

لايوجد سحر فى كلمة « مجموعة » لأن تحليل المعاملات فى مرحلته المبدئية ليس الا تجربة تعليم وتعلم • وأسلوب المجموعة له مميزات عديدة واضـحة تجعله يتفوق على الاسـلوب التقليـدى للعـلاج الفـردى (طبيب + مريض) • وكل ما يقال فى المجموعة يراه ويسمعه كل عضو فيها — تستوى فى ذلك كافة الأسئلة والأجوبة والمعاملات • ويحتاج المريض الى التعرف على الطرق المتعددة الخفية التى يكشف بها « الوالد » عن نفسه فى المعاملات ، فلابد من تعريفهـا وتعلمهـا • ولابد من معرفة كل من التهديدات الداخلية والخارجية التى تهدد « الطفل » أولا بشكل عام ،

---

(١) S. R. Slavson, "The Practice of Group Therapy", (New York : International University Press, 1947).

يتبعها التطرق الى الخصائص الفريدة والمحددة « للطفل » فى كل فرد من أفراد المجموعه • وهناك يواجه المريض الالعاب والوافع الدى يعيش فيه بأسلوب يختلف عن الحديث المنتقى والمتسامح الذى يدور همسا بين المعالج والمريض فى أسلوب العلاج الفردى • أما فى علاج المجموعات فان الناس تظهر فى الوسط الطبيعى مندمجة مع غيرها بدلا من انفصال كل شخص على حدة ذلك الانفصال الذى لن ينعكس على الخارج أبدا • وتتركز الفائدة الأساسية من علاج الناس فى مجموعات باستخدام أسلوب تحليل المعاملات فى أنهم يتحركون أسرع نحو الشفاء ، والعودة الى الحياة ، والبدء فى الرؤية ، والاحساس بما هو حقيقى ، أو « النمو » • ومهما كان هدف الفرد من العلاج فلابد من الكشف عنه عند نهاية الساعة المثيرة من خلال المجموعة ، وقد قال واحد فى احدى المجموعات : « اننى أشعر كما لو أن طولى عشرة أمتار » •

وقبل فحص هذه الفائدة الأولية ، قد يكون من الأفضل الاشارة الى الاجابة التى يقدمها العلاج الجماعى عن التكلفة المرتفعة المعروفة للعلاج الفردى ، والتفاوت بين عدد الأشخاص المحتاجين للمساعدة والعدد المتاح ممن يقدمون هذه المساعدة اننا نعيش فى عصر الاحساس بالتكلفة والوقت، كما أننا نشعر دائما بضرورة مديد العون لهؤلاء الذين يعانون وهم كثيرون• وعلينا ونحن نبحث عن الحل أن نفحص واحدا من أهم الانتقادات الموجهة للعلاج بالتحليل النفسى : انه ارتفاع التكلفة ، والوقت الطويل الذى يتطلبه حتى تتحقق النتائج التى قد تكون غير مؤكدة • ولا نستطيع أن نتجاهل هذا الانتقاد بسهولة ونقول ان الذين يتمسكون بوجهة النظر هذه عاجزون عن تقييم الأولويات الحقيقية ، مثل ذلك الذى يعانى من مشكلة ولا يجد لها حلا الا فى اقتناء سيارة حديثة الطراز بدلا من البحث عمن يساعده فى ايجاد حل حقيقى للمشكلة •

ويوجد اليوم العديد من الأفراد الذين على الرغم من قبولهم الكامل لفكرة أن « الصحة النفسية مهمة » ، الا أنهم لايزالون عاجزين عن تحمل نفقات العلاج الطويل المدى بالتحليل النفسى مع ارتفاع تكاليف المعيشة التى وصلت الى أقصاها ، ومن هؤلاء الكثير من أبناء الطبقة الوسطى وجميع المجموعات ذات الدخل المحدود • فهل تقتصر الصحة العقلية على الأغنياء ؟ وهل العلاج بالتحليل النفسى ، هو كما سمعت زميلا من المحللين النفسيين ، نوع من الرفاهية ؟ وهل فى الامكان مساعدة عدد أكبر من الناس عن طريق العلاج الجماعى ؟ وهل يمكن اعتبار الرعاية النفسية جزءا من العلاج مثل الجراحة الطارئة ؟ ان الدكتور ليونارد شازمان وهو

طبيب بالمركز الطبى لجامعة كاليفورنيا ـ قد أكمل فى سنة ١٩٦٦ دراسة ميدانية لخمسة عشر مركزا طبيا على مدى ثمانية أعوام ، غاص خلالها بين المحللين النفسيين والأطقم العاملة معهم . ومن خلال الدراسة التى نشرها سنة ١٩٦٦ بمجلة San Francisco Chronicle ، لاحظ أن :

الاسلوب العلاجي القديم القائم على النظام الفردى (طبيب + مريض) يخدم الأثرياء ، مع التجاهل الكامل للطبقات الفقيرة ، وهذا الاسلوب لم يعد الآن كافيا حيث يحتاج السكان الذين يتزايد عددهم اليوم ـ الى خدمات نفسية أكثر ، كذلك فان الطبيب النفسى الذى يستخدم اسلوب التحليل النفسى يلتزم بمكتبه ويقدم الخدمة الشخصية الى عدد محدود من المترددين ، وعليه أن يتعامل مع الناس الأكثر ثراء لتغطية تكاليف أعماله . ويتم تفصيل الخدمة حسب حالة العميل من حيث كمالها ، أو رداءتها ، أو بين هذا وذاك ، كما أن الطبيب يقدمها فى شيء من الكبرياء والتأنق . ولكن من يشترى الحلل الجاهزة ؟ من الذى يأكل دائما فى المطاعم الشهيرة التى تقدم الطعام ومعه النبيذ على ضوء الشموع ؟ من الذى يقود السيارات المصنوعة حسب الطلب ؟

ومن الممكن لعلاج الأفراد من خلال المجموعات أن يقلل من تكلفة العلاج الى الدرجة التى يمكن عندها قبول العلاج لدى القائمين به ، ومن خبرتى أيضا أقول أن العلاج الجماعى باستخدام تحليل المعاملات ، قد قلل من طول فترة العلاج التى ترتب عليها أيضا خفض التكلفة بالنسبة للمريض . ويتركز العامل الثالث فى أن « عقد » العلاج ، والاجراءات المستخدمة ، أصبح محدودا جدا لدرجة اعتقادى بأن هذا الشكل من أشكال العلاج سيدخل نظام التأمين على نطاق واسع واذا استطعنا التأمين على تعليم أولادنا ، فمن الممكن أن نؤمن أيضا على نوع خاص من التأمين المتعلق بالسلوك .

وعلى أية حال فهناك ماهو أهم من هذه الاعتبارات ، وأعنى به حقيقة واعتمادا على خبرتى ـ أن بعض الأفراد تتحسن حالتهم أسرع من خلال مجموعات العلاج باستخدام تحليل المعاملات ، أكثر مما يحدث باستخدام علاقة الاسلوب الفردى التقليدى (طبيب + مريض) . وأقصد بالتحسن هنا تحقيق الأهداف المنصوص عليها فى عقد الساعة الأولى ، والتى من بينها هدف تخفيف حدة الأعراض الحالية (منها على سبيل المثال : انحلال الزواج ، والارهاق ، والصداع ، والفشل فى العمل .. الخ) والهدف الآخر هو تعلم استخدام نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) بدقة

وكفاءة . ومن بين المقاييس التى تبين شـفاء المريض ، مقـدرته على ذكر ما حدث فى أى معاملة بطريقة مفهومة لبقية أفراد المجموعة ، وإذا ذكر لى شخص أنه قضى فترة طويلة فى العلاج وأنه « كان مفيـدا » ولكنـه لم يستطع الإجابة عن سؤالى : « ماذا حدث خلال العلاج ؟ » فإننى لا أشعر بأنه قد حقق السيطرة على أفعاله الذاتية ـ وأنا أطبق هنا فكرة أرسـطو القائلة بأن « ما يعبر عنه ـ ينطبع فى الذهن » . وإذا استطاع المريض أن يعبر بالكلمات عن : لماذا عمل ما عمله ، ويعرف كيف توقف عن عمله ، فإنه يكون قد نال الشفاء ، مادام يعرف ماهو العلاج ويستطيع أن يستخدمه مرارا وتكرارا . ومادام المريض قد تعلم مبادىء نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) فإنه يستطيع أن يرى مجموعة تحليل المعاملات كشخص يختلف كثيرا عن ذلك الذى تعود أن يراه عن طريق « والده » و « طفله » . وربما يكون قد تعـلم مبكرا : « لاتنشر غسيلك القذر أمام الآخـرين . » أو « لاتبح بأسرار العائلة » . ويحدث هذا من خلال شريط واضح التسجيل يعمل عن طريق « الوالد » . ومن الجهة الأخرى فإن « الطفل » « يريد احتلال الملعب فترة الساعة بكاملهـا » وذلك بالاستمرار فى لعبـة « أنا مسـكين » . والشخص الذى يريد أن يلعب لعبـة « الاعتراف » و « الطب النفسى » ، و « أليس هذا فظيعا ؟ » و « إنها غلطته هو وحده » ، سرعان ما سيجد أنه لا أحد من المجموعة يريد أن يشاركه اللعبة . إن دور المعالج النفسى هو دور المدرس ، والمدرب ، ورجل الأبحاث الذى يشجع بشدة على الاندماج ، ويسمح بشىء من الضحك ليوفر احساسـا مريحا للحاضرين يقيهم من الشعور بأن هذه التجربة التى يمرون بهـا تجربة مزعجة . ويسعى كل عضو بالمجموعة نحو غرض واضح ، ومحدد ، ومن السهل ذكره : **معالجة** المريض بتحرير « راشـده » من التأثيرات المثيرة للمتاعب ، ومطالب « والده » و « طفله » . ويتحقق هذا الغرض بتعليم كل عضو بالمجموعة ، كيف يعرف ويحدد ويصف « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » كما يبدو كل منهم له من خـلال المعاملات داخل المجموعة . وحيث إن السمة الأساسية للمجموعة تتركز فى التعليم والتعلم والتحليل ، فإن فاعلية المحلل النفسى تقوم على حماسه وقدرته كمدرس واستعداده لمجاراة كل اتصال أو إشارة صادرة عن المجموعة ، سـواء كانت لفظية أو بطريقة أخرى . ويظهر « الوالد » عند تنظيم المجموعة بطرق عديدة : هز إصبع السبابة ، رفع الحاجب ، زم الشفتين ، أو بعض العبارات مثل : « ألا توافق ؟ » أو « كل شـخص يعـرف أن ... » أو « يقولون ... » أو « بعد كل شىء ... » أو « سأعرف الحقيقة ولن تستطيع خداعى بعد ذلك أبدا » .

ويظهر « الطفل » أيضا بوسائل يسهل التعرف عليها مثل : البكاء ، والضحك ، والحيــاء ، وقضم الأظافر ، والعض ، والحركات العصبية ، والانسحاب ، والتكشير ، بالاضافة الى مجموعه العاب « الطفل » مثل : « انا مسكين » و « أليست رائعة » ، « عدنا لهذا من جديد !! » ويساند أعضاء المجموعة احساس « الطفــل » بأنه ليس على مايرام ، الكامن فى زميلهم . ونادرا ما يعمدون الى تقريعه مثلما يفعل « الوالد » • وهناك تمهيد تشجيعى مثــل : « أستطيع رؤية أن ــ « طفلك » ــ قد أضــير ، فما سبب ذلك ؟ » أو « هل تستطيع أن تذكــر لى ما الذى اســتثار « طفلك » ؟ » •

ويبدأ المرضى سريعا فى استكمال المعلومات الخاصة « بالوالد » و « والراشد » و « الطفل » ــ فى كل منهم ــ من خلال العديد من المعاملات• وهذا هو تقييم المجموعة ، ليس بالنسبة للمعلومات التى دفنت مدة طويلة ، ولكن بالنسبة للبيانات التى تتكشف أمام أعينهم ، اليوم ، فى المعاملات التى يدخل فيها كل منهم • ان المجموعة تتالف من مشاركين لا من مراقبين يؤمنون ايمانا عميقا بما يقال لهم ويطلق عليهم اسم : فريق العلاج • ولكن القليل من المرضى هم الذين يستطيعون تحمل اسم فريق العلاج ، وقليل من الأطباء النفسيين هم الذين يستسيغونه لمرضاهم • يقول أفروم جاكوبسون ، مدير الطب النفسى بمركز جيرس شور ــ ما يلى :

وتستمر العيادات على أية حال ، فى « تقييم » المرضى عن طريق الفريق الجماعى • وهذه عملية قاسية وطويلة بالنسبة للمريض ، تتطلب طقسا لجمع المعلومات بواسطة الباحث الاجتماعى [الذى ينقب فى خفايا النفس]، والفحص بواسطة الطبيب النفسى الذى يساهم بالقليل فى تكوين الانطباع الطبى للمحلل النفسى ••• والوقت الذى يجب أن يقضيه فى اجتماع الانصات لجميع التقارير ــ التى جمت بعناية على مدى فترة تقدر بعدة شهور ــ يمكن أن يستفيد منه بقضائه فى الاتصال المباشر بالمريض •

ويشير الى دراسة سابقــة عن احدى العيادات : أوضحت أن معظم وقت العيــادة كان مخصصــا للتركيز على تشخيص أمراض المرضى الذين لم يكن من المتوقع أن يأتوا للعلاج (٢) •

(٢) A. Jacobson, "A Critical Look at the Community Psychiatric Clinic," Supplement to The American Journal of Psychiatry, Vol. 124, No. 4 (October, 1967).

وفى الأيام الأولى لاستخدام نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) كان بعض المرضى يأنفون من الدخول فى مجموعة ، ويصرون على أساليب العلاج التقليدى ، اى انهم يأتون ليسردوا مشاكلهم بشكل خصوصى ، كما أنهم لا يوضعون فى مجموعات على أســاس التشابه فى الأعراض ، عن ذلك شيء بطريقة أو بأخرى » . وقد تغير هذا الموقف كثيرا بسبب التقارير الطيبة عن فعالية العلاج الجماعى . وفى الآونة الأخيرة يأتى الى مرضى بناء على نصيحة بعض المصادر الخارجية بالتزام العلاج الجماعى . أو يطلبون السماح لهم بدخول مجموعة لأنهم سمعوا عن مثل هذه المجموعة من صديق . ولا يتم اختيار أعضاء المجموعة حسب تصنيف التشخيص ، كمــا أنهم لا يوضعون فى مجمــوعات على أساس التشــابه فى الأعراض ، ليس فقط لأن ذلك ضروريا ، بل للتخفيف من الاحســاس بالاهانة التى يشعر بها المرء حينما يصنف كمريض نفسى يعانى من عقدة معينة . وليس من المفيد وضع جميع مدمنى المسكرات ، أو جميع الشواذ جنسيا ، أو جميع المتسربين من التعليم ، فى مجموعة واحــدة ، اذ قد يؤدى هذا الى ظهــور نغمة واحدة « ألسنا كلنا فى الهواء سواء ؟ » مع نشاز واحد هو صوت الطبيب المعالج .

وعلى ذلك فان المجموعة قد تشمل كافة مستويات التشخيص بما فيها ذوو الذكاء المحدود ، وهؤلاء الذين عجزوا عن الاســتمرار فى التعليم الرسمى . وقد اســتطاع الكثيرون من الأفراد الذين « تعلموا بمجهودهم الشخصى » أن يصبحوا محللين للمعاملات . وقد أتيحت الفرصة للعديد من مرضاى لرؤية مريض من المجموعة يدخل فى حالة نفسية حادة ويخرج منها (افساد الراشد) والتعبير الحر عن الأوهام العديدة (التى يباشرها « الطفل » القديم) ، وقد لاحظوا من خلال المجموعة واستمعوا الى مرضى كانوا يهذون فى هســــتيرية بحوار (الوالد - الطفل) الذى يعتمل فى المريض والذى وصفه بأنه آت من خارج ذاته . أما المرضى الذين تحــرر « راشدهم » فلا تقلقهم هذه المظاهر الخاصة بالاضطراب العقلى المرحلى ، ويميلون الى أن يكونوا معاونين ، ومؤكدين ، ومحبين ، مع تجاهل ما هو غير عادى .

وتتقابل كل مجموعة من مرضى تحليل المعاملات الموجــودين عنــدى أسبوعيا فيما عدا مجموعات المستشفى التى تتقابل يوميا . وعند انتهاء مدة البقاء فى المستشفى ، التى تقدر بنحو أسبوعين فى المتوسط ، يدخل المريض احدى المجموعات فى مكتبى . وقد تعلم أعضاء المجموعة أن يكونوا حذرين بالنســبة لميل « الطفل » للمقارنة . « اننى أتعلم أسرع منــك »

أو « أنت أشد منى مرضا » • ولذلك يحس المرضى الجدد الذين يدخلون مجموعة من « قدامى المترددين » براحة البال ، ويتقدمون سريعا الى ممارسة تحليل المعاملات • أما تنظيم حضور المجموعة فهو مريح ، ويتيح الاستماع الواضح ، فكل شيء يمكن سماعه ، بما فى ذلك صوت التثاؤب • وتحتل السبورة (التى تستعمل غالبا وفى كل جلسة لبيان الرسوم التوضيحية اللازمة للاستعادة الرمزية للتركيبات المهمة) مكانا ظاهرا من الحجرة •

ينطلق بعض الناس بمهارة الى تحديد « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » ، والأساليب التى تنخرط بها هذه العناصر فى المعاملات الجارية ، بينما يحتاج البعض الآخر الى وقت أطول • أما هؤلاء الذين قد يبطىء العلم فى الوصول اليهم ، فانهم يطورون الفراسة والبصيرة فى الوقت المناسب ، بحيث تتركز مقاومتهم للتعلم فى « الطفل » (ليس على مايرام) الذى يعمل تحت ستار حقيقة قديمة لم يكن الصغير قد سمح لنفسه خلالها بأن يفكر لذاته •

ان معرفة وجود حالة (ليس على مايرام) لدى « طفل » الفرد ، تمثل أول وأهم الخطوات فى معرفة أساس السلوك ، وهذا يبين بداية التقييم الموضوعى لبناء شخصية الفرد • ان فهم هذا أكاديميا شيء ، أما الشيء الآخر فهو التعرف على هذه الحقيقة فى الفرد • ان « الطفل » الذى ليس على مايرام قد يغدو فكرة طريفة ومثيرة فى عين المريض الذى يتباهى بأن « طفله » الذى ليس على مايرام ـ حقيقة واقعة •

ويتصل مضمون معاملات المجموعة فى الغالب بمشاكل الأعضاء فى اليوم الحاضر • ان ما حدث بالأمس ، أو ما حدث فى الأسبوع الماضى هو موضوع النقاش ، وليس ما حدث منذ زمن طويل • ويتعلم الأعضاء كيف يتعرفون على « والدهم » و « راشدهم » و « طفلهم » لدى ظهورهم فى معاملات الحاضر خاصة المعاملات التى فى نطاق المجموعة نفسها • ويختلف هذا تماما عن نوعيات المعلومات التى نحسبها أحيانا وليدة أبحاث علم النفس • وفى حديث موجه للاتحاد الأمريكى لعلم النفس خلال شهر سبتمبر سنة ١٩٦٧ ـ أكد رئيس الاتحاد أبراهام ماسلو أن زملاءه بصفة عامة يسرفون فى حشد الحقائق « التافهة » تحت زعم البحث العلمى • ورغم أن المعلومات التى يجمعونها مفيدة ، الا أنها تنحو نحو السطحية ، والى أن تكون مجرد كومة من الحقائق الجزئية ... ولكن العديد من علماء

النفس عاكفون على دراسة موضوعات أرقي مثل « ربع الدائرة الأيسر من مقلة عين شخص ما » (٣) ٠

ان القيمة النهائيـة للبحث بصرف النظـر عن هيئتـه ، تتركز في المعلومات التي تتيح للناس أن يتغيروا ٠ وسرعان ما يظهر مـن خـلال المجموعة التغيير الناتج في الافراد كأن يبـدأ « راشـدهم » في تحمـل المسئولية ، كما يظهر أيضا لأفراد الأسرة الآخرين ٠ وقد يترتب على ذلك في الغالب عقبات معينة بالنسبة للشخص ٠ لقد اشتكى أحد الأزواج الذي كانت زوجتـه ضمن احـدى مجموعاتي قائلا : « ما الذي يدور في هذه المجموعة ؟ ان زوجتي تبدو أكثر سعادة ، ولكن حياتنا الزوجية في مهب الريح » ٠ وفي مثل هذه القضية أدعو الزوج الى جلسـة منفردة لشرح مفاهيم نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) والأفضـل أن يدخل الزوج والزوجة معا في مجموعة للمتزوجين ٠ ومن البديهي أنه اذا دخل فرد من الأسرة في مجموعة ، وبدأ يتغير ، فان الأسرة كلهـا يجب أن تتغير لأن نموذج اللعبة قد انفرط عقده ٠

واذا كان أحد أفراد الأسرة على سبيل المثال هو « الشـاة السوداء » ثم بدأ في الخروج على هذا الدور ، فان أدوار الآخرين خاصة الصغار الذين ينتمون للأسرة ، قد ترتبك ، أو تنعكس ، أو تنقلب ٠ وهذا هو السبب في النتائج الممتازة التي تتحقق عندما يشتمل العلاج النفسي الأسرة كلها ٠ ان العقد في مجموعات المراهقين التي عندي ، يدعو الى اشتراك الأبوين أيضا في العلاج ٠ ومن أهم الموضوعات التي تتكرر مناقشتها في اجتماعات هذه المجموعات هو : « كيف تخرب العلاج النفسي ؟ » ان بعض الآباء يقوضون جهود العلاج دون معرفة لأنهم في الحقيقة لا يريدون أن يتخلوا عن علاقة (الوالد ـ الطفل) التي يحسون بأنها كانت « تعمل بصـورة جيدة » في الماضي ٠ ان موقعهم كمركز قوة مهدد حيث ان المراهق يبـدأ عمله في « الراشد » ، واذا لم يكن الأبوان متعادلين في قوة « الراشد » مع الابن ، فان المعاملات ستتقاطع ، ويرى هذان الأبوان أن استقلالية صغيرهم تهدد سلطانهما عليه ، رغم أنهما قد أقرا بحاجة ابنهما لهذه الاستقلالية وذلك قبل العلاج ٠ وقد تبـدو المتاعب العادية أكثر اجتلابا للراحة للأبوين الخائفين أكثر من المخاطرة بالثقة في « طفلهما » المراهق وهي الثقة اللازمة لكي يطور سيطرته الداخلية على نفسه ٠ ويتم تشجيع أعضاء المجموعة على عرض علاقاتهم بطريقة مسئولة ومفعمة بالحب ٠ وبعض العلاقات تستمر

---

(٣) San Fransi co Chronicle, Sept. 15th, 1967.

بفضل الألعاب • أما ايقاف اللعب فانه يعنى انتهاء العلاقة • ولا يعبر هذا دائما عن الحب أو يعكس الواقع • واذا كانت قد رتبت زيارات الجدة على مدى السنوات العشرين الماضية عن طريق مجموعة ألعاب « كم هو مرعج » فان وقف زيارات الجدة لايعبر عن الحب ، لأنك لا تستطيع أن تمضى فى هذه اللعبة • وهناك اختيار أمام « الراشد » : أن يلعب أو لا يلعب ، أن يعدل اللعبة الى شيء أقل تدميرا ، أو يحاول أن ينفذ الى باطن الشيء ويشرحه للآخرين حتى يقلعوا عن تلك اللعبة ، ولكننا على أية حال بشر ، والبشر مصابون بهذا الداء (الألعاب) أيا كانت طبيعتها • واذا أردنا ألا يهزمنا الشر ، فعلينا أن نهزم الشر بالخير • ولن نستطيع أن نفعل ذلك اذا انسحبنا من كافة العلاقات التى تتضمن الألعاب •

وافضل أن أعود من وقت لآخر الى الاحتياطات الوقائية الكامنة فى نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) • ويحيط بى أثناء كتابة هذا الكلام صفوف من أرفف الكتب تثقلها مجلدات مكرسة لأساليب العلاج النفسى • معظمها يسرف فى رواية حكايات مقبضة حول ما يسمى : « المرض العقلى » أو الشقاء الانسانى ، ويتبعها بأحدث المناقشات التقنية عن الأخطار المتضمنة فى العلاج النفسى • ان الكثير من تلك المتاعب النفسية يمكننا أن ندرجه ضمن اطار ما يسمى : « مشاكل التحويل والمقـــاومة » التى تتركز فى التحليل النفسى • والكثير من هذه الكتابات يسهب فى شرح كيفية حماية الطبيب النفسى أكثر من كيفية معالجة المريض • واذا كان المحلل النفسى هو البطل فى التحليل النفسى ، فان المريض هو البطل فى أسلوب تحليل المعاملات الذى ينطوى على احتياطات (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) الوقائية التى يتشارك فيها أعضاء المجموعة ، مع اللغة التى تشكل الأساس لعلاقة (مريض ــ مريض) وعلاقة (مريض ــ طبيب نفسى) حتى يتمكنوا من فحص ذواتهم وكافة مظاهر السلوك والمشاعر بصرف النظر عن طبيعتها • ويقوم الأعضاء فى فريق (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) بدور كل من التأثير المقاوم والتأثير المساند ــ بالنسبة لكل منهم •

وفى تلك الجلسات تتلاشى صـــورة الطبيب المسيطر الجالس فى الركن المظلم مع مريضه الصغير المسكين المستلقى أمامه ، فكلاهما يأنف من الكآبة ، وكلاهما واع لأخطارها • ويسمح أحد بنـــود « عقد » مجموعة (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) « للطفل » بالظهور ، كما يشجعه وذلك فى كل عضو من المجموعة بما فيهم الطبيب ، على الضــحك • ان مجموعات (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) تمتاز بخاصية الضحك ، وتتمتع بقـــدرة

عظيمة على مراعاة « الوالد » الذى يغذى فى النفس الانسانيـــة بالقواعد والمثل ، بينما تبحث عن اجابات جديدة لمشاكلها مع « الراشد » المتنبه والواعى ٠

اذن فالخطر يتركز فى أن الطبيب لايعرف ، أو من ناحية هذا الأمر فان أحدا لايعرف مايستطيع موقف (أنا لست على مايرام) لدى «الطفل» أن يفعله بالنسبة لحيـاة الشخص وحيـــاة الآخـــرين الذين حوله ٠ وعندما يعلن أحد أعضاء المجموعة : « لقد استثرت ـ « طفلى » ـ الذى ليس على مايرام عندما قلت ذلك » فان الطريق ينفتح لفحص أحـد أسرار وجودنا ، والذى سيبرهن ناتجـه على أنه متزايد الفائدة لكل أعضـــاء المجموعة ٠

الفصل الثانى عشر

نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) والقيم الأخلاقية

(اننى أعرض حل مشكلة التوتر القائم بين العلم والدين ، ليس عن طريق التجاهل أو الازدواج ، بل عن طريق التوفيق ـ تيهار دو شاردان) .

انك تطلب من ابنك الذى عمره ست سنوات أن يخرج ويضرب ذلك الولد فى أنفه « بنفس الطريقة التى ضربك بها » فلماذا ؟

أنت تسير ضمن مظاهرة تعارض حرب فيتنام ـ لماذا ؟

أنت تعطى عشر ايرادك للكنيسة . لماذا ؟

أنت لاتخطر جهة الضرائب المختصة بالايرادات الداخلية عن صديقك الحميم ، بالرغم من معرفتك أنه متهم بالتهرب من دفع ضرائب ضخمة . لماذا ؟

أنت تتحمل مسئولية خطأ أحد الموظفين . لماذا ؟

أنت تؤيد اصدار قوانين عادلة للاسكان . ولكنك تنسى أن تدلى بصوتك . لماذا ؟

أنت تطلب من ابنتك أن تكف عن مصاحبة صديقة معينة تنحدر من بيت مشبوه . لماذا ؟

أنت لا تمشى بزميل سيىء الخلق ، حتى وأنت تعرف أنه يعرض الناس للضرر . لماذا ؟

ان الناس يتخذون كل يوم قرارات من هذا النـــوع ، وهي كلهـا قرارات أخلاقية ، أو قرارات تتعلق بالصواب والخطأ ـ فمن أين تأتي البيانات التى تدخل فى صنع هذه القرارات ؟ انهـــا تأتي من « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » . انك بعد أن تفحص كافة بيانات « والدك » وتحتفظ بالبعض بينما ترفض البعض الآخر ، فماذا تفعـل اذا لم تشعر بأن لديك المؤشرات الضرورية لاتخاذ القرار ؟ هل تتنازل ؟ واذا كان لديك « راشد » متحرر ـ فماذا تفعل به ؟ أما من جهة الأسئلة الأخلاقيه ، فهل تستطيع أن تفهم الاشياء بنفسك ؟ أم تذهب لسؤال « المختص » ؟ هل نستطيع جميعا أن نحض على التمسك بالأخلاق ؟ أم أن ذلك يقتصر على الأذكياء والعقلاء من الناس ؟

واذا اتضح لنـــا أننا لانتصرف كما يجب ، فالى أين نذهب لطلب المعلومات الجديدة ؟ أين هى مواضع القصور لدينا ؟ وأى نوعيات الحقيقة يستطيع « الراشد » أن يفحصها ؟

ان الحقيقة هى أكثر أدوات العلاج أهميـــة لدينا ، أما ما نفهمه من دراسة التاريخ وملاحظة الانسان ، فهو أيضـــا حقيقة نستخدمها كأداة نبنى بها نظاما أخلاقيا سارى المفعول . ولن نكون منطقيين اذا سلمنا بأن الحقيقة الوحيدة عن الانسان ، موجودة ضمن خبرتنا الشخصية أو فهمنا الذاتى . ان الحقيقة لدى بعض الناس أوسع مفهوما عنهـــا لدى البعض الآخر ، لأنهم رأوا أكثر ، وعاشوا أكثر ، وقرأوا أكثر ، وفحصوا أكثر ، وفكروا أكثر ، أو لأن حقيقتهم ببساطة تختلف عن حقيقة غيرهم .

ان حاجتنا للاهتداء الى الاتجاه فى رحلتنا خلال الحياة تشبه المشكلة الملاحية بالنسبة لقائد الطائرة . كان الطيارون فى الأيام الأولى للطيران يطيرون « حســـب سرعة الحـــركة » معتمدين على الرؤية ، مـــع مقـــارنة ما يشاهدونه من المعالم الأرضية : الأنهار ، والجداول المائية ، وخطوط السكك الحديدية ، والمدن ـ بالخرائط التى ينشرونها أمامهم . وبالطبع فان هذا الأسلوب لم يكن جديرا بالاعتماد عليـــه عنـــد تدهور الرؤية ، ولو لمدة قصيرة ، ولذلك اخترعت أجهزة الارشاد الملاحى « لتحديد الاتجاه بالنسبة لموقعين (هذان الموقعان هما محطتان للارسال اللاسلكى تطلق كل منهما اشارة تبين للطيار المسار الذى تتخذه طائرته بالنسبة للمحطة) ثم يرسم المسارين فى شكل شعاعين على الخريطة التى أمامه ويحدد تقاطع الشعاعين موقع الطائرة . أما اذا حدد موقعه بالنسبة لاتجاه واحد (من احدى المحطتين فقط) فلن يجد موقعه . قد يكتشف أنه يطير فوق خط

الاستواء ولكن على أى جزء من خط الاستواء ؟ كان عليه أن ينظر فى اتجاه آخر (الشعاع القادم من المحطة الثانية) بحثا عن المعلومات التى تجيب عن هذا السؤال (١) ٠

اننى أشعر بأن الكثيرين من الأطبـاء النفسيين يذنبون فى ممارسه العلاج حينما يسيرون به « فى اتجاه واحد » بحيث يخصصون كل وقتهم للنظر فى حقيقة واحدة فقط هى ـ التاريخ الماضى للمريض ـ ماذا فعل ؟ ـ ويتجاهلون فحص نوعيات الحقيقة التى ربما تساعده فى فهـم ما يجب أن يعمله ٠

ويتضاءل رصيدنا من البيانات اذا اعتقدنا أن حقائق صحتنا العقليه لاتنبع الا من حالات معينة مثل أن نقول : « أنا كذا وكذا وكذا ، لأننى عندما كنت فى سن الثالثة ، ضربت أمى أبى بطبق فى ليلة عيد الميلاد » ٠ ويذكرنى هذا اللون من الحفائر فى كهوف الذاكرة بقصة هـ ٠ ألن سميث عن بنت صغيرة كتبت مذكرة شكر لجدتها لأنها أعطتها كتابا عن طائر البطريق بمناسبة عيد الميلاد فقالت : « جدتى العزيزة ، أشكرك كثيرا جدا من أجل الكتاب اللطيف الذى أرسلتيه لى بمناسبة عيد الميلاد ٠ وهذا الكتاب يمدنى عن طائر البطريق ، بمعلومات أكثر من حاجتى » ٠

ونستطيع أن نقضى حياتنا فى التنقيب خلال أكفان التجارب الماضية، كما لو كان ذلك هو المكان الوحيد الذى تعيش فيه الحقيقة ، ونتجاهل دائما الحقائق القهرية الأخرى ، مثل حقيقة الحاجة الى وجود نِظام للقيم الأخلاقيـــة ٠

لقد رأى الكثير من علماء النفس أن ارساء أحكام خاصة بالقيمة هو انحراف شنيع عن الأسلوب العلمى ، يتحتم تجنبه مهما كانت التكلفة ٠ ويصر بعضهم على أن البحث العلمى لايمكن تطبيقه على هذا المجال « انه حكم تقييمى » ولذلك لانستطيع أن نفحصه ٠ « انه فى مجال العقائد » ولذلك فاننا لانستطيع أن نجمع بيانات صادقة ، ولكنهم ينسون أن المنهج

---

(١) الأسلوب الذى أشار المؤلف الى أنه كان مستعملا فى الأيام الأولى للطيران هو الطيران حسب قواعد الرؤية VFR ولا نزال مستخدما حتى اليوم لمعظم الرحلات القصيرة التى تقطعها الطائرات الصغيرة ٠ أما أجهزة الارشاد الملاحى التى أشار الينا فهى محطات المدى VOR ٠ وقد تعددت نوعيات أجهزة الارشاد الملاحى حاليا واتسعت خدماتها لتامين سلامة الطائرة فى كل لحظة من لحظات طيران الطائرة ـ انظر كتابنا : الطيران المدنى والسلام العالمى ـ نشرته الهيئة العامة للكتاب ضمن سلسلة : المكتبة الثقافية ـ (المترجم) ٠

العلمى نفسه يعتمد تماما على قيمة أخلاقيه ـ هى الثقة فى هؤلاء الذين يكتبون التقارير عن الملاحظه العلمية · لماذا يذكر العالم الحقيقة ؟ لانه يستطيع أن يثبت ذلك فى المعمل · لقد خصص ناثانييل براندن ورقة لبحث المشكله الجدية التى رفعها هؤلاء الذين يرون أنه ليس للعلماء أن يشغلوا أنفسهم بالقيم الأخلاقية ـ قال فيها :

من أهم القضايا المحورية فى علم النفس ، قضية أو مشكلة الحافز · وأساس العلم هو الاجابة عن سؤالين أساسيين هما : لماذا يفعل الرجل ما يفعله ؟ وما الذى يحتاجه الرجل لكى يتصرف بطريقة مختلفة ؟ ويكمن مفتاح الحافز فى نطاق القيم ، ان مأساة علم النفس اليوم هى أن العلماء يتغاضون عن مناقشة قضية القيم بوجه خاص ، ولكن من الخطأ أن نعتقد أن مجرد استحضار المشاكل فى الشعور المدرك يضمن أن المرضى سيحلونها ، لأن الأجوبة على المشاكل الأخلاقية ليست واضحة فى حد ذاتها · انها تحتاج الى عملية يشترك فيها الفكر الفلسفى مع التحليل، وكذلك فان العلاج النفسى الفعال يحتاج الى ميثاق أخلاقى ، واع ، ومنطقى، وعلمى ـ نظام للقيم مؤسس على حقائق الواقع ومناسب لمتطلبات حياة الانسان على الأرض (٢) ·

ان براندن يحمل أطباء وعلماء النفس مسئولية أخلاقية جسيمة اذا أعلنوا أن « القضايا الفلسفية والأخلاقية لاتعنيهم ، وأن العلم لايستطيع أن ينطق بأحكام تقييمية » وأيضا اذا لم يبالوا بالتزاماتهم المهنية بحجة عدم امكانية اصدار ميثاق أخلاقى عقلانى · ومع صمتهم فانهم يحكمون على حلمهم هذا بالموت الروحى ·

ما هو الميثاق الأخلاقى العقلانى ؟ :

ان الجواب الطبيعى لمثل هذا السؤال هو : « اذا عاش كل انسان حسب القاعدة الذهبية فان كل شىء سيكون طيبا » ويكمن عدم كفاية هذا الجواب فى حقيقة أن ما نفعله للآخرين ، حتى اذا كان هو نفس ما ننتظر منهم أن يفعلوه لنا ، قد يكون مدمرا · ان الشخص الذى يحاول أن يحل

---

(٢) عن محاضرة ألقاها Nathaniel Branden بعنوان Psychotherapy and Objective Ethics : أى : العلاج النفسى والأخلاقيات الموضوعية ـ فرع علم النفس بالجمعية الطبية لمقاطعة سان ماتيو ـ ٢٤ يناير سنة ١٩٦٦ ·

مشكلة (لست على مايرام) بممارسة لعبة « اركلني » القاشية باستمرار ، لا يصنع معروفا حينما يفرض هذا الحل على غيره • ان القاعدة الذهبية ليست مرشدا كافيا ، ليس لأن مفهومها المثالى خطأ ، ولكن لان غالبية الناس لايوجد لديهم المعلومات الكافية حول ما يريدونه لانفسهم ، أو لماذا يريدونه ؟ انهم لايعرفون موقف (أنا لست على مايرام وأنت لست على مايرام) وغير مدركين لمغزى اللعبات التى يلعبونها للتخفيف من أعبائهم النفسية • ان من بين مهام « الراشد » المتحرر أن يفحص « الوالد » حتى يمكنه قبول بياناته أو رفضها ، وأن يسأل : « هل هناك شيء يستحق الانقاذ من تلك البيانات ؟ » ومن الواضح أن معظم معلومات « الوالد » يمكن الاعتماد عليها ، فثقافتنا قد انتقلت من خلال « الوالد » • ويذكر عالم الأنثروبولوجيا رالف لينتون أنه « بدون وجود الثقافة التى تحفظ مكاسب الماضى ، وتشكل كل جيل تال حسب النماذج التى تقدمها ، فان الجنس البشرى لن يتميز على أدنى أنواع القردة ، الا باختلاف طفيف فى البنية البدنية ، وتفوق قليل فى الذكاء ، وكان سيصبح صنوا للشمبانزى أو الغوريلا (٣) •

وعلى ذلك يمكن اعتبار أن القيم الأخلاقية تظهر أولا فى « الوالد » • ونحن ننظر الى كلمتى « يجب » و « يلزم » على أنهما صادرتان عن « الوالد » • والسؤال الرئيسى فى هذا الفصل هو : هل يمكن لكلمتى « يجب » و « يلزم » أن تصدرا عن « الراشد » ؟

هل من الممكن الاتفاق على القيم الأخلاقية :

هل توجد قيم أخلاقية ايجابية تصدق على جميع الناس ، أم يجب علينا أن نبنى شخصيتنا وأخلاقياتنا الراهنة ؟ ويعلق فيكتور فرانكل على اليأس المتفشى هذه الأيام بين الشباب الذين يجدون أنفسهم حسب قوله : فى فراغ وجودى ، يكون فيه كل فرد هو محور عالمه الخاص ، وحيث يتفشى انكار وجود أية التزامات تأتى من خارج ذاته (٤) وتعتبر كل الأخلاقيات فى هذا النوع معايير ذاتية • ولو صح هذا لكان علينا أن نقر اذن بأنه يوجد فى العالم ستة بلايين نظام أخلاقى بقدر عدد سكان

---

(٣) R. Linton, "The Studv of Man", (New York : Appleton — Century — Crofts. 1936).

(٤) محاضرة للاستاذ V. Frankl بجامعة ولاية ساكرامنتو يوم ٥ مايو ١٩٦٦ •

الكرة الأرضية الذين يسير كل منهم حسب هواه ، منكرا وجود أية مبادىء موضوعية تحكم صلة الانتماء بين الناس ، ولكن الحقيقة هى أن البحث عن هذه المبادىء الأخلاقية الموضوعية مع الرغبة فى الانتماء انما يشكل واقعا عالميا ، ويمكن الاحساس به أيضا كواقع شخصى وتجريبى • والحقيقة هى أن الناس لايستطيعون ولا يريدون أن يعيشوا دون انتماء الى الآخرين • ان بعض الأشخاص الذين اعتادوا ادمان عقار الهلوسة LSD يؤسسون اعتيادهم هذا على ما يسمونه : تسامى التجربة الخاصة بالهلوسة ، التى يكتشفون عن طريقها جوهرا عاما يربط جميع الناس معا ، بالرغم من أن وسيلتهم للتسامى قد تكون موضع خلاف •

وعلينا أن نأخذ فى الاعتبار هذه الرغبة فى الانتماء ، وطاقة الشعور بالاندماج فى الواحد ، ونمو العقل البشرى الى الحد الذى به نفهم ونشعر ونقبل التسليم بأن البشرية عليها التزامات نحو بعضها البعض بسبب انتمائها الى بعضها البعض •

والرغبة فى الانتماء واقع ، حتى اذا لم يكن من السهل التوصل الى المبادىء التى تحكم هذا الانتماء بأسلوب تجريبى • ولكن كما يقول تروبلاد فان المناقشات الحادة حول الموضوعية الأخلاقية لاتجرى حسب منهج تجريبى ، ولكنها جدلية دائما فيقول : « عندما نتدبر هذا متذكرين أن النسبية الذاتية يمكن أن تتردى حتى تصل الى مرحلة اللا معقول ، فسنؤمن حتما بوجود نظام أخلاقى حتى وان غاب عن أذهاننا مغزاه خلال فترة ما أو فى ثقافة ما • ولكن ماذا نعنى بالنظام الأخلاقى الموضوعى ؟ اننا نقصد به الحقيقة التى يمكن الاستعانة بها لتحديد تورط المرء فى الخطأ حينما ينحو الى اختيار أخلاقى زائف سواء فى سلوكه أو فى حكمه على الآخرين •

ونخلص من هذا الى وجود مثل ذلك النظام الأخلاقى الذى يتطلبه المنطق الجدلى • وأهم من وجوده هو التعرف بدقة أو حتى بالتقريب على طبيعة المتطلبات الأخلاقية ، واختلاف الناس حول المعايير الأخلاقية لايسوغ لنا التخلى عن محاولة اكتشاف السلوك الذى ينبغى أن نحتذيه (٥) •

هؤلاء الذين يرفضون فكرة وجود نظام أخلاقى موضوعى ، أو عالمى « ملزم » فيجب عليهم النظر فى المصاعب التى تنبثق عن هذا

---

(٥) Elton Trueblood, "General Philosophy, (New York : Harper, 1936).

الرفض . لقد رفض الوجوديون هذا المفهوم . وزعم سارتر أن الانسان يخلق ماهيته الانسانية خلال سلسلة من الاختيارات ، ومن الأفعال التى تميزه . وذكر أن الانسان يضع بأفعاله تعريفة للانسان ، أى أنه يصنع وجوده الانسانى فالانسان يسبق جوهره الانسانى ولا يخلق فقط جوهره الانسانى ، ولكنه يخلق فى نفس الوقت الكرامة الانسانية بأسرها . انه يستطيع أن يختار فقط ما ينفعـه ، ولكن ما ينفعـه يجب أن ينفع كل الناس . ويذكرنا جوزيف كوليجنون بأن هنـاك وجها آخـر للعملة ــ فيقول :

لذلك يجب على الانسان أن يتحمل مسئولية كل فعل . ليس فقط لمصلحته بل لمصلحة جميع الناس . وليس ذلك بدون سبب . ولذلك يجد سارتر أن « الألم ، والاستسلام ، واليأس » هى من نصيبه ، ونصيب كل شخص موجود ، لأنه اذا لم يجد المرء شخصا يركن اليـه ، أو عقيدة تساعده حينما يكون عليه أن يتخذ قرارا (يتصل بالآخـــرين) ، فان الانسان سرعان ما يتخيل اليأس فى طيات مثل هذه الفلسفة ... وتجد الوجودية تعاطفا بين الشباب الذين يجدون نشوة غامرة فى الظن بأن العالم لامعقول ، لأن ذلك يعطيهم احساسا بالتفوق على النظـــام القائم ، والسيطرة على أنفسهم . ان العالم بالنسبة لهم يتجرد من وحدته الفلسفية المعدة سلفا وفق نظام معين ، فينفسح أمامهم للعمل لكي يضعوا صـــورة للكرامة الانسانية وحتى وان كانت خاصـــة بهم وحـدهم . ومنذ عام ، ألقيت محاضرة عن الوجودية ، ووجدت العديد من الطلبـة قد استقبلوا هذه الفلسفة بحماس حار . وقد قوطعت المحاضرة بسماع الخبر المفجع عن موت الرئيس كيندى . وخلال الصمت المذهل الذى تلى ذلك ، سمعت صوتا ثائرا ومتهورا وعاليا ــ يقول : « كان ذلك عملا وجوديا متكاملا » . وبالرغم من أن بقية الطلبة قد دعوه الى الهدوء بعبارات قاطعة فقد انخرط الكثير منهم فى البكاء . نعم ، لقد كان ذلك عملا وجوديا كاملا ولايمكن الجدل فى ذلك ، فقيام المرء بتصرف فردى نابع من ذاته أمر رائع ، ولكن من يستطيع أن يتحكم فى عملية اغتيال نابعة من ارادة حرة ، وموجهـة ضد رئيس شاب أفنى زهرة شبابه فى خدمة بلاده ؟ ان عملية الاغتيال يمكن أن تكون تجربة رائعة نافعة للشاب لى أوزوالد فى ممارسته الحرة لارادته ، ولكن ما وقعها على الآخرين ســـواء فى الولايات المتحدة أو فى غيرها من بلدان العالم ؟ ...

واذا لم يوجد « التزام » أخلاقي عالمي ، فلا يمكن القول بأن ألبرت شفيتزر (٦) كان رجـــلا أفضل من أدولف هتـــلر • واذا لم يكن الامر كذلك ، فان الملاحظة الوحيدة التي علينا أن نأخذ بهـــا ، هي أن ألبرت شفيتزر قد عمـــل كذا وكذا ، وأن أدولف هتلر قد عمـــل كذا وكذا ، وحتى لو أننا كتبنا ملحوظات تالية تفيد بأن ألبرت شفيتزر قد أنقذ العديد من الأرواح بينما تسبب أدولف هتلر في ازهاق أرواح الملايين من الناس ، فلن نرى ذلك الا مجرد اشارات احصائية على صفحة التاريخ ، ونتجاهل أى تفكير أخلاقي ينحو الى تعديل السلوك الانساني • وبعد كل شيء فان قيمة الناس أو الأشخاص لايمكن تقديم دليل علمي عليها • لقد ظن ألبرت شفيتزر أنه على حق ، كما ظن أدولف هتلر أنه على حق • أما القول بأن كلا منهما على حق ، فانه يمثل تناقضا واضحا • **ولكن ما هو المقياس الذي نحدد به أيهما كان على حق ؟**

قيمة الأشخاص :

أرى أن التمهيد المنطقي لهذا النظام الأخلاقي الموضوعي ، أو المعبر عن الحقيقة النهائية ، يتمثل في أن أهمية الفرد تنبع من ارتباطه بالآخرين في انتماء عالمي يتجـــاوز وجودهم الشخصي • هل هذا اقتراح منطقي ؟ ان مفهوم **الصعوبات النسبية** سيساعدنا كثيرا عنـــد الاجابة عن هذا السؤال ، فمن الصعب الاعتقاد بأهمية الأفراد ، كما أنه من الصعب أيضا الاعتقاد بأنهم ليسوا مهمين • ان انكار أهمية البشر يبطل كل جهد نبذله لصالحهم • ولماذا كل هذا اللغط حول العلاج النفسي اذا لم تكن هناك أهمية للأشخاص ؟ ان فكرة أهمية الانسان هي فكرة أخلاقيـــة بغض النظر عن جدوى أى من الأنظمة المتعلقة بفهم الانسان ، ولكننا لانستطيع التدليل على هذه الأهمية باستخدام القياس المنطقي • ان التاريخ قديمه وحديثه ، بكل ما يفيض به من روايات عن ابادة البشر وانزال صنوف الهوان بهم ، يبدو على العكس من ذلك ، أنه يجعلنا نتأكد من أن الكائنـــات البشرية ليست بذات قيمة كبيرة • ولو لم يكن هناك اتجـاه أو تخطيط لمســـار البشرية لكان مولد تلك البلايين من البشر وموتهم وعذاباتهم شـيئا من العبث ، لاتجدى معه جهودنا المبذولة لفهم عقلية الانسان ، وتغيير السلوك الانساني • اننا لانستطيع تقديم الدليل على أهمية هذه الجهود ، ولكننا نؤمن بضرورتها ، لأنه من الصعب أن نعتقد في غير ذلك •

---

(٦) طبيب من منطقة الألزاس التي تنازعتها فرنسا وألمانيا ، كرس حياته لخدمة الافريقيين البسطاء ـ المترجم

وقد كتب تيار دو شاردان قائلا : « سيستمر الانسان في البحث ، طالما لم تخمد في نفسه جذوة الاهتمام بما حوله ، وهذا الاهتمام يعتمد على الايمان الذى لايستطيع العلم أن يدلل على صحته · انه الايمان بأن العالم ريخضع لتوجيه محدد (٧) · ولن نكون علماء شرفاء اذا تجاهلنا حقيقة أن « جذوة الاهتمام » هذه قد استمرت خلال تاريخ الانسان ، رغم المذابح وعصور الظلام والحروب ومعسكرات الاعتقال · قد نؤمن بأن العالم يخضع لتوجيه محدد ، وقد لا نؤمن بذلك ، ولكننا لانستطيع ـ كعقلاء ـ أن نتجاهل حقيقة أن مسألة أهمية الانسان ، كانت دائما لغزا فلسفيا ملحا · واذا لم نستطع تقديم البرهان على أهمية الأشخاص ، أو تقديم سبب معقول يبرر تجاهل هذه القضية والتفكير فيها ، فماذا نفعل ؟ ان كل ثقافة تختلف في تقديرها لقيمة الأشخاص ، وتنتقل المعلومات الخاصة بذلك عن طريق « الوالد » ولذلك ليس أمامنا من سبيل سوى الاعتماد على « الوالد » للوصول الى أى اتفاق حول قيمة الأشخاص · وفى العديد من الثقافات بما فيها الثقافة الأمريكية ، نجد أن « الوالد » يسمح بالقتل ، وعلى ذلك فان قيمة الأشخاص مشروطة · وفى الحرب يباح القتل ، ونجد كذلك أن عقوبة الاعدام شرعية فى العديد من الأقطار · وقد مارست العديد من الثقافات المبكرة وأد الأطفال ، متعللين بحجة الابقاء على أفضل الأجناس · وهناك العديد من الروايات عن وأد الأطفال حتى في خلال القرن العشرين، فعلى سبيل المثال يوجد بين قبائل التنالا Tanala في مدغشقر فئتان من الناس مختلفتان فى لون الجلد اختلافا ملحوظا ، بالرغم من أنهما تظهران شديدتى التماثل فى بقية خصائصهما البدنية ، وهما متماثلتان تقريبا فى الثقافة واللغة ، وهاتان الفئتان تعرفان باسمين اصطلاحيين هما : العشيرة الحمراء ، والعشيرة السوداء · والأفراد العاديون من العشيرة الحمراء لون جلدهم بنى فاتح ، أما الأفراد العاديون من العشيرة السوداء فان لونهم بنى غامق جدا · واذا ولد للعشيرة الحمراء طفل أسود اللون فلا منازع فى انتمائه اليها ، فانهم يعتقدون أنه عندما يكبر اما أن يصير ساحرا أو لصا أو يرتكب جريمة الزنا مع المحارم (ذوى القرابة) أو يصاب بالبرص ، ولذلك فانهم يحكمون عليه بالموت (٨) ، وهذه العقيدة عن قيمة « هذا النوع من البشر » تنتقل من جيل الى جيل من خلال « الوالد » · ان « الوالد » الثقافى لغالبية البلدان الغربية لايوافق على ذلك ، ولكنه

---

(٧) Pierre Teilhard de Chardin, "The Phenomenon of Man", (New York : Harper, 1959).

(٨) Ralph Linton, "The Study of Man"

يوافق على التسامح فى أشكال أخرى من التفرقة التى قد تنتهى كذلك بالموت • اننا لانستطيع أيضا الاعتماد على « الطفل » فى التوصل الى اتفاق حول قيمة للبشر ، فان « الطفل » الموصد بسبب موقفه الذى ليس على مايرام ، ليست لديه سوى معلومات ايجابية قليلة عن قيمته الذاتية ، فما بالنا بقيمة الآخرين ! « والطفل » فى أى ثقافة ، اذا أثير بما فيه الكفاية ، قد ينفجر فى ثورة قاتلة ، أو يقتل نفسه ، وربما يقترف جريمة قتل جماعى •

« الراشد » المتحرر فقط ، هو الذى يستطيع أن يصل الى اتفاق مع « الراشد » المتحرر فى الآخرين ، حول قيمة الأشخاص • ونستطيع أن نرى كيف أن كلمات مثل : « الضمير » ليست كافية • وعلينا أن نتساءل: « ما هو هذا الصوت الهامس فى داخلنا ؟ ما هو هذا الضمير الذى نعيش به ؟ وهل ينتسب الى « الوالد » أم « الراشد » أم « الطفل » ؟ ان برتراند راسل الذى يأبى أن يدع عقيدة جامدة تستقر على جمودها ، يقول : « ان هذا الصوت الداخلى ، تلك الهبة الربانية قد ترك مارى الشريرة تحرق البروتستانت ، فهل هذا هو الذى يتحتم علينا نحن الكائنات العاقلة أن نتبعه ؟ أظن أن هذه فكرة مجنونة ، وأنا أحاول أن أتبع المنطق بقدر الاستطاعة •

أنا مهم ، وأنت مهم :

ان « الراشد » هو الجزء الوحيد منا الذى يستطيع أن يختار النطق بعبارة (أنا مهم ، وأنت مهم) • ان « الوالد » و « الطفل » ليسا متحررين لكى يقدما على هذا القول ، لأنهما أسيرا أغلال ماشاهدا وتلقيا من تعليمات فى الحضارة التى ينتمى لها الشخص ، ومن ناحية أخرى هما مكبلان بما أحساه من مشاعر وما استوعباه من مفاهيم (٩) •

وتصريح « الراشد » بأن الأشخاص ذوى أهمية ، يختلف تماما عن العبارة التى ذكرتها امرأة مريضة عندما قالت وهى تكور قبضتيها بشدة : « اننى أحب الناس » • وهذا التعبير المختلف جاء عن طريق « طفلها » الذى فرض عليه التكيف مع موقف ما • « الآن اذهبى يا حبيبتى،

---

(٩) B. Russell, "The Autobiography of Bertrand Russell", (Boston : Little Brown, 1967).

وقبلى العمة اثيل ! » وهذه الحبيبة التى عمرها أربع سنوات انما تفعل ذلك أداء للواجب ، حتى لو كانت العمة اثيل تسبب لها الانزعاج ، ولكنها تؤدى ذلك ، وتوضحه قائلة : « اننى أحب العمة اثيل » ، ثم ترفع من قدرها قائلة : « اننى أحب الناس » ، وهى لاتزال تجمع قبضتيها .

وعلينا جميعا أن نفحص النسخ الخاصة بنا من عبارة « اننى أحب الناس » لنفهم حقيقة شعورنا ، ومن أين تأتى هذه المعلومات . ان أغلبنا يتمسك بمعتقدات معينة ، ولكنها ناتجة فى الغالب عن قبول « الطفل » ما لقنه له « الوالد » ، أكثر من كونها استنتاجات عن طريق « الراشد » على أساس القدر الهادف من المعلومات التى يحتفظ بها .

وعلى العكس ، فان اقتراب « الراشد » من تحديد قيمة الأشخاص ، انما يتم باتباع هذه الخطوط :

اننى انسان ، وأنت انسان ، وبدونك لا أكون انسانا ، لأن اللغة تصبح ممكنة من خلالك ، ومن خلال اللغة فقط يصـبح التفكير ممكنا ، ومن خلال التفكير فقط تصبح الانسانية ممكنة . انك جعلتنى مهما ، ولذلك أنا مهم ــ وأنت مهم ، فاذا قللت من قدرك ، فاننى أقلل من قدر نفسى . وهذا هو الأساس المنطقى لموقف (أنا على مايرام ، وأنت على ما يرام) ، ومن خلال هذا الموقف فقط نشعر بأننا أشخاص ولسنا أشياء . ان اعادة الانسان الى الاحساس بانتمائه الى الآخرين ، هى نفسها فكرة الخلاص ، أو الصلح ، أو الاســتنارة ، التى تتمحور حولها كافة أديان العـــالم . والحاجة الى هذا الموقف تتركز فى أن كلا منا مسئول عن الآخر ، وهذه المسئولية هى المطلب النهائى الذى فرض على جميع الناس بالتساوى ، وعلى ذلك فان أول استنتاج نستطيع أن نخلص اليه هو : لايقتل أحدكم الآخـــر .

هل هى طريقة مجدية ؟ :

فى ظهر أحد الأيام واجهنى زميل فى موقف سيارات الأطباء ، وقال مازحـــا : « اذا كنت أنا على مايرام ــ وأنت على مايرام ، فلمـــاذا تغلق سيارتك ؟ » .

وكذلك فان مشكلة الشر أيضا حقيقة فى العالم . وفى مواجهة كافة الشرور التى نراها سيظهر هذا الموقف الرابع (أنا على مايرام ــ وأنت

على مايرام) بوصفه حلما مستحيلا ، ربما لأن حضارتنا تتجه بسرعة نحو مواجهة مع الشر لا سابقة لها ، وعلينا اما أن يحترم كل منا وجود الآخر ، أو تهلك كلنا • وقد نقول ، حتى ولو بدا قولنا غريبا ، انه من العار أن يدمر الانسان في لحظة ما بناه في قرون •

أما تيهار ، الذى تتملكه الدهشة حينما يتكشف له أن العالم يسير فى عملية تطور ترتقى به ، فانه ينهى كتابه العظيم : الظاهرة التى تسمى الانسان The Phenomenon of Man — بتعليق مرير ، وهو يتأمل الشر الذى في العالم ، فيتساءل في دهشة : « ألا تنم ألوان الشقاء والفشل والحسرات والدموع والدماء عن جنوح فى مسار الطبيعة يستحيل علينا فهمـــه ، اذا لم نضف الى تأثير التطور ، تأثيرا هائلا نابعـــا من كارثة أو انحراف ما حدث في بدء الخليقة ؟ ، وهل نمثل نحن خطأ فى التطور ؟ أم هل تنبىء اللحظات البراقة في تطور الانسان عن مستقبل أكثر اشراقا ؟

ويتحدث تيهار عن هذه اللحظة التى انعكس فيهـا حـال الانسان الأول حينما عرف عن نفسه أنه « طفرة من الصفر الى كل شىء » •

ربما كنا نقترب من نقطة أخرى ذات معنى حيث تدفعنا ضرورة حفظ الذات الى معاناة طفرة أخرى ، وسنكون قادرين على القفز مرة أخرى ، لكى نفكر (والأمل يحدونا بعد أن تكشفت لنا حقيقة تكويننا ، ويردد كل منا « أنا مهم — وأنت مهم » ، (أنا على مايرام — وأنت على مايرام) •

انني أعتقد أن تحليل المعاملات قد يقدم نبوءة عن مصير الانسان ورغم أن هذا القول يبدو أقرب الى الحدس منه الى الواقع ، الا أننى أستمد جرأتى على تقديم تلك النبوءة من الرؤية التى طرحها ج • روبرت أوبنهايمر والتى تستشرف قيام حوار عام وتفاعل مستمر بين دنيا البشر بعمومها ، والفنانين ، والفلاحين ، والمحامين ، والقـــادة السياسيين » ، وقد كتب سنة ١٩٤٧ قائلا : « ••• ونظرا لأن معظم العلمـــاء ، مثلهم مثـــل كل الدارسين ، ينحون الى القيام بدور المدرسين ، فانهم يتحملون مسئولية توصيل الحقائق التى اهتدوا اليها » •

وقد بين فى وجهة نظره التى عبر عنها سنة ١٩٦٠ ، أن النـــاس الذين يتمتعون بمكانة عقلية رفيعة ، يجب أن يساهموا فى الثقافة العامة ، ليدور الحديث ، ليس عن حقائق الطبيعة فقط ، ولكن عن طبيعة المأزق الانسانى ، وعن وضع الانسان ، وعن القانون ، وعن الخير والشر ، وعن

الأخلاقيات ، وعن الفضيلة السياسية ، وعن السياسة (١٠) • اننـــا نتحمل مسئولية تطبيق اكتشافاتنا التى توصلنا اليها من مراقبة المعاملات بين الأشخاص ، على المشكلة الأوسع وهى مشكلة المحافظـة على الجنس البشرى (*) •

ما هو العلاج النفسى باستخدام الواقع :

ذكرت فى هذا الفصل مبكرا أن الحقيقة هى أعظـم أدوات العلاج اهمية • ومضيت فى مناقشة عدد من الحقائق • وفى ختام هذا الفصل أود أن أعقد فى ايجاز مقارنة بين تحليل المعاملات ، والعلاج النفسى باستخدام الواقع الذى طوره الدكتور وليم جلاسر (١١) •

يتمسك جلا سر بأن مشكلة الانسان الأساسية هى الأخلاقيات بمعنى أن الاحساس بالمسئولية هو ما تحتاجه الصحة العقلية •

واعتقد أن كلا المدخلين وهما : تحليـــل المعاملات ، والعلاج النفسى باستخدام الواقع ، يمكن اعتبارهما انتصارا جديدا فى العلاج النفسى — بعد أن سئم العلماء تلك الأنماط العلاجية والطبية التى تبعد الأخلاقيات عن بؤرة العلاج •

وهو يرى من أسلوب تحليل المعاملات ، والعلاج النفسى باستخدام الواقع ، أن الناس مسئولون عن ســلوكهم • غير أن هنــاك فارقا هاما ، فأنا لا أوافق جلاسر على انكاره العمومى لأهميـــة الماضى فى فهم ســلوك الحاضر ، ولئن كنت لا أؤمن بلعبة نبش الماضى ، الا أننى لا أستطيع أن أتجاهله كل التجاهل ، فالرجل الذى يتجاهل ماضيه يشبه — من وجهة نظرى — شخصا يقف تحت المطر ، يتجادل حول البلل ، وهو غارق فيه • ان مطالبة المريض بضرورة أن يكون مسئولا ، ليست مثل تحمل المسئولية

---

(١٠) Thomas B. Morgan, "With Oppenheimer, Look, Jan, 27th 1966).

(*) لجأنا الى حذف جزء من هذا الفصل تعرض فيه المؤلف فى هذا الموضع بالانتقاد للمسلمات الدينية التى نحترمها مع العلم بانه لا يضيف الى الآراء العلمية التى أوردها ، كما أن حذفه لا يؤثر فى ترابط هذا الفصل — المترجم •

(١١) W. Glasser, "Reality Therapy," (New York : Harper & Row, 1965).

بالفعل · وتحليل المعاملات هو أيضا « علاج نفسى باستخدام الحقيقة » ولكنه يقدم اجابات لا أعتقد أن جلاسر قدمها · وعلى سبيل المثال : ما هو عيب من لايستطيع أن يدرك الحقيقة ، أو من يدركها بصورة مشوشة ؟ ما هى الاجابة التى نقدمهـــا لهؤلاء الذين يعرفون ما يجب أن يعملوه ، ولكنهم يفشلون دائما فى عمله ؟

يقول جلاسر : « اننا لانشغل أنفسنا بعمليات اللاشعور العقلى ·· اننا لانبالى بتاريخ المريض لأننا لانستطيع أن نغير ما حدث له ، أو أن نقبل حقيقة أنه محدود بماضيه » ·

اننا لانستطيع أن نغير الماضى ، ولكن الماضى يحشر نفسه دائما فى حياتنا الحاضرة من خلال « الوالد » و « الطفل » · واذا لم نفهم لماذا يحدث ذلك ، ونوافق على حدوثه ، فلن يكون لدينا « راشد » متحرر نستطيع به أن نتحول الى الأفراد المسئولين الذين نصحنا جلاسر بأن نتحول اليهـم · علينا أن نفهم نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) الخاص بنا قبل أن نقلب صفحة الماضى · عندما يقول لنا الطبيب النفسى أنه يجب علينا ، فهذا القول ينطلق من « الوالد » · واذا اخترنا أن نفعل ذلك بارادتنا لأننا نفهم حقيقة أنفسنا المركبة ، فهذا هو « الراشد » · ان **قوة صمود** قرارنا تعتمد كلية على ما اذا كان القرار صادرا عن « الوالد » أم « الراشد » ·

ولى تحفظ آخر على العلاج النفسى باســـتخدام الواقع ـ وهو عدم استخدامه لغة خاصة يقرر بها « ماذا حدث ؟ » ويقول جلاسر : « ان قدرة الطبيب النفسى على الاندماج ، هى المهـــارة الأساســية اللازمة لتطبيق أسلوب العلاج النفسى باستخدام الحقيقة ، ولكن من الصعب جدا وصفها · كيف يستخدم الانسان الكلمات ليصف عملية بناء سريعة لعلاقة وجدانية قوية بين شخصين غريبين نسبيا ؟

أما فى تحليل المعاملات فلنا تعقيب : يبدأ المريض باستثارة « طفله » ويرى الطبيب النفسى فى صورة « الوالد » ، وفى الساعة الأولى من العلاج يتحدد « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » · ثم تستخدم هذه الاصطلاحات الثلاثة لتحديد « العقد » أو التوقعات المتبادلة المنتظرة من العلاج · ان الطبيب النفسى موجود هناك ليعلم ، والمريض موجود هناك ليتعلم ، والعقد هنا (راشد ـ راشد) · واذا سـئل المريض : « ماذا حـدث ؟ » فانه يستطيع أن يحكى ما حدث · لقد تعلم أن يحدد « والده » و « راشده » و « طفله » · وتعلم أيضا كيفية تحليل معاملاته · لقد اكتسب أداة لتحرير

وتقوية « راشده » وهذا « الراشد » فقط هو الذى يستطيع أن يكون مسئولا ٠

اننى أسلم بضرورة تركيز الضوء على **المسئولية** ، كما لا أختلف على مثالية الوصايا العشر والقاعدة الذهبية ، أما الحقيقة التى تعنينى على أية حال ، فهى لماذا لاتنتج هذه النصائح أشخاصا قادرين على تحمل المسئولية دائما ؟ ان محاولة اعادة صياغة تلك الوصايا والقواعد لن تؤدى الى الغرض المنشود ٠

اننا لن نستطيع تنشئة أشخاص قادرين على الاضطلاع بالمسئولية حتى نساعدهم على اكتشاف موقف (أنا لست على مايرام ـ وأنت على مايرام) الذى يحدد الألعاب المعقدة والمدمرة التى يلعبونها ٠ ومادمنا نفهم الموقف والألعاب ، فان حرية الاستجابة تبدأ فى الظهور كمسئولية حقيقية ٠ وما دام الناس مقيدين بالماضى ، فانهم ليسوا أحرارا فى الاستجابة لمتطلبات وتطلعات الآخرين فى الوقت الحالى ٠ ويقول ول ديورانت : انك « لكى تقول أننا أحرار ، فلا يعنى ذلك الا أننا نعرف ما نعمله » (١٢) ٠

---

(١٢) W. Durant, "The Story of Philosophy." (New York : Simon and Schuster, 1963), p. 339.

الفصل الثالث عشر

المفاهيم الاجتماعية لنموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل)

(يمتلىء التاريخ بالطغاة الذين روعوا العالم بأفعالهم ، ولكن بنية الحياة لاتزال يانعة ـ البحث عن الانسان ، فيلم تسجيلى من انتاج محطة تلفزيون ABC)

هل يسلط فهمنا للأسباب التى تدفع الأفراد لعمل ما يعملون ، أى ضوء على الأسباب التى تدفع الجماعات الانسانية كالأمم لعمل ما تعمله؟ من المهم لنا أن نسأل هذا السؤال ، لأننا اذا لم نطرحه الآن ونجيب عنه ، فلن تكون هناك جدوى من اهتمامنا بالأفراد . « هل تصدق حقا أن الانسان كائن عاقل ؟ » لقد أجاب السناتور وليم فولبرايت فى جلسة استماع للجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى – عن هذا السؤال قائلا :

« اننا نفتك فى فيتنام بألوف البشر لكى نتيح لهم أن يمارسوا حق الانتخاب الذى لم يسبق لهم أن مارسوه من قبل . وهذا يبدو لى أمرا غير منطقى » .

ولما كانت أنماط السلوك الشخصية والجماعية تنتقل من جيل الى آخر عن طريق « الوالد » فمن المهم بالنسبة للأمة أن تتمعن فى تقاليدها من اجراءاتها الحالية لصالح الفرد . ان الولايات المتحدة تعطى حرية كاملة

لهذا اللون من ألوان الفحص النقدى ، ولكن ما مدى فاعليـــة ممارستنا لهذه الحرية ؟ اننا فى بعض الأحيان نحمى « والدنا » القومى أو الجماعى بصورة عشوائية ، ويبدو أننا ننسى أن الأمم الأخرى تفعل نفس الشيء . ونطلق على دفاعنا هذا اسم « الوطنية » ، بينما نطلق على دفاعهم اســـم « الاستعباد » . ان جميع الأمم تعيش خلف ستار ، ربما كان هو نفس الستار . ويعرف ماكس رافرتى المشرف العام على مدارس كاليفورنيـــا « المواطن الصالح » بهذه الكيفية :

« يقوم المواطن الصالح بالنسبة لوطنه ، مقام الابن بالنسبة لأمه » .

انه يطيعها لأنها أكبر منه ، ولأنها تمثل فى ذاتها حلم الكثيرين ، ولأنه يدين لها بميلاده وتربيته .

انه يحترمها أكثر من كافة الناس ، ويجعل لها فى قلبه محرابا يوقد امامه شموع الاحترام والاعجاب الى الأبد .

انه يزود عن حماها ويهب روحه فداء لها .

انه يهيم بها فى تواضع دون زهو ، ولئن كان يوقن أنه يقاسم غيره هذا الحب ، الا أن طبيعة عاطفته متفردة وذاتية ، تتدفق من أعماق كيانه ، وتعود اليه فى صورة حنان دافق .

هذا هو المواطن الصالح . وعندما ينتشر هذا النوع من المواطنين ، تزدهر الجمهورية العظيمة (١)

والجواب الطيب الوحيد على مثل هذا التصريح هو : « ان فى ذلك قولين : ان احترامنا وطاعتنا وحمايتنا لأمنا أو « والدنا » القومى يتوقف فى حقيقة الأمر على طبيعة « الوالد » . اننا نعجز أحيانا عن التحقق من الفكرة لأننا نشعر أنه من المحتم علينا الايمان بهذه الفكرة ، وذلك أشبه بذلك اللون من المقدسات الذى يجعل سكان الهند يسمحون للفئران بأن تأكل ٢٠٪ من مواردهم الغذائية المحدودة ، أو يجعلون المرأة الهندية تلد عشرة أطفال ليموتوا جوعا فى الشوارع لأن « والدها » لايسمح لطبيب من الذكور بوضع لولب منع الحمل داخل الرحم . ان « والدها » لا يعترض على الوسيلة ، ولكنه يعترض على الطبيب الذكر . ولا يوجد العدد الكافى من الطبيبات لعمل هذا الاجراء على نطاق واسع . اننا نرى دلائـــل

---

(١) Max Rafferty, "California Education, Vol. 2, No. 8 (April, 1965)".

« العمى » فى كل أنحـــاء العالم ، ومع ذلك فلم ندرك حتى الآن أن هذا العمى أصبح قاســـما مشتركا بين جميع الناس • انه نفس العمى الذى أصاب الولد الصغير المذكور فى الفصـــل الثانى عشر ، الذى يتحتم أن يعتقد بأن : « رجال الشرطة أردياء » رغم الدليل المضاد الذى يراه بعينيه ويسمعه بأذنيه • انه الخوف الأصيل ، وشعور الاعتماد على الغير الكامن فى « الطفل » الذى يفترض ضرورة قبول أوامر « الوالد » للمحافظة على حياته • ونستطيع أن ننظر الى حيرته بعين العطف • وربما اذا تجاهلنا « والد » أعدائنـا « العالميين » وتعمقنا فقط فى « طفلهم » على أمل اقامة اتصال (راشد ــ راشد) فقد نستطيع أن نطرح الشعور العدائى ونشرع فى تبنى وجهة نظر أكثر تسامحا نقيم بهـــا الخطوات التى يمكننـا أن نتخذها •

ان مخاوفنا تشترط علينا على سبيل المثال ــ أن نرى فى الصين الشعبيــة فقط « الوالد » المرعب ، الذى يهـدد ، والذى ينذر بالشر ، والغاضب ، والقوى ، ولكن هناك وجهة نظر مخالفـــة عبر عنهـا اريك ســـيفاريد فى تقييمه للموقف الذى اتخذه السيناتور ولم فولبرايت فيما يختص بالصين وهى :

قد يجـــد فولبرايت كدارس للتـاريخ ومتقلبـــاته التى يستحيل التنبؤ بها ، أن مثل هذه المخاوف طفولية • انه يميل الى تفسير صرخات أبواق الدعاية الصينية بطريقة يوثانت سكرتير عام الأمم المتحدة ، لأن ذلك هو السلوك الطبيعى لنظام حكم غارق فى المتاعب الداخلية ويشعر بأن الدائرة « تضيق حوله » بواســـطة قوة روســـيا والولايات المتحدة • ان ذهن فولبرايت يعمل بطريقة تجعله يتخيل رد فعل دولته ، اذا حارب جيش صينى فى جنوب المكسيك على سبيل المثال ، وأخذت طائرات الصين تلقى بقنابلها على بعد أربعين ميلا من مدينة ريوجراند •

انه يحاول استبعاد حدوث مشكلة دولية ، ليس فقط لكى يفهـــم الاهتمامات الأساسية لخصمه ، بل ويحاول أيضا أن يتخيل ما هية شعوره الداخلى نحو هذه الاهتمامات المضـادة لأنه يظن أن العالم سيواجه أخطارا شديدة اذا تصرف على خلاف ذلك (٢) •

---

(٢) مقابلة مع السينـــاتور وليم فولبرايت ــ مضبطة الكونجرس ــ ٢٠ أبريل سنة ١٩٦٦ •

وقد أجاب على سؤال فولبرايت الدكتور جيروم فرانك أستاذ الطب النفسى بجامعة جون هوبكنز الذى كان حاضرا جلسة الاستماع التى عقدتها لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ ـ قائلا : « اننا لا نلتزم العقل الا بين الحين والحين ، وأظن أننا نتحرك ونحن مثقلون بالخوف والتوتر العاطفى ، مما ينعكس على صفاء التفكير ، ولنا الحق فى أن نرهب الأسلحة النـــووية » .

الطفل الصغير له الحق أيضا فى الخوف من أن يتعرض لعقاب أب قاس ، ولسنا هنا فى مقام التساؤل عن جدوى الخوف ، بل علينـــا أن نتساءل : ماذا بوسعنا أن نفعل حياله ، عندما يسيطر الخوف على حياته ؟ سيتلاشى كل احتمال لقـــدرة المرء على التعامل مع البيانات المختزنة فى عقله والتى يستمدها مما حوله ، تعاملا صحيحا ، وهو التعامل الذى يكفل له العلاج والشفاء (على المستويين الفردى والعالمى) أى (أنا على مايرام وأنت على مايرام) .

وقد عبر السناتور فولبرايت عن ذلك فى مناسبة أخرى من خلال خطبة ألقاها سنة ١٩٦٤ فقال :

ان نقائص العقل الانسانى [« الراشد » الواقع تحت تأثير « الطفل » أو « الوالد »] تؤدى الى انحراف حتمى ما بين العالم كما هو [كما يراه « الراشد » المتحرر] والعالم كما يدركه الناس [كما يراه « الوالد » أو « الطفل » أو « الراشد » المغلق] ، وطالما كانت مداركنـــا قريبـــة من الحقيقة الموضوعية [الخالية من التأثير] فمن الممكن لنـــا أن نتصرف فى مشاكلنا بطريقة عاقلة ومناسبة [« الراشد »] ، ولكن عندما تفشـــل مداركنا فى التمشى مع الأحداث [مدارك قديمة] ، وعندما نرفض تصديق شىء لأنه لايسعدنا [« والد »] أو يخيفنا [« طفـــل »] أو لأنه ببســـاطة مفزع بشكل غير عادى ، فان الفجوة بين الحقيقة والوهم ، تصبح هوة متسعة ، ويصبح التصرف غير مناسب وغير معقول (٣) .

ما مدى عدم معقوليتنا ؟ :

ان الفزع الذى أحس به معظم الناس . حينما تكشفت لهم فظائع النازية خلال الحرب العالمية الثانية ، دفع الكثيرين الى الاعتقاد دون سند

---

(٣) W. Fulbright, "Foreign Policy — Old Myth and New Realities, The Congressional Record, March 25th, 1964.

من الواقع ـ بأن « هذا لايمكن أن يحدث فى أمريكا » ، وأننا لايمكن أن نسمح بمثل هذه الأعمال الوحشية الغريبة ٠

هل نحن لا نستطيع أن نقترف مثـل هذه الفظائع ؟ ماذا حدث فى ألمانيا النازية ؟ هل جميع الناس عرضة للانزلاق فى هوة اللا منطق ؟ والى أى مدى ؟ ومن يرسم الحدود ؟ لقد أصابتنى القشعريرة وأنا أطالع عرضا قدمه الطبيب النفسى رالف كراوشو لكتاب عنوانه : الأرض الفاسدة ـ الأخلاقيات الاجتماعية فى أمريكا الحديثة

"The Corrupted Land : The Social Moralities of Modern America.

مـن تأليف فريـدج ٠ كوك ـ ونشرته : دار ماكميـلان للنشر ـ كتب كراوشو يقول :

ان كوك يتحدث فى كتابه أساسا عن أن المواطنين الأمريكيين قد تخلوا عن مبادئهم الاخلاقية النابعة من الذات ليتبنوا أخلاقيات مكتسبة من التقاليـــد الجماعية والمؤسسات ٠ لقد تخلوا عن معتقداتهـــم الحصيفة لينزلقوا الى العواطف الرخيصة والمبادىء الشعبية الفجة ، أى أن المواطن هنا يتحمل مسئولية الطاعة والاذعان للمجتمع ، وهذا دواء عسير على المرء ، ويعنى أن نتخفى دائما خلف حقيقة « أننـــا لا نمتلك دليلا احصائيـــا » و « ان هذا هو انطبـاع المرء ولذلك فهذا الراى غـير مهـم » فهـل هذا غير مهم حقا ؟ (٤) ٠

واقتبس هنا جزءا من المقال يعرض فيه كراوشـــو بحثا أجـراه ستانلى ميلجرام بجامعة ييـل ـ وهو يقـــدم الدليل للاجـــابة على هذا السـؤال :

يبدأ بحث ستانلى ميلجرام فى وضـع اسـاس علمى ترتكز عليـه استنتاجات كوك ٠ لقد قام ميلجرام بسلسلة من التجارب النفسية عن الطاعة ٠ وأخذ عينة تمثل قطاعا عرضيا من الراشدين (تتراوح اعمارهم بين عشرين الى خمسين عاما) من بين السـكان الذكور فى مدينة بريدج بـورت فى ولاية كونكتيكت ، من بين العمـال ذوى الياقات الزرقـاء الى المهنيين وكانت التجربة تنحصر فى تحديد مدى العقوبة التى يمكن أن

---

(٤) Ralph Crawshow, "But Everybody Cheats" Medical Opinion & Review, Vol. 3, No. 1 (January, 1967).

ينزلها شخص بآخر عندما تصدر له الأوامر بذلك • وقد قيل للمشتركين في اجرائها انها دراسة تقوم بها « جمعية أبحاث بريدج بورت » لاختبار أساليب التعليم • وقد اختيرت العينة عشوائيا ، ودفع لكل من أفرادها أربعة دولارات ونصف مقابل اشتراكه في التجربة ، وسيطلق على كل منهم اسم : الموضوع Subject وسيلعب كل منهم دور المدرس • ربط دارس في « كرسي كهربائي » كان « الموضــوع » قد جلس عليــه وتلقى صدمة تجريبية قوتها ٤٥ فولت لاقناعه بأن الكرسي يعمـــل ، ثم جلس « الموضوع » أو « المدرس » في حجرة مجاورة وطلب منــه توجيه أسئلة للدارس ، وعليه أن يرسل صدمة قوية له ، عند كل اجـــابة خاطئـــة • وبالطبع فان الدارس لم يصعق ولكن اجاباته تحولت الى شريط من الهمهمة والشهقات والتوسلات وصرخات الفزع التي تتناسب مع قوة الصدمة المرسلة • وكانت الاجابات قد سبق اعدادها بمعرفة المشرف على التجربة • ولذلك فقد كان العامل الوحيد الذي يمنع المدرس من ارسال أقصى جهد للصدمة هو عطفه على الانسان الذي يعاني من الألم • وكانت مشكلة المدرس وهو يمثل الانسان العادي ، هي الصراع بين طاعة نظـام متجبر وعقيدته التي تمنعه من ايذاء شخص آخر •

ما هي نسبة الذين أكملوا الدورة الكاملة وأعطوا أقصى الصـــدمات من بين هؤلاء الذين قاموا بدور « المدرس » ؟

قبل أن تخمن ، عليك أن تنصت أولا الى صـــوت الرجـــل ويدعى مستر افريمان عند توصيل التيار :

أعطيت ١٥٠ فولت « اتريدني أن استمر ؟ » (أمر) •

أعطيت ١٦٥ فولت : « هذا الشخص يصرخ من الألم هنـــاك • يوجد هنا الكثير منهـــم • انه معرض لصـــدمة قلبيـــة • هل تريدني أن استمر ؟ » (أمر) •

أعطيت ١٨٠ فولت : « انه لايتحملها • لن أقتل هذا الرجل الذي هناك ! الا تسمعه يصرخ ؟ انه يصرخ • انه لا يتحملها • ماذا لو حدث له شيء ؟ هل تعرف ما أعنيه ؟ أعني انني أرفض أن أتحمل المسئولية » • (يقبل المشرف على التجربة أن يتحمل المسئولية) • « حسنا » • ١٩٥ فولت ، ٢١٠ فولت ، ٢٢٥ ، ٢٤٠ ••• وهلم جرا •

وقد أطاع المدرس المشرف على التجربة دائما • ما هي نسبة الذين أكملوا الطريق الى غايتــه من بين المدرســين الذين بلغ عددهم الألف ؟ عليك أن تخمن ذلك قبل أن تدع عينيك تشردان بعيدا • وقد تنبأ الفريق

المكون من أربعين طبيبا نفسيا الذين درسوا هذه التجربة ، بأن العدد كان عشر الواحد فى المائة • أما فى التجربة الفعلية ، فقد أطاعت نسبة ٦٢٪ أوامر المشرف على التجربة بالضبط ـ ما قولك أنت ؟

وتوصل ميلجرام الى أنه « مع الرتابة التى تبعث التحذير ، راينـا الناس الطيبين يخضعون لمطالب السلطة ويرتكبون أعمالا ارهابية وقاسية .. ان الناس الذين كانوا فى الحياة اليومية مسئولين ولطفاء قد أغرتهم فخاخ السلطة بالوقوع تحت سيطرة الوهم ، والقبول الأعمى لأوامر المشرف على التجربة الذى يحض على ارتكاب أفعال العنف •

ان نتائج هذه التجربة التى ظهرت فى العمل وأحس بها القائمون عليها ، تثير الانزعاج فى نفس هذا الكاتب ، فهى تشـــير الى أن نـوع الشخصية التى أنتجها المجتمع الديموقراطى الأمريكى لايمكن الاعتماد عليها لوقاية المواطنين مـن التـــورط فى أعمـــال العنف الوحشى والمعاملات اللا انسانية ، عندما يقعون تحت توجيه سلطة شريرة (٥) •

ان مضمون هذه التجربة مخيف حقا اذا ما نظرنا الى النتائج على أنها تنبىء بجانب شرير فى الطبيعة الانسانية ميئوس من علاجه • وعلى أية حال فاننا نستطيع أن نتحدث عن التجربة بصورة مختلفة عندما نستخدم تحليل المعاملات ، نستطيع القول بأن نسبة الـ ٦٢٪ من المبحوثين ، لم يكن لديها « راشد » متحرر تفحص به السلطة الموجودة فى « والد » المشرفين على التجربة • وبلا شك كان هناك فرض لم يختبر وهو « أن التجـربة العلمية أيا كانت ، تعتبر فى نظر العالم تجربة جيدة ، اذا كانت ضرورية لاجراء بحثه » • وربما كان ذلك هو نفس الفرض الذى ســـاعد العلماء « أصحاب السمعة الطيبة » على المساهمة فى فظائع المعامل التى جرت فى ألمانيـــا النازية •

وقد تعلم معظمنا فى طفولته أن « يوقـــر » السلطة • وكانت هذه السلطة ممثلة فى رجل الشرطة ، وسائق الأتوبيس ، ورجـل الدين ، والمدرس ، وساعى البريد ، وناظر المدرسة ، وأيضا الشخصيات البارزة فى المجتمع مثل المحافظ ، وعضو المجلس النيابى ، والجنرال ، والرئيس •

أما استجابة العديد من الناس لدى ظهور رجال السلطة هؤلاء فانها

(٥) Milgram, "Human Relations", Vol. 18 (1965), No. 1.

نحدث تلقائيا • وعلى سبيل المثال اذا كنت تقود سيارتك متجاوزا السرعة المقررة ، ثم صادفت فجاة سيارة داورية المرور ، فانك لن تبرر شعوريا أسباب ابطائك للسيارة ، حيث ترفع قدميك تلقائيا عن دواسه البنزين • ان التسجيل القديم القائل : « من الافضل أن نحتاط » يهتف بك ، ويستجيب « الطفل » تلقائيا ، كما يفعل دائما • وعلى العكس فان « الراشد » يعرف أن قوانين ضبط السرعة ضرورية ، ولذلك فان الاستجابة التلقائية مطلوبة فى هذا الموقف •

وليست كافة الاستجابات للسلطة طيبة ، فقد تكون هناك مخاطرة عظيمه في الاذعان اذا فشل « الراشد » فى تصنيف المعلومات الجديدة في عالم متغير • ولذلك فانه بالرغم من خشيتنا من هذه التجربة ، الا اننا قد ننظر بالأمل الى المناخ الحالى الخاص بالمعارضه والاستجواب فى بلدنا • وتبين المظاهرات والاسئلة الصعبة من الشباب أن هناك صحوة وقوة في رفضهم الانحناء الأعمى للسلطة أو قبول القوانين التى يعتبرونها معادية للعدالة والبقاء ، بدون نقاش • ان القوانين ليست هى الحرية الحقيقية ولا الحقيقة النهائية • وقد كانت القوانين السيئة موجودة دائما الى جانب القوانين الطيبة • وقد تغير الكثير من القوانين الرديئة نتيجة للمعارضة من النوع الذى نراه اليوم ، واذا لم نأخذ فى الاعتبار المعارضة السلمية ، فاننا سنلمس دليلا متزايدا على تحكم « الطفل » فى سلوكنا وذلك فى أعمال الاثارة والعنف • واذا لم نستجب للمنطق ، فان استجاباتنا سيغلب عليها الخوف أكثر وأكثر • وفى نفس الوقت علينا أن نأخذ فى الاعتبار متطلبات العملية الديموقراطية التى لاتستطيع أن تعمل بدون القوانين • وكما قال تشرشل : « ان الديموقراطية هى أسوأ أشكال الحكومة التى يمكن للانسان أن يتخيلها حتى يحاول أن يجد شكلا أفضل منها » • ولكن الديموقراطية تستطيع فقط أن تعمل مع ناخبين أذكياء • والناخب الذكى هو « الراشد » الناخب • ان الحكومة المنبثقة عن « الوالد » ولصالح « الوالد » وبمعرفة « الوالد » ستبيد من على وجه الأرض •

هل هذا الجيل الشاب مختلف ؟ :

ان الكثير من الآباء يضيقون ذرعا بالأساليب الاستقلالية التى يمارسها الشباب هذه الأيام ، ولسنا نرحب بدعوة الآباء الى الافراط فى التساهل مع الأبناء ، بل أن البعض يرى أنه اذا كان علينا أن ننصح

بشيء فعلينـــا أن ندعوهم الى تشـــديد الضغط . ان الكثير من الآبــاء لا يستطيعون تصور أن ذهن طالب جامعي طويل الشعر ويحمل شعارات المعارضه على صدره ، ويدخن الماريجوانا ، يمـــكن أن يحتوى على افكار بناءة ، حتى ولو عجز هؤلاء الآباء عن تقديم مبرر منطقى لتمسكهم بحلاقة شعورهم أو مراسم حفلات الكوكتيل التى يقيمونها . وقد أخبرنى أحـد هؤلاء الاباء الساخطين على الحركات الداعيــة الى حرية القـاء الخطب والأحاديث فى الجامعات : « ان هؤلاء الأولاد الفاسدين يدمرون كل شيء تعبنا جدا فى بنائه » . وهذا القول صادق ، لأن الشباب يمكن أن ينطلقوا فى التدمير ، والبعض منهم كذلك بالفعل . انهم لم يدفعوا الضرائب ، ولم يساعدوا فى بناء المعاهد العلمية التى يهاجمونها . ومن الجهة الأخرى فانهم لايستطيعون الادلاء بأصواتهم ، ولكنهم مطالبون بدفع ما هو أكثر من الضرائب ، انهم مطالبون بتقديم أرواحهم فى الحروب التى لايؤيدها الكثيرون منهم .

ويقدم اختبار نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) بالنسبة لطالب الجامعه اليوم ـ فهما جديدا لسلوكه ، الذى أعتقد أنه يساعدنا على اخراج هذا الموضوع من السياق القديم (الجيل القـديم فى مواجهـــة الجيـل الجديد) بما فيه من ايماءات وتعبيرات تدل على التأفف والغضب مثل لعبة « أليس هذا فظيعا ؟ » التى لاتثمر شيئا نافعا .

وفى سنة ١٩٦٥ صدمت واحدة من أعظم المؤسسات التعليمية فى العالم ألا وهى جامعة كاليفورنيا فى بركلى ـ بسلسلة من المعاملات المثيرة ، التى انتشرت فى العالم كله ، وظهر « طفل » الكثير من الطلاب الثائرين فى نداءات مثل : « لاتثق فى أى شخص تجاوز عمره الثلاثين » ، كما ظهر « الوالد » أيضـــا فى الرد الغاضب الذى أبداه رئيس مجلس الأوصياء حيال الاستخدام القبيح لبعض الكلمات البذيئة . وظهر أيضا « الراشد » الرائع فى كلارك كير رئيس الجامعة حينذاك الذى فصل من عمله فى يناير ســـنة ١٩٦٧ . (القرارات التى اتخذها « الراشــد » لاتضمن الثنـاء أو الشعبية أو السلامة خاصـــة بين هؤلاء المتخوفين من الحقيقة بحيث لايعاودون النظر فى قراراتهم) .

ما حقيقة ذلك الذى كان يحدث فى حرم جامعة بركلى ؟ ما هى المعانى الحقيقية للكلمات البذيئة ؟ لماذا كان الطلبة فى مؤسسة علمية معروفة بأنها واحدة من أكبر المؤسسات العلمية تحـــررا فى الولايات المتحـدة

بكاملها – يطالبون بالحرية غير المحدودة ، بأسلوب صـارخ ينـدد بكل السلطات الجامعية ؟ لقد علق ماكس ويزر على انتفاضة بيركلى قائلا :

لاتوجد مؤسسة علمية تستحق لقب « الطاغية » اقل من جامعـة كاليفورنيا ، حيث يستطيع الطلبة – نما يفعـل معظمهم فى بيركلى – ان يعيشوا خارج الحرم بدون أى اشراف جامعى على سـلوكهم • أما مجال الاختيار الدراسى فهو واسع ولا تثقله الا قيود قليلة تمليها متطلبات المنهج الدراسى • حقا ، ان العديد من طلبة بيركلى يشتكون ، ولكن شـكاياتهم التى ترجمت الى مطالبات بالمزيد من الحرية تنبع من نظـام يعتبر حرية زائدة عن الحد بالنسبة لغيرها من الجامعات (٦) •

وقد لاحظ بعد ذلك أن خبرة الطلاب غير الكافيـة بهذا النمط من أنماط الادارة الجامعية ، الذى تتحدد فيه السلطة من خـلال قواعد غير شخصية ، يجعل كلا من الجامعة – والمجتمع – يبدو أمام العديد من الطلاب كمؤسسة استبدادية » •

ان فكرة الخبرة فكرة مهمة • دعنا نفحص السنوات الخمس الأولى لمعظم الطلبة الذين كان معظمهم اما مشتركا فى الثورة ، أو متعاطفا معها • ان متوسط أعمار الطلبة يتراوح ما بين ثمانية عشر – الى عشرين عاما • وقد ولد معظم الطلبة المعارضين ما بين سنوات ١٩٤٣ – ١٩٤٦ ، وقضوا معظم سنوات تشكيل شخصياتهم اما خلال سـنوات الحرب أو ما بعد الحرب • وقد تميزت هذه السنوات بالطوالع الأسرية غير المستقرة ، مثل التنقل الدائم من مكان لآخر مع غياب الآباء اذا لم يكونوا قد ماتوا بالفعل ، والأمهـات المرهقـات اللائى يعانين من القلق ، وغير ذلك من النماذج الاجتماعية العامة التى تزيد من عدم الاستقرار فى البيت • ويلاحظ أن كثيرا من آبائهم قد عادوا للالتحاق بالجامعات والمعاهد بعد انتهاء الحرب العالمية وتسريحهم ، وقد أكسبتهم سنوات الحرب الضائعة مرارة ، وجعلتهم ينظرون بتجهم الى هذا العالم الذى يطالبهم بالكثير ، فانعكست المرارة التى أفعمت قلوبهم ونفوسهم الجريحة فى كلماتهم التى تلعن الحرب والدمار ، ولم يستسلموا بسهولة للمؤسسات التى تهاوت والعناوين الضخمة التى عفا عليها الزمن والتى كانت ترسم للانسان فى الماضى صورة صالحة • أما أطفالهم الذين وصلوا الآن الى الجامعـة فلم يروا الحياة ملجأ للهدوء

---

(٦) M. Ways, "On the Campus : A Troubled Reflection of the U.S. Fortune, September-October, 1965).

المنزلى أو عالما آمنا للديموقراطية ، وانما رأوا فى سن مبكر صور معسكرات الاعتقال ، وسجلوا سلوكهم ضمن كافة هذه المعلومات فى « الوالد » ومن جهة اخرى فان العديد من هؤلاء الأطفـال تسلموا رموز الرفاهيـــة التى أغدقها عليهم آباؤهم فنعموا ببيوت وأجساد نظيفة ، وعناية طبية فائقة وتعليم جيد • ولكن كافة هذه المميزات لم تمح التسجيلات المبكرة التى نستمع اليها الآن وهى تعمل فى الانشطة غير المعقولة للطلاب المعارضين • ومن المهم أن نؤكد أننا لا نستطيع تعميم هذا الكلام على جميع الطلاب ، أو جميع الطلاب المعارضين ، فمن المؤكد أن هناك استثناءات ، لان بعض المعارضين كانوا متفاوتين فى السن ، والبعض أتى من بيوت كانت مستقرة خلال سنوات الحرب • على ذلك فان هذا التحليل مهم ، لأنه من خـــلال هذه النوعية من التساؤلات نستطيع أن نتجاوز لعبة « أليس هذا فظيعا ؟ » عن الجيل الجديد •

ولا يعنى التعرض المبكر للمصاعب والتناقضات أن هؤلاء الشباب يستطيعون التهرب من المسئولية المتعلقة بسلوكهم ، وعلى أية حال فان فهم المعلومات المسجلة فى « والد » وفى « طفل » هؤلاء الطلبة يجعل مواقفهم مفهومة • ونحن نعرف أن المعلومات القديمة لا تأتى من « الطفل » الثائر والقلق ، بل أيضا من « الوالد » الذى يحتوى مضمونه على آثـار عديدة للقلق والثورة وسوء الظن والارهاق فى عالم يبدو غير قادر على البقاء بدون حرب فترة طويلة •

وأصبح عدد لا بأس به من الطلبة ، الذين لم يعش عدد كبير منهم مع سلطة يستطيعون الثقة فيها أو التعامل معها ، مستعدين الآن للمعارضة ضد السلطة كلها ، بما فيها سلطة الجامعة • لقد نالوا قدرا كبيرا من الراحة المادية ، ولكنهم لم ينالوا القدر الكافى من الدلائل التى تجعلهم يؤمنون بأهمية البشر ، وأن الحيـــاة لها هدف • لقد تحطم « والدهم » وأحبط « طفلهم » أما « راشدهم » فانه يسأل فى عجلة : ــ « هل من مزيد ؟ » •

وكانت بعض الانتقادات العديدة التى أثيرت خلال المناظرة التى جرت فى الجامعة تتضمن أن الجامعة قد أصبحت مفرطة فى الضــخامة وهذه ملحوظة تصدق أيضا بالنســـبة لعدد ســكان العالم • وقد أجـاب فرانكلين مورفى مستشار مجلس ادارة الجامعة ، وهو طبيب بشرى ــ عن هذا السؤال باستخدام استعارة بيولوجية مدهشة ، لاتخلو من الدلالة ، حول العالم الذى « بات مفرطا فى الضخامة » :

لا ، ان العالم ليس مفرطا فى الضخامة ، ولكنه اتسع سريعا فى السنوات القليلة الماضيه • لقد انصرفنا فى الماضى الى تشريح الوحوش أكثر من دراسة وظائف الأعضاء الخاصة بها • واذا سبق الجسم الجهاز العصبى ، تصاب حركته بالخلل ، ويترنح أحيانا • أما بالنسبة للجامعة فعلينا الآن أن نخلق نظاما عصبيا يلائم الحيوان • والأمر يحتاج الى جهاز عصبى خبير بشئون الحياة لكى يتعامل مع التعقيدات ، وينقل الرسائل بين العناصر المختلفة • ان الجامعة تحتاج الى لا مركزية أكثر وأفضل ، كما تحتاج الى تعاون أكثر وأفضل •

ان وظيفة « الجهاز العصبى » للجامعة تشبه وظيفة الجهاز العصبى فى الجسم الانسانى ـ الاتصال • وهى أيضا نفس وظيفة الجهاز العصبى الذى يربط العالم كله معا • والتعمق فى الاتصال ـ الذى يسهل هذه الوظيفة أو يوقفها ـ هو الذى سيخرج أسلوبا جديدا الى النور يتلاشى أمامه الميل القديم للعنف ، الذى يتجلى فى أشكال عدة مثل الحرب ، أو العمل البوليسى ، أو التدخل المسلح • والمعنيون بحل تلك المشاكل ، سواء كانت عالمية أو محلية ، يتحدثون باستمرار عن « الحاجة للحوار » بدون أدنى اعتبار للحاجة الى تحديد معانى المصطلحات • أما فى تحليل المعاملات فقد طورنا نظاما موحدا فى :

١ ـ تحديد لمعانى المصطلحات • ٢ ـ قصر السلوك على وحدة أساسية للملاحظة • ولكى يكون للحوار فائدة ، يجب أن نتفق على الظاهرة التى نفحصها ، والمصطلحات التى سنصف بها ما نلاحظه ، ونؤسس عليها الحوار ، والا فاننا بكل بساطة ، سنتعثر فى الكلمات ، مثل ذلك الرجل الذى وصف صديقا له قائلا : ـ « كان متعصبا فى وطنيته ، وفى معتقداته السياسية ، ولكن لا يعنى هذا أنه لم يكن بالشخص الرزين » • ان كلمات مثل متعصب أو رزين ـ لا تفيدنا فى تحليل السلوك أو التنبؤ به • والكثير من محاوراتنا غير مفيد لنفس السبب حيث يقال الكثير ولكن المستمعين لايفهمون شيئا •

تحليل المعاملات الدولية :

اذا كان تحليل المعاملات يتيح لشخصين أن يفهما ما يدور بينهما ، فهل يمكن لنفس اللغة أن تستخدم لفهم ما يجرى بين الدول ؟ وكما هو بين الأفراد ، فان المعاملات بين الدول يمكن أن تكون تكميلية فقط اذا كان

الموجهون متوازين على صفحة المعاملة · وتعتبر معاملات (راشد ـ راشد) هى المعاملات التكميليه الوحيدة المتكاملة فى العالم اليوم من جهه ظهور وتقرير مصير أصغر الدول · أما علاقة (والد ـ طفل) التى كانت موجودة من قبل بين الدول الكبيرة والصغيرة ـ فلم تعد مجزيه الآن · ان الدول الصغيرة تنمو ، ولا تريد أن تكون « الطفل » مرة أخرى · ونجيب على انتقاداتها المرة أحيانا قائلين : « كيف تشعر هذه الدول بهذه الطريقة بعد كل ما عملناه معها ؟ » اننا نأمل أن تنجح الأمم المتحدة فى القيام بدور محلل المعاملات بين الدول ، وقد عاشت الأمم المتحدة رغم العديد من المعاملات المتقاطعة مثل أن يقرع رئيس احدى الدول العظمى المنصة بحذائه ليوقف الاتصال ، أو أن يهدد بسحقنا فيستثير « الطفل » الكامن فى نفوسنا ، ولكننا لسنا مرغمين على الرد عن طريق « الطفل » كما أننا غير مرغمين على الرد عن طريق « الوالد » الذى سيشهر الحسام · **وهنا تكمن امكانية التغيير ·**

قد نقول للطفل الصغير « اننى أحبك » مرات ومرات · ولكن اذا قلنا « اننى أكرهك » مرة واحدة ، ففيها الكفاية لقضاء حياة طويلة يرفض فيها أى محاولة من أبويه للتعبير عن حبهما له · واذا عرف الشخص الصغير من أين جاءت عبارة « اننى أكرهك » ـ وكيف أثير « الطفل » فى أبيه لكى ينطق بمثل هذا القول غير المنطقى والمدمر للصغير الذى يحبه حقيقة ـ فان هذا الصغير لن يتشبث بهذه العبارة باعتبارها حقيقة واقعة ·

وهذا هو الحال مع عبارة نيكيتا خروشوف « سندفنكم » · وبالرغم من أنها كانت عبارة بذيئة الى حد ما ، ولم تطور شيئا بناء بالنسبة لبلده أو لأى بلد آخر ، الا أنه يمكن تخفيف بعض الاهانة التى تضمنتها لنتذكر أنه بشر كغيره له « والد » و « راشد » و « طفل » ـ يختلف مضمونهم عن مضمون « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » عند أى شخص آخر ، خاصة رجال الدولة الأمريكيين ·

أما البرهان على أنه لم يكن كائنا سياسيا من جنس أرفع فهو أنه قد سقط فى هاوية النسيان · ولا يحتاج كشف التعبيرات والأفعال الخاطئة الى بحث تاريخى كبير من قادة البلاد الأخرى ، بما فيهم الولايات المتحدة · علينا أن نتعلم الاجابة على تعبيرات وأفعال الآخرين ليس عن طريق « طفلنا » الخائف والمتحفز للقتال ، ولكن عن طريق « راشدنا » الذى يستطيع أن يبحث عن الحقيقة ، وأن يرى الخوف فى « طفل » الآخرين بسبب ما هو عليه ، وأن يدرك الألم الذى يشعرون به من « الوالد »

الثقافى الذى يملى المطلق والذى لم يعد يعمل من أجل بقاء الجنس البشرى. يجب أن نقدر على الابتعاد عن السلاح ونظهر « والدنا » المثقف . وهناك الكثير من العظمة فى هذا « الوالد » ، ولكن هناك أيضا الكثير من الوقاحة ، كما هو الحال فى شر الاستعباد السرطانى الذى يكتنف الأمريكيين الآن ممثلا فى مظاهر التعصب العنصرى القاتلة ، سواء لدى السود أو البيض . وفى ذلك كتب التون تروبلاد قائلا :

اننا نبدو فى أزمتنــا الحالية كلاعبى الشطرنج الذين تحركوا الى مواقع يتضح منها أن كل التحركات الممكنه ليست فى الحقيقة ســوى تحركات مدمرة . ونرى بالكاد أن ما يحدث ، يمثل فى بعض جوانبه عبثا بالقانون الأخلاقى ، ولكن من الصعب علينا أن نصــدقه أو نفهمه . ان استياء الآسيويين يبدو غير معقول وليس له ما يبرره اذا كنا مهتمين فقط بالأحداث المعاصرة ، ولكن ما نجنيــه الآن ليس الا ما بزرناه فى الماضى البعيد . ان كل رجل أبيض لجأ الى العنف فى السنوات الماضية ، وخرج على مبدأ احترام الكرامة الفطرية لكل انسان عندما دعى المواطنين الصينيين بالأولاد ، ساعد على بذر بذور الكراهية الوحشية التى انفجرت أخيرا فى وجوهنا بهذا العنف اللا معقول ، فى الوقت الذى نضحى فيه بأنفسنا من أجل المبادىء الرفيعة (٧) (*) .

وهناك طريقة أخرى لتقرير هذا القانون الأخلاقى وهى أننا اذا قهرنا « الطفل » فى شخص آخر لفترة طويلة بما فيه الكفاية ، فانه سيتحول الى وحش . ولا يدهشنا أن تنتج سنوات القهر الطويلة وحوشا عديدة فى أمريكا تبعث فينا الخوف . لقد علقت امرأة زنجيــة عقب اندلاع أحــد الاضطرابات العنصرية على سبيل التفســيرات التى قدمت لثورة واطس الزنجية فى لوس أنجليس (مثل اجراءات البوليس ، والبطالة ، والفقر ... الخ) بقولها : « اذا كان البيض بحاجة الى التســاؤل عن الأسباب التى دعت الى الثورة ، فلن يتوصلوا اليها أبدا » .

---

(٧) Elton Trueblood, "The Life We Prize". (New York : York Harper, 1951).

(*) ان الكاتب مثله مثل غالبية المفكرين الأمريكيين يعتبر الحرب الفيتنامية حربا اخلاقية من وجهة نظره ، لأنها تدافع عن القيم الديموقراطية الغربية فى شرق آسيا ، ضد الدكتاتورية الشيوعية حينذاك . وفى هذا مغالطة كبرى لأن النظام الذى تصدت أمريكا الدفاع عنه فى فيتنام كان يعبر عن الدكتاتورية العسكرية ولبست الديموقراطية ــ المترجم .

اننا نستطيع أن نتوصل الى تلك الأسباب لو لم يكن « طفلنا » الخائف و « والدنا » البار فى نظر نفسه ، يزاحمان « الراشد » . وعلينا أن نفعل شيئا آخر أصبح الآن ضروريا ألا وهو استخدام لغة مشتركة تنتمى الى السلوك الانسانى وأشعر بأن هذه اللغة موجودة لدينا فى تحليل المعاملات . ان علم النفس يعرف بأنه **العلم العظيم وليد العصر الحديث** ، ولكنه لايستطيع أن يفول الا القليل لكى يجعل معاركنا الاجتماعية الحالية منطقية . وقد أجاب أخصائى آخر فى مجال السلوك والاتصالات ، على استجواب لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ قائلا :

« اننى عاجز عن متابعة الموضوع ، وأشعر بأننى عرضة لأن أجعل من نفسى أضحوكة » . ان هذا النموذج من نماذج التواضع الجم ، لايتحتم أن يجعلنا نغفل عن ضرورة اشراك هؤلاء العلماء الذين يزعمون لأنفسهم شيئا من التبصر بالسلوك الانسانى فى مجال العلاقات الدولية مع الشعوب الأخرى .

وأتجشم أن يتلقى السناتور فولبرايت وجميع الموظفين العموميين تعضيدا من رجال الطب النفسى ، يساعده على النجاح فى مهمته . كما أشعر أن فهم نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) وامكانية تحرير « الراشد » لدى رجال الحكم والناخبين معا ، قد يؤدى الى أعظم النتائج التى تقود الى فهم المشاكل الاجتماعية والعالمية التى تواجهنا .

واذا استطعنا أن نفهم سيطرة « الوالد » التى يطبق بها علينا (« والدنا » الذاتى مؤيدا « بالوالد » الثقافى) ، واذا استطعنا أن نفهم الفزع الكامن فى « طفلنا » فى وجه الثورة والحرب ، وفى سكان الهند ضحايا الجوع والخرافات ، وفى أهالى روسيا الذين يرسفون فى الأغلال وتتأجج فيهم روح التمرد على السلطة ، وفى سكان اسرائيل الذين يتعكس عليهم احساس الانتقام لقتل ستة ملايين يهودى ، وفى سكان فيتنام شمالها أو جنوبها ، وفى الخوف من النابالم وطعنات السونكى ، وفى سكان اليابان الذين يتذكرون ضربة القنابل الذرية ــ اذا بدأنا فى رؤية هذا « الطفل » فى شكل طفل صغير تائه فى عالم ملىء بالفزع ، وهو يريد فقط أن يتحرر من الألم ؛ فلابد وأن يصير لأحاديثنا حينذاك وقع مختلف قليلا . لقد اقترح لونجفيللو ما يلى :

« اذا استطعنا قراءة التاريخ السرى لأعدائنا ، فلابد وأن نجد فى حياة كل رجل الأسف والمعاناة بما يكفى لنزع سلاح كل العداوات » .

ونحن لانستطيع أن نساند موقف « الطفل » الذى ليس على مايرام لدى أعدائنا ، لاننا نخشى الالعاب التى يلعبونهـــا لانكار هذا الموقف ، ولأنهم لايستطيعون أن يتعاطفوا معنا لنفس السبب • اننا نشترك فى مشكلة عدم الثقة • ان الناس فى كل مكان يريدون أن يتفاوضوا ولكن حسب شروطهم الخاصة • وسنستطيع أن نكون أبطالا رئيسيين فى القضايا الصغيرة لاننا قطعنا العديد من الاختيارات فى التعامل مع القضايا الكبيرة • وقد نستطيع اثبات خوفنا المتبادل ، ولكننا لانعرف ما نفعله حياله •

اذا عرف الرجـال المشتركون فى المحادثات الدوليـــة لغة نموذج (الوالد ــ الراشد ــ الطفل) • واذا عرفوا جميعا أنه مع وجود الخوف فى « الطفل » لا توجد طريقة لعقد اتفاق عن طريق « الوالد » وأنه من خلال تحرير « الراشد » فقط يمكن التغلب على موقف (أنا لست على مايــرام وأنت على مايرام) بالنسبة للعالم ، وبعد ذلك علينا أن نبــدأ فى رؤية احتمالات الحلول خلف تأثيرات الماضى المحدودة • ان الكلمات الأساسية الداخلة فى تحليل المعاملات وهي (الوالد ــ الراشـــد ــ الطفل ــ لست على مايرام ــ أنا على مايرام ــ الألعاب ــ المداعبة) بسيطة لدرجة أنه فى حالة عدم القدرة على ترجمتها الى بقية اللغات الأخـرى ، فمن المستطاع استخدامها كما هى ، مع تحديد معانيها بألفاظ اللغات الأخري • ان كلمة OK ★ كلمة عالمية ، كذلك كلمات : «الوالد» ــ « الراشد »ــ« الطفل »ــ يمكن أن تكون عالمية • والآن وقد أصبح لدينــا مفهـوم لفهم السلوك الانسانى ، يستطيع كافة الناس أن يحيطوا بمعناه ، ويمكن صياغته فى كلمات بسيطة ، وترجمنه الى أى لغة ، فاننا نستطيع الوصول الى نقطة يمكن عندها أن نهجر مخاوفنا القديمة ، القائمة على أساس مآسى الماضى ، وأن نبدأ الحديث مع بعضنا البعض بالطريقة الوحيدة التى تجعل الاتفاق ممكنا • (راشد ــ راشد) • ونستطيع باستخدام « الراشد » أن ننظر معا الى الموضوعات القديمة المعلقة • ان العبـارات التى لم تختبر تغلق أمامنا الاختيارات وتقضى على الآمال التى تحدونا بأن نحيا معا على أساس موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) وعلى سبيل المثال ، الى أى مدى نستطيع الدخول فى الدبلوماسية الدوليـة اذا ظللنا نستخدم لغة مغلقة تتضمن مثل هذه العبارات الموصومة من نوع : « الشيوعية الملحدة » و « الغرب الحر » و « الصراع المعادى » ؟ وحتى كلمة « الشيوعية العالمية » التى توحى بأننا نريد استمرار الحرب تلو الحرب ، وأن نتكبد تكاليفها

(★) التى تترجم فى هذا الكتاب بمعنى « على ما يرام » (المترجم) •

الباهظة ، يجب أن يعاد فحصها ٠ كم من المعارك نلتزم بدخولها ؟ وهل تبدو لها في الافق نهايه ؟ هل من الممكن تحويل العالم الى الشيوعيه ؟ وهل كل الشيوعيين ملحدون ؟ من هو الشيوعي ؟ وهل تغير خلال الخمسين عاما الماضيه ؟ وهل يتشابه جميع الشيوعيين ؟ (*) يوجد ثلاثه بلايين شخص في العالم ٠ ومعرفتنا عن هؤلاء الأشخاص كافراد محدوده ٠ ونادرا ما نفكر فيهم كافراد ٠ وعلى سبيل المثال ، هل نرى دوله مثل الهند بقعة متسعه لاتميزها صفه خاصه ، تضم أناسا كثيرين وليس لها من أهمية سوى الطريقه التى نغير بها الميزان الدولى للقوى فى معركة أمريكا ضد الشيوعيه العالميه ؟ أم نستطيع ان نرى الهند كامه شديدة التعقيد ، يعيش فيها بشر عاديون يمثلون نسبة السبع من سكان العالم ، وتضم بلادهم ستة مجموعات عنصرية واضحة ، و ٨٤٥ لغة ولهجة ، وسبعة ديانات رئيسية ، وثقافتين متعاديتين ؟ واذا لم يستطع « الوالد » الهندى و « الوالد » الامريكى أن يتفقا على شىء ، فهل فى وسعنا أن نتخيل كم سيكون الأمر مثيرا حينما نكتشف نقاط التوافق بيننا وبينهم اذا حررنا « الراشد » ؟ اننا ننتمى أحدنا الى الآخر ، ونحن أيضا أشخاص لا أشياء ٠ وليس سكان العالم أجمع مجرد أشياء يمكن السيطرة عليها ، بل أشخاص يجب أن نعرفهم ، وهم ليسوا وثنيين يجب تحويلهم عن معتقداتهم ولكنهم أشخاص يجب أن نستمع اليهم ، وليسوا أعداء تتحتم علينا كراهيتهم ولكنهم أشخاص يجب أن نلتقى بهم ، انهم ليسوا اخوة نحتفظ بهم بل اخوة نتخذهم اخوة ٠

فى مجتمع غنى يرى مواطنوه أن مشاكل الفرد لايمكن حلها الا اذا ضحى فرد آخر بسنوات وسنوات (فترة التمرين فى مجال التحليل النفسى تستغرق من ثلاث الى خمس سنوات بعد التخرج من كلية الطب وقضاء فترة الامتياز) تصبح فكرة حل مشاكل سكان العالم أشبه بالمستحيل أو العبث ، اذ يتطلب الأمر حينئذ بلايين السنوات لعلاج كل منهم فيقول « الوالد » : (ستظل الحروب وشائعات نشوبها قائمة دائما) ، ويقول « الطفل » : (كل ، واشرب ، وافرح ، لأننا غدا نموت) ٠ ويذكر لنا التاريخ ما حدث ، ولكنه لايستطيع أن يذكر لنا ما يجب أن يكون أو لا يكون (*) ٠ انه عالم مفتوح ومتطور ، ولا نعرف ما يكفى عن هذا العالم

(*) بالرغم من تسليم الكاتب بموقف بلاده من آمال شعوب العالم الثالث ــ خلال حديثه السابق عن الحرب فى فيتنام ، الا أنه هنا يدعو الى انهاء الحرب الباردة ويتنبأ بالانفراج العالمى الذى بدات تباشيره بثورة جورباتشوف (البريسترويكا) والتى انتهت بظهور الكومنولث الجديد ــ المترجم ٠

بحيث نتحدث عما لايمكن أن يحدث • ويستطيع « الراشد » فقط أن يعمل على تحقيق هذه الفكرة المنيرة • و « الراشد » فقط هو الذى يملك القدرة الخلاقة •

ويستطيع « الراشد » أن يعرف استجابات « الطفل » لدى الآخرين ، ولكنه يستطيع أن يختار عدم الاستجابة النوعية ، والولايات المتحدة ، على سبيل المثال ، لاتستطيع أن تجد طريقها طول الوقت • ويكتب روبرت هاتشنز عن هذه النقطة في افتتاحية عن : دور الولايات المتحدة — قائلا :

دعنا نسلم بسوء القصد من جهة الصين ، وتصلب فيتنام الشمالية ، وعداوة الاتحاد السوفييتى ، وغرابة أطوار ديجول ، وعدم استقرار العالم النامى ، ودعنا نتذكر فى نفس الوقت أننا نعيش تحت تهديد الاحتراق بفعل القنبلة النووية الحرارية • فما هو الدور الصحيح للولايات المتحدة فى الشئون العالمية ؟ ما هى السياسة الصحيحة والحكيمة المفروض أن تتبعهـــا ؟

اننا ضحايا ، ليس لشرور الآخرين فقط — وهذه وجهة نظر تعبر عن جنون العظمة — بل أيضا لأخطائنـــا واوهامنا • ولا يعنى ذلك انكار أن الآخرين اشرار ، لأنهم كذلك بالفعل • وما يجب علينا أن نعمله هو تفادى شر انفسنا ، وتقديم نموذج للقوة النبيلة والذكية ، وتنظيم العالم لقمع الشر الذى نجده فى الداخل والخارج (٨) •

ويبدو لى أن الأسطورة الأمريكية مؤسسة على موقف (أنا على مايرام — وأنت لست على مايرام) • اننا (على مايرام) بفضل رجالنا العظام أمثال باتريك هنرى ، وتوماس جيفرسون ، وتوماس باين ، وأبراهام لنكولن • اننا ننظر الى أنفسنا فى أحسن صورة ، ولكننا نرى المعارضين فى صور كاريكاتيرية • ويسأل توماس مرتون عن عالم اليوم فى كتابه الغاضب قائلا :

ماذا سنفعل عندما يتحتم علينا فى النهاية أن نعرف اننا ممنوعون من دخـول منطقـة البرارى والاندفاع الى الأمام فى عالم تاريخى مع كل الايطاليين والأسبان والبولنديين بوصفنا جزءا من التاريخ مثل كل هؤلاء

---

(٨) مقال افتتاحى بقلم R. Hutchins نشر بمجلة سان فرانسسكو كرونيكل — ٣١ يوليو ١٩٦٦ •

(★) يعتمد المنهج الحديث فى دراسة التاريخ والذى ارسى قواعده عالميا المؤرخ أرنولد توينبى باسم : فلسفة التاريخ — على تجاوز مجرد سرد أحداث التاريخ الى النظرة التأملية الشاملة حتى يستطيع التاريخ أن يذكر لنا ما يجب أن يكون او لا يكون — المترجم •

الباقين ؟ وهذه هى نهاية الأسطورة الأمريكية : لن نستطيع فيما بعد ان نظل خارج الجو العالى المخلخل الهواء ، ونشير الى أسفل السماء الزرقاء نحو الناس الذين على الأرض لكى نطلعهم على النظام المثالى فى بلادنا . اننا فى نفس غرفة الطعام مع باقى الناس ، فهل سنديرظهورنا لكل ذلك ؟ هل سنقف موقف المتفرج ، وتعتبر أن الأفراد الممتازين هم دائما الذين يطلقون النار مباشرة ، وهم الذين يكسبون دائما ؟ (٩) .

ان اطلاق النار المباشر والفوز ــ يلقيان التعظيم فى أمريكا ــ من الناس الشرفاء الذين يخافون ، والذين هم بطيئو الحركة وضعاف النظر ، والذين يتعجبون من العنف الذى يفرض على الأرض حاليا . كتب آرثر ميللر بعد اغتيال كيندى :

ان العنف موجود لاننا نكرس العنف كل يوم . ويستطيع أى رجل نصف متعلم يرتدى بذلة أنيقة ــ أن يجمع ثروة بالظهور فى عرض تليفزيونى تصور مناظره الوحشية بتفاصيل مرعبة جدا . من ينتج مثل هذه النوعية من العروض.؟ ومن الذى يدفع لتمويلها ؟ ومن الذى يتشرف بالتمثيل فيها ؟ وهل هؤلاء جميعا يعانون من شدة الاضطراب العقلى ويتسربون بطول الشوارع التى يقطنها الفقراء ؟ لا . انهم نجوم المجتمع وأعمدته ، رجالنا الأشراف ، ونماذج النجاح التى نقتدى بها فى انجازاتنا الاجتماعية . ليتنا نبدأ فى الاحساس بالخجل والندم قبل أن نبدأ فى بناء مجتمع يشعر بالأمان ، ولنترك العالم المسالم جانبا ، فالبلد الذى لايستطيع أن يسير فيه الناس آمنين فى شوارعهم لايستحق التمتع بحق ارشاد الآخرين الى كيفية حكم انفسهم ، ناهيك عن القاء القنابل على هؤلاء الآخرين (١٠) .

ان تكريس العنف مسجل فى « والد » أطفالنا الصغار . ويسمح ذلك بظهور الثورة والكراهية الموجودة فى « طفل » أى شخص . والنتيجة هى الحكم بالاعدام على حضارتنا اذ يبلغ عدد جرائم القتل التى ترتكب سنويا فى الولايات المتحدة ٦٥٠٠ جريمة قتل فى مقابل ٣٠ بانجلترا ،

T. Merton, "Conjectures of a Guilty Bystander", (New York: Doubleday, 1966).

(١٠) مقال بقلم A. Miller وعنوانه : متاعب بلدنا ــ نشر فى مجلة : نيويورك تايمز . واعيد نشره فى مجلة : سان فرانسيسكو كرونيكل ــ بتاريخ ١٦ يونيو ١٩٦٨ ــ ص ٢ .

و ٩٩ فى كندا ، و ٦٨ فى ألمانيا ، و ٣٧ فى اليابان · وقد بيع أكثر من مليونى بندقية فى الولايات المتحدة سنة ١٩٦٧ كما بلغ عدد المسدسات المباعة قانونيا فى ولاية كاليفورنيا وحدها ٧٤٢٤١ مسدسا خلال الشهور الأربعة الأولى من سنة ١٩٦٨ ·

وقد كلف الرئيس جونسون اللجنة الجديدة لدراسة الجريمة بالنظر فى (أسباب وظروف العنف الجسدى فى هذا البلد ، ابتداء من الاغتيال بدافع التحيز أو المذاهب الفكرية أو الأفكار السياسية أو الجنون — الى ارتكاب العنف فى شوارع المدن الأمريكية ، بل أيضا فى البيوت) ·

والعنف فى بيوتنا الأمريكية هو أوضح أنواع العنف · ان « الطفل » هو الذى يرتكب جريمة القتل · وأين يتعلم « الطفل » القتل ؟ فى **كل يوم يقتل بالولايات المتحدة طفل أو طفلان فى سن أقل من خمس سنوات على يد والديهم** · وطبقا لما أورده الدكتوران راى ا · هيلفر ، وهنرى كمب بجامعة كولورادو ، اللذان نشرا تقريرهما فى كتاب بعنوان : **الطفل** المحطم The Battered child — نجد أن معدل قتل **الاطفال** أكبر من المجموع الكلى لنسبة الموتى من **الأطفال** بسبب الأمراض · وبالاضافة الى ذلك فان خمسة **أطفال** يصابون بالأذى كل ساعة على يد **الوالدين** أو الأوصياء · وقال الدكتور هيلفر أن من بين المشاكل المتعلقة بمحاولة البحث عن حل للمشكلة — توفير الأطباء النفسيين اللازمين لعلاج **الوالدين** ، وتم التركيز على مساعدة **الوالدين** كحل لمشكلة العنف خلال استطلاع للرأى أجرى بمعهد جالوب خلال اليوم السابق لاطلاق الرصاص على كينيدى · وقد بينت الاجابات أن الحل الأول لمشكلة العنف يتمثل فى « اصدار قوانين أشد لتنظيم حمل السلاح » ، وبالاضافة الى ذلك طلب الكثيرون من الذين أدلوا برأيهم — اصدار « قوانين أشد الزاما ·· وحذف برامج العنف من التليفزيون ·· وتحسين السلطة الأبوية (بما فيها تنظيم دراسات للآباء والأمهات لتعليمهم كيفية تربية صغارهم) (١١) ·

وقد عرض معهد تحليل المعاملات فى ساكرامنتو تدريس مثل هذه الدراسات منذ سنة ١٩٦٦ · وقد حضرها بالفعل مئات من **الوالدين** · وهذه الدراسات التى يستغرق مدة البرنامج المخصص لها ثمانية أسابيع — تبدأ بشرح لنموذج (الوالد — الراشد — الطفل) · وكان من بين الدارسين محللون نفسيون ، ومشرفو اختبارات الصلاحية للوظائف ،

---

(١١) San Francisco Chronicle, June 16th, 1968.

ورجال الدين ، وأطباء الأطفال ، والمدرسون ، وعلماء النفس ، وأحد أطباء التوليد . واستعملوا جميعا نفس اللغة أى نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) وتم تطبيق تحليل المعاملات على الموضوعات التالية : مشكلة« أريد أن أثق فيه ولكن ... » ، والتوصل الى تغيير الشاب المعارض ، وفهم القيم الأخلاقية ، والعلاقة بين الحرية والحب ، ومشاكل قلة الانجاز والاعاقة ، والتدخل فى الأزمات ، ولماذا يتصرف الأطفال بغباء ، وانقاذ واصلاح الطلبة الفقراء ، وبناء مواقف سليمة نحو الجنس والزواج ، والتحكم فى العواطف . وقد ساعدت هذه المناهج الأبوين على الارتقاء الى الأفضل ، كما ساعدت على انقاذ واصلاح العائلات التى تعانى من الضيق . وقد كتبت احدى الأمهات بعد الانتهاء من أحد هذه البرامج الدراسية ، ما يلى :

« كان هذا البرنامج من أفضل مالقينا من أحداث . لقد فتح خطا جديدا للاتصال بين زوجى وبينى ، وقد استفدت منه استفادة عظيمة ، بدليل أن الأفراد الذين أعمل معهم صرحوا بأننى أصبحت شخصية مختلفة منذ بدأت دراسة هذا المنهج ، وهناك سيدة تقول لى دائما : بارك الله فى « راشدك » ـ ونحن أيضا نرى ماهية مشكلتنا مع ابنتنا ، ونستطيع أن نحلها بأنفسنا » .

ان معرفة كيفية وقف العنف فى البيت تقود الى معرفة كيفية وقف العنف فى المجتمع . ويجب على المشرفين على الصناعات ، ورجال الاعلان ، ومنتجى المواد الترفيهية ـ أن يدرسوا نفس هذه البرامج التى درسها الآباء والأمهات لأن جهود الاصلاح داخل البيت تتقوض تماما تحت هذا السيل المنهمر من المعلومات المتناقضة القادمة من خارج البيت . وقد سألتنى ابنتى ذات العشر سنوات : « هل نستطيع الذهاب لمشاهدة بونى وكلايد ؟ » فقلت : « لا ، انه فيلم مشحون بالعنف ولا أحب الطريقة التى أبرز بها بعض الأفراد شديدى الانحطاط » . وبعد ذلك بأيام قليلة كان من الصعب أن أفسر لماذا تكررت قصة بونى وكلايد خلال حفل التحكيم بالأكاديمية .

وأظن أن الذين حققوا ثروات من العنف ، قد حققوا الراحة حسب وجهة نظر بعض علماء النفس الذين قرروا أن مشاهدة العنف تمثل صمام أمان يساعد الأفراد على نبذ العنف أكثر من ممارسته . وليست هناك وسيلة لاثبات صحة وجهة النظر هذه ، بينما نجد هناك دليلا واضحا لمعارضتها : ان هذا الفريق من علماء النفس يمثل وجهة النظر القائلة بأن

المشاعر تتراكم كما لو كانت فى دلو ، يجب تفريغه كل فترة . وعلينا أن نفكر فى المشاعر بدقة أكثر بوصفها إستعادة تشغيل التسجيلات القديمة التى يمكن محوها أيضا . وعلينا إلا نفكر فى مشكلة تفريغ مشاعرنا ، لأننا نستطيع أن نمحوها بسهولة ، وأن نمنعها من اغراق حاسبنا الآلى ، وبدلا من ذلك علينا أن نملأ هذا الحاسب بأشياء أخرى . قال امرسون : « ان الرجل هو نفس ما يفكر فيه طوال اليوم » .

وفى عصر سابق عندما كان العالم مشحونا بالاغتيال السياسى ، وبيع الناس كأرقاء ، وصلب الأبرياء ، وقتل **الأطفال** ، وتسلية الأباطرة بمتعة مشاهدة الدم فى حلبات المصارعة ــ كتب رجل عاقل لجماعة صغيرة من الناس فى مدينة فيلبى قائلا : « أخيرا أيها الاخوة ، كل ما هو حق ، كل ما هو جليل ، كل ما هو عادل ، كل ماهو طاهر ، كل ما هو مسر ، كل ما صيته حسن ، ان كانت فضيلة ، وان كان مدح ، ففى هذه افتكروا (*) .

نستطيع أن نكره الشر بشدة ، الى الدرجة التى تنسينا حب الخير . وهناك الخير الكثير فى أمريكا ، لدرجة أنه جذب اعجاب سائر الناس فى العالم خلال الأعوام الماضية ، وهناك أيضا الكثير الذى اجتذب المظلومين من البلدان الأخرى . وفى سنة ١٩٥٠ قال شارل مالك ــ مندوب لبنان فى الأمم المتحدة مايلى :

عندما افكر فيما يمكن للكنائس والجامعات الأمريكية أن تفعله ، بأسلوب الوساطة التى تعتمد على الحب والصفح ، والتحلى بضبط النفس ، وتدريب العقل على كشف الحقيقة ، وعندما الاحظ ما تستطيع صناعاتكم أن تحققه بأسلوب تغيير المادة الكلية لهذا العالم الى أداة تخفف من وطأة معاناة الانسان ، وعندما أتأمل فيما يمكن لبيوتكم وتجمعاتكم الصغيرة أن تبتكره عن طريق الأخلاق والصلابة والاستقرار والمرح ، وعندما أعود الى وسائل الاعلام العظيمة الممثلة فى الصحافة والسينما والاذاعة والتلفزيون ومقدرتها المكثفة على توصيل الكلمة الأمريكية . عندما أفكر بتواضع وواقعية فى هذه الأشياء ، وعندما استنبط فيما بعد أنه لايوجد ما يمنع هذه الوكالات من تكريس نفسها لخدمة الحقيقة والحب والبقاء ــ فاننى اقول : « ربما أصبح يوم القيامة على الأبواب » .

(*) رسالة بولس الرسول الى أهل فيلبى ــ ٤ : ٨ ــ المترجم .

. أما الشيء الوحيد الذى يمنع هذا التكريس فهو **الخوف** - الخوف من سائر الناس على سطح هذه الأرض ، **الخوف الذى فى « الطفل »** والذى سيجرف مصادرنا الخيرة الى معركة متصاعدة دائما ، ونخطيء الظن بأننا سنفوز فيها .

الفائزون والخاسرون :

كما كان الاختيار الموضوع أمام هاملت هو : « نكون أو لا نكون » ، فكذلك الإختيار الموضوع أمام الولايات المتحدة هو فى اعتقادى : « نكسب أو لا نكسب » ، هذا بالنسبة للمعركة ضد الشيوعية . ومفهوم (أن نكسب) هنا أهم من مفهوم (أن نكون) ، كما يظهر من وجهة النظر التى تتزايد فى الدعوة الى المغامرة باستخدام العدوان المسلح مما يقود فى النهاية الى تدمير العالم .

لقد ألقيت القنابل على احدى القرى الفيتنامية بكثافة شديدة حتى أن القوات المهاجمة عندما دخلتها فى النهاية ، لم تجد شيئا قائما ولا شخصا حيا . وقد علق قائد هذه العملية على ذلك بقوله : « كان علينا أن نبيدهم لكى ننقذهم » . وتقع هذه العبارة وقع عبارة « الوالد » التى جاءت فى شكل مرسوم كنسى صدر قديما وبه هذه العبارة : ان هذا يؤذيتى أكثر مما يؤذيك . فهل نستطيع حقا أن نقول للقرية التى أبيدت والتى تناثرت جثث سكانها المتفحمة فى الشوارع : ان هذا يؤذينا أكثر مما يؤذيكم ؟

كيف يرى أهالى فيتنام الشمالية والجنوبية ، الديموقراطية التى يمجدها الأمريكيون ، ويصرون على أنها أفضل نظم الحكم ؟ هل يحبونها ؟ وهل يفهمونها ؟ هل يحترمون أسلوبنا الحر فى الحياة بالنظر الى ما يرونه فى بلدهم ؟ هل يصدقون أننا حقا نحب القوقاز الآسيويين ، بالمقارنة مع النزاع العنصرى فى أمريكا ؟ اننا نقول أن « الديموقراطية صالحة » بنفس الطريقة التى تقول بها الأم لابنها أن « السبانخ لذيذة » . لقد أجبرنا فى معاملات عديدة مشابهة على عدم الثقة فى حواسنا وعدم تأكيد مشاعرنا . هل كانت الأم متحمسة حقيقة لتناول السبانخ بنفسها ؟ ان الديموقراطية صالحة ، ولكن هل العنف والحرب هما السبيل الوحيد الذى ننشر به صلاحها وخيرها ؟

« ان الديموقراطية صالحة » ، و « هذا يؤذينى أكثر مما يؤذيك » عبارتان تعبران معا عن خطورة الألعاب الدولية من حيث أنهما تختفيان خلف الدافع الحقيقى الذى يعنى : « يجب أن نفوز ، لأننا اذا لم نكسب فلابد أن نخسر » .

فهل المكسب والخسارة هما الاختيار الوحيد الموضوع أمام الأشخاص أو الدول ؟ هل الطريقة الوحيدة لكى تظل فائزا تتمثل فى أن تحيط نفسك بالخاسرين ؟ ألم تعد لدينا نماذج أخرى سوى نماذج الفائزين والخاسرين ؟ عندما نزح الانسان الأول من الغابات بفعل التغيرات المناخية التى قلصت من مساحة الغابات ، لم يعد أمامه الا مخرجين محتملين للانتشار مع الوحوش آكلة اللحوم الموجودة من قديم الزمان فى السهل الفسيح . أما الذين كسبوا معركة البحث عن الطعام فقد استطاعوا البقاء ، وأما الذين خسروها فقد ماتوا . ويصدق القول على القادة الدينيين والسياسيين الذين ظهروا من وقت لآخر ، يدعون حينذاك الى ما اعتبر نموذجا جديدا ، ولكن أفكار هؤلاء « الحالمين والمتنبئين » بدت للكثير من الناس كنوع من المدينة الفاضلة ، أو أنها قادمة من عالم آخر ، أو أنها مستحيلة . والحقيقة هى أن نماذج الفائز والخاسر قد انتشرت على مدى تاريخ الانسان .

والآن ، تغيرت الظروف ، فقد أصبح من المستطاع بفضل المعرفة العلمية انتاج طعام يكفى لتغذية سكان العالم أذا أمكن السيطرة على الانفجار السكانى ، كذلك أتاح العلم امكانية تنظيم النسل . وتستطيع الآن أن نتصور اختيارا آخر هو : (أنا على مايرام — وأنت على مايرام) . وأخيرا أصبح من الممكن بقاء الجميع استنادا الى الواقع . فى البداية نما عقل الانسان وتطور لخدمة الوجود ، فهل نستطيع الآن أن نوجه العقل لأداء وظائف جديدة ، وظائف تؤدى الى بقاء كل سكان العالم ؟ هل تستطيع عطية الحياة والمدى المحدود لبقاء الانسان على هذه الأرض ، أن يتيحا الاستمتاع الكامل بالامكانيات الروحية للانسان ؟ اذا رأينا أن موقف (أنا على مايرام — وأنت على مايرام) أصبح أخيرا ممكن التحقيق ، فهل تجرؤ على البحث عن التغيير ، والتوصل الى شىء جديد تحت الشمس ، شىء يكبح جماح العنف الذى يهدد بتدمير ما استغرق بناؤه ملايين السنين ؟

قال تيهار : « اما أن تعجز الطبيعة عن تلبية احتياجاتنا للمستقبل ، وفى هذه الحالة نفكر فى أن العالم وهو الذى يمثل ثمرة جهاد ملايين

السنين ، قد اختنق ، أو ولد ميتا ، أو غير كامل النمو ، أو صار لا معقول . واما أن تفتح ثغرة » (١٢) .

وأظن أننا قد وجـدنا الثغرة . هذه الثغرة لن يستكشفها مجتمع متحد بدون اسم ، ولكن جميع أفراد هذا المجتمع معـا . ويمكن القيـام بالاستكشاف فقط عندما يصير الأفراد متحررين من أغلال الماضى ، وأحرارا فى أن يختاروا اما قبول أو رفض قيم وطرائق الماضى . وسيظهر استنتاج حتمى هو : ان المجتمع لن يستطيع أن يتغير حتى يتغير الأفراد أنفسهم . اننا نركز أملنا فى المستقبل على أساس حقيقة أننا قد رأينا الناس يتغيرون .. أما كيف فعلوا ذلك فهذا هو الخبر السـار الذى يتضمنه هذا الكتاب . اننا نثق فى أن ذلك يمثل قدرا كبيرا من الأمل ، وصفحة مهمة من صفحات دليل بقاء الجنس البشرى .

---

(١٢) Pierre Teihard de Chardin, "The Phenomenon of Man," (New York : Harper, 1961).

الفهـــرس

صدر من هذه السلسلة :

اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ ـ أحلام الأعلام وقصص أخرى	برتراند رسل
٢ ـ الألكترونيات والحياة الحديثة	أى. راددونسكايا
٣ ـ نقطة مقابل نقطة	الدس هكسلى
٤ ـ الجغرافيا فى مائة عام	ت . و . فريمان
٥ ـ الثقـــافة والمجتمـع	رايموند وليامز
٦ ـ تاريخ العلم والتكنولوجيا . ج ٢ . القرن الثامن عشر والتاسع عشر	ر . ج . فوربس
٧ ـ الأرض الغامضة	ليستر ديل راى
٨ ـ الرواية الانجليزية	والتر ألن
٩ ـ المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
١٠ ـ آلهـــة مصــــر	فرانسوا دوماس
١١ ـ الانسان المصرى على الشاشة	د. قدرى حفنى وآخرون
١٢ ـ القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	أولج فولكف
١٣ ـ الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
١٤ ـ مجمـــوعات النقـــود صيانتها .. تصنيفها .. عرضها	ديفيد وليام ماكدونالد
١٥ ـ الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشوان
١٦ ـ عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د. محسن جاسم الموسوى
١٧ ـ ديلان توماس مجموعة مقالات نقدية	اشراف س. بى. كوكس
١٨ ـ الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
١٩ ـ الرواية الحديثة . الانجليزية ـ والفرنسية جـــ ١	بول ويست
٢٠ ـ المسرح المصرى المعاصر . أصله وبدايته	د. عبد المعطى شعراوى
٢١ ـ على محمود طه . الشاعر والانسان	أنـور المعـداوى
٢٢ ـ القوة النفسية للأهرام	بيل شول وأدشيت
٢٣ ـ فن الترجمـــة	د. صفاء خلوصى

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٢٤ ـ تولستوى	رالف ثى هاتلو
٢٥ ـ ستندال	فيكتور برومبير
٢٦ ـ رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
٢٧ ـ الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	ميرنر هيزنبرج
٢٨ ـ التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
٢٩ ـ فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف · ع · أدنيكوف
٣٠ ـ أدب الأطفال · (فلسفته ـ فنونه ـ وسائطه)	هادى نعمان الهيتى
٣١ ـ أحمد حسن الزيات · كاتبا وناقدا	د· نعمة رحيم العزاوى
٣٢ ـ أعلام العرب فى الكيمياء	د· فاضل أحمد الطائى
٣٣ ـ فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
٣٤ ـ الجحيم	هنرى باربوس
٣٥ ـ صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة	السيد عليوة
٣٦ ـ التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)	جواكوب برونوفسكى
٣٧ ـ هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د· روجر ستروجان
٣٨ ـ تربية الدواجن	كاتى ثير
٣٩ ـ الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا · سبنسر
٤٠ ـ النحل والطب	د· ناعوم بيتروفيتش
٤١ ـ سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
٤٢ ـ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د· لينوار تشامبرز رايت
٤٣ ـ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د· جون شندلر
٤٤ ـ الصحافة	بيير البير
٤٥ ـ أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
٤٦ ـ الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د· رمسيس عوض

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٤٧ ـ حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د. محمد نعمان جلال
٤٨ ـ الفكر الأوربى الحديث جـ ١	فرانكلين ل . باومر
٤٩ ـ الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
٥٠ ـ التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د. محيى الدين أحمد حسين
٥١ ـ نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج. داهلى أندرو
٥٢ ـ مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
٥٣ ـ الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد ؟	د. جوهان دورشنر
٥٤ ـ حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
٥٥ ـ ادارة الصراعات الدولية	د. السيد عليوة
٥٦ ـ الميكروكمبيوتر	د. مصطفى عنانى
٥٧ ـ مختارات من الأدب اليابانى (الشعر ـ الدراما ـ الحكاية ـ القصة القصيرة)	اختيار وترجمة صبرى الفضل
٥٨ ـ الفكر الأوربى الحديث . جـ ٢	فرانكلين ل . بلومر
٥٩ ـ تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
٦٠ ـ أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	أنطونى دى كرسبنى
٦١ ـ الفكر الأوربى الحديث . جـ ٣	فرانكلين ل . باومر
٦٢ ـ كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
٦٣ ـ الزمن وقياسه	زافيلسكى ف . س
٦٤ ـ أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
٦٥ ـ الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر ر. داى
٦٦ ـ سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
٦٧ ـ التجربة اليونانية	س . م بورا
٦٨ ـ مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د. عاصم محمد رزق
٦٩ ـ العلم والطلاب والمدارس	رونالد د. سمبسون و نورمان د. أندرسون
٧٠ ـ الشارع المصرى والفكر	د. أنور عبد الملك

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٧١ ـ حوار حول التنمية	والت روستو
٧٢ ـ تبسيط الكيمياء	فريد هيس
٧٣ ـ العادات والتقاليد المصرية	جـون بوركهارت
٧٤ ـ التذوق السينمائى	آلان كاسبر
٧٥ ـ التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
٧٦ ـ البذور الكونية	فريد هويل شندرا ويكرا ماسيخ
٧٧ ـ دراما الشاشة ج ١	حسين حلمى المهندس
٧٨ ـ الهيروين والايدز	روى روبرتسون
٧٩ ـ الفكر الأوربى الحديث ج ٤	فرانكلين ل · باومر
٨٠ ـ نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
٨١ ـ صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
٨٢ ـ الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د· محمود سرى طه
٨٣ ـ دراما الشاشة ج ٢	حسين حلمى المهندس
٨٤ ـ المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
٨٥ ـ وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس، فيدروفيتش سيرجيف
٨٦ ـ الهندسة الوراثية	ويليـــام بينر
٨٧ ـ تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
٨٨ ـ كتب غيرت الفكر الانسانى	أحمد محمد الشنوانى
٨٩ ـ الفلسفة وقضايا العصر ج ١	جمعها : جون · ر · بورر وميلتون جولدينجر
٩٠ ـ الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
٩١ ـ قضايا وملامح الفن التشكيلى	د· صالح رضا
٩٢ ـ التغذية فى البلدان النامية	م·هـ كنج وآخرون
٩٣ ـ الفلسفة وقضايا العصر ج ٢	جمعها : جون · ر · بورر وميلتون جولدينجر
٩٤ ـ بداية بلا نهاية	جورج جاموف

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٩٥ ـ الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د· السيد طه أبو سديرة
٩٦ ـ حوار حول النظامين الرئيسيين للكون جـ١	جاليليو جاليليه
٩٧ ـ حوار حول النظامين الرئيسيين للكون جـ٢	جاليليو جاليليه
٩٨ ـ حوار حول النظامين الرئيسيين للكون جـ٣	جاليليو جاليليه
٩٩ ـ الارهاب	أريك موريس ، آلان هو
١٠٠ـ أخناتون	سيريل الدريه
١٠١ـ القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
١٠٢ـ الفلسفة وقضايا العصر جـ ٣	جمعها : جون ر· بورر ميلتون جولد ينجر
١٠٣ـ الأساطير الاغريقية	كوفلان
١٠٤ـ العلم والتكنولوجيا	ر·ج· فوبس ، ا·ج· ديكسترهوز

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٧٢٠/١٩٩٢

ISBN — 977 — 01 — 2998 — 4

هذا الكتاب يمثل مرحلة جديدة في التحليل النفسي وهو يعتبر تطبيقاً عملياً للأسلوب الجديد الذي ابتكره الدكتور إريك برن للعلاج بالتحليل النفسي اعتماداً على استخدام الألعاب والدريس نموذج (الوالد ـ الراشد ـ الطفل) لمجموعات المرضى والدارسين تحت اشراف طبيب نفسي متمرس يقوم بالملاحظة والتصحيح . والكتاب يساعد القارىء العادي على اكتشاف الجوانب النفسية التي تتحكم في أساليب السلوك لديه وبالتالي يستطيع أن يتقدم إلى المستقبل متسلحاً بالتفاؤل والأمل وبذلك يتفاعل مع غيره من أفراد المجتمع نحو إقامة المجتمع السليم

٤٢٥ قرشـــا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب